في ظلال نهج البلاغة

محاولة لفهم جديد

شرح

محمد جواد مغنية

الجزء الثالث

دار العلم للملايين

بيروت

في ظلال نهج البلاغة

محاولة لفهم جديد

٣

في ظلال نهج البلاغة

محاولة لفهم جديد

شرح

محمد جواد مغنية

الجزء الثالث

دار العلم للملايين

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت

الطبعة الأولى : ١٩٧٣

الطبعة الثالثة

تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٩

الخطبة

- ١٧٦ -

الله ومحمد .. فقرة ١ :

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ . وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ . وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ . وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ ٱلْمَاءِ ، وَلَا نُجُومِ ٱلسَّمَاءِ ، وَلَا سَوَافِي ٱلرِّيحِ فِي ٱلْهَوَاءِ ، وَلَا دَبِيبُ ٱلنَّمْلِ عَلَى ٱلصَّفَا ، وَلَا مَقِيلُ ٱلذَّرِّ فِي ٱللَّيْلَةِ ٱلظَّلْمَاءِ . يَعْلَمُ مَسَاقِطَ ٱلْأَوْرَاقِ وَخَفِيَّ طَرْفِ ٱلْأَحْدَاقِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ ، وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ ، وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ . شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ وَصَفَتْ دِخْلَتُهُ ، وَخَلَصَ يَقِينُهُ ، وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ٱلْمُجْتَبَى مِنْ خَلَائِقِهِ ، وَٱلْمُعْتَامُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ وَٱلْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ . وَٱلْمُصْطَفَى لِكَرَائِمِ رِسَالَاتِهِ . وَٱلْمُوَضَّحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ ٱلْهُدَى . وَٱلْمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ ٱلْعَمَى (١) .

اللغة :

لا يعزب : لا يغيب ولا يخفى . وسوافي : جمع سافية من سفت الريح التراب اذا أذرته . والدبيب : المشي البطيء . والمقيل : الاستراحة وان لم يكن نوم . والطرف : — بسكون الراء — الحركة ، وطرف العين : تحريك جفنها . والأحداق : العيون . وتكوينه : خلقه . ودخلته : — بكسر الدال وضمها — باطنه . والمعتام : المختار . والعقائل : الكرائم ، والعقيلة من النساء المخدرة . وأشراط : علامات . والغربيب : الأسود الحالك ، والمراد بغربيب العمى الضلال .

الإعراب :

غير معدول حال من كلمة الجلالة ، وأشراط نائب فاعل للموضحة،وغربيب نائب فاعل للمجلوّ به .

المعنى :

(لا يشغله شأن) . إن قدرته وعلمه تعالى يسعان كل شيء تماماً كرحمته ، ونسبة الأشياء اليه واحدة ، فلا قريب وبعيد ، وخطير وحقير ، واذن فلا يصح القول في حقه تعالى : انه يشغل عن هذا دون ذاك : « ربنا وسعتَ كل شيء رحمة وعلماً — ٧ غافر » . (ولا يغيره زمان) لأنه واجب الوجود ، لا قبل له ولا بعد (ولا يحويه مكان) لأنه ليس بجسم (ولا يصفه لسان) للجهل بذاته التي لا يشبهها شيء ، ولا يشاركها شيء في الماهية والصفات ، وإثباتُ وجودها بالخلق والآثار لا يستدعي العلم بحقيقتها ، فنحن نعرف ان « اديسون » كان موجوداً من الكهرباء ، ولا نعرف عن نسبه شيئاً (ولا يعزب عنه الخ) .. يشير الى قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين — ٥٩ الأنعام » .

(غير معدول به) ليس كمثله شيء (ولا مشكوك فيه) كيف وفي كل

شيء له آية ؟ (ولا مكفور دينه) ومن كفر فقد ضل سواء السبيل (ولا مجحود تكوينه) لأن الكون الذي خلقه تعالى ثابت بالحس والعيان (شهادةً من صدقت نيته الخ) .. أي يوافق فيها السر الإعلان ، والقلب اللسان كما جاء في الخطبة ٩٩ (ورسوله المجتبى من خلقه) اصطفى سبحانه محمداً (ص) لأنه خيرة الخلق أجمعين (والمعتام لشرح حقائقه) المختار لبيان الحقائق الإلهية (والمختص بعقائل كراماته) وهي الفضائل والمناقب (والمصطفى لكرائم رسالاته) اختاره الله بلاغاً لرسالاته الكريمة (والموضحة به أشراط الهدى) .برسول الله عُرفت دلائل الحق والعدل (والمجلوُّ به غربيب العمى) به انكشفت الظلمات ، واهتدت الأجيال الى سواء السبيل .

الدنيا .. فقرة ٢ :

أَيُّها النَّاسُ إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْمُؤَمِّلَ لَهَا وَالْمُخْلِدَ إِلَيْهَا ، وَلاَ تَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا ، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا . وَأَيْمُ اللهِ مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلاَّ بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا ، لِأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ . وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ وَتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ وَوَلَهٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ . وَإِنِّي لَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَةٍ . وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتُمْ فِيهَا مَيْلَةً كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعَدَاءُ . وَمَا عَلَيَّ إِلاَّ الْجُهْدُ ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ : عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ[٢] .

اللغة :

أخلد الى الشيء : مال اليه وركن . ونفس به ، بكسر الفاء — بخل به وحرص عليه ، ونافس فيه : بارى وزايد . واجترحوها : اقترفوها وارتكبوها .

الإعراب :

تستعمل قَطْ بمعنى حسب مثل قطي وقطك ، أي حسبي وحسبك ، واسم فعل مثل قطني أي يكفيني ، وقطُّ ظرف زمان لاستغراق الماضي ، وتختص بالنفي ، مثل ما فعلته قط أي فيما مضى ، وجملة فزعوا خبر ان الناس ، ولرد عليهم جواب لو .

المعنى :

(أيها الناس ان الدنيا تغر المؤمل لها والمخلد اليها) . قد يغتر المرء ويركن الى جاهه وماله ، أو الى علمه وذكائه ، ويظن انه في غنى بذلك عن كل شيء ! وهذا هو الجهل والغباء ، فإن الدنيا كالسراب يحسبه الظمآن ماء ، ولا يركن اليها من عرف أمرها وغورها (ولا تنفس بمن نافس فيها) احرص على الدنيا ما شئت ، أما هي فلا تهتم بك على الإطلاق (وتغلب من غلب عليها) لا تفرحْ إذا فزت بمنصب أو ربح نافسك فيه من نافس ، فربما دارت عليك الدوائر ، وشمتَ بك من شفيت غيظك منه بالأمس .

(فوالله ما كان قوم — الى — اجترحوها) . ظن بعض الشارحين أن الإمام يتكلم هنا عن كل ذي نعمة فرداً كان أم جماعة ، وان النعمة تزول بالذنوب أياً كان نوعها !. وأوقعهم هذا الظن في إشكال ، وهو ان كثيراً من الناس يغرقون في الترف والخطايا معاً ، ومع هذا تنمو ثروتهم وتزداد .. وأجاب عن هذا الإشكال من أجاب بأن كلام الإمام محمول على الأغلب لا على العموم ، أو ان الله إذا أنعم من جهة انتقم من جهة ثانية .

والأرجح ان الإمام يتكلم عن الجماعة دون الأفراد ، كما هو الظاهر من كلمة « قوم » وان مراده من النعمة الحياة الكريمة بالخصوص ، ومن الذنوب الفرقة والشتات ، وعليه يكون المعنى: ان أي قوم أنعم الله عليهم بدولة كريمة تصونهم من الاعتداء ، وتحقق لهم الطمأنينة والاستقرار ، ثم تشاحنوا وتباغضوا – تزول عنهم هذه النعمة ، ويصبحون لقمة سائغة لكل طامع .. وتفسيرنا هذا يتفق مع الواقع ، ومع قوله تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم – ٤٦ الأنفال». وصرح الإمام بذلك في الخطبة ٢٧ حيث قال لأصحابه : شنّ عليكم أهل الشام الغارات ، وغزوكم في عقر داركم ، لأنهم اجتمعوا على باطلهم ، وتفرقتم عن حقكم .

(ولو ان الناس حين تنزل بهم النقم)..إذا مرّ بالمؤمن لحظات من المخاوف يلجأ الى الله ، ويطلب منه العون والفرج ، والله يسمع ويجيب دعوة الداعي شريطة أن يستجيب هو بدوره الى الله كما جاء في الآية ١٨٦ من سورة البقرة : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي » . وليست الاستجابة له تعالى بالكلمات والابتهالات ، ولا بمجرد الصوم والصلاة ، بل بالعمل والأخذ بأسبابه سبحانه وسننه في جميع خلقه « ولن تجد لسنة الله تحويلاً – ٤٣ فاطر » . أبداً لا تبديل ولا تحويل في سننه ، جلت حكمته ، وهي ان لكل شيء سبباً طبيعياً كان ، أم اجتماعياً ، والبطالة ليست بسبب لشيء من الأشياء إلا الهم والغم ، والتخلف والانحطاط : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم – ٣٠ الشورى». وقال الإمام : من قصر في العمل ابتلي بالهم .. والداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر .

(واني لأخشى أن تكونوا في فترة) من الاستقرار يعقبها خوف واضطراب (وقد كانت أمور مضت – الى – غير محمودين) . ما صرح الإمام بتلك الأمور ، ولا دليل عليها من غيره ، وقال بعض الشارحين : يشير الإمام بالأمور الى تقديم عثمان يوم الشورى ، وقال آخر : يشير الى ما سبق الشورى ! .. وكلا القولين حدس بلا أساس .. وأية علاقة للمخاطبين بالشورى والسقيفة ، ويكفي لصحة الخطاب أن يكون المخاطب على علم بمراد المتكلم .

(ولئن رد عليكم أمركم) من جمع صفوف ، ووحدة الكلمة (انكم لسعداء)

بحياة الاستقرار وحقن الدماء (ولو أشاء أن أقول لقلت) ما حدث منكم ، وأسكت عنها لا عن نسيان ، بل (عفا الله عما سلف) . والعفو أقرب للتقوى. وقال في مكان آخر : متى أشفي غيظي اذا غضبت ؟. أحين أعجز عن الانتقام فيقال لي لو صبرت ؟. أم حين أقدر عليه فيقال لي لو عفوت ؟.

الخطبة

- ١٧٧ -

من صفاته تعالى :

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : أَفَأَعْبُدُ مَا لاَ أَرَى ؟ فَقَالَ : وَكَيْفَ تَرَاهُ ؟ فَقَالَ : لاَ تَرَاهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ ، وَلٰكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ . قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلاَمِسٍ . بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ . مُتَكَلِّمٌ لاَ بِرَوِيَّةٍ ، مُرِيدٌ لاَ بِهِمَّةٍ . صَانِعٌ لاَ بِجَارِحَةٍ . لَطِيفٌ لاَ يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ . كَبِيرٌ لاَ يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ . بَصِيرٌ لاَ يُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ . رَحِيمٌ لاَ يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ . تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ ، وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ .

اللغة :

الهمة : الاهتمام وشدة العناية جلباً لنفع أو دفعاً لضرر . والجارحة : العضو . واللطيف : غير المحسوس . وتعنو : تخضع . وتجب : تضطرب .

الإعراب :

لا تدركه الضمير لله سبحانه . وقريب وما بعده من الأوصاف أخبار لمبتدأ محذوف أي هو ، وغير حال .

المعنى :

قال قائل للإمام (ع) : هل رأيت ربك ؟ فقال له : أفأعبد ما لا أرى : قال السائل : وكيف تراه ؟ قال الإمام : (لا تدركه العيون الخ) .. المعرفة على أنواع : منها حسية ، وتقوم على موضوعات من مرئيات ، ومسموعات ، وروائح ، ومذاقات ، وملموسات ، وهذه كلها إحساسات مادية ، والله منزه عن المادية ، وإذن فالطريق الى معرفة وجوده لا يقف عند الحس وحده .

ومنها عقلية ، وهي أن ينتقل بنا العقل من معلوم الى مجهول ، من شاهد محسوس الى واقعة تترتب عليه ، ولا تنفك عنه بحال ، من شاهد الى غائب ، مهما شئت فعبّر . وقد شاهدنا الكون بقوانينه الثابتة العامة الشاملة لكل ركن من أركانه ، شاهدنا ذلك بالحس ، فانتقل العقل بنا الى وجود سلطة خالقة مدبرة تماماً كما انتقل عقل «نيوتن» من مشاهدة التفاحة تسقط من الشجرة على الأرض — انتقل من ذلك الى حقيقة قانون الجاذبية ، وامتلأ قلبه إيماناً بهذه الحقيقة، وقلّده كل العلماء ثقة بصدقه .

لقد رأت العيون الخلق ، وحكم العقل وجزم بوجود الخالق ، واعتقد القلب وآمن . وهذا ما عناه الإمام بقوله : (تدركه القلوب بحقائق الإيمان) . أي آمن القلب حقاً واقعاً لأنه رأى بعين الحس والعقل (قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد منها غير مباين) هو قريب من الأشياء ، لأنها في قبضته وعلمه وتدبيره ، وهو غير ملامس ، لأنه ليس بجسم فيلمس،وهو بعيد عن الأشياء بذاته وصفاته وآثاره ، وتقدم مثله مع الشرح في الخطبة ٤٩ .

(متكلم لا بروية) وجولة فكر في معنى الكلام وإنشائه، بل يخلق الكلام كما يخلق الأعيان ، لإفهام قصده ومراده وبيان أمره ونهيه (مريد لا بهمة) . اذا أراد الانسان شيئاً فلا يوجد هذا الشيء بمجرد أن يريد ، بل لا بد من الاهتمام بالأسباب الموجبة ، والسعي والعمل ، ومع هذا الاهتمام والسعي قد يوجد المراد ،

وقد تعترض طريقه الصعوبات والعراقيل .. هذا بالنسبة الى المخلوق ، أما إرادة الخالق فهي لا تنفك عن المراد ، ويوجد بمجرد وجودها ، بل هي هو «ما شاء الله ، وإن لم يشأ لم يكن » . وبكلمة: مراد الإنسان إمكان، ومراده تعالى وجوب أي بلا سبب إلا الإرادة وحدها .. هذا ، الى ان الإنسان يعلم بالمصلحة فيريد ، ثم .يصمم ويعزم في قلبه على الفعــل بجوارحه . وأين هذا ممن يقول للشيء كن فيكون !.

(صانع لا بجارحة) أي عضو ، بل بكلمة « كن » . (لطيف لا يوصف بالخفاء) . المراد باللطيف هنا غير المحسوس . ولكيـلا يقول قائل : ان الجسم الذي بلغ الغاية من الصغر هو أيضاً خفي لا يُحس ، وعليه يكون لله شبيه ونظير من هذه الجهة — قال الإمام : « لا يوصف بالخفاء » أي احتجب الجسم الصغير عن العيون لصغره ودقته ورقته ، والله سبحانه احتجب عنها ، لأنه ليس بجسم، ومع هذا فهو ظاهر بخلقه وآثاره (كبير لا يوصف بالجفاء) . انــه تعالى كبير وأكبر ذاتاً ووصفاً وأثراً ، لا غلظة وجفاء (بصير لا يوصف بالحاسة) أي بالعين بل بالعلم (رحيم لا يوصف بالرقة) بل بالإحسان والإفضال،والرقة انفعال وتأثر ، والله منزه عنه (تعنو الخ) .. كل الخلق خاضع لعظمته ، وخائف من سطوته.

الخطبة

-١٧٨-

أما دين يجمعكم .. فقرة ١ – ٢ :

أَحْمَدُ اللهَ عَلى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ ، وَعَلى ٱبْتِلائِي بِكُمْ أَيَّتُهَا ٱلفِرْقَةُ ٱلَّتِي إذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ . إِنْ أُمْهِلْتُمْ خُضْتُمْ ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ . وَإِنِ ٱجْتَمَعَ ٱلنَّاسُ عَلى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ إِلَى مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ . لَا أَبَا لِغَيْرِكُمْ . مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَٱلْجِهَادِ عَلى حَقِّكُمْ ؟ ٱلمَوْتَ أَوِ الذُّلَّ لَكُمْ . فَوَاللهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي – وَلَيَأْتِيَنِّي – لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لِصُحْبَتِكُمْ قَالٍ ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ[1] . لِلّهِ أَنْتُمْ . أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ ؟ وَلَا حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ ؟ أَوَلَيْسَ عَجَبًا أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو ٱلْجُفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ . وَأَنَا أَدْعُوكُمْ – وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ ٱلإِسْلَامِ وَبَقِيَّةُ النَّاسِ – إِلَى ٱلمَعُونَةِ وَطَائِفَةٍ مِنَ ٱلعَطَاءِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ .

إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضًى فَتَرْضَوْنَهُ ، وَلَا سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ . وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ . قَدْ دَارَسْتُكُمُ الْكِتَابَ ، وَفَاتَحْتُكُمُ الْحِجَاجَ ، وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ ، لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ . وَأَقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ ، وَمُؤَدِّبُهُمُ ابْنُ النَّابِغَةِ(٢) .

اللغة :

أمهلتم : أرفق بكم . وخضتم : دخلتم في الباطل . وخرتم : ضعفتم وجبنتم . وأجئتم : ألجئتم ، أوجىء بكم . والمشاقة — بضم الميم — المخاصمة ، والمراد بها هنا الحرب ، ونكصتم : رجعتم القهقرى أو أحجمتم . وقال : كاره . وتشحذكم : تحرككم ، من شحذ السكين اذا سنها وحددها . وتريكة الإسلام : خلف لمن جاهد في سبيل الإسلام . وفاتحتكم : حاكمتكم وقاضيتكم .

الإعراب :

لا أبا «لا» نافية للجنس ، وأب اسمها ، ولما أشبعت فتحة الباء صارت ألفاً ، ولغيركم خبر . وبكم متعلق بكثير ، وغير خبر لمبتدأ محذوف أي وانا غير كثير بكم ، أما حرف طلب وتحضيض مثل ألا على مذهب « المالقي الأندلسي » ودين فاعل لفعل محذوف أي أما يجمعكم دين ، ويجوز أن يكون دين مبتدأ والخبر محذوف أي أما لكم دين يجمعكم ، والجملة من هذا الفعل والفاعل صفة لدين ، وأقرب بقوم اللفظ لفظ الأمر ، والمعنى خبر مع التعجب ، والباء زائدة ، وقوم فاعل أقرب .

المعنى :

(أحمد الله على ما قضى — الى — لم تجب) . كانت مهمة الإمام (ع) مع

أصحابه عسيرة أشد العسر ، أرادهم للدفاع عن أنفسهم وعن الإسلام الذي بدأت شمسه تميل الى الغروب .. فآثروا حياة الدعة مع الذل والهوان على الكرامة مع الجهاد والتضحية ، فشكى الإمام وتألم ، وحذّرهم من سوء العاقبة ، وقرّعهم في العديد من خطبه وأقواله .. ولكن بلا جدوى حتى كأنه كان يطلب النصر منهم لمصلحته ، لا لمصلحة الإسلام والمسلمين ، فصبر على الخطْب ، بل حمد الله عليه تماماً كما يحمده على السراء .

(ان أمهلتم — الى — نكصتم) . الخطاب للرؤساء وأصحاب النفوذ ، والمعنى لا أدري ماذا يصلحكم ؟. إن تلطفت بكم وأرفقت تماديتم في الباطل ، وإن ألجأتكم الى الحرب تخاذلتم وضعفتم ، وان رأيتم قلوب المسلمين معي شاغبتم وتآمرتم .. (لا أبا لغيركم) . تستعمل العرب هذه الكلمة عند المسألة والطلب ، وهي تومىء الى الدعاء بفقد الأب ، أو التعيير بجهله ، ولكن الإمام تلطف في الأسلوب حيث وجه الدعاء أو الذم الى غيرهم في الظاهر ، وهم القصد حقيقة وواقعاً .

(ما تنتظرون بنصركم والجهاد على حقكم) ؟. العدو يستفزكم ، ويتغلغل في أرضكم ، ويعتدي على كرامتكم ، وأنتم لا تحركون ساكناً ! هل تنتظرون قوة تنزل من السماء لنصرتكم ، أو قوة أجنبية تأتي من أقصى المعمورة تدافع عنكم ؟ (الموت أو الذل لكم) .. أبداً لا شيء يليق بكم إلا واحد من اثنين : الذل والهوان ما دمتم على هذه الحال ، أو الموت يفنيكم عن آخركم ، فهو خير لكم وللإنسانية من حياتكم . قال ابن أبي الحديد : « هذا دعاء من الإمام عليهم .. وقد استجاب الله دعاءه ، فإن شيعته أيام الأمويين ذلوا كفقع قرقر » . والفقع أو الفقاقيع نفاخات تعلو الماء ، وأراد بالقرقر — كما نظن — لعاب الجمل حين يهدر ويجرجر .

(فوالله لئن جاء يومي — الى — كثير) . سأفارقكم بالموت لا محالة، ولكن عن بغض وكراهية لكم ولصحبتكم ، لأني ما كنت بكم قوياً على الباطل وأهله.. ومن أجل هذا نطق الإمام بكلمة السرور والفرحة حين ضربه اللعين ابن ملجم : فزتُ ورب الكعبة (أما دين يجمعكم ، ولا حمية تشحذكم) ؟. أتدّعون الإسلام، والخلافات تستنزف منكم الدين وكل ما تملكون من طاقات ؟. وإذا لم يكن لكم دين فلتكن لكم حمية وأنفة تبعثكم على الدفاع عن أرضكم وكرامتكم .

(أوليس عجباً ان معاوية — الى — فتجتمعون عليه) . الطغام — بفتح الطاء — الأراذل ، والمراد بالعطاء الراتب المعين لكل فرد ، والمعونة العلاوة تُعطى للمحارب لإصلاح سلاحه أو علف دابته ، كالعلاوة التي تُعطى الآن للموظف من أجل مرض أو نحوه ، وكان بيت المال آنذاك يوزّع على الجند وغيرهم من المعوزين، وما كانت وزارة للأشغال ، وثانية للصحة ، وثالثة للتربية الـخ . وكان الإمام يقسم المال بالسوية لا يحرم أحداً من حقه،ولا يرضي الأقوياء على حساب الضعفاء ويقول : لو كان المال لي لسويت بينهم كيف والمال مال الله ؟.

أما معاوية فكان يعطي من أجله ، لا من أجل الله وسد حاجة المعوزين ، فيأخذ أموال الجند ، وسهم الفقراء ، ويغري بمال الله وبالمناصب أرباب الجاه والنفوذ ، ويبيح لهم كل حرام دعماً لحكمه وسلطانه .. ومن أجل هذا وحده اتبعوه ، وكانوا أطوع له من بنانه ، ولو ان معاوية عدل وساوى في العطاء والمعونة لكان المتبوعون معه كما كان أمثالهم مع الإمام . قال ابن أبي الحديد في شرح هذه الخطبة : « كان الرؤساء يحقدون على الإمام ، لأنه يساوي بينهم وبين الأتباع ، فيخذلونه باطناً ، وإن أظهروا له النصر ، واذا أحس الأتباع بتخاذل الرؤساء تواكلوا أيضاً وتخاذلوا ، لأن انتصار التابع مع تخاذل الرئيس المتبوع لا لا يتصور وقوعه » .

وهنا يصدق قول القائل : « أريد حياته ، ويريد قتلي » . وقف الإمام مع الأتباع المستضعفين ، وانتصر لهم من الأقوياء المستغلين ، فتركه الأتباع ، وانضموا الى أعداء الله وأعدائهم ضد الإمام (ع) .. حدث هذا من قبل ، ويحدث الآن: تقوم الثورة في الشرق أو في الغرب لتحرر الكادحين من الطغاة ، وتدور الحرب بين الأحرار والفئة الطاغية الباغية على الضعفاء ، فينتقض جماعة من هؤلاء على ثورتهم ، وينضمون الى الثورة المضادة لهم ولحياتهم جهلاً أو خيانة ، وينتحرون بأيديهم من حيث لا يشعرون .

(وان أحبّ ما أنا لاق إليّ الموت) حيث لا سبيل الى الخلاص مما هو فيه إلا الموت . قيل لفيلسوف · هل من مصيبة أعظم من الموت ؟ فقال : المصيبة التي تتمنى معها الموت (قد دارستكم الكتاب) أي درّستكم وبينت لكم ما فيه ، وبخاصة آيات الوحدة والاخوة ، والجهاد لإحقاق الحق ، وإقامة العدل (وفاتحتكم الحجاج) حاكمتكم الى العقل ووسائل الاقناع التي يحتج بها الله غداً على عباده

(وعرفتكم ما انكرتم) . أنكر الرؤساء على الإمام ان يساوي بينهم وبين الاتباع في المعونة والعطاء ، فعرّفهم أن هذا هو حكم الله ورسوله ، وما هو إلا منفّـــذ لا مشرع ، ووكيل لا أصيل .

(وسوغتكم ما مججتم) . ساغ الشرابُ سهُل مدخله في الحلق ، ومجّه رمى به من فه ، والمعنى بذلت كل ما أملك من جهد لإرشادكم وهدايتكم ولكنكم تماماً كالأعمى والميت لا تحسون ولا تبصرون : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ــ ١٧٩ الأعراف » . (أقرب بقوم من الجهل بالله الخ) . المراد بالقوم هنا أهل الشام ، والمعنى لا أحد أقرب الى الجهل بالله ودينه من قوم يتصرف بهم معاويه وابن العـــاص ، ويلعبان بعقولهم كيف شاءا وأرادا . والحق ان المال هو الذي تصرف بالعقول والقلوب ، وكنّى الإمام عنه بمعاوية لأنه اشترى العقول والضمائر ودفع الثمن كاملاً ، أما ابن العاص فله دور الوسيط بين البائع والمشتري .

ونختم هذا الشرح بكلمة لأحمد عباس صالح ، قال في كتاب « اليمين واليسار في الإسلام » : « أبى علي أن يفعل شيئاً من هذا الذي يفعله معاويـــة ، لأن انتصاره عندئذ يكون انتصاراً ناقصاً خيراً منه الهزيمة » .

الخطبة

- ١٧٩ -

بعداً لهم :

بُعْداً لَهُمْ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ . أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ ٱلْأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ ، وَصُبَّتْ السُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ . لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ . إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ ٱلْيَوْمَ قَدِ ٱسْتَفَلَّهُمْ ، وَهُوَ غَداً مُتَبَرِّىءٌ مِنْهُمْ وَمُتَخَلٍّ عَنْهُمْ . فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ ٱلْهُدَى ، وَٱرْتِكَاسِهِمْ فِي ٱلضَّلَالِ وَٱلْعَمَى ، وَصَدِّهِمْ عَنِ ٱلْحَقِّ ، وَجِمَاحِهِمْ فِي ٱلتِّيهِ .

اللغة :

بعداً لهم : دعاء عليهم بالهلاك . وأُشرعت : امتدت وصُوبت . وهاماتهم: رؤوسهم . وتفلل وانفلّ القوم : انكسروا وانهزموا ، واستفلهم الشيطان دعاهم للانشقاق والانهـزام عن الجماعة . وارتكس : انتكس وانقلب . وتاه : ضل . وجماحهم : إسراعهم .

الإعراب :

بعداً نصب على المصدرية ، وأما تكون حرف استفتاح ، وتكون بمعنى حقاً أو أحقاً على خلاف في ذلك ، كما في مغني ابن هشام ، وهي هنا بالمعنى الثاني بقرينة السياق ، ولقد ندموا جواب لو ، وحسبهم بخروجهم « حسب » مصدر مبتدأ ، والباء زائدة ، وخروجهم خبر ، أي كفايتهم خروجهم عن الجماعة ، مثل عذرهم جهلهم .

الخريت بن راشد :

كان الخريت بن راشد من بني ناجية ، وشهد صفين مع الإمام ، وقال له في ذات يوم : أنا لا أطيع أمرك ، ولا أصلي خلفك ، واني غـداً لمفارقك . فقال له الإمام : أذكر لي كل ما يدور في ذهنك حولي من الشبهات ، وعليّ أن أزيلها وأدفعها بالحق . فقال : آتيك غداً . قال له الإمام : ان استرشدتني لأهدينّك سبيل الرشاد ، ثم نهاه أن يتعرض لأحد بسوء وإلا أدّبه واقتص منه .

فقال رجل للإمام : لمَ لا تأخذه الآن قبل ان يخرج ، ويفسد في الأرض ؟. فقال الإمام : لو فعلنا هذا بكل من يُتهم لملأنا السجون ، ولا يسعني أن أعاقب أحداً حتى يظهر الخلاف . وانتظر الإمام عودة الخريت في الغد ، ولكنه لم يأت، وكان معه ٣٠ رجلاً ، فأرسل الإمام أحد أصحابه يعلم له أحوالهم ، فلما عاد الرسول قال له : أأمن القوم فقطنوا — أي أقاموا — أم جبنوا فظعنوا أي رحلوا: قال : بل ظعنوا يا أمير المؤمنين . فقال : بعداً لهم الخ .

خرج الخريت في جماعته ، وقطعوا طريق الآمنين .. لقوا رجلاً يقال له زادان فروخ . فقالوا له : أمسلم أنت أم كافر ؟ قال : بل مسلم . قالوا : ما تقول في علي ؟. قال : أقول خيراً ، انه أمير المؤمنين وسيّد البشر ، ووصي رسول الله (ص) . قالوا له : كفرت . وقطعوه بأسيافهم . ثم رأوا رجلاً آخر ، فقالوا له : أمسلم أنت أم كافر ؟ قال : أنا يهودي . قالوا : خلوا سبيله . ولما علم الإمام أرسل الى حربهم زياد بن أبي حفصة في ١٣٠ رجلاً ، فقتل نفراً منهم ، وفر الخريت يجمع حوله العلوج والأكراد ومن اليهم ، فندب الإمام ألفين من أهل الكوفة ،وأرسلهم لقتال الخريت بقيادة معقل بن قيس الرياحي .

فسار معقل بجيشه يسأل عن مكان الخريت . فقيل له : انه في أسياف البحر بفارس ، فقصده ، ولما سمع الخريت بمسير معقل تأهب للحرب ، ودارت المعركة على أشدها ، فقُتل الخريت ، ومئة وسبعون من أصحابه ، وذهب الباقـون في في الأرض يميناً وشمالاً ، وكانت منية الخريت بيد النعمان بن صهيان الراسي من أصحاب معقل .

هذه خلاصة لقصة الخريت،ومن أراد التفصيل فليرجع الى شرح ابن أبي الحديد للخطبة ٤٤ ص ٢٦٤ من المجلد الأول الطبعة القديمة ، وقد استغرقت حوالى عشرين صفحة بقطع هذا الكتاب .

الخطبة

- ١٨٠ -

لم يلد ولم يولد .. فقرة ١ — ٣ :

الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ ، وَعَوَاقِبُ الْأَمرِ . نَحْمَدُهُ عَلى عَظِيمِ إِحسَانِهِ وَنَيِّرِ بُرْهَانِهِ ، وَنَوَامِي فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ ، حَمْداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً وَلِشُكْرِهِ أَدَاءً ، وَإِلى ثَوَابِهِ مُقَرِّباً وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً. وَنَستَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِهِ ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ ، مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ . وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ رَجَاهُ مُوقِناً : وَأَنَابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً ، وَخَنَعَ لَهُ مُذْعِناً ، وَأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً ، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّداً ، وَلَاذَ بِهِ رَاغِباً مُجْتَهِداً(١) . لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكاً . وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هَالِكاً . وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ وَلَا زَمَانٌ . وَلَمْ يَتَعَاوَرْهُ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلَامَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ . فَمِنْ

شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ ٱلسَّمٰوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلَا عَمَدٍ ، قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَدٍ . دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ وَلَا مُبْطِئَاتٍ . وَلَوْلَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَإِذْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ ، وَلَا مَسْكَناً لِمَلَائِكَتِهِ ، وَلَا مَصْعَداً لِلْكَلِمِ ٱلطَّيِّبِ وَٱلْعَمَلِ ٱلصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ[٢] . جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلَاماً يَسْتَدِلُّ بِهَا ٱلْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجِ ٱلْأَقْطَارِ . لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِهَا ٱدْلِهْمَامُ سِجَفِ ٱللَّيْلِ ٱلْمُظْلِمِ . وَلَا ٱسْتَطَاعَتْ جَلَابِيبُ سَوَادِ ٱلْحَنَادِسِ أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ مِنْ تَلَأْلُؤِ نُورِ ٱلْقَمَرِ . فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقٍ دَاجٍ وَلَا لَيْلٍ سَاجٍ فِي بِقَاعِ ٱلْأَرَضِينَ ٱلْمُتَطَأْطِئَاتِ ، وَلَا فِي يَفَاعِ ٱلسُّفْعِ ٱلْمُتَجَاوِرَاتِ . وَمَا يَتَجَلْجَلُ بِهِ ٱلرَّعْدُ فِي أُفُقِ ٱلسَّمَاءِ ، وَمَا تَلَاشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ ٱلْغَمَامِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ ٱلْأَنْوَاءِ وَٱنْهِطَالُ ٱلسَّمَاءِ وَيَعْلَمُ مَسْقَطَ ٱلْقَطْرَةِ وَمَقَرَّهَا، وَمَسْحَبَ ٱلذَّرَّةِ وَمَجَرَّهَا ، وَمَا يَكْفِي ٱلْبَعُوضَةَ مِنْ قُوتِهَا ، وَمَا تَحْمِلُ ٱلْأُنْثَى فِي بَطْنِهَا[٣] .

اللغة :

النوامي : الزوائد . والامتنان : الإنعام . والطول : الفضل . وخنع : خضع . وموطدات : مثبتات في مدارها . ومتلكئات : مبطئات كما فسرها الإمام بالعطف عليها . والطواعية : الطاعة . والأعلام : العلامات . والفجاج : الطرق بين الجبال . والادلهام : الظلمة الشديدة . والسجف : الستر . والجلابيب : الثياب.

والحنادس : الليالي المظلمة . والداجي : المظلم . والساجي : الساكن . واليفاع : كل ما ارتفع من الأرض ، وغلام يافع : ناهز البلوغ . والسُّفع : الجبـال . والجلجلة ، صوت الرعد . وتلاشت : اضمحلّت . والمسحب والمجـر : مكان السحب والجر .

الإعراب :

الذي صفة لله ، واليه خبر مقدم ، ومصائر الخلق مبتـدأ مؤخر ، والجملة صلة الموصول ، ولشكره أداءً أي ويكون الحمد أداءً لشكره ، ومثله ما بعده، ومؤمل صفـة لراجٍ ، ومثله ما بعده ، وموقنـاً حال ، وكذلك ما بعده من المنصوبات ، وموطدات وقائات وطائعات أحوال ، وادلهام فاعل يمنع ، وضوء مفعول ، والمصدر من أن ترد مفعول استطاعت .

المعنى :

(الحمد لله الذي اليه مصائر — الى — مزيده موجباً) . أسبغ سبحانه على عباده نعماً لا يحيط بها الإحصاء ، وأعادهم اليه ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، والذين أساءوا بما عملوا ، ومن حسنات العبد عند الله شكر المنعم وحمده عـلى فضله وإحسانه ، مع العلم بأن شكر المنعم دين يجب الوفاء به بحكم العقل، ويشير الى ذلك قول الإمام : « قضاء وأداء » ولكن تقدست أسماؤه ، يثيب عليه كأنه ندب وإحسان ، وكذلك التوبة من الذنب حتم وإلزام ، ومـع هذا يثيب عليها سبحانه كأنها إحسان لا إلزام . والسر انه تعالى حليم كريم . وتجدر الإشارة الى ان من عرف النعمة بقلبه فقد شكرها ، ولكن الشكر الكامل لا يكون إلا بالفعل والتضحية : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون — ٩٢ آل عمران » .

ونستعين به الخ .. يريد الإمام بقوله : مؤمّـل وواثق ، ومؤمن وتائب ، وراغب ومجتهد ، وما الى ذلك من الأوصاف ، يريد بها ان الاستعانة بالله حقاً هي أن لا نخاف مع الله شيئاً ، ولا نرجو أحـداً ، وأن نطيعه بإخلاص قولاً وعملاً ، ونرجع اليه وحده في كل شيء فهو المصدر والغاية ، وما عداه طريق

ووسيلة : « انما هو إله واحد وليذكّر أولو الألباب ـ ٥٢ ابراهيم » . ومعنى هذا ان من قال لله في صلاته : « اياك نعبد واياك نستعين » فهو كاذب في دعواه اذا خضع وخنع لعبد مثله متوسلاً به في حاجة له، مؤمناً بأنه السبيل الوحيد لقضائها ونجاحها .

(لم يولد الخ) .. لو كان لله أب لكان مخلوقاً لا خالقاً ، وممكناً لا واجباً، وكان أبوه مفضلاً عليه ، وشريكاً له في العظمة والجلال ، وأيضاً لو كان لله ولد لكانت له صاحبة ، وكان شأنه شأن الآباء يشيخ ويهرم ، ثم يموت ويورّث الأولاد والأحفاد !.. وتجدر الإشارة الى ان اليونان كانوا يعبدون جماعة من الآلهة تحب وتعشق وتعالج وتنكح ، وتلد العديد من الآلهة غير الشرعيين .. وأيضاً كانت تكذب وتخدع وتحسد وتحقد ، وتصطاد وتحارب ، وتركب عربات الترفيه والنزهة .. ومع هذا فهي تخلق وترزق ، وترسل الصواعق فتصيب بها من تشاء .

(ولم يتقدمه وقت ولا زمان) وإلا كان حادثاً يفتقر وجوده الى علة فاعلة ، وقيل : « الوقت جزء من الزمان ، والزمان أعم منه » . ومع هذا يجوز أن يكون المراد بهما واحداً ، والعطف للتفسير (ولم يتعاوره زيادة ولا نقصان) والا كان متغيراً ومحلاً للحوادث (بل ظهر للعقول الخ) .. بخلق الكون ونظامه المحكم الثابت (فمن شواهد خلقه خلق السموات بلا عمد) . خلق الكواكب وأودع فيها قوانين تفعل فعلها ، وتؤثر أثرها ، ومنها قانون الجاذبية فيها وفي جميع الأجسام (قائمات بلا سند) عطف تفسير ، وتقدم مثله مع الشرح المفصل في الخطبة ١ .

(دعاهن فأجبن طائعات) . خلق سبحانه أجرام السماء على وضع خاص حجماً وهيئة ، ووضعها في أماكنها على وفق الحكمة والهندسة الكونية ، لتؤدي الغرض المنشود كما أراده الله سبحانه ، وكنّى الإمام عن تماسك الكواكب ، وما يترتب عليها من الآثار المنشودة ، كنّى عن ذلك بالطائعات المذعنات تبعاً للآية ١١ من سورة فصلت : « ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » .

(ولولا إقرارهن ـ الى ـ لعرشه) لو لم تكن السموات في قدرته وقبضته لكانت خارجة عن أمره وملكاً لغيره (ومسكناً لملائكته) لأن الله سبحانه لا

يُسكن عباده في غير ملكه ، وفيه إيماء إلى أن على بعض الكواكب حياة وخلائق (ولا مصعداً للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه) يدل هذا ان لله خلقاً يسجلون أقوال العباد وأفعالهم ، ويصعدون بها الى السماء ، قال تعالى : «وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون – ١٢ الانفطار» . ومن أنكر ذلك فقد أنكر ما يجهل .

(جعل نجومها اعلاماً الخ) .. بعض الكواكب لا يصل نورها الى الأرض ، لأنها تبعد عن الأرض مئات الملايين من السنين الضوئية ، وسرعة الضوء ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية ، وبعض الكواكب يصل نورها الى الأرض دون أن تراها العين المجردة ، ونوع منها يصل نوره الى الأرض ، وتراه العين ، ويقول علماء الفلك: ان عدد النجوم التي تراها من موضع واحد من الأرض – يبلغ ما بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ نجم ، أما التي تراها المناظير الحديثة فيزيد عددها عن ألف مليون ، والمناظير الحديثة ترى على بعد ٥٠٠ مليون سنة ضوئية ، وربما تطورت الى ألف مليون أو أكثر .

وفي النهار يطغى نور الشمس على ضوء النجوم فتخفيه وتضيء النجوم بأوضح رؤية في ليلة ليلاء مع صفاء الجو ، وإذن فالليل المظلم لا يمنع ضوء النجوم والقمر بل على العكس يزيده تلألؤاً ، وإلى هذا أشار الإمام بقوله : (لم يمنع ضوء نورها ادلهام الخ) .. أما قوله : (اعلاماً يستدل بها الحيران الخ) .. فيشير إلى الآية ١٦ من سورة النحل : «وبالنجم هم يهتدون» . (فسبحان من لا يخفى عليه الخ) .. تقدم هذا مرات ، ولا غرض من الاعادة ومن مسحب الذرة ومسقط القطرة إلا التأكيد بأن الله قد أحاط بكل شيء علماً كي يستشعر الانسان الخوف من ربه .

كان ولم يكن معه شيء .. فقرة ٤ – ٥ :

الْحَمْدُ للهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أَوْ عَرْشٌ ، أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ أَوْ جَانٌ أَوْ إِنْسٌ . لاَ يُدْرَكُ بِوَهْمٍ . وَلَا يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ . وَلاَ يَشْغَلُهُ سَائِلٌ ، وَلَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ . وَلَا يُبْصِرُ بِعَيْنٍ . وَلَا يُحَدُّ بِأَيْنٍ .

وَلَا يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ ، وَلَا يَخْلُقُ بِعِلَاجٍ . وَلَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ . وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ . الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً ، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيماً . بِلاَ جَوَارِحَ وَلَا أَدَوَاتٍ ، وَلَا نُطْقٍ وَلَا لَهَوَاتٍ . بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً أَيُّها الْمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ فَصِفْ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَجُنُودَ الْمَلاَئِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فِي حُجُرَاتِ الْقُدْسِ مُرْجَحِنِّينَ ، مُتَوَلِّهَةً عُقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ . فَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُو الْهَيْئَاتِ وَالْأَدَوَاتِ ، وَمَنْ يَنْقَضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَامٍ ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ(٤) . أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْمَعَاشَ . فَلَوْ أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلَّماً ، أَوْ إِلَى دَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلاً ، لَكَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَعَ النُّبُوَّةِ وَعَظِيمِ الزُّلْفَةِ . فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ ، وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ ، رَمَتْهُ قِسِيُّ الْفَنَاءِ بِنِبَالِ الْمَوْتِ . وَأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً ، وَالْمَسَاكِنُ مُعَطَّلَةً ، وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ ، وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً . أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ . أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ . أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ وَأَطْفَأُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ . وَأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ . وَأَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ وَهَزَمُوا الْأُلُوفَ ، وَعَسْكَرُوا الْعَسَاكِرَ وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ(٥) .

اللغة :

كرسيه تعالى : علمه، والمراد به هنا الشيء المعلوم له . وعرشه: ملكه وتدبيره. والنوال : العطاء . والأزواج : الأمثال . والجوارح : الأعضاء . ولهوات : جمع لهاة ، وهي لحمة في أقصى سقف الفم . وحجرات : جمع حجرة أي غرفة . ومرجحنّين : جمع مرجحن أي مائل أو خاضع . متولهة من الوله ، وهو الوجد والحزن والحيرة والخوف . والرياش : اللباس الفاخر . وأسبغ : أتم . وطعمته : مأكله .

الإعراب :

لفظ «أين» يسأل به عن المكان ، فإن أردتَ مكاناً خاصاً بنيته على الفتح، وان أردت أي مكان أعربت . والذي كلم صفة لله ، أو خبر لمبتدأ محذوف أي هو الذي كلم ، ومرجحنين حال ، وكذا متولهة ، وعقولهم فاعل متولهة ، والمصدر من أن يحدوا منصوب بنزع الخافض أي حارت عقولهم في حده تعالى أو خافت من ذلك ، وذوو نائب فاعل ليُدرك .

المعنى

(الحمد لله الكائن — الى — إنس) . لا شيء في الأزل إلا الله ، لأن كل ما عداه فيض منه ، ومتأخر عنه بما في ذلك عرشه أي ملكه ، وكرسيه أي الأشياء المعلومة له ، كما قلنا في فقرة اللغة ، وليس من الضروري أن يكون المعلوم والمملوك لله سبحانه موجوداً في الأزل بوجوده ، لأنه علة لمشيئته التي تعلقت بوجود الشيء في حينه المتأخر عن الذات لا المقارن لها (لا يُدرك بوهم ، ولا يقدر بفهم) . الوهم تصور ، وكذلك الفهم ، والفرق بينهما ان الوهم تصور بلا ضابط وقياس ، والفهم تصور بمقاييس وضوابط ، وتقدم أكثر من مرة ان الذات القدسية لا تُدرك بكنهها بل بأفعالها وآثارها ، وانها فوق التصور وهماً كان أم فهماً ، وهذا معنى قول الإمام الباقر (ع) : كل ما ميزتم الله بأوهامكم فهو مردود اليكم .

(ولا يشغله سائل) لأن ذاته بما هي تحيط بكل شيء علماً وقدرة ، وتقدم مثله في الخطبة ١٧٦ (ولا ينقصه نائل) . انه يعطي بلا حساب ، وخزائنه على ما هي ، لا فرق أنفق أو لم ينفق لأنها تستمد من قوة لا حد لها ولا نهايـة ، والخزائن التي تنقص بالإنفاق تمتلىء بالكسب والجمع من هنا وهناك (ولا ينظر بعين — الى — الناس) . انه تعالى قوة عليا فوق الطبيعة،عالمة قادرة،لا يقع عليها حس ، ولا تدخل في دائرة المشاهدة ، لأنها ليست بمادة كي تُنظر وتُلمس ، وتفتقر الى حيّز ومكـان ، واذا عجزت العقول عن إدراكهـا فكيف تدركها الحواس ، وتقاس بالناس !. انها تخلق بكلمة «كن» لا بآلة ومزاولة ، وتدبر بقوانين تودعها في الكائنات لا بجوارح وأدوات .

(الذي كلّم موسى الخ) .. أي خلق الكلام في الشجـرة فسمعه موسى ، كما في الآية ٣٠ من سورة القصص : « نُودي من شاطىء الوادي الأيمـن في البقعة من الشجرة » فمن الشجـرة متعلق بنودي ، فالشجـرة بالنسبة الى موسى كالاسطوانة بالنسبة الينا مع الفرق البعيد ، لأن الذي نسمعه من الاسطوانة خارج من فم ، ومسجل بآلة،والكلام الذي سمعه موسى حل في الشجرة بمجرد الإرادة القدسية (بل إن كنت صادقاً — الى — الخالقين) . لا تحاول المحال بوصف الله وتحديد ذاته .. وان أبيت إلا الفضول والتمحل فنحن نهون عليك ، ونكتفي منك أن تصف جبريل أو غيره من الملائكـة الذين عجـزوا عن وصفه تعالى ، وهم أقرب اليه منك وأعلم ، وإذا عجزتَ عن وصف المخلوق فأنت عن وصف الخالق أعجز .

(فإنما يُدرك بالصفات الخ) .. الغرض واحد من اثنين : إما أن تكون له أعضاء وهيئة من الهيئات فتحده بها ، وإما أن يكون له أجل ينتهي بنهايته فتعرفه به ، والله سبحانه لا حد له ولا نهاية ، ولا شكل وهيئة (فلا إله إلا هو أضاء بنوره كل ظلام) أي ان العلم والعمل بدين الله وحلاله وحرامه هـدى ونور لا تضر معه أية صفة يراها النـاس نقصاً وظلاماً كالفقر وقلة الرجـال والأنصار (وأظلم بظلمته كل نور) . المراد بظلمته تعالى حجاب الجهل والمعصية بين الله وعبده ، والمعنى ان الجهل بدين الله أو العلم به بلا عمل ضلال وظـلم لا يجدي معه أي وصف يراه الناس نوراً وكمالاً كالجاه والمال،ومن أجل هذا قال الإمام: الغنى والفقر بعد العرض على الله .

(أوصيكم عباد الله الخ) .. أعطانا الله نعماً لا يبلغها الإحصاء ، ومنها اللباس الفاخر ، والطعام والشراب ، فعلينا أن نعطيه من أنفسنا ما أحب ، وان كرهتْ.

(فلو ان أحداً يجد الخ) .. جمع الله لسليمان بن داود الملك والنبوة ، وسخر له الريح والطير والانس والجن ، فبنوا له ما أراد من هياكل وتماثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات .. وما انقضت أيامه حتى لُفَّ بخرقة ودفن في حفرة ، وذهب سلطانه مع الريح التي كان يمتطيها في غدوه ورواحه .

(أين العمالقة ؟) . قال أصحاب التواريخ : ان العمالقة ينسبون الى عملاق ابن إرم بن سام بن نوح ، وانه كان لهم سلطان في اليمن والحجاز وما تاخم ذلك من أقاليم،وقد أخنى عليهم الذي أخنى على هتلر وموسوليني . قال المسعودي: « بغوا في الأرض فسلط الله عليهم ملوك الأرض » . وأيضاً سلط الله على هؤلاء الملوك من أفناهم ، وكذلك يسلط سبحانه على خلفاء هتلر وموسوليني ، وعلى كل باغية وطاغية « فهل ينظرون إلا سنة الأولين — ٤٣ فاطر » .

(أين أصحاب مدائن الرس الخ) .. قيل : الرس اسم بئر ، وان أصحابه اذا جاءهم نبي ألقوه فيها . فأرسل الله عليهم ريحاً عاصفة ملتهبة سلقت أبدانهم، وان الأرض قذفتهم بمواد كبريتية متقدة فذابت أجسامهم ، ودمرت مدائنهم .

لبس للحكمة جنتها .. فقرة ٦ :

قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا . وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدَبِهَا مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا وَالتَّفَرُّغِ لَهَا . وَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُهَا ، وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا . فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الْإِسْلَامُ ، وَضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ ، وَأَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ . بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ (ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ) أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الْأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَمَهُمْ . وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ

الأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ . وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا . وَحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْثِقُوا . لِلهِ أَنْتُمْ ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِي يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ ، وَيُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ(٦) ؟

اللغة :

الجُنة – بضم الجيم – الوقاية . والعسيب ، عظم الذنب . والجران من البعير : مقدم عنقه ، يقال : ألقى البعير جرانه ، أي برك . فلم تستوثقوا : لم تجتمعوا .

الإعراب :

بجرانه الباء زائدة ، وجرانه مفعول ألصق ، وبقية خبر لمبتدأ محذوف أي هو ، ويجوز أن تكون خبراً ثانياً لهو مغترب ، ولله أنتم اللام للتعجب .

المعنى :

(قد لبس للحكمة جُنتها) . يريد الإمام (ع) بهذا الوصف المؤمن العارف ، ولا يريد إماماً غائباً أو ولياً حاضراً ، والمراد بالحكمة هنا مخافة الله ، كما جاء في الحديث « رأس الحكمة مخافة الله » . أما جُنة الحكمة فقد فسرها الإمام بقوله : (وأخذها بجميع أدبها الخ) .. أي عمل بموجبها ، وذلك بأن يخلص الخائف لله ، ويتكل عليه وحده ، ويفوض الأمر اليه كله ، ويعمل بكل ما أمر به ، وينتهي عن كل ما نهي عنه (والمعرفة بها) أي بأحكامها ومواردها (والتفرغ لها) الانصراف عن الفضول والخوض فيما لا طائل تحته .

(فهي عند نفسه ضالته الخ) .. الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أين وجدها ، ومن أقوال الإمام : ان الحكمة تكون في صدر المنافق فتتلجلج – أي تتحرك –

في صدره حتى تخرج ، فتسكن الى صواحبها في صدر المؤمن (فهو مغترب إذا اغترب الإسلام) . إذا كان الإسلام غريباً بين القوم الفاسقين فالمؤمن أيضاً يكون غريباً بينهم ، كما هو الشأن في عصرنا حيث يسخر أكثر أبنائه من المحافظين على دين الآباء والأجداد .

(وضرب بعسيب ذنبه ، وألصق الأرض بجرانه) أي ان المسلم المخلص يكون بين القوم الفاسقين كالبعير الذي ألصق نحره في الأرض ، وضربها بذنبه ولا يستطيع التصرف في شيء سوى ذلك (بقية من بقايا حجته ، خليفة من خلائف أنبيائه) . الضمير في حجته وأنبيائه لله تعالى ، والمعنى ان ذاك المسلم المغترب هو بقية الذين يحتج بهم سبحانه على خلقه، وامتداد لأنبياء الله ورسله .

الدين تسلية ورفاهية :

(أيها الناس قد بثثت لكم المواعظ الخ) .. وعظ الإمام أصحابه بمواعظ الله وأنبيائه بأسلوب العليم الحكيم، ووعظهم وبالغ في النصيحة لا لمنفعة شخصية ، ولا حباً بالكلام ، أو إظهاراً للمقدرة ، أو لأن الوعظ مجرد وظيفة كخطبة الجمعة في المسجد ، أو خطبة الأحد في الكنيسة ، بل لشعوره بأنه مسؤول عنهم أمام ربه وضميره .. ومع هذا صموا الآذان ، ونفضوا الأيدي ، وهم على يقين من نصح الواعظ ، وثقة بعلمه ودينه .

ولا عجب! فقد وعظ نوح قومه فقالوا له : لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ، وأيضاً وعظ ابراهيم قومه فقالوا : حرّقوه . وحاول بنو اسرائيل صلب السيد المسيح ،وحاولت قريش قتل محمد (ص).والذين قتلهم قومهم من الأنبياء لا يعلم عدتهم إلا الله .. والذنب الوحيد هو الوعظ والإرشاد .

وآمن النصارى بعيسى ، وقالوا : دينهم هو دين الانسانية والمحبة ، ثم ظهرت هذه المحبة من قبلُ في جرائم محاكم التفتيش ، وفي المذابح الصليبية ، وظهرت من بعد في هيروشيما وكوريا وافريقيا والهند الصينية . واليهود آمنوا بموسى وانه بُعث لمحاربة البغي في شخص فرعون الذي كان يستعبد رجالهم ونساءهم، ويذبح أطفالهم .. وتمثل ايمان اليهود برسالة موسى في فظائع اسرائيل بفلسطين .. وأيضاً آمن المسلمون بمحمد (ص) وانه الخاتم لما سبق ، والفاتح لما استقبل،وان الإسلام

هو دين القوة والحياة ، ودين العلم والحضارة ، والتعاون على البر والخير، وظهر كل ذلك جلياً في تناحر المسلمين وجهلهم وانحطاطهم وذلهم وهوانهم .. حتى على الأذل الأحقر .

والسر ان الدين شيء ، وممارسته شيء آخر ، انه مجـرد فكرة ونظرية عند المنتسبين اليه ، أو شعائر وكلمات جوفاء لا تعني شيئـاً ، أو عادة وتقليد ، أو تسلية وترفيه ، أو ما شئت من التعبير على أن تدع كلمة التجاوب والتفاعل بين الدين والمنتسبين اليه .. حتى الذين يعلو صراخهـم من أجـل الدين ، ويتباكون عليه ، تشهد عليهم أفعالهم ، أو على أكثرهم ، أو الكثير منهم بأنهم بلا دين .

اخوان الإمام .. فقرة ٧ :

أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلاً ، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَـا كَانَ مُدْبِراً ، وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ اللهِ الْأَخْيَارُ ، وَبَاعُوا قَلِيلاً مِنَ الدُّنْيَا لاَ يَبْقَى بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِـــرَةِ لاَ يَفْنَى . مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ بِصِفِّينَ أَنْ لاَ يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً ؟ يُسِيغُونَ الْغُصَصَ وَيَشْرَبُونَ الرَّنِقَ . قَدْ وَاللهِ لَقُوا اللهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ ، وَأَحَلَّهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ . أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ ؟ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ ؟ وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ ؟ وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ ، وَأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ . (قَالَ ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْكَرِيمَةِ فَأَطَالَ الْبُكَاءَ ، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ) : أَوْهِ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ ، أَحْيَوا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ .

دُعوا لِلجِهَادِ فَأَجابُوا ، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ (ثُمَّ نَادَى بِأَعْلى صَوْتِهِ) : الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللهِ . أَلَا وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَوْمِي هٰذَا فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَى اللهِ فَلْيَخْرُجْ (٧) .

اللغة :

أزمع : عزم . والرنق : الكدر .

الإعراب :

قليلاً صفة لمفعول محذوف أي باعوا متاعاً قليلاً ، ما ضر « ما » استفهام للإنكار ، ومحلها الرفع بالابتداء ، واخواننا مفعول ضر ، والمصدر من أن لا يكونوا فاعل ، واوه اسم فعل بمعنى أتوجع .

المعنى :

(قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً ، وأقبل منها ما كان مدبراً) . أدبر الضلال والجاهلية ، وأقبل الهدى والنور في عهد رسول الله (ص) ولما حكم معاوية الشام ، وصار له رجال وأتباع أدبر الهدى والرشاد ، وأقبل الضلال والفساد . قال ابن أبي الحديد : « روى أبو عبدالله البصري في كتابه «نقض السفيانية» على الجاحظ أخباراً كثيرة تدل على أن معاوية مطعون في دينه ، وروى أحمد بن أبي طاهر في كتاب « أخبار الملوك » : ان معاوية سمع المؤذن يقول : أشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله فقال : لله أبوك يا ابن عبدالله لقد كنت عالي الهمة ، وما رضيت لنفسك إلا أن يقرن اسمك باسم رب العالمين » . قاس معاوية نفس رسول الرحمة على نفسه فخاطبه بما يهتز له العرش .

(وأزمع الترحال عباد الله الأخيار — الى — لا تفنى) يشير بهذا الى اخوان له في الدين ، وانهم ذهبوا الى ربهم راضين مرضين ، وكنّى عن انقضاء أجلهم

بالعزم على الرحيل الى الله،لأنهم آثروا الآجلة على العاجلة ، والباقية على الفانية ، وبعد قليل يذكر أسماء بعضهم (ما ضر اخواننا — الى — بعد خوفهم) . استشهد بعض إخوان الإمام بصفين في سبيل الله فقال : هنيئاً لهم ، لقد استراحوا من المأزق الحرج الذي أعانيه من تفرق الكلمة وشتات الرأي .. انهم الآن في جوار ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله « جاورت أعدائي وجاور ربه* شتان بين جواره وجواري » .

لا يموت على الحق إلا المجاهدون :

(أين إخواني الذين ركبوا الطريق) القويم ؟ (ومضوا على الحق) أي قاتلوا من أجل الحق ، وقُتلوا في سبيله ، ومهما شككت فإني لا أشك أبداً في أن ما من أحد يموت ويمضي على الحق إلا إذا جاهد الطغاة أو كان على نية جهادهم .. وليس من الضروري أن يجاهد بالسيف ، فجهاد كل بحسبه ، فالتشهير بالظالم وإذاعة أهدافه واسوائه جهاد ، وكذلك الوقوف بجانب المجاهدين ، والتحسس بأنهم على حق ، ومن الجهاد أيضاً الإعراض عمن طغى وبغى ، والكف عن تأييده وانتخابه لمنصب من المناصب . قال الرسول الأعظم (ص) « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بغزو مات ميتة جاهلية » وهذا الحديث يحمل في ثناياه الدليل على صحته ، ويعززه قوله ، عز من قائل : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم — ١٥ الحجرات » . وكلمة « إنما » حصرت الإيمان بهذه الأركان ، ومنها الجهاد بالنفس والمال ، فهو تماماً كالإيمان بالله ورسوله.ولا بد من الإشارة الى أن الكدح في سبيل الأهل والعيال ، والدفاع عن المال الحلال ، وبذل الجهد في طلب العلم ، وكبح النفس عن الحرام ، كل أولئك جهاد في سبيل الله ، وأفضل أنواع الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر ، أما الحج فقد كان جهاد كل ضعيف في عصر الجمل والدواب لا في عصر الطيارة والسيارة .

(أين عمار) بن ياسر ، أسلم هو وأبوه وأمه ، وكان المشركون يخرجونهم الى مسيل ماء فيه الحصى ، ويسمى الأبطح ، فإذا حميت الرمضاء عذبوهم بحرّها ، ومر النبي (ص) ذات يوم ، وهم يُعذّبون . فقال صبراً آل ياسر : فإن موعدكم الجنة ، فمات ياسر في العذاب ، وهو أول شهيد في الإسلام، وطعن

أبو جهل أم عمار في المكان الحساس ، وقيل وكله برجله حتى ماتت ، وهي أول شهيدة في الإسلام ، أما عمار فعذّبوه بالتغريق في المـــاء تارة ، وبوضع صخرة على صدره أخرى .. ولكن الله أرجأ قتله الى يوم صفين ، ليميز بقتله الفئـــة الباغية عن الفئة المؤمنة العادلة .

(وأين ابن التيهان) ؟ واسمه مالك ، وهو صحابي جليل ، وله العديـــد من السوابق والمناقب ، منها أنه أول من بايع رسول الله من الأنصار ليلة العقبة وقبل الهجرة ، كما جاء في كتاب « الاستيعاب » لابن عبد البر ، ومنها انه كان أحد النقباء الذين اختارهم الأنصار ليلة العقبة[1] . ومنها انه شهد بـدراً وغيرها مع رسول الله (ص). وفي كتاب « الاستيعاب » وغيره: انه استشهد بصفين مع الإمام .

(وأين ذو الشهادتين ؟) هو خزيمة بن ثابت الأنصاري من الأوس ، وفي الاستيعاب لابن عبد البر : « شهد خزيمة بدراً وما بعدها من المشاهد ، وكـان مع علي في حرب الجمل وصفين ، فلما قُتل عمار قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : تقتـــل عماراً الفئة الباغية ، ثم سل سيفه فقاتل حتى قُتل » . وجعـــل رسول الله شهادته بشهادتين ، وقد غلب عليه هذا الاسم ، وقيل في سبب ذلك: ان اعرابياً باع فرساً لرسول الله (ص) ثم ندم ، وأنكر البيع ، وقال للرسول: أين شاهدك على البيع ؟ فشهد خزيمة بأن الاعرابي باع فرسه للنبي . فقال لـه النبي أكنت حاضراً عند البيع يا خزيمة ؟. فقال : لا يا رسول الله ، ولكن هل أصدقك بما جئت به عن الله ، ولا أصدقك على هذا الأعرابي الخبيث ؟. فقال له النبي (ص) : شهادتك شهادة رجلين .

(وأين نظائرهم الخ) .. كان مع الإمام في صفـين ٢٨٠٠ من الصحابة ، منهم ٨٧ من البدريين و ٩٠٠ ممن شهد بيعة الرضوان التي أشارت اليها الآية ١٨ من سورة الفتح ، وكان الصحابة قد تعاهدوا على الموت مع الإمام ، وقُتل منهم غير قليل،وأرسلت رؤوسهم مع البريد الى الأشرار والفجار (أوه على إخواني الخ)..

---

١ كان النبي يعرض نفسه على القبائل ، وفي احد المواسم التقى بستة من الخزرج ولما كلمهم أسلموا ، فجاءوه في العام التالي ومعهم مثلهم ، وبايع الاثنا عشر النبي عند العقبة ، وتسمى هذه بيعة العقبة الصغرى ، وعادوا في العام الذي يليه مع آخرين ، وبلغ الجميع سبعين ، وبايعوا النبي عند العقبة ايضا على السمع والطاعة في اليسر والعسر ، وتسمى هذه بيعة العقبة الكبرى .

يتأوه الإمام ويتوجع على الصفوة من الصحابة الأخيار الذين عملوا بكتاب الله،واستنُّوا بسنة رسول الله ، واستشهدوا بصفين في سبيل الله .

(وثقوا بالقائد فاتبعوه) وافتدوه بأرواحهم مغتبطين مسرورين ، لأنهم رأوا في قائدهم أمير المؤمنين علم رسول الله وأمانته ، وهديه وسيرته . قال أحمد عباس صالح في كتاب « اليمين واليسار في الإسلام » : كان علي واسع الشعبية ، لأنه امتداد لرسول الله (ص) وان كان معاوية استطاع أن يختار من بين أنصار علي من لديه قابلية الخيانة بحكم الوضع الطبقي ، والمصلحة الطبقية .

(الجهاد الجهاد الخ) .. روي ان هذه الخطبة آخر خطب الإمام، وانه كان قد صمم على العودة الى صفين لحرب معاوية مهما كلفه الأمر ، فحث أصحابه على الجهاد ، وأخبرهم بعزمه ، وقال لهم : (فمن أراد الرواح الى الله فليخرج) فاستجاب له من استجاب ، ولكن شاء الله سبحانه أن يريحه من هموم الناس وشقاقهم ونفاقهم ، فاختاره اليه قبل أن يستأنف الحرب .

الخطبة

- ١٨١ -

الله والقرآن .. فقرة ١ — ٣ :

الْحَمْدُ لِلهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ . خَلَقَ الْخَلاَئِقَ بِقُدْرَتِهِ ، وَاسْتَعْبَدَ الْأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ ، وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ . وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ رُسُلَهُ لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا ، وَلِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا ، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا ، وَلِيُبَصِّرُوهُمْ عُيُوبَهَا ، وَلِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وَأَسْقَامِهَا ، وَحَلاَلِهَا وَحَرَامِهَا . وَمَا أَعَدَّ اللهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعُصَاةِ مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ . أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلاً ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاباً[1] . فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ . حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ . أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَهُ . وَارْتَهَنَ عَلَيْهِ أَنْفُسَهُمْ . أَتَمَّ نُورَهُ ،

وَأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدْ فَرَغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ . فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ . فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ . وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً وَآيَةً مُحْكَمَةً تَزْجُرُ عَنْهُ أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ . فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ[٢] . وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرٍ بَيِّنٍ ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ . قَدْ كَفَاكُمْ مَؤُونَةَ دُنْيَاكُمْ ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ . وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ . فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ . وَإِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ . قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَةً كِرَاماً لَا يُسْقِطُونَ حَقّاً ، وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلاً[٣] .

اللغة :

منصبة : من النصب ، وهو التعب . وهجم عليه : انتهى اليه بغتة . ومعتبر : من الاعتبار بمعنى الاتعاظ . والتصرف : الانتقال من حال الى حال . والمصح : من الصحة ضد السقم والمرض . واستحمد : طلب الحمد .

الإعراب : :

المصدر من « ان » المضمرة بعد اللام في ليكشفوا متعلق ببعث ، وكذلك ليحذروا وليضربوا الخ . وآمر وزاجر وصامت ناطق كلها أخبار عن القرآن .

المعنى :

(الحمد لله المعروف) بآياته لا بذاته (من غير رؤية) البصر وإلا كان محسوساً (والخالق من غير منصبة) .. أبداً لا جهد وإرهاق ، بل ولا جولة فكر ، لا شيء إلا الإرادة وحدها (خلق الخلائق بقدرته) ولا تفسير لهذه القدرة إلا بما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، كما هو شأن الكمال المطلق (واستعبد الأرباب بعزته) قهر بسلطانه كل عزيز وعنيد (وساد العظماء بجوده) أي لا يثلمه العطاء .. وإلا فلا عظماء بالنسبة اليه تعالى ولا رؤساء (وهو الذي أسكن – الى – عيوبها) . خلق العباد وأسكنهم في ملكه ، وأرسل اليهم معلمين ومرشدين يأمرونهم الى الصالحات وفعل الخيرات .

(وليهجموا عليه بمعتبر من تصرف مصاحها واسقاسها ، وحلالها وحرامها). المراد بالهجوم هنا البيان بأسلوب تقشعر منه الجلود ، وتلين له القلوب ، وذلك بأن يكشف الأنبياء للناس عن حقيقة الدنيا وأطوارها ، وعاقبة من ركن اليها ، وأن يضربوا لهم الأمثال من حياة الأمم الماضية والقرون الخالية ، ويبينوا لهم أن الله سبحانه يختبرهم بحلاله وحرامه ، وأيضاً يبينوا لهم (ما أعد الله للمطيعين منهم والعصاة الخ) .. كل امرىء بما كسب رهين ، ان خيراً فخير ، وإن شراً فشر (أحمده الى نفسه كما استحمد الى خلقه) . الإمام يحمد الله حمداً يكون به عند الله مرضياً ومحموداً ، لأنه على وفق ما أحب سبحانه وأراد .

(وجعل لكل شيء قدراً) . المراد بالقدر هنا إيجاد الشيء على وضع خاص كماً وكيفاً ، والمعنى ان ما من شيء كبُر أم صغُر يصدر عن الله عبثاً أو سهواً، بل عن علم وإرادة ، وعلى مقتضى الحكمة والمصلحة : « ان الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدراً – ٣ الطلاق » . (ولكل قدر أجلاً) لا يتقدم عليه ، ولا يتأخر عنه « ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون – ٥ الحجر » . (ولكل أجل كتاباً) أي ان كل أجل الى انتهاء « كل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك

ذو الجلال والإكرام » . ومن أقوال الإمام : « ان لكل أجل وقتاً لا يعدوه » فقد جعل لغاية الوقت وقتاً .

(فالقرآن آمر زاجر) . يأمر بالخير والصلاح ، ويزجر عن الشر والفساد (وصامت ناطق) . يكون التعبير باللفظ والكتابة والإشارة ، وبالرسم والرقص والموسيقى والنحت ، وبالآثار والأفعال ، وهي أسبق من اللفظ ، واللفظ أسبق من الكتابة ، فالطفل يتكلم قبل أن يكتب ، والقرآن صامت حيث لا صوت له يقرع الأسماع ، وهو ناطق ، لأن لغته هي نفس اللغة الملفوظة ، وقد دُونت على نظام وأصول يعرفها كل قارىء تماماً كما لو سمعها بأذنيه (حجة الله على خلقه) . يحتج سبحانه بالقرآن على عباده ، لأنه يحمل في ثناياه البرهان على ان كل ما فيه حق وصدق .

(أخذ عليه ميثاقه) . الضمير المستتر في أخذ الله تعالى ، وضمير « عليه » للخلق ، وضمير ميثاقه للقرآن ، والمعنى ان الله سبحانه أخذ على عباده بواسطة نبيه الكريم أن يعملوا بالقرآن (وارتهن عليهم أنفسهم) . أرواح العباد كلها في قبضة الله رهينة على الوفاء بحقه تعالى وطاعته ، فمن أدى هذا الحق كاملاً سلم ونجا من غضب الله وعذابه ، ومن قصر وأهمل فهو من الهالكين (أتم نوره ، وأكمل دينه) . أتم وأكمل عطف تفسير ، وكذلك نوره ودينه ، والمعنى ان في القرآن الكريم تبيان كل شيء يُصلح البشرية ، ويحل مشكلاتها .

(وقبض نبيه (ص) الخ) .. بُعث محمد (ص) الى البشرية جمعاء بالهدى ودين الحق ، وبعد أن أنهى مهمته هذه على وجهها اختاره الله الى جواره ورضوانه (فعظِّموا منه سبحانه ما عظم من نفسه) كالإيمان بعدله ورحمته ، وتنزيهه عن الشرك والظلم ، وانه على كل شيء قدير ، وغني وخبير .. الى ما جاء في كتابه تعالى من صفات الكمال والجلال (فإنه لم يُخف عنكم – الى – تدعو اليه) . بيّن ، جلت حكمته ، في كتابه وعلى لسان نبيه جميع ما يحب وما يكره ، ونهى عن هذا ، وأمر بذاك (فرضاه فيما بقي واحد ، وسخطه فيما بقي واحد) . المراد بما بقي ما لا نص فيه ، وحكمه لا يتغير ، فهو حلال يرضى الله بفعله إن لم يكن فيه ضرر وفساد بجهة من الجهات ، وإلا فهو محرم يسخط الله على فاعله ويغضب .

(واعلموا انه لن يرضى – الى – قبلكم) ما كان حراماً في عهد رسول الله فهو حرام الآن والى آخر يوم ، وكذلك الحلال ، وتقدم مثله مع الشرح في الخطبة ١٧٤ (وانما تسيرون في اثر الخ) .. الأحكام واحدة ، وأدلتها واحدة ، وعلى الخلف أن يسير فتوىً ودليلاً على سيرة السلف الصالح من العلماء . وإن قال قائل : ولماذا كل هذا الضغط علينا من السلف والدوران في فلكهم ؟ قلنا في جوابه : الضغط هنا للدين والحق لا للسلف ، والدوران انما هو في فلكه لا في فلكهم ، وإن انحرفوا عن الدين والحق ملنا عنهم ،وقد روى أهل البيت (ع) عن جدهم (ص) : إن ما خالف كتاب الله فهو زخرف .. وانه لا قول بلا عمل ، ولا عمل بلا نية ، ولا نية إلا بإصابة الكتاب والسنة .

(قد كفاكم مؤونة دنياكم) أي مهد لكم الطريق الى الرزق ، ودلكم عليه بالحث على العمل بشتى الأساليب ، منها قوله : « فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله – ١٠ الجمعة » . « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه – ١٥ الملك » . (وحثكم على الشكر الخ) .. أنعم سبحانه على عباده ، وأراد منهم أن يستشعر نعمه وعطاءه بقلوبهم ، ويشكروه عليها بألسنتهم ، ويخضعوا بالركوع والسجود بين يديه ، وأن يطيعوه في كل ما يفعلون ويتركون ، والغرض الأول والأخير من ذلك كله هو التربية والتنشئة على الخضوع لله وحده ، لا لأحد من الناس ، والاعتصام به تعالى لا بغيره ، وأخذ الحق من كتاب الله وسنة نبيه .

(ونواصيكم بيده الخ) .. لا أحد يملك مع الله شيئاً حتى نفسه ، فهو وحده تعالى المالك القاهر لكل شيء ، العالم بكل شيء .. ونحن نعلم ذلك بلا ريب ، وأيضاً نعلم ان لله شرعاً نافذاً ، وانه تعالى يحاسب ويعاقب ، ومع هذا نقتحم حماه ، ونتجاوز حدوده ، وصدق الله العظيم : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً – ٧٢ الأحزاب » .

بين طابقين من نار .. فقرة ٤ – ٧ :

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ ،

وَيُخَلِّدُهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ ، وَيُنْزِلُهُ مَنْزِلَ الكَرَامَةِ عِنْدَهُ . فِي دَارٍ اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ . ظِلُّهَا عَرْشُهُ . وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ . وَزُوَّارُهَا مَلَائِكَتُهُ . وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ . فَبَادِرُوا المَعَادَ . وَسَابِقُوا الآجَالَ . فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الأَمَلُ ، وَيَرْهَقَهُمُ الأَجَلُ ، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ . فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ . وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالارْتِحَالِ ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ(٤) . وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا . أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ ، وَالعَثْرَةِ تُدْمِيهِ . وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ ، ضَجِيعَ حَجَرٍ وَقَرِينَ شَيْطَانٍ . أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ(٥) . أَيُّهَا اليَفَنُ الكَبِيرُ الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ القَتِيرُ ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الأَعْنَاقِ ! وَنَشِبَتِ الجَوَامِعُ حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ . فَاللهَ اللهَ مَعْشَرَ العِبَادِ وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ . وَفِي الفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ . فَاسْعَوْا فِي فِكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَغْلَقَ رَهَائِنُهَا . أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ ، وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ(٦) ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ ، وَخُذُوا

مِنْ أَجْسَادِكُمْ وَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ : « إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » . وَقَالَ تَعَالَى : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » . فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ ، اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللهِ فِي دَارِهِ . رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ ، وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتَهُ ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَداً ، وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً وَنَصَباً « ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(٧) .

اللغة :

اليفن — بفتح الياء والفاء — المسن الذي بلغ من عمره أقصاه . ولهز: خالط . والقتير : الشيب . وغلق الرهن : عجز الراهن عن افتكاكه في الأجل المضروب . والحسيس : الصوت الخفي . والنصَب : التعب ، واللغب أشده ، وتطلق عليه كلمة الإعياء .

الإعراب :

جزعاً مفعول من أجله لتوثبت . والله الله نُصب على التحذير أي أحذركم أو خافوا الله ، وعملاً في قوله « أحسن عملاً » تمييز ، وتكونوا مجزوم لأنه جواب بادروا ، وأبداً نصب على الظرفية ، والمصدر من أن تلقى مجرور بمن محذوفة أي صان أجسامهم من لقاء التعب والإعياء .

المعنى :

(من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن) . من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، يبتعد تلقائياً عن المزالق والمهالك ، ومنها الفتن وأسبابها (ونوراً من الظلم) الهوى يكسف نور الدين والعقل ، والورع يكبح الهوى ، ويردعه عن تجاوز الحدود ، وعندئذ ينتفع المتورع والمتقي بنور عقله وايمانه (ويخلده فيما اشتهت ــ الى ــ رسله) . المراد من « ظلها عرشه » حياة الأمان والاستقرار ، ومن « نورها بهجته » الفرح والمسرة ، والمعنى: إن من يتق الله يأمن في الدنيا من شر الفتن ، وله في الآخرة ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين في صحبة الأنبياء والصالحين والملائكة المقربين .

(فبادروا المعاد ــ الى ــ التوبة) . الأيام تمر كالريح، وتأخذ معها أعماركم وأعز الأشياء عليكم ، فلا تضيعوا منها ثانية باللهو والأباطيل ، وبادروا اللحظات بالتوبة والعمل الصالح ، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً (فقد أصبحتم في مثل ما سأل اليه الرجعة من كان قبلكم) . أنتم الآن في فسحة من العمر يمكنكم أن تعملوا ليوم الفزع الأكبر ، وإن لم تبادروا الفرصة ذهبت كما ذهب أمس من العمر ، وندمتم حيث لا ينفع الندم ، وأصابكم ما أصاب الذي قال ــ من قبل ــ لما جاءه الموت : « رب ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ــ ١٠٠ المؤمنون » . (وأنتم بنو سبيل ــ الى الزاد). ومثله تماماً ما جاء في الخطبة ٢٠١ : إنما الدنيا دار مجاز ، والآخرة دار قرار ، فخذوا من ممركم لمقركم .

أعلى الأصوات في نهج البلاغة :

(واعلموا أنه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار الخ) .. لا تكاد تمر خطبة من خطب النهج إلا وتقرأ فيها واحداً من ثلاثة ، أو اثنين ، أو هي مجتمعة : ذكر الله سبحانه بالحمد وتعظيمه بأسمائه الحسنى ، وصفات الكمال ، وذكر رسول الله (ص) والثناء عليه بالمقام المحمود عند الله ، وبما أسداه للإنسانية من نور وهداية ، والثالث الحديث عن الدنيا وغرورها ، والموت وسكرته ، والقبر ووحشته ، والحشر وأهواله ، والحساب ونقاشه ، والعذاب وشدته .. فأي موضوع يتحدث عنه ينتقل منه — في الغالب — الى التحذير والتخويف من الدنيا والآخرة معاً .

شرحت أول خطبة تضمنت هذا الموضوع ، شرحت وفسرت بما تهيأ لي من صياغة وتركيب ، وجاءت الثانية ، وفيها نفس الموضوع بأسلوب آخر ، فشرحتها بأسلوب آخر ، ثم الثالثة والرابعة .. الى عشرات،فوقفت حائراً : هل أكرر ما سبق ، كما فعل غيري من الشارحين ، أو أحيل على ما تقدم ، أو أشرح بأسلوب عاشر أو حادي عشر ؟ ومن أين ؟ « فأفنيت علاتي فماذا أقول؟» وقد اكرر مع التلخيص أو أحيل ، أو أتكلف وأتعسف .

ان في كتاب الله العديد من الموضوعات ، ومنها الدنيا وزخرفها ، والجنة ونعيمها ، والنار وجحيمها ، وكذلك نهج الإمام ، كما أشرت في المقدمة،ولكن التخويف من عذاب الله هو أعلى الأصوات في خطب النهج ، وأكثرها قسوة وحماساً ، وما التخويف والتحذير من الدنيا إلا وسيلة لاتقاء عذاب الله .. إن صوت النهج وهو يتحدث عن هذا العذاب يهزك من الأعماق ، وتحس معه كأنك في قلب الجحيم ، والسر ان الإمام يشارك الناس،كل الناس ، في آلامهم ، ويشفق عليهم من نار الله ، وهو أعلم بها وبحقيقتها حتى كأنه يقاسيها ويعانيها ، وهو في الحياة الدنيا .

بهذا وحده نجد التفسير الصحيح لكلمات الإمام اللاهبة ، وهو يتحدث عن غضب الله وعذابه .. انه يشفق على هذا الجسم الضعيف ، والجلد الرقيق، تدميه العثرة ، وتؤلمه الشوكة ، وتحرقه حرارة الشمس ، فكيف يكون حاله اذا أوقدت النار من فوقه ومن تحته ؟. يسخرها مالك الموكل بها ، ويزجرها بغضبه فترمي

بشرر كالقصر كأنه جمالة صُفر .. وهو الى هذا ضجيج أحجار من الكبريت ، وقرين لشياطين الإنس والجن .. نار وأحجار ، وشياطين .. الى ما يفوق التصور . ولماذا كل ذلك ؟. الجواب : انه قليل ويسير ، وينبغي أن يضاعف أضعافاً كثيرة لمن أفسد على الناس حياتهم ، ونهب أقواتهم ، وألقى بقنابله على الآمنين، ولوث الجو ودم الانسان والحيوان بقنابله النووية وتفجيرها .. حتى الزرع والأشجار والصخور والأحجار تأثرت بهذه السموم ، واختل التوازن الطبيعي بين الكائنات في كثير من المناطق ، وقال أهل الاختصاص : ستعم الكارثة العالم بكامله ، إن تكررت هذه الجريمة واستمرت .

(أيها اليفن الكبير الخ) .. خص الإمام الشيخ الفاني بالسؤال عن حاله حين تحاصره النار من كل جانب تشوي لحمه ، وتحرق عظمه ، خصه بهذا السؤال لقيام الحجة عليه من نفسه ، وتراكم علله وأوجاعه (فالله الله معشر العباد – الى – لا تبخلوا بها عنها).اذا كانت عاقبة التسويف والإهمال هي النار فعلى كل عاقل أن يسعى في تحريره وفكاك رقبته من العذاب بعفة بطنه وفرجه عن الحرام ، وبالسعي والجهاد في سبيل الصالح العام ، ومن يجاهد من أجل الحق والعدالة يأخذ من الله والناس أكثر مما يعطي .

(قال سبحانه ان تنصروا الله ينصركم ويثبّتْ أقدامكم – ٧ محمد) أي ان جاهدتم يداً واحدة ، وصبرتم صبر الأحرار ينصركم الله على عدوه وعدوكم ، ويثبت أقدامكم في جهاده وقتاله ، أما إذا تنازعتم ونكصتم عن الجهاد فإن الله يخذلكم ويُذهب ريحكم .. وأيضاً إن عملتم في الحقل أو المصنع أو المتجر أو المكتب يرزقكم من فضله ، وهكذا كل من سار على سبيل انتهت به الى غايتها ، وحين سار المسلمون على طريق الشهادة كتب الله لهم السعادة ، ولما ساروا على طريق الجبن والشتات كتب عليهم الذل والانحطاط .

وقال سبحانه : من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة – ٢٤٥ البقرة) . لا غنى إلا من الله وبالله ، فهو سبحانه مصدر الجود والفيض ، يعطي من سأله ومن لم يسأله تفضلاً منه وكرماً ، ولكن يشترط على من أعطاه أن ينفق من مال الله على المعوزين من عيال الله لمجرد الامتحان والاختبار تماماً كما وهب الانسان القدرة والحرية لتظهر الأفعال التي بها يستحق الثواب والعقاب : « فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، واما من

بخل واستغنى وكذّب الحسنى فسنيسره للعسرى — ١٠ الليل » .

(فبادروا بأعمالكم الخ) .. هذا تفسير وتأكيد لما تقدم في نفس الخطبة ، وهو قوله : « من يتق الله يجعل له مخرجاً ... ويخلده فيما اشتهت نفسه ... فاسعوا في فكاك رقابكم الخ) .. وخلاصته: لن تنالوا الفوز بجوار الله ورسله ، وزيارة ملائكته ، وسلامة الروح والبدن من العذاب والأتعاب إلا بالسير على الطريق السوي ، والعمل الشريف ، وكف الأذى عن الناس ، والوقوف عند حدود الله وحرامه .

الانسان ابن الدنيا :

وتسأل : انك أشرت قبل لحظة الى أن أعلى صوت في نهج البلاغة هو التحذير من الدنيا ، ولا شك في ذلك ، ولكن الإنسان ابن الأرض وجزء من الطبيعة ، وهي تفرض عليه أشياءها وأغراضها ، ولا مفر إلا أن يتأثر بها ، ويسمع لها ويطيع .. حتى النبات والحيوان والجماد تتأثر بالطبيعة ، وتتفاعل معها، وتأخذ منها اللون والحجم والحركة والسكون ، وأي كائن يستطيع الخروج من عالمه وواقعه مهما كانت طاقته وقدرته ، والإمام أعرف الناس بهذه الحقيقة ، وقد أشار اليها في الكثير من أقواله ، ومن ذلك قوله : « الناس أبناء الدنيا ، ولا يلام المرء على حب أمه » . واذن فبأي شيء تجمع بين قوله هذا وقوله : « أحذركم الدنيا فإنها غرارة ضرارة ، أكالة غوالة .. تميد بأهلها ميدان السفينة تقصفها العواصف في لجج البحار » ؟. وأمثال هذا في كلام الإمام طويل وكثير .

الجواب :

أولاً : إن قوله : « لا يلام » ليس معناه لا يُكلّف ، وانما هو مجرد بيان لسبب الحب .

ثانياً : أجل ، لا مفر من مطالب الحياة إلا بالموت .. وعلى الإنسان أن يسعى لها سعيها ، ومن قصر وأهمل فهو مسؤول عن تقصيره،وممقوت عند الله والناس، وقد اشتهر عن الإمام قوله : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً » . ومن آيات الله سبحانه : « ولا تنس نصيبك من الدنيا — ٧٧ القصص » . وقال الرسول الأعظم (ص) : « ليس خيركم من ترك الحياة وطيباتها لغيره » . ولا يختلف

اثنان من علماء المسلمين في وجوب السعي للرزق وسد الحاجة .. والحرام هو الكسب غير المشروع ، والعيش على حساب الآخرين ، وبهذا يتبين معنا ان الدنيا التي ذمها الإمام وحذر منها هي الدنيا الحرام،هي الروح العدوانية . وقد أوضحنا ذلك فيما سبق أكثر من مرة .

هل نهج البلاغة منحول ؟

ختم ابن أبي الحديد شرحه لهذه الخطبة بكلام طويل ، ومن المفيد أن نلخصه بما يلي :

قال قوم أعمت العصبية أعينهم : ان كثيراً من نهج البلاغة منحول ، بعضه يُعزى الى فصحاء الشيعة ، وبعضه الآخر الى الشريف الرضي ، ومن تأمل النهج وجده كله ماءً واحداً ، ونفساً واحدة ، وأسلوباً واحداً ، كالقرآن الكريم ، أوله كأوسطه ، وأوسطه كآخره ، وكل سورة منه وكل آية مماثلة لغيرها في المأخذ والمذهب والفن ، ونهج البلاغة كذلك ، ولو كان بعضه منحولاً وبعضه صحيحاً لم يكن كذلك .. ولو فتحنا هذا الباب لم نثق بقول منقول عن رسول الله ، أو عن أبي بكر وعمر ، ولا عن أحد من الأئمة ، ولوجب الشك في جميع الكتب والدواوين والخطب والرسائل .

الخطبة

-١٨٢-

الأثرم:

أُسكُتْ قَبَّحَكَ اللهُ يَا أَثْرَمُ ، فَوَاللهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلاً شَخْصُكَ . خَفِيًّا صَوْتُكَ ، حَتّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمْتَ نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ .

اللغة:

الأثرم : من كُسرت سنه من أصلها . وضئيلاً : حقيراً صاغراً . ونعر : صاح وصوّت . ونجم : ظهر وطلع .

الاعراب :

شخصك فاعل « ضئيلاً » . وصوتك فاعل « خفياً » .

المعنى:

كان البرج بن مسهر شاعراً خارجياً ، وفي ذات يوم سمعه الإمام (ع) يقول:

لا حكم إلا لله ، فقال له : « اسكت قبحك الله يا أثرم » . اتخذ أصحاب الجمل وصفين قميص عثمان راية لبغيهم ، أما الخوارج فاتخذوا قول : « لا حكم إلا لله » شعاراً لمروقهم ، وفي الخطبة ٤٠ أوضح الإمام أن لله التشريع ، وان على الأمير التنفيذ ، وشرحنا ذلك مفصلاً . ولا جواب لهذا السفيه إلا لعنة الله واللاعنين .

(فوالله لقد ظهر الحق فكنت فيه ضئيلاً الخ) .. إن للحق أهلاً لا يشغلهم عنه شاغل ، وللباطل أهلاً يهتف بهم فيستجيبون ، وما ظهر لهذا السفيه الأثرم أي أثر للحق في قول أو فعل .. حتى اذا ارتفع صوت الباطل لبّى وظهر على المسرح .. وهكذا لا تظهر أسماء الرعاع والصعاليك إلا حين يختل النظام ، وتسود الفتن والمظالم ، وينتشر القتل والسلب .

الخطبة

-١٨٣-

الله ومحمد .. فقرة ١ – ٢ :

الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لاَ تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاظِرُ ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ ، الدَّالِّ عَلى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلى وُجُودِهِ ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلى أَنْ لَا شِبْهَ لَهُ . الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ . وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ . مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلى أَزَلِيَّتِهِ ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلى قُدْرَتِهِ ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلى دَوَامِهِ . وَاحِدٌ لاَ بِعَدَدٍ ، وَدَائِمٌ لاَ بِأَمَدٍ ، وَقَائِمٌ لاَ بِعَمَدٍ . تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لاَ بِمُشَاعَرَةٍ[1] . وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لاَ بِمُحَاضَرَةٍ . لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا ، وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا . لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ امْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً ، وَلَا بِذِي عِظَمٍ

تَنَاهَتْ بِهِ الغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً . بَلْ كَبُرَ شَأْناً ، وَعَظُمَ سُلْطَاناً . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ ، وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْـــهِ وَآلِهِ . أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ ، وَظُهُورِ الْفَلَجِ وَإِيضَاحِ الْمَنْهَجِ ، فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعاً بِهَا . وَحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دَالّاً عَلَيْهَـا . وَأَقَامَ أَعْلَامَ الِاهْتِدَاءِ وَمَنَارَ الضِّيَاءِ . وَجَعَلَ أَمْرَاسَ الْإِسْلَامِ مَتِينَةً وَعُرَى الْإِيمَانِ وَثِيقَةً(٢) .

اللغة :

الميعاد : وقت الوعـــد أو موضعه . والمراد بالأمد هنا الغايـــة . والمرائي : المرئيات والمنظورات . والفلج : الظفر . والمنهج : الطريق الواضح . وصادعاً : مبلّغاً . والمحجة : جادة الطريق أي وسطه . وأمراس : حبال . وعروة الشيء: مقبضه .

الإعراب :

على انْ لا شبه «ان» مخففة ، واسمها ضمير الشأن أي انه لا شبه له ،ومستشهد خبراً لمبتدأ محذوف أي هو مستشهد ، وشأناً تمييز ، ومثله « سلطاناً » .

المعنى :

(الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد) أي الحواس (ولا تحويـــه المشاهد) وهي الأماكن (ولا تراه النواظر) أي العيون ، وعطفها على الشواهد من باب عطف الخاص على العام مثل «من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ــ ٩٨ البقرة » . (ولا تحجبه السواتر) جمع ساتر ،والسر أن الشواهد والمشاهد

والسواتر — من لوازم المرئيات والمسموعات والروائح والمذاقات والملموسات ، والله منزه عن ذلك كله .

(الدال على قدمه بحدوث خلقه الخ) .. الحادث لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده والا كان واجب الوجود ، وهو خلاف الفرض ، وإذن فلا بد لوجوده من سبب خارج عن ذاته ، كما هو الشأن في كل حادث ، وإذا لم يكن السبب الموجب موجوداً بنفسه احتاج الى غيره .. ولا مفر من الانتهاء الى سبب ضروري الوجود يكون سبب الأسباب وإلا بقي كل شيء طي الكتمان . وتقدم ذلك في شرح الخطبة ١٥٠ (وباشتباههم على ان لا شبه له) . كل المخلوقات يجمعها قاسم مشترك ، وهو انها لم تكن من قبل ثم حدثت وكانت ، ويستحيل أن يكون مبدعها من نوعها وشكلها وإلا لزم أن يكون الشيء علة لنفسه. وتقدمت هذه الجملة بحروفها في الخطبة ١٥٠ .

(الذي صدق في ميعاده) لأنه لا يخلف الميعاد لحكم العقل بقبح الكذب والخلف (وارتفع عن ظلم عباده) لحكم العقل بقبح الظلم (وعدل عليهم بحكمه). أمضى حكمه على جميع خلقه بالعدل ايجاداً وتكليفاً وثواباً وعقاباً (مستشهد بحدوث الأشياء على أزليته) كقوله : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب — ١٩٠ آل عمران ». وأشرنا الى وجه الاستدلال في شرح قوله : « الدال على قدمه بحدوث خلقه » .

مذهب ديكارت :

(ومما وسمها به من العجز على قدرته الخ) .. ما من كائن في السماوات والأرض — غير الله — إلا وفيه جهة نقص ، فالجماد تنقصه الحياة ، والنبات ينقصه الشعور ، والحيوان ينقصه العقل ، والإنسان يفنى. ويزول .. بالإضافة الى ان كل ممكن يفتقر الى سبب موجب لتكوينه ووجوده ، وبقائه واستمراره ، ويستحيل أن يكون السبب الأول للإيجاد والاستمرار ناقصاً في جهة من الجهات ، بل لا بد أن يكون كاملاً من كل وجه ، وان يكون كماله ذاتياً لا مكتسباً وإلا كان السبب من نوع المسبب ، ومن البداهة أن الشيء لا يكون علة وسبباً لنفسه .

ويومىء هذا الى مذهب الفيلسوف الفرنسي ديكارت الذي استنتج من إدراكه

لنفسه أنه ناقص ومحدود ، ومعنى هذا — عند ديكارت — أن في ذهنه فكرة سابقة عن الكامل المطلق القائم بذاته ، ولولا هذه الفكرة لاستحال عليه أن يتصور الناقص ، لأن الأشياء تتميز بأضدادها ، والفكرة عن الكامل لم تحدث جزافاً وبلا سبب ، والانسان لم يوجدها في ذهنه ، وإذن فالذي أوجدها هو الكامل بذاته من كل وجه،أي الله الأزلي الأبدي العليم بكل شيء القادر على كل شيء .

(واحد لا بعدد) . للوحدة أقسام ، منها الوحدة بالجنس والنوع ، ومنها الوحدة بالزمان والمكان ، والله منزه عن ذلك كله ، فهو واحد بوجوده ذاتاً في الأزل والأبد ، وواحد في كماله المطلق من كل وجه ، ليس كمثله شيء ، أما صفاته فهي بكاملها موجودة بوجود واحد (ودائم لا بأمد) . لا أمد ولا نهاية لوجوده ، ومن هنا يصح التعبير عنه باللامتناهي (وقائم لا بعمد) أي لا سبب لوجوده خارج عن ذاته .

(تتلقاه الأذهان لا بمشاعرة) . المراد بالمشاعرة هنا الإدراك المباشر ، والمعنى ان العقل يدرك وجود الله بآثاره وتوسط مبدأ العلّية — مثلاً — إذا رأيت إنساناً يكتب فإن عقلك يحكم بوجود الكاتب معتمداً في حكمه هذا على رؤية البصر وحدها بلا توسط مبدأ العلية أو غيره ، وتسمى هذه المعرفة بديهية ووجدانية وتجريبية ، وهذه المعرفة لا يمكن تصورها في حقه تعالى .

أما إذا رأيت كتابة ولم تر الكاتب فإن عقلك يحكم بوجود الكاتب معتمداً على رؤية البصر للكتابة ، وعلى مبدأ العلية معاً ، وليس على رؤية البصر وحدها كما لو رأيت الكاتب بالذات ، ومثله حكم العقل بوجوده تعالى ، ترى العين الخلق والآثار فيحكم العقل بوجود الخالق والمؤثر استناداً الى مبدأ العلية . ومن أنكر وجود الله لا يعترف بهذا المبدأ ، ويزعم ان تتابع الحوادث لا يدل على ان السابق علة للأحق .. وجوابنا أن العلماء كانوا وما زالوا يلاحظون الحوادث ، ويستنتجون من تكرار وجود اللاحق مع السابق والترابط بينهما في الوجود ، يستنتجون من ذلك قواعد كلية ينتقلون من العلم بها الى معرفة ما كانوا يجهلون، ولولا مبدأ العلية لكان هذا الاستنتاج جهلاً وضلالاً .

(وتشهد له المرائي لا بمحاضرة) . المراد بالمرائي الأشياء المرئية، وبالمحاضرة الحضور والحلول ، والمعنى ان ما نراه من الكائنات يدل على وجود الله ، ولكن

وجوده تعالى غير متحد مع وجود الكائنات ، كما يقول أصحاب وحدة الوجود، بل مستقل عنها ، وأسمى منها وأرفع (ولم تحط به الأوهام بل تجلى لها بها) . إن الله سبحانه لا يتجلى للعقول بذاته ، بل بآثاره ، فضمير «لها» يعود للأوهام – أي العقول – يعود لها لفظاً ومعنى اما ضمير «بها» فإنه يعود للآثار معنى ، وللأوهام لفظاً لوجود العلاقة بين الأثر والمؤثر .

(وبها امتنع منها) . إن العقول نفسها هي التي حكمت وجزمت بأن ذاته تعالى لا تتجلى للعقول ، وان الذي يتجلى هو الآثار (واليها حاكمها) . وان زعم ذو عقل سقيم بأن ذاته، تباركت أسماؤه ، تتجلى للعقول – حاكمه الى ذي عقل سليم (ليس بذي كبر الخ) .. الله سبحانه كبير وعظيم شأناً وجلالاً ، وسلطاناً وكمالاً ، لا طولاً وعرضاً ، وعمقاً وشكلاً .

(وأشهد أن محمداً الخ) .. اختاره الله لنفسه ، وارتضاه أميناً على وحيه (أرسله بوجوب الحجج) أي ان العقل يُلزم بكل ما جاء به محمد (ص) لأنه لخير الانسان جمعاء : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ١٠٧ الأنبياء » . وقال الرسول (ص) : جئت لأتمم مكارم الأخلاق (وظهور الفلج) أرسل الله محمداً لإعلاء كلمة الحق (وإيضاح المنهج) وهو الطريق القويم السليم (فبلغ الرسالة صادعاً بها) .ؤدياً لها على أكمل وجه (وحمل على المحجة دالاً عليها) شهد التاريخ أن المسلمين نجحوا في علوم شتى،وان الحضارة الحديثة ثمرة من ثمار علوم المسلمين، والفضل الأول لمحمد ورسالة محمد (ص) . (وأقام اعلام الاهتداء ، ومنار الضياء) عطف تفسير على « حمل على المحجة دالاً عليها » . (وجعل أمراس الإسلام الخ).. أقام محمد (ص) دينه على أمتن الأصول وأقوى الأركان ، واذا تخلف المسلمون كأكثر ما يكون التخلف فإن العيب فيهم ، وليس في دينهم .

من تفكر أبصر . فقرة ٣ – ٤

وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ ٱلْقُدْرَةِ وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ وَلٰكِنِ ٱلْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ ، وَٱلْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ .

أَلاَ تَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وَسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ. انْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لاَ تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ، وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكْرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وُرُودِهَا لِصَدَرِهَا، مَكْفُولَةٌ بِرِزْقِهَا مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا. لاَ يُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ وَلَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ[٣]. وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا فِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً. فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا، لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعِنْهُ فِي خَلْقِهَا قَادِرٌ. وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلاَلَةُ إِلاَّ عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اخْتِلاَفِ كُلِّ حَيٍّ، وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ إِلاَّ سَوَاءٌ[٤].

اللغة:

البصائر مدخولة: طرأ عليها خلل. والبشر: جمع بشرة، وهي ظاهر

الجلد . والصدَّر — بفتح الدال — الرجوع بعد الورود . والوفق — بكسر الواو — ما يوافق ويلائم . والصفا : الأملس . والجامس : الجامد . والشراسيف : جمع شرسوف — بضم الشين — طرف الضلع اللين المشرف على البطن .

الإعراب :

كيف دبت « كيف » في موضع الحال ، ومكفول بالرفع خبر لمبتدأ محذوف أي هي ، وبالنصب حال ، وعجباً مفعول من أجله لقضيت ، وتعباً مفعول به للقيت ، وسواء خبر الجليل وما بعده .

المعنى :

(ولو فكروا في عظيم — الى — الحريق) . اذا حركت عقلك نحو الكون العجيب ، ونظرت ما فيه من إحكام وتدبير — فإنك ، لا محالة ، تفهم وتدرك من قدرة الخالق ما يدلك على عظمته ، ويملأ نفسك هيبة ورهبة من سطوته وحسابه وجزائه (ولكن القلوب عليلة ، والبصائر مدخولة) لا ترى إلا لذة عاجلة ، ونشوة عابرة .

(ألا ينظرون الى صغير ما خلق الخ) .. ما من شيء في الكون كَبُر أم صغُر ألا وهو آية تدل على وجود الله وعظمته ، وانه واحد لا شريك له في خلقه وصفاته ، وقد ضرب الإمام مثلاً على عظمته تعالى بأصغر مخلوق يدب على الأرض ، وهو النملة التي توجد في غرفتي وغرفتك ، وفي رؤوس الجبال ، والحديقة والصحراء وغيرها ، وتذهب الى رزقها المكفول لها بالسعي ، وتهتدي الى مكانه الذي أودعه الله فيه تماماً كما يهتدي الانسان الى محل طعامه وشرابه ، تهتدي النملة الى رزقها ببصرها وبصيرتها ، أو بغريزتها أو بالإلهام ، كما نقول نحن . كل ذلك بهداية بصير قدير .

ومن جملة ما قرأت أن في بعض الفصول يكثر طعام الأسماك في جانب خاص من المحيط الأطلسي ، وان الأسماك في هذا الموسم تأتيه من كل جانب ، وتقطع مئات الأميال ، وان الفيران تلقي بنفسها في البحر طلباً لهذا الرزق !. وفي كتاب

« الظاهرة القرآنية » لمالك بن نبي : ان النمل الأمريكي يغادر مساكنه قبل اندلاع الحريق فيها بليلة ، وان في جنوب قسنطينة نوع من الحيوانات القارضة تبرح أمكنتها قبل الكوارث الطبيعية ، فهل هذا من باب الصدفة ، أو ان حكمة الله سبحانه أعطت لهذه المخلوقات وغيرها ما أعطت للإنسان ؟ (وما الجليل واللطيف – أي الكبير والصغير – والثقيل والخفيف ، والقوي والضعيف إلا سواء) في القوانين الثابتة الراسخة التي تشمل وتعم جميع الخلائق على تباينها واختلافها حجماً وطبيعة وشكلاً ، وهل من تفسير معقول لهذه الوحدة إلا بإرادة حكيمة واحدة، وقدرة واحدة ، وان خالق النملة هو خالق النخلة ، كما قال الإمام ؟

وكتب أهل الاختصاص كثيراً عن النمل وتدبيرها وادخارها وتعاونها ونظامها المحكم في الاقتصاد والاجتماع ، وكلها تبعث الدهشة ، وتدل بوضوح على إرادة حكيم قدير ، وأعجب ما في النمل على الاطلاق ما حكاه سبحانه عن نملة سليمان في الآية ١٨ من سورة النمل: «قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون» ومكان العجب أن تشفق هذه الذرة على قومها من بأس الجنود الذين جاسوا خلال الديار .. وأن لا يشعر إنسان عاقل بآلام قومه ، وان يبيعهم بثمن بخس لعدوه وعدوهم يمتص دماءهم ويسلب أقواتهم ويهلك الحرث والنسل !.

وفي بداية الخمسينات من هذا القرن اضطر الاستعمار بضغط من حركات التحرر أن يخرج بجنوده من مستعمراته ، ولكنه بحث عن نوع جديد من الاستعمار يكون أكثر أمناً ، وأقل كلفة ، واهتدى الى الخونة من أبناء البلاد ، فأقام منهم قواعد لسيطرته واستغلاله .. وشهد هؤلاء المارقون على أنفسهم – بهذه الصفقة الغادرة – انهم أصغر من النملة وأحقر .

لا بناء بلا بان .. فقرة ٥ – ٧ :

وَكَذٰلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ وَالرِّيَاحُ وَالْمَاءُ . فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ وَاخْتِلَافِ هٰذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَتَفَجُّرِ هٰذِهِ الْبِحَارِ ، وَكَثْرَةِ هٰذِهِ الْجِبَالِ ، وَطُولِ هٰذِهِ الْقِلَالِ وَتَفَرُّقِ

هذِهِ اللغَاتِ ، وَالألسُنِ المُخْتَلِفَاتِ . فَالوَيْلُ لِمَنْ جَحَدَ المُقدِّرَ وَأنكَرَ المُدَبِّرَ . زَعَمُوا أنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ . وَلَمْ يَلْجَأُوا إلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوا ، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا أوْعَوا . وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ ، أوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ(٥) . وَإنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الجَرَادَةِ إذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ . وَأسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ . وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الخَفِيَّ ، وَفَتَحَ لَهَا الفَمَ السَّوِيَّ ، وَجَعَلَ لَهَا الحِسَّ القَوِيَّ ، وَنَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ ، وَمِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ ، يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا . وَلَوْ أجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ ، حَتَّى تَرِدَ الحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا ، وَتَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِهَا . وَخَلْقُهَا كُلُّهُ لَا يَكُونُ إصْبَعاً مُسْتَدِقَّةً(٦) . فَتَبَارَكَ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ، وَيَعْنُو لَهُ خَدًّا وَوَجْهاً ، وَيُلْقِي إلَيْهِ بِالطَّاعَةِ سِلْماً ، وَيُعْطِي لَهُ القِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفاً . فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأمْرِهِ . أحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَالنَّفَسِ ، وَأرْسَى قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى وَاليَبَسِ . وَقَدَّرَ أقْوَاتَهَا ، وَأحْصَى أجْنَاسَهَا . فَهَذَا غُرَابٌ وَهٰذَا عُقَابٌ . وَهٰذَا حَمَامٌ وَهٰذَا نَعَامٌ . دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ ، وَكَفَلَ لَهُ بِرِزْقِهِ . وَأنْشَأَ السَّحَابَ الثِّقَالَ فَأهْطَلَ دِيَمَهَا وَعَدَّدَ قِسَمَهَا ، فَبَلَّ الأرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا ، وَأخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا(٧) .

اللغة :

القلال : جمع القلة – بضم القاف – الجبل وأعلى كل شيء . وأوعوا : من الوعي ، وهو الحفظ والتدبر . وقراوين : مضيئين . والسوي : الكامل لا عيب فيه . والمنجل : آلة من حديد يُحصد بها الزرع ، والمراد بمنجلين هنا رجلا الجرادة لاعوجاجها كالمنجل . والنزوات : الوثبات . والديم : جمع الديمة ، وهي مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق . والجدوب والجديب والمجداب : الماحل ، والجدب والمحل والفقر بمعنى .

الإعراب :

كذلك خبر مقدم ، والسماء مبتدأ مؤخر ، والقلال عطف بيان من هذه ، والويل مبتدأ ، وما بعده خبر ، ويكون تامة ، وبناء فاعل ، ومن غير بان صفة لبناء ، وطوعاً في موضع الحال أي طائعاً ، ومثله سلماً أي مسالماً ، ورهبة مفعول من أجله .

المعنى :

(وكذلك السماء والهواء الخ) .. كل ذي بصر وبصيرة اذا نظر الى أية ظاهرة من ظواهر الكون خشع وآمن بعظمة المبدع والمصور ، إما ايماناً كإيمان العجائز لا يفلسف ولا يسأل إلا قلبه الذي يشع بالنور ، ويسخر من الفيلسوف والمتفلسف في هذا الباب .. وألف طوبى لمن يملك هذا القلب ، وإما ايماناً قائماً على ان العقل لا يمكن أن يتصور هذا الكون العجيب بأرضه وسمائه ، وقانونه ونظامه ، دون أنّ يكون وراءه حي قيوم خلق فسوّى ، وقدّر فهدى .. ان المادة صماء عمياء لا روح فيها ولا شعور ، ولا أغراض لها ولا غايات ، ويستحيل أن تتحرك من غير محرك ، فكيف ينسب اليها الخلق والإبداع والتنظيم والتدبير؟.

(=زعموا انهم كالنبات الخ) .. على المزابل والقذارات ، وانها هي خلقت الانسان في أحسن تقويم ، وجعلت له السمع والبصر والفؤاد ، وكل الطاقات التي

صعدت به الى القمر ، وفعل بها المعجزات !. ولا أدري : هل اعتمد هؤلاء الزاعمون على التجربة والمشاهدة ، أو على حقائق العقل ونظرياته ؟. وردّ سبحانه عليهم بقوله : « أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون — ٣٦ الطور » . وما من أحد ادعى انه خُلق من غير شيء ، أو قال : أنا خلقت نفسي والكون ، ولكن لا فرق بين من زعم انه كالنبات ، وبين من قال : انه خُلق من غير إرادة قادرة ومدبرة ، وانه هو خلق نفسه والكون بما فيه .

(وان شئت قلت في الجرادة الخ) .. ضرب الإمام مثلاً على عظمة الله سبحانه بأصغر مخلوق من دنيا الحيوانات أو الحشرات التي تدب على الأرض ، وهي النملة ، ثم ضرب مثلاً بأصغر مخلوق من دنيا ما يطير ، وهو الجرادة التي تحيّر الألباب بسمعها وبصرها وفمها ونابيها ورجليها وإلهامها ، وكيف يخافها الزارعون على زرعهم وحقولهم مع ان حجمها لا يبلغ الاصبع الصغيرة الدقيقة .. ولو خرجنا من دنيا ما يدب على الأرض ، وما يطير في الهواء — الى دنيا ما يسبح في الماء وما فيه من عجائب ، ومنه الى دنيا النبات والحشائش وحجمها وأوراقها وورودها وريحها وطعمها ، ومنها الى غيرها مما لا يبلغه الاحصاء — لو فعلنا ذلك لامتد الحديث عنها سنوات دون أن نبلغ الغاية ونصل الى النهاية : « ولو ان ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم — ٢٧ لقمان » .

فمن الذي خلق فسوّى ، وقدّر فهدى ؟ المادة العمياء ، أو الصدفة الهوجاء ، أو النشوء والارتقاء . وان قلت : الأسباب الطبيعية، قلنا : ان الله أودع هذه الأسباب في الطبيعة ، وتقدم ذلك مفصلاً .

(فتبارك الله الذي يسجد له من في السموات والأرض الخ) .. المراد بالسجود وتعفير الخدود هنا الخضوع ، وبالطوع والكره والسلم والخوف انقياد الأشياء كلها لأمر الله في شتى الأحوال لا في حال دون حال ، وقوله : أحصى عدد الريش والأجناس أي أحاط بكل شيء علماً ، وقوله : أرسى القوائم ، وقدر الأقوات، وأنشأ السحاب وعدّد قسمها — كناية عن قدرته تعالى وعلمه وحكمته ، أما ذكر الغراب والعُقاب — طائر من الكواسر — والحمام والنعام — فإنه لمجرد

التمثيل والاستشهاد على القدرة والحكمة الإلهية ، والقصد الأول والأخير هـو ان نعلم ونؤمن بأنه لا إله إلا الله العزيز الحكيم ، والقدير العليم .

وقلنا فيما سبق ونكرر ان مجرد العلم والإيمان بالله لا يجدي شيئاً إلا مع العمل الصالح ، قال الإمام الصادق (ع) : الإيمان عمل كله ، ولا يثبت للإنسان إيمان إلا بالعمل .

الخطبة

- ١٨٤ -

في صفاته تعالى .. فقرة ١ – ٤ :

مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ . وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ . وَلَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ . كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ . وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ . فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ . مُقَدِّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ . غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ . لَا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ ، وَلَا تَرْفِدُهُ الْأَدَوَاتُ ، سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ . وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ . وَالِابْتِدَاءَ أَزَلُهُ . بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ . وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ . وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ . ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ ، وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ ، وَالْجُمُودَ بِالْبَلَلِ ، وَالْحَرُورَ بِالصَّرَدِ[1] . مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا . مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا . مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا .

لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ ، وَلَا يُحْسَبُ بِعَدٍّ ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ ٱلْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا ، وَتُشِيرُ ٱلْآلَةُ إِلَى نَظَائِرِهَا . مَنَعَتْهَا مُنْذُ ٱلْقِدَمِيَّةَ ، وَحَمَتْهَا الْأَزَلِيَّةَ . وَجَنَّبَتْهَا لَوْلَا التَّكْمِلَةَ . بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ ، وَبِهَا ٱمْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ ٱلْعُيُونِ . لَا يَجْرِي عَلَيْهِ ٱلسُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ . وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ . إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ ، وَلَامْتَنَعَ مِنَ ٱلْأَزَلِ مَعْنَاهُ . وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ . وَلَالْتَمَسَ ٱلتَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ . وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ ٱلْمَصْنُوعِ فِيهِ ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ . وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ ٱلِامْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ[٢] ٱلَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأُفُولُ . وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً ، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً . جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ ٱلْأَبْنَاءِ ، وَطَهُرَ عَنْ مُلَامَسَةِ ٱلنِّسَاءِ . لَا تَنَالُهُ الْأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ ٱلْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ . وَلَا تُدْرِكُهُ ٱلْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ وَلَا تَلْمِسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسَّهُ . لَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ ، وَلَا يَتَبَدَّلُ بِالْأَحْوَالِ وَلَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ ، وَلَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلَامُ . وَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ . وَلَا بِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ وَالْأَبْعَاضِ . وَلَا يُقَالُ لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَايَةٌ ، وَلَا ٱنْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ . وَلَا أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ ، فَتُقِلَّهُ أَوْ

تَهْوِيَهُ ، أَوْ أَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ فَيُمِيلَهُ أَوْ يُعَدِّلَهُ(٣) . لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ ، وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٍ . يُخْبِرُ لَا بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ ، وَيَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ وَأَدَوَاتٍ . يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ ، وَيَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ ، وَيُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ . يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ . يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ كُنْ فَيَكُونُ . لَا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ ، وَلَا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ . وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ . وَمِثْلُهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِناً ، وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلَهاً ثَانِياً . لَا يُقَالُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ فَتَجْرِيَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ ، وَلَا يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَصْلٌ ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ ، فَيَسْتَوِيَ الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ ، وَيَتَكَافَأَ الْمُبْتَدِىءُ وَالْبَدِيعُ(٤) .

اللغة :

صمده : قصده . وتوهمه : تمثله . وترفده : تعينه . والمشاعر : الحواس ، وتشعيرها جعلها تشعر وتنفعل . والحرور — بضم الحاء — الريح الحارة . والصرد: البرد . والمتعاديات: المتضادات . والمتدانيات : المتماثلات . ولهوات : جمع لهاة، وهي لحمة في سقف أقصى الفم .

الإعراب :

فاعل خبر لمبتدأ محذوف أي هو فاعل ، ومثله مؤلف ، وأن لا مشعر أي أنّه لا مشعر ، ومنذ لابتداء الزمان ، وقد للتقريب ، ولولا لامتناع شيء عند

وجود غيره ، وكل كلمة من هذه الثلاث فاعل للفعل الذي قبله على الحكاية ودليلاً منصوب بنزع الخافض أي لتحول الى دليل .

المعنى :

كل ما ذكره الإمام هنا من صفات الله سبحانه ، تقدم مراراً بالحرف أو بالمعنى ، ولذا نوجز في الشرح ما أمكن (ما وحّده من كيّفه) . اذا قلت : كيف فلان ؟ فإنك لا تسأل عن ذاته ، بل عما يعرض لها من الأحوال كالعسر واليسر ، والصحة والسقم ، ومعنى هذا أن الذات المسؤول عنها محل للأحداث ، وانها تتغير وتتبدل من حال الى حال .. والله سبحانه واحد وكامل من كل وجه يستحيل في حقه التغيير والتحويل ، لأنه فوق الأشياء،وخالق الأحوال والأحداث، قال الرسول الكريم (ص) الكيف مخلوق ، والله لا يوصف بخلقه ، وقال الإمام الصادق (ع) : من نظر الى الله كيف هو فقد هلك .

(ولا حقيقته أصاب من مثّله) . كل صورة ترسمها في خيالك فهي صورة لجسم يُرى ويُحس وإلا استحال الرسم والتشخيص ، وهل يوجد ظل وشبح لغير المادة ؟. والله سبحانه منزه عن ذلك . قال الملاصدرا : إن كان ما تصورته لذات الله مطابقاً للواقع يلزم أن يكون الله جسماً محدوداً ، وهو محال ، وإن لم يطابق فهو كذب وسراب (ولا اياه عنى من شبّهه) . لأنه لا شبيه له ولا ضد (ولا صمده من أشار اليه وتوهمه) . كل الإشارات بشتى أنواعها لا تكون إلا للمحسوسات ، والله فوقها ومنزه عنها ، وفي كلمات أهل البيت : إن أوهام العقول أدق من أبصار العيون ، وأوهام العقول لا تدرك الله فكيف بأبصار العيون ؟.

(وكل معروف بنفسه مصنوع). المراد بالمعروف بنفسه المعلوم بذاته وحقيقته لا بأفعاله وآثاره . ومن البداهة ان معرفة الشيء بكنهه وحقيقته تتوقف على معرفة العناصر التي تكوّن منها ، ومعنى هذا ان المعروف بالذات والكنه مركب ، والمركب مفتقر الى أجزائه والى من يؤلف بينها أيضاً،فيكون والحال هذه ، ممكن الوجود (وكل قائم في سواه معلول) . اذا كان الشيء لا يحمل في طبيعته سبب وجوده فهو مفتقر الى علة لأصل وجوده وحدوثه ، ولبقائه واستمراره (فاعل

لا باضطراب آلة) بل بكلمة «كن» .. هذا ، الى انه خالق الآلات ، والخالق لا يوصف بخلقه (مقدّر لا بجولة فكر) . هذا من باب السالبة بانتفاء الموضوع ، كما يقول أهل المنطق ، حيث لا فكر من الأساس كي يتأمل ويفكر في النظريات والتطبيقات : « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .

(غني لا باستفادة) بل بذاته ، كما هو الشأن في واجب الوجود (لا تصحبه الأوقات) لأن الزمان يزول ويتغير ، والصاحب معتبر بصاحبه (ولا ترفده الأدوات) لأنه غني بالذات ، وخالق الأدوات ، والخالق لا يوصف بخلقه (سبق الأوقاتَ كونه) . لأنه قبل كل شيء بالأزلية ، ومنه كل شيء بالافتقار والعلّية (والعدم وجوده ، والابتداء أزله) . الله هو الأول بالوجوب والقدم ، واذن فهو منزه عن العدم من قبل ومن بعد (وبتشعيره المشاعر عرف ان لا مشعر له). خالق الانفعال لا ينفعل ، لأن الخالق لا يوصف بخلقه (وبمضادته بين الأمور عرف أن لا ضد له) . كل من له ضد ينازعه ويزاحمه فهو مخلوق ناقص يفتقر الى خالق كامل لا يضاده ويزاحمه شيء وإلا كان مخلوقاً (وبمقارنته بين الأشياء عرف ان لا قرين له) . وأيضاً من كان له مساوٍ ونظير في شيء فهو لا يمتاز عن شريكه في ذلك الشيء ، ومعنى هذا انهما يستمدان هذا التشابه من مصدر واحد لا شبيه له وقرين . وبكلمة ثانية : إن الذي خلق الأشباه والأضداد لا شبه له ولا ضد ، لأن الخالق لا يوصف بخلقه .

(ضاد النور — الى — متدانياتها) . هذه أمثلة للمتضادات والمتشابهات ، وانه تعالى قد جمع وألّف بين الأضداد ، وفرّق وباعد بين الأشباه ، ذاك الاتصال ، وهذا الانفصال ، وهما يدلان على قدرته تعالى وعظمته ، وانه فوق الأضداد والأشباه ، وإن قال قائل : إن حركة المادة هي التي فصلت الشبيه عن مثله ، وجمعت الضد الى ضده قلنا في جوابه : إن الله سبحانه هو الذي خلق المادة ، وأودع فيها الحركة التي توصل وتفصل : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً — ٢ الفرقان » . (لا يشمل بحد) أي لا يكشف عن ذاته وحقيقته تعالى أي تعريف بالغاً ما بلغ من التطويل والتفصيل ، لأن من شروط الحد والتعريف أن يكون مساوياً للمحدود والمعرف ، وذاته تعالى لا أول لها ولا آخر ، فكيف تُحد وتُعرف بالمحدود والمباين ؟.

(ولا يحسب بعد) ان الله واحد لا بقسمة وكثرة ، بل بعدم المثيل والنظير

« ليس كمثله شيء وهو السميع البصير — ١١ الشورى » . (وانما تحد الأدوات أنفسها ، وتشير الآلات الى نظائرها) . الأدوات والآلات شيء واحد ، والمراد بأنفسها أجناسها وأنواعها، والمعنى ان الحواس تكون طريقاً لمعرفة الشيء المحسوس، أما غير المحسوس فـلا طريق للعلم بوجوده إلا العقل بسبب الآثار ومبدأ العليّة (منعتها منذ القِدميّة ، وحمتها قد الأزلية ، وجنبتها لولا التكملة) هاء التأنيث في الأفعال الثلاثة للأدوات والآلات ، أو لجميع المخلوقات بقرينة السياق ، والمعنى ان كلّ حادث يقال في حقه : وُجد منذ كذا ، وقد كان بعد أن لم يكـن ، ولولا الحدوث مـا ساغ وجود « منذ وقد » كما ان وجودهما يمنع من القـدم والأزلية ، وأيضاً وجود « لولا » يمنع من الكمال والتمام . وبالتالي فـلا تجري في حقه تعالى كلمة « منذ ولولا وقد » بالمعنى الذي أشرنا اليه .

(وبها تجلى صانعها للعقـول) أي بالأدوات والحواس ، أو بالخلق والآثار تدرك العقول وجود الله بضميمة مبدأ العلية (وبها امتنع عن نظر العيون) ضمير « بها » يعود الى العقول التي حكمت وجزمت بأنه تعالى لا يدرك بالحس ، وسبق الكلام عن ذلك في العديد من الخطب ، وآخرها الخطبة ١٨٣ عند قول الإمام: « تتلقاه الأذهان لا بمشاعرة » وقوله : « وبها امتنع منها » .

(ولا يجري عليه السكون والحركة) . لا يتصف سبحانه بالسكون والحركة لأمور :

١ — (وكيف يجري عليه ما هو أجراه) . انه تعالى خالق الحركة والسكون، والخالق لا يتصف بخلقه بحكم البديهة .. وقوله : يعود .. ويحدث .. عطف تفسير على قوله : يجري عليه .

٢ — (واذن لتفاوتت ذاته) لو جرى عليه تعالى السكون والحركـة لكانت ذاته متغيرة ساكنة تارة ، وطوراً متحركة ، ولا تارات واطواراً لله سبحانه .

٣ — (ولتجزأ كنهه) أي لو اتصف بالحركة والسكون لكانت حقيقته تعالى مركبة منها والمركب مفتقر لأجزائه ، ولفاعلٍ يؤلف بينها ، والله غني بالذات، وغيره مفتقر اليه .

٤ — (ولامتنع من الأزل معناه) . الله قديم أزلاً ، دائم أبداً ، والمركب حادث وجوداً ، والى أجل .

٥ — (ولكان له وراء إذ وُجد له إمام) . المتحرك ينتقل من وضع حاضر الى مستقبل،والحاضر يصير ماضياً والماضي يُدبر فيكون وراء ، والمستقبل يقتحم فيكون أماماً ، والله منزه عن الاقبال والادبار ، والتغير من حـال الى حال ، وعن الجهات والأوقات .

٦ — (ولالتمس التمام إذ لزمه النقصان) . السكون نقص لأنه موت وعدم، والحركة التماس للكمال ، والله كامل بالذات ، وكماله مطلق من كل وجه (ولإذن لقامت آية المصنوع فيه ، ولتحول دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليـه) أي ان السكون والحركة هما من العلامات الدالة على وجود الصانع والمؤثر حركةً وسكوناً، ولو اتصف بهما خالقها وموجدهما لانعكس الأمر ، وصار المؤثر أثراً ، والخالق مخلوقاً ، والمدلول عليه بالآثار دليلاً (وخرج بسلطان الامتناع من أن يؤثر فيه ما يؤثر في غيره) . الله أجل وأرفع من أن يؤثر فيه ، ويفعل به غيره ما فعل هو بغيره ، كيف ؟ وهل يخلق الفعل فاعله ، والبناء من بناه ؟.

(الذي لا يحول ولا يزول ولا يجوز عليـه الأفول) . انه تعالى منزه عن قبول التغيرات .. أبداً لا يحدث فيـه شيء كان معدوماً ، ولا يعدم منه شيء كان موجوداً .. انه يحيي الأموات ، ويميت الأحياء ، وهو حي دائم لا يموت (لم يلد فيكون مولوداً ، ولم يولد فيصير محدوداً) . لو جاز أن يكون سبحانه والداً لجاز أيضاً أن يكون ولداً ، وان قال قائل : ان آدم والد لغيره ، وليس ولداً لأحد — قلنا في جوابه : ان آدم تولد من الأرض بقـدرة الله ، وان لم يتولد بالتناسل المعروف .. هـذا ، الى أن آدم محدود بدايةً ونهاية . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وتقدم مثله مع الشرح مفصلاً في الخطبة ١٨٠ (جل عن اتخاذ الأبناء الخ) .. والنساء ، لأنـه غني بذاته عن كل شيء .

(لا تناله الأوهام — الى — ما يعدّله) . ذات الله لا تدرك بحس ولا بعقل ويُدرك وجوده تعالى بمنطق الحس والعقل معـاً : فالأول يرى الخلق والآثار ، والثاني يحكم بوجود المؤثر مستنداً لمبدأ العلية ، وذاته جل وعلا هي قوة عليا وراء الطبيعة ، وليست من جنسها في شيء ، انها دائمة سرمدية لا بداية لها ولا نهاية، لا يحويها أو يحملها شيء ، بل هي فوق الأشياء ، ولو حملهـا أو حواها شيء لمالت بحركاته يمنة ويسرة ، وعلواً وانخفاضاً ، وأيضاً هي قوة عالمة وحكيمة ،

وقادرة عادلة ، تفعل وتُشرّع ، وتثيب وتعاقب، وتسمع الشكوى ، وتكشفها ان شاءت .

(ليس في الأشياء بوالج ، ولا عنها بخارج) . انه تعالى مع الأشياء ، وغير بعيد عنها ، لأنه خالقها ومدبرها وعالم بأحوالها ، ولأنها تفتقر الى رحمته وعنايته، ولو تخلى عنها لحظة لم تكن شيئاً مذكوراً ، وهو سبحانه بعيد عن الأشياء بذاته الغنية عن كل شيء ، وصفاته التي ليس كمثلها شيء (يخبر لا بلسان ولهوات). غيرُ الله يتكلم بلسان ، أما هو ، جل وعز ، فيخلق الكلام في لسان من ارتضى من رسول ، أو ما شاء من خلقه ، فالكلام بالنسبة اليه تعالى كالرزق من الصفات الإضافية لا الذاتية . قال الشيخ محمد عبده : « كلام الله حادث عند جميع الفرق ما خلا جماعة من الحنابلة » فإنهم قالوا : كلام الله صفة له، وكل ما هو صفة له فهو قديم . وتقدم مثله في الخطبة ١٨٠ .

(ويسمع لا بخروق وأدوات) لأنه ليس بجسم ، ومعنى سمعه تعالى علمه بالمسموعات : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد — ١٨ ق » . (يقول ولا يلفظ) بل يخلق الكلام ، كما أشرنا (ويحفظ) أي يراقب ويدبر (ولا يتحفظ) لا يحتاط ويحترس ، لأن الحراسة والتحفظ مصدرهما الخوف .. ولا أمن وسلام إلا بالله ومن الله ، وقد وصف سبحانه نفسه بـ « السلام المؤمن — ٢٣ الحشر » . (يريد ولا يضمر) . ولماذا الإضمار والإسرار ما دام يقول للشيء كن فيكون (يحب ويرضى الخ) . ومن البداهة أن حبه تعالى ورضاه هو إنعامه ورحمته ، وإن بغضه وغضبه هو عذابه ونقمته ، أما الرقة والمشقة فمن صفات الممكن الحادث ، لا من صفات الواجب القديم .

(يقول لمن أراد كونه الخ) .. يشير بهذا الى الآية ٨٢ من سورة يس : « انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » . « وانما كلامه فعل منه الخ » .. أشرنا الى انه تعالى يخلق الكلام كما يخلق سائر الأشياء ، ولو كان كلامه صفة ذاتية له لكان قديماً مثله ، ويلزم من ذلك تعدد الآلهة (لا يقال كان الخ) .. في كان ضمير مستتر يعود اليه تعالى ، لا الى كلامه ، والمعنى ان الله هو الأول بالقدم والأزلية ، والآخر بالأبدية والسرمدية ، ولو كان له أول لكان هو والمخلوق سواء ، لا يمتاز عنه بفضيلة ، ولا له عليه من فضل ، ونكرر القول : إن الخالق لا يوصف بخلقه .

وتسأل : كيف لا يوصف الخالق بخلقه مع العلم بأن الله يوصف بالـــوجود وكذلك جميع الكائنات ، وأيضاً يوصف بالحياة ، وبها يوصف كل ذي روح ، ويوصف سبحانه بالعلم ، وكثيراً غيره ؟

الجواب :

ان صفاته تعالى تخالف صفات المحدثات من وجوه : أولها ان صفاته أصل ، وصفاتها فرع ورشحة من فيضه . ثانيها ان صفاته ضرورية الثبوت ، وممتنعـــة الزوال ، وصفاتها ممكنه تحدث وتزول . ثالثها ان جميع صفاته تعالى موجـــودة بوجود واحد ، وصفاتها يتعدد وجودها ويكثر بعددها وكثرتها . رابعها ان صفاته لا حد لها ولا نهاية ، وصفاتها تتناهى وتقف عند حد لا تتجاوزه ، وبكلمة ان صفات غيره عدم بالنسبة الى صفاته تعالى ، ولا جامع بين الاثنين إلا أداة التعبير عن الأصل وفروعه .

انشاء الدنيا وفناؤها .. فقرة ٥ — ٨ :

خَلَقَ الْخَلاَئِقَ عَلى غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ . وَأَنْشَأَ الأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَـــيْرِ اشْتِغَالٍ . وَأَرْسَاهَا عَلى غَيْرِ قَرَارٍ . وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمَ . وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمَ . وَحَصَّنَهَا مِنَ الأَوَدِ وَالاِعْوِجَاجِ . وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَالاِنْفِرَاجِ . أَرْسَى أَوْتَادَهَا ، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا ، وَاسْتَفَاضَ عُيُونَهَا وَخَدَّ أَوْدِيَتَهَا . فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ ، وَلاَ ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ . هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَهُوَ الْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِـــهِ ، وَالْعَالِي عَلى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلاَلِهِ وَعِزَّتِهِ . لاَ يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبَهُ ، وَلاَ يَمْتَنِـــعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبَهُ ، وَلاَ يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقَهُ ، وَلاَ يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ

فَيَرْزُقَهُ . خَضَعَتِ الْأَشْيَاءُ لَهُ ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ ، لاَ تَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ ، وَلَا كُفْوٌ لَهُ فَيُكَافِئَهُ ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ . هُوَ الْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا ، حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا(٥) . وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ٱبْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَٱخْتِرَاعِهَا . وَكَيْفَ لَوِ ٱجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا ، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا ، وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا ، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا ، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا . وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذٰلِكَ وَتَاهَتْ ، وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا ، مُذْعِنَةً بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا(٦) . وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لاَ شَيْءَ مَعَهُ . كَمَا كَانَ قَبْلَ ٱبْتِدَائِهَا كَذٰلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا . بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ ، وَلَا حِينٍ وَلَا زَمَانٍ . عُدِمَتْ عِنْدَ ذٰلِكَ الْآجَالُ وَالْأَوْقَاتُ ، وَزَالَتِ السُّنُونَ وَالسَّاعَاتُ . فَلَا شَيْءَ إِلَّا ٱلْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ . بِلَا قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ٱبْتِدَاءُ خَلْقِهَا ، وَبِغَيْرِ ٱمْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا . وَلَوْ قَدَرَتْ عَلَى الِامْتِنَاعِ دَامَ بَقَاؤُهَا . لَمْ يَتَكَاءَدْهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ ، وَلَمْ يَؤُدْهُ

مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبَرَأَهُ. وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلاَ خَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ، وَلَا لِلاِسْتِعَانَةِ بِهَا عَلى نِدٍّ مُكَاثِرٍ، وَلا لِلاِحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ. وَلَا لِلاِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، وَلَا لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ. وَلَا لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا[٧]. ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا لاَ لِسَأَمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلَا لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ. وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ. لَمْ يُمِلَّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا. لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلَا لِانْصِرَافٍ مِنْ حَالِ وَحْشَةٍ إِلَى حَالِ اسْتِئْنَاسٍ، وَلَا مِنْ حَالِ جَهْلٍ وَعَمًى إِلَى حَالِ عِلْمٍ وَالْتِمَاسٍ. وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَى غِنًى وَكَثْرَةٍ. وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ[٨].

اللغة :

الأود : الاعوجاج . وتهافت : تساقط . وانفرج : انفتح . وأسداد : جمع سد . وخدّ : شقّ . والمراح – بفتح الميم – موضع الرواح ، وبضمها : مأوى الإبل والبقر والغنم والماعز ، وهو المراد هنا . وسائمها : راعيها . ومتبلدة : غبية . وأكياس : جمع كيس – بتشديد الياء – وهو العاقل الحاذق . وخاسئة : ذليلة . وحسيرة : كليلة . وتكادّ وتكاءد الأمر : شق عليه . وآده يؤوده : ثقل ويثقل . وبرأه : خلقه . ومثاور : من ثاوره أي واثبه وهاجمه .

الإعراب :

تمتنع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء،ويصير بأن مضمرة بعد حتى،وكمفقودها الكاف بمعنى مثل خبراً ليصير ، وبأعجب الباء زائدة ، وأعجب خبر ليس ، وما قدرت جواب لو ، والسبيل مبتدأ مؤخر ، وكيف خبر مقدم ، وخاسئة حال ، ومثلها حسيرة وعارفة ، ووحده حال ، وجملة لا شيء معه بدل من وحده ، حيث أجاز ابن هشام وغيره أن تُبدل الجملة من المفرد .

المعنى :

(خلق الخلائق – الى – خلقه) . المثال هو الشبيه والنظير ، وكان الله ولم يكن معه شيء ، ومن ارادته وحدها نبع الكون بمادته وصورته ، وإذا لم يكن في الوجود من شيء غير الله فمن أين تأتي العدوى والمحاكاة ؟ (وأنشأ الأرض – الى – الانفراج) . خلق الله الكون ، وجعل له قوانين دائمة ثابتة تعمل فيه عملها وتؤثر أثرها ، ومنها قانون الجاذبية الذي اكتشفه أسحق نيوتن ، وبهذا القانون تثبت الأرض في فلكها من غير دعائم وقوائم ، وبه تدور حول نفسها وحول الشمس ، ولو انحرفت عن مكانها المقرر وأسرعت أكثر مما ينبغي لتطايرت أجزاؤها في الهواء ، ولو أبطأت في حركتها عن المعدل لهلك الناس من حر أو برد ، كما قال أهل الاختصاص ، وتقدم مثله في الخطبة ٨٩ .

(أرسى أوتادها) قال سبحانه : « ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً – ٧ النبأ » . (وضرب أسدادها) جمع سد ، وهو الحاجز والحد بين شيئين .. وغير بعيد أن يكون هذا إشارة الى الحدود والعلامات بين القارات (واستفاض عيونها ، وخدّ أوديتها) . فجّر الأرض عيوناً،فسلك الماء في الجداول والقنوات، وتقدم مثله في الخطبة ٨٩ (فلم يهن ما بناه ، ولا ضعف ما قواه) . خلق كل شيء تاماً في عالمه ، لا خلل فيه ولا فتور : « صُنْعَ الله الذي أتقن كل شيء – ٨٨ النمل» . (الظاهر عليها بسلطانه وعظمته) . كل شيء في قبضته (وهو الباطن لها بعلمه ومعرفته) . أحاط علماً بظاهرها وباطنها (والعالي على كل شيء بجلاله وعزته) . لا يدانيه شيء كمالاً وجلالاً ، لأنه خالق كل شيء .

(لا يعجزه شيء — الى — ضره) . هو القوي ذاتاً ، ولا حول ولا قوة إلا به ومنه ، وكل شيء خاضع له ، فكيف يفوته ويمتنع عنه ما طلب ، أو يطلب المعونة من معين ؟. (ولا كفء له الخ) .. لو كان في الوجود إلهان ، وعجز كل منهما عن القضاء على صاحبه — ولو بحسب الإمكان — لانتفت صفة الألوهية عنهما معاً ، لمكان العجز ، وإن قدر كل منهما على الآخر تناحرا وانتهى الأمر ، وكان وجودهما سبباً لعدمهما ، على حد ما قال صاحب «الأسفار» (هو المفني لها الخ) .. يوجدها ثم يفنيها ، ولا يبقى إلا وجهه الكريم . ومن البداهة ان الإفناء أيسر من الإيجاد ، والهدم أهون من البناء .. ويصلح هذا رداً على من قال : إن المادة أزلية أبدية لا بداية لها ولا نهاية .

(وكيف ولو اجتمع — الى — إنشائها) . كيف ينكر الدهريون والماديون فناء الكون ، وهم يعلمون انه لو اجتمعت الكائنات الحية بشتى أنواعها ، من يعقل منها ، وما لا يعقل ، وحاولت جاهدة أن توجد بعوضة على تفاهتها — لعجزت خاسئة معترفة بعجزها ، وإذن فإحداث الشيء وإيجاده أصعب من إفنائه واعدامه ، قال تعالى : « يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لن يستنقذوه منه ضعُف الطالب والمطلوب — ٧٣ الحج » . مذعنة بالضعف عن افنائها) أي عن إفناء جنس البعوض من الوجود ، أو إفناء بعوضة امتنعت بالهرب ، واختفت عن الأعين . وتجدر الإشارة الى أن القرآن الكريم أخبر منذ ألف وأربعمئة سنة بأن الناس لا يستطيعون خلق ذبابة ، وقد عجز العلم والعلماء عن ذلك، وهذا إخبار بالغيب ، فكيف أتيح لمحمد العلم به إذا لم يكن وحياً من الله ؟.

(وان الله سبحانه يعود — الى — فنائها) . كان الله ولم يكن معه شيء ، ويبقى بعد فناء كل شيء (بلا وقت ولا مكان الخ) .. المكان جسم أو وضع خاص للجسم ، والزمان المعروف بالسنين والشهور والأيام والساعات والثواني هو عبارة عن دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس ، وبعد فناء كل شيء لا أرض ولا شمس ، ولا أجسام واحداث فمن أين يأتي الزمان والمكان والفوق والتحت واليمين والشمال والماضي والحاضر ؟ (فلا شيء إلا الواحد القهار الذي اليه مصير جميع الأمور) منه تبتدىء ، واليه تنتهي (بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها الخ) .. هذا رد على من قال : ان الأشياء وجدت أول ما وجدت من

مادة لطيفة كانت تملأ الكون ، وأسماها بعضهم بالأثير ، وآخر بالسديم ، وثالث بسحب الغاز (ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها) تماماً كالإنسان أتى الى الحياة الدنيا مرغماً ، وخرج منها مكرهاً .

(لم يتكاءده صنع شيء الخ) .. الكون بكامله وجناح البعوضة بمنزلة سواء عند الله ، يخلق هذا وذاك بكلمة «كن» فمن أين يأتي التعب واللغب، والكلفة والمشقة ؟ (ولم يكوّنها لتشديد سلطان الخ) .. لأنه غني بذاته عمن سواه ، وما خلاه مفتقر اليه افتقار الممكن للواجب ، والمخلوق للخالق (ولا للاستعانة بها على ند مكاثر) لأنه لا ند له ، والند هو المثيل ، والمكاثر المفاخر بكثرة المال والرجال (ولا للاحتراز بها من ضد مثاور) لأنه لا ضد له ، والضد هو الخصم والمخالف ، والمثاور المهاجم والمواثب (ولا للازدياد بها في ملكه) لأن ملكه تعالى تام ولا موجب الى الزيادة ، وهو أمره للشيء كن فيكون ، أو لأنه تعالى مالك الملك ، وكل ما يقال له «ملك» فهو له وحده ، وعليه يستحيل تصور الزيادة في ملكه (ولا لمكاثرة شريك في شركه) لأنه لا شريك له ، والمراد بشركه هنا النصيب والملك (ولا لوحشة كانت الخ) .. المستوحش يطلب الجليس والأنيس لحاجته اليه ، والله غني بذاته عن كل شيء . وتقدم مثله في الخطبة ١ و ١٠٧ .

(ثم هو يفنيها بعد تكوينها الخ) .. ضمير التأنيث في تكوينها وفي الكلمات السابقة ، يعود الى الدنيا . لقد خلق سبحانه الدنيا بقدرته ، وأتقن كل شيء بحكمته ، ودبره بلطفه ، لا لحاجة منه اليه ، بل إظهاراً لعظمته وكماله ، أو لذلك ولأشياء أخر هو بها أدرى وأعلم ، ثم يفني الدنيا لا لسأم وملل ، بل لأن الهدف المقصود من وجودها قد حصل وتحقق ، ثم يعيد الخلق من جديد ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، والذين أساءوا بما عملوا .

وتسأل : لقد أطال الإمام في نفي صفات المخلوق عنه تعالى ، كالإيحاش والاستيناس ، والتعب والراحة، والفقر والجهل الخ .. مع ان الأمر واضح لا يحتاج الى تطويل وتفصيل ، ويكفي القول : الخالق لا يوصف بخلقه .. والعقل لا يدرك إلا المحدود والمخلوق .

الجواب :

لا يحق لأحد أن يفسر أي قول أو فعل بمعزل عن أوضاع القائل والفاعل ،

وعن الظروف التي كانت تحيط به ، وتدفعه الى القول والفعل . ومن الجائز ان بعض من خاطبهم الإمام بكلامه هذا كان يوسوس لهم الشيطان بهذه الخطرات ، فدعت الحاجة الى التكرار والتأكيد ، والتنزيه عما تناله الأوهام . وفي كتاب الكافي ان رجلاً قال للإمام الصادق (ع) : من الناس من يقول : إن الله جسم، ومنهم من يقول : انه صورة .

الخطبة

- ١٨٥ -

حكم الصغار :

ألا بِأَبِي وَأُمّي هُمْ مِنْ عِدَّةٍ أَسْمَاؤُهُمْ فِي ٱلسَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ ، وَفِي ٱلْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ ، أَلَا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنَ إِدْبَارِ أُمورِكُمْ ، وَٱنْقِطَاعِ وَصْلِكُمْ ، وَٱسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ . ذَاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ ٱلسَّيْفِ عَلى ٱلْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ ٱلدِّرْهَمِ مِنْ حِلِّهِ . ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ ٱلْمُعْطَى أَعْظَمَ أَجراً مِنَ ٱلْمُعْطِي . ذَاكَ حَيْثُ تَسْكَرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ ، بَلْ مِنَ ٱلنِّعْمَةِ وَٱلنَّعِيمِ ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ ٱضْطِرَارٍ ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاجٍ . ذَلِكَ إِذَا عَضَّكُمُ ٱلْبَلَاءُ كَمَا يَعَضُّ ٱلْقَتَبُ غَارِبَ البَعِيرِ . مَا أَطْوَلَ هٰذَا ٱلْعَنَاءَ وَأَبْعَدَ هٰذَا الرَّجَاءَ . أَيُّهَا النَّاسُ أَلْقُوا هٰذِهِ ٱلْأَزِمَّةَ الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورُهَا ٱلْأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ ، وَلَا تَصَدَّعُوا عَلى سُلْطَانِكُمْ فَتَذُمُّوا غِبَّ فِعَالِكُمْ . وَلَا تَقْتَحِمُوا مَا ٱسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ

فَوْرِ نَارِ ٱلْفِتْنَةِ . وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا ، وَخَلُّوا قَصْــدَ السَّبِيلِ لَهَا . فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَـا ٱلْمُؤْمِنُ وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ ٱلْمُسْلِمِ . إِنَّمَـــا مَثَلِي بَيْنَكُمْ مَثَلُ السِّرَاجِ فِي ٱلظُّلْمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا . فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا ، وَأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا .

اللغة :

العدة – بكسر العين – الجماعة ، وبضمها الاستعداد . والصغار : لا دين لهم ولا شأن . والقتب : ما يوضع على ظهر الجمل كالسرج . والغارب : ما بين العنق والسنام . والأزمة : جمع زمام ، وهو المقود . والغب – بكسر الغين – العاقبة . وفور النار : لهبها . وأميطوا : تنحوا . وعن سَننها : عن طريقها : ولجها : دخلها .

الإعراب :

بأبي متعلق بمحذوف أي أفدي بأبي وأمي ، وهم مبتدأ أول ، وأسماؤهم مبتدأ ثان ، ومعروفة مجهولة خبر الثاني ، والجملة خبر الأول، واشتبه من قال: بأبي خبر مقدم وهم مبتدأ مؤخر ، لأن « هم » وما بعدها كلام مستأنف ، كأن سائلاً قال : من هم الذين تفديهم ؟ فأجاب « هم الخ » . وما أطول «ما» مبتدأ بمعنى شيء ، وأطول فعل ماض للتعجب وفاعله مستتر، وهذا مفعول ، والعناء عطف بيان من هذا ، والجملة خبر ، وفيها معنى التعجب .

المعنى :

(ألا بأبي وأمي الخ) .. يشير بهذا الى زمرة من أهل الله يأتون من بعده، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ، أما عند الناس فهـــم من المنسيين لا لشيء إلا

لأنهم يتقون الله ، وبأمره يعملون (ألا فتوقعوا مـــا يكون من إدبار أموركم ، وانقطاع وصلكم ، واستعمال صغاركم) . أنتم الآن في ظل حاكم يسوسكم بالحق والعدل ، ويحمل همومكم وآلامكم ، ويؤثركم على نفسه وذويه،وسوف يتولى أمركم من بعده ظلوم غشوم ، لا يرى إلا همومه ونفسه ، والا إذلالكم واستعبادكم .

(ذاك حيث تكون ضربة الخ).. تنسد أبواب الرزق ومسالكه إلا على الخونة والقراصنة ، ولا يجد الحر الأمين وسيلة للعيش : ويكون ضربه بالسيوف وطعنه بالرماح أهون عليه وأيسر من الحصول على لقمة الحلال (ذاك حيث يكون المعطى – اسم مفعول – أعظم أجراً من المعطي ، اسم فاعل) ، أي يأتي زمان يكون المؤمن المخلص الذي يأخذ الصدقة أفضل عند الله من معطيها .. وأطال الشارحون في تأويل هذا الكلام وتوجيهه بما يتفق مع ما هو معروف من « ان اليـــد العليا خير من اليد السفلى » ولكنهم لم يأتوا بشيء – كما نظن – والذي نراه ان كل من يجد العمل السائغ ولا يعمل ، ويعيش عالة على غيره فهو من الذين لا شأن لهم عند الله والناس ، والنملة الكادحة خير منه . أما من يأنف من الأخــذ ، ويأبى بطبعه أن يكون كَلاًّ على غـيره ، وفي الوقت نفسه يتورع عن الحرام بشتى أنواعه ، ويبحث جاهداً عن الحلال والعيش بكد اليمين ، ولكن لا يجد السبيل اليه ، فيضطر مكرهاً لأخذ الصدقات لا مختاراً – أما هذا الشريف المتعفف فهو أعظم أجراً عند الله ممن يتصدق،لأن الظروف أرغمته على تقبل الذل والعيش على أوساخ الناس ، فيعوضه الله سبحانه عن ذلك بالأجر العظيم .

(ذاك حيث تسكرون من غير شراب ، بل من النعمة والنعيم) . يريد بهذا المترفين ورجال المال ، وحكام الجور وأذنابهم بدليل كلمـة « النعمة والنعيم » .
(وتحلفون من غير اضطرار الخ) .. قد يجوز الكذب مع التورية لدفع الضرر .. حتى اليمين الكاذبة تسوغ وتحل لنجاة نفس محترمة من الهلاك ، وخلاصهـــا من طاغية شريطة أن ينحصر سبيل نجـــاته بهذه اليمين .. أما الكذب تملقاً ورياء لا لشيء إلا للربح وجلب المنفعة فهو من أكبر الكبائر (ذاك اذا عضكم البلاء كما يعض القتب غارب البعير) . قيل : ان هذه الجملة لا صلة لها بما قبلها ، وان الشريف الرضي اقتطعها من كلام آخر ، وحشرها هنا ، كما هي عادته .. وليس هـــذا ببعيد ، وعلى أية حال فالمعنى الظاهر منها أن شيعة الإمام (ع) سوف يـــلاقون بعده الشدائد ، ولا يعرفون وجه الخلاص ، وقد حدث ذلك بالفعل .

(ما أطول هذا العناء ، وأبعد هذا الرجاء) . يشير بالعناء الى فساد الأوضاع من بعده،وانها تنتقل من سيء الى أسوأ (أيها الناس ألقوا هذه الأزمّة — الى — سلطانكم) . المراد بالأزمّة هنا الآراء الفاسدة ، والضمير في ظهورها يعود الى الأزمّة ، ومن أيديكم متعلق بألقوا ، والمعنى ان الآراء الفاسدة تحمل الكثير من الذنوب والخطايا ، وتترك أسوأ الأثر ، فيجب تركها وعدم العمل بها ، ثم أمر أصحابه بوحدة الصفوف،وطاعة السلطان ، ويعني به نفسه (فتذموا غب فعالكم) أي اذا اتبعتم الآراء الفاسدة ، وتفرقتم عن إمامكم — ظهر عليكم عدوكم،وكانت العاقبة له عليكم (ولا تقتحموا ما استقبلتم الخ) .. ابتعدوا عن الخلافات والمشاحنات، فإنها تكوي بنارها الأخيار ، ولا يستفيد منها إلا الانتهازيون الأشرار .

(إنما مثلي بينكم الخ) .. المراد بالظلمة الفساد والضلال ، وبالسراج الهدى والصلاح ، والإمام علَم الهدى والحق ، ومنار الخير والعدل ، من استرشد به فهو المهتدي ، ومن ضل عن سبيله فهو من الخاسرين .

الخطبة

- ١٨٦ -

كفى بالموت واعظاً :

أوصيكُمْ أيُّها النَّاسُ بتقْوَى اللهِ وكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلى آلائِهِ إلَيْكُمْ ، ونَعْمائِهِ عَلَيْكُمْ ، وبَلائِهِ لَدَيْكُمْ . فَكَمْ خصَّكُمْ بِنِعْمَةٍ ، وتَدارَكَكُمْ بِرَحْمَةٍ : أعْوَرْتُمْ لَهُ فَسَتَرَكُمْ ، وتَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ فَأَمْهَلَكُمْ . وأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ المَوْتِ وإقْلالِ الغَفْلَةِ عَنْهُ . وكَيْفَ غَفْلَتُكُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفِلُكُمْ ، وطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمْهِلُكُمْ . فَكَفَى واعِظاً بِمَوْتَى عايَنْتُمُوهُمْ . حُمِلُوا إلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ راكِبِينَ ، وأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نازِلِينَ . فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً ، وكَأَنَّ الآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً . أوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ ، وأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ . واشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا ، وأَضَاعُوا مَا إلَيْهِ انْتَقَلُوا . لاَ عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالاً ، ولاَ فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ازْدِيَاداً . أَنِسُوا بِالدُّنْيَا فَغَرَّتْهُمْ ، ووَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ .

فَسَابِقُوا - رَحِمَكُمُ اللهُ - إِلَى مَنَازِلِكُمُ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا ، وَالَّتِي رُغِّبْتُمْ فِيهَا وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا . وَٱسْتَتِمُّوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلى طَاعَتِهِ ، وَالْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ فَإِنَّ غَداً مِنَ ٱلْيَوْمِ قَرِيبٌ . مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي ٱلْيَوْمِ ، وَأَسْرَعَ الْأَيَّامَ فِي الشَّهْرِ ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي ٱلْعُمُرِ .

اللغة :

البلاء : الاختبار بالخير والشر ، قال تعالى : « وبلوناهم بالحسنات والسيئات ــ ١٦٨ الاعراف » . والمراد به هنا البلاء بالخير . وأعورتم : أظهرتم عوراتكم أي عيوبكم . وأوحشوا المكان : هجروه . وأوطنوه : سكنوه واتخذوه وطناً .

الإعراب :

كم خبرية ، وتمييزها محذوف أي كم مرة ، ومحلها الرفع بالابتداء ، وجملة خصكم خبر ، وطمعكم عطف على غفلتكم ، وكفى فعل ماضٍ ، ووعظاً تمييز ، وموتى فاعل ، والباء زائدة ، وغير راكبين حال من فاعل حملوا ، ومثله غير نازلين ، ومن اليوم متعلق بقريب .

المعنى :

(أوصيكم أيها الناس ــ الى ــ امهلكم) . أطيعوا الله واحمدوه ، لأنه أحسن وأكرم ، لقد عصيتموه في الخفاء فستر وأمهل رحمة منه وتفضُّلاً ، فتداركوا ذنوبكم بالتوبة ، كما تدارككم هو بالرحمة (وأوصيكم بذكر الموت) لأن من ذكره وارتقبه سارع الى الخيرات قبل فوات الأوان (وكيف غفلتكم الخ) .. لا مفر من الموت ، وأيضاً لا تعجيل أو تأجيل لأمده ، فكيف تغفلون عنه ، ولا تعدون له عُدته ؟.

(فكفى بموتى عاينتموهم) ان مصيركم هو مصير مـن رأيتم من الأموات ، والعاقل من اتعظ بغيره قبل أن يوعظ به (حملوا الى قبورهم الـخ) .. أركبوا الأعواد،ولم يركبوها مختارين ، وأنزلوا في القبور ، ولم ينزلوا مريدين (فكأنهم لم يكونوا للدنيا — الى — صرعتهم) . انصرفوا الى الدنيا بكل ما لديهم مـن طاقة ، فبنوا وشيّدوا ، وزرعوا وأتقنوا ، أما الآخرة فكأنها لم تكن ، وسرعان ما انتقلوا من تلك العامرة الى هذه الخراب اليباب خالدين فيها لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلاً .

(فسابقوا رحمكم الله الخ) .. اعملوا للآخرة فإنها خير وأبقى (والتي رغبتم فيها) . رغبوا في الجنة ، ولكن بلا عمل ، وطلبوا المغفرة ، ولكن بلا توبة (واستتموا نعم الله الخ) .. وتمام النعم بدوامهـا ، ولا تدوم إلا بالشكر ، والصبر على طاعة الله ، والبعد عن المعصية .. والجزاء آت لا محالة ، وكل آت قريب ، وان طال الزمن ، لأن الساعة جزء من اليوم ، واليوم جزء من الشهر ، والشهر جزء من السنة ، وهي جزء من السنين . قال الشيخ محمد عبده : «ابتدأ الإمام بالصغير الذي ينتهي سريعـاً ، وانتهاؤه يستوجب انتهاء الكبير ، وهكذا حتّى يكون انتهاء الأكبر لازماً .. وهو كلام بالغ الغاية في الموعظة».

الخطبة

-١٨٧-

في الإيمان والهجرة:

فَمِنَ الْإِيمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتاً مُسْتَقِرّاً فِي الْقُلُوبِ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِيَ بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ . فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُوهُ حَتَّى يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَقَعُ حَدُّ الْبَرَاءَةِ . وَالْهِجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الْأَوَّلِ . مَا كَانَ لِلّٰهِ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرِّ الْإِمَّةِ وَمُعْلِنِهَا . لَا يَقَعُ اسْمُ الْهِجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ . فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقَرَّ بِهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ . وَلَا يَقَعُ اسْمُ الِاسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ وَوَعَاهَا قَلْبُهُ . إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ ، لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللّٰهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ ، وَلَا يَعِي حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ وَأَحْلَامٌ رَزِينَةٌ أَيُّهَا النَّاسُ سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ، فَلَأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي

بِطُرُقِ الْأَرْضِ ، قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ بِرِجْلِهَا فِتْنَةٌ تَطَأُ فِي خِطَامِهَا ،
وَتَذْهَبُ بِأَحْلَامِ قَوْمِهَا .

اللغة :

عواري : جمع عارية . فقفوه : أوقفوا الحكم عليه . ومستسر : من استسر الأمر إذا كتمه . والإمة — بكسر الهمزة — الحالة . والمراد بالأحلام هنا العقول. وشغر برجله : رفعها . والخطام — بكسر الخاء — مقود البعير ، والخطم : الأنف وما يليه .

الإعراب :

من الإيمان خبر مقدم ، وما يكون مبتدأ مؤخر ، ومستقراً صفة مؤكدة لـ « ثابتاً » وحاجة اسم كان ، ومن مستسر « من » بيانية ، ويجوز أن تكون زائدة لوقوعها بعد النفي ، ومستسر ومعلن بدل مفصل من مجمل ، والمبدل منه أهل الأرض .

الايمان :

يطلق القرآن كلمة الإيمان على مجرد التصديق بأي شيء ، قال تعالى حكاية عن اخوة يوسف : « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين — ١٧ يوسف » أي بمصدق لنا ، وأيضاً يطلقها القرآن على من نطق بكلمتي الشهادة ، كما في الآية ٩٢ من سورة النساء : « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة» وأوضح من هذه الآية قوله تعالى : « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً — ٩٤ النساء ». قال المفسرون : نزلت هذه الآية في بعض الصحابة الذين قتلوا رجلاً نطق بكلمة الإسلام ظناً منهم انه قالها لينجو من القتل .. ولكن الغرض الأول من إطلاق

كلمة الإيمان على هذا وأمثاله هو مجرد البيان بأن أحكام الإيمــان تجري عليه ، كصيانة دمه ، وتزويجه وتوريثه .

أما الإيمان حقاً وواقعاً فلا بد فيــه من العمل ، كما في الآية ٤ من سورة الأنفال : « الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً». وقال الإمام الصادق : الإيمان عمل كله .

ومن تتبع كتب التاريخ والفقه والأخلاق وعلم الكلام – يجد أن كلمة مؤمن مرت بأطوار عديدة .. كانت تُطلق في صدر الإسلام على كل مسلم ، وبصورة خاصة في قبال المنافق ، ولا يرى الخوارج فرقاً بين الإسلام والإيمان حيث قالوا: من ارتكب ذنباً صغيراً كان أم كبيراً فهو كافر ، لا يُعد مسلماً ولا مؤمناً ، وقال المعتزلة : مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ، وان كان مسلماً مخلداً في النار !. ولفقهاء الشيعة الإمامية بالخصوص اصطلاح في المؤمن الذي يُعطي الزكاة ، وتصح الصلاة خلفه جماعة حيث اشترطوا أن يكون موالياً لأهل البيت .

وقال الأشاعرة : الإيمان هو مجرد التصديق بما جاء به محمــد (ص) وليس العمل بشرط ، وقال الكرامية : بل هو مجرد النطق بكلمتي الشهــادة ، وليس التصديق بشرط فضلاً عن العمل « المواقف للإيجي ج ٨ » .

أما الإيمان الذي عناه الإمام في هذه الخطبة فهو ما كان طريقاً وسبباً لرضوان الله وجناته .. وليس من شك ان الفوز بجنة الخلد لا يكون إلا بالعمل الصالح ، قال تعالى : « تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً – ٦٣ مريم » . وقال : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعــلم الله الذين جاهدوا منــكم ويعلم الصابرين – ١٤٢ آل عمران » . ثم قسّم الإمام هـذا الإيمان الى قسمين : منه الأصيل الراسخ حتى النفس الأخير ، ومنه العارية المتزلزل الذي يفارق صاحبه قبل الموت. ومن أجل هذا أوصى الإمام أصحابه بقوله :

(فإذا كانت لكم براءة الخ) .. ان رأيتم منكراً من أي انسان فلا تعجلوا في الحكم عليه بما ظهر لكم منه ، وتقولوا : اللهم إنّا نبرأ اليك من هذا المجرم الأثيم ، بل عليكم بالصبر والتريث حتى يدركه الموت .. فربما كفّر عن سيئاتـه بالتوبة ، ومحاها بالحسنات .

الهجرة :

(والهجرة قائمة على حدها الأول) . كانت الهجرة واجبة في عهد رسول الله (ص) وما زالت على حكمها اليوم والى آخر يوم .. وان صح حديث «لا هجرة بعد الفتح» فهو محمول على الهجرة من مكة المكرمة الى المدينة المنورة (ما كان لله في أهل الأرض الخ) .. الله غني عن العالمين ، وعن معصية من عصاه ، وطاعة من أطاعه سواء أعلن طاعته في دار الإسلام ، أم أسرّها خوفاً وتقية في بلاد الكفر .

سبب الهجرة :

(لا يقع اسم الهجرة على أحد إلا بمعرفة الحجة في الأرض) . وفي بعض طبعات النهج سقطت « الا » ولا يستقيم الكلام إلا بها . والمراد بالحجة في الأرض من يحتج الله به غداً على المقصرين في معرفة الدين أصولاً وفروعاً معصوماً كان، أم عالماً تقياً ، أما سبب الهجرة فهو واحد من اثنين :

الأول : أن يكون المسلم عارفاً بأحكام دينه ، ولكنه لا يستطيع ممارستها والقيام بها ، لأنه يقيم في بلد كافر ، ولا حرية فيه للأديان ، وقد أمر النبي (ص) جماعة من أصحابه بالهجرة الأولى الى الحبشة فراراً من الاضطهاد ، وخوفاً ان يرتد بعض المسلمين عن دينهم بسبب الضغط والتعذيب ، وتُطلق على هؤلاء كلمة المستضعَفين، وأيضاً أمر النبي آخرين من الصحابة بالهجرة الثانية الى المدينة المنورة، فهاجروا ، ولحق هو بهم بعد ذلك توقعاً لحياة أفضل للإسلام والمسلمين .

السبب الثاني : أن يكون المسلم جاهلاً بالدين وأحكامه ، ولا يجد من يرشده في البلد الذي يقيم فيه ، فيجب عليه ، والحال هذه ، أن يهاجر لطلب المعرفة بما هو مكلف به من أصول الدين وفروعه ، ان استطاع الى ذلك سبيلاً .

وعليه فمن عرف العالِمَ بدين الله ، وأخذه عنه مباشرة أو بالواسطة، واستطاع أن يمارسه ، ويقوم بأحكامه كاملة — فلا تجب الهجرة عليه ، بل له أجر من هاجر في سبيل الدين وإن كان مقيماً ، وهذا هو المراد من قول الإمام : (فمن

عرفها وأقرّ بها فهو مهاجر) أي عرف الحجة ، وهي العالِم بدين الله ، والمعنى من عرف هذا العالم ، وتعلم منه وعمل فله أجر المهاجر ، وإن كان في بيته (ولا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجة الخ) .. عطف بيان وتفسير على من عرف وأقر .

بقي قسم ثالث ، وهو ان العالِم بالدين وأحكامه يجب عليه كفاية أن يهاجر للإرشاد والتعليم الى الأماكن الاسلامية التي لا يوجد فيها مرشد ، ويأتي الكلام عن ذلك مفصلاً ان شاء الله عند قول الإمام : « ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلّموا » باب الحكم رقم ٤٧٨ .

أمر أهل البيت :

(إن أمرنا صعب مستصعب) . ليس لأهل البيت (ع) أمر إلا أمر الاسلام ، ولا هدف إلا إعلاء كلمته ، وإحياء آثاره ومعالمه .. انه نزل في بيتهم ، وعلى قلب جدهم (ص) فهم له بكل ما يملكون ، وهو معهم نصاً وروحاً ، ومن أجله ضحوا بكل شيء ، وتحملوا ما يطاق وما لا يطاق ، وبهذا يتضح تفسير قول الإمام : (لا يحمله إلا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان) أي ان المسلم حقاً وواقعاً هو من يغضب لله ، ويجاهد في سبيله ، ويستهين بالمصيبات من أجل الحفاظ على دينه (أنظر رقم ٣٠ من حكم الإمام في آخر النهج) وقوله : « الإيمان على أربع دعائم الخ » .. وفي بعض الروايات انه لما اشتد البلاء على المستضعفين من الصحابة شكوا الى رسول الله (ص) فقال : إن من كان قبلكم نُشروا بالمناشير فصبروا ، ولم يرتدوا عن دينهم .

هذا هو المراد بالأمر الصعب المستصعب ، أما قول من قال : « المراد به الإشراقات والمغيبات ، والمعجونات بما فوق السموات » ونحو ذلك فهو جرأة على الغيب الذي لا يثبت إلا بنص مقطوع به متناً وسنداً (ولا يعي حديثنا إلا صدور أمينة الخ) .. لأن حديث أهل البيت هو قول الله وسنة رسوله ، ولا تعيها إلا أذن واعية وقلوب صاغية . قال الإمام الصادق : من خالف كتاب الله وسنة محمد (ص) فقد كفر . وقال حفيده الإمام الرضا : إنا عن الله وعن رسوله

نحدث .. إن لكلامنا حقيقة ، وإن عليه لنوراً ، فما لا حقيقة له ، ولا نور عليه فذاك قول الشيطان .

(أيها الناس سلوني – الى – الأرض) . المراد بطرق السماء العلوم الإلهية، وبطرق الأرض العلوم الزمنية كالصناعة والزراعة ، وتقدم مثله مع الشرح مفصلاً في الخطبة ٩١ (وقبل أن تشغر برجلها) أي سلوني قبل أن تفقدوني ، وقبل أن تبتلوا بمعضلات الفتن وأوبائها . وتقدم مثله مع الشرح في الخطبة ٩١ .

الخطبة

-١٨٨-

ظلمة القبر .. فقرة ١ — ٣ :

أَحْمَدُهُ شُكْراً لِإِنْعَامِهِ ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ . عَزِيزَ الْجُنْدِ عَظِيمَ الْمَجْدِ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهاداً عَلى دِينِهِ . لَا يَثْنِيهِ عَنْ ذٰلِكَ اجْتِمَاعٌ عَلى تَكْذِيبِهِ وَالْتِمَاسٌ لِإِطْفَاءِ نُورِهِ(١) . فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّ لَهَا حَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ . وَبَادِرُوا الْمَوْتَ فِي غَمَرَاتِهِ . وَامْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ . فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةُ . وَكَفَى بِذٰلِكَ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ ، وَمُعْتَبَراً لِمَنْ جَهِلَ . وَقَبْلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضِيقِ الْأَرْمَاسِ ، وَشِدَّةِ الْإِبْلَاسِ . وَهَوْلِ الْمُطَّلَعِ ، وَرَوْعَاتِ الْفَزَعِ . وَاخْتِلَافِ الْأَضْلَاعِ وَاسْتِكَاكِ

الْأَسْمَاعِ . وَظُلْمَةِ اللحْدِ ، وَخِيفَةِ الْوَعْدِ . وَغَمِّ الضرِيحِ ، وَرَدْمِ الصَّفِيحِ[٢] . فَاللهَ اللهَ عِبَادَ اللهِ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَنَنٍ ، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرَنٍ . وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا ، وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا ، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلى صِرَاطِهَا . وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِزَلَازِلِهَا ، وَأَنَاخَتْ بِكَلَاكِلِهَا . وَانْصَرَمَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا ، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا . فَكَانَتْ كَيَوْمٍ مَضَى أَوْ شَهْرٍ انْقَضَى . وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثًّا ، وَسَمِينُهَا غَثًّا . فِي مَوْقِفٍ ضَنْكِ الْمَقَامِ ، وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ . وَنَارٍ شَدِيدٍ كَلَبُهَا ، عَالٍ لَجَبُهَا ، سَاطِعٍ لَهَبُهَا ، مُتَغَيِّظٍ زَفِيرُهَا ، مُتَأَجِّجٍ سَعِيرُهَا ، بَعِيدٍ خُمُودُهَا ، ذَاكٍ وَقُودُهَا ، مُخِيفٍ وَعِيدُهَا ، غَمٍّ قَرَارُهَا ، مُظْلِمَةٍ أَقْطَارُهَا . حَامِيَةٍ قُدُورُهَا ، فَظِيعَةٍ أُمُورُهَا[٣] .

اللغة :

المعقل : الملجأ . وذروة كل شيء : أعلاه . ومبادرة الموت : الاستعداد له. والغمرات : الشدائد . والأرماس : القبور . والإبلاس — بكسر الهمزة — الحزن واليأس والانكسار . والمطّلَع : موضع الاطّلاع . والروعات : الأفزاع، والإضافة من باب إضافة الموصوف الى صفته كلَيلٍ أليل . واختلاف الأضلاع : تداخلها . واستكاك الأسماع : صممها . والغم : الغطاء . والصفيح : الحجر . والسنن — بفتح السين — الطريق . والقرن : الاقتران . والأشراط والأفراط : العلامات والدلائل . والكلاكل : الصدور . والكلب — بفتح اللام — الأكل بلا شبع . واللجب : الصياح .

الإعراب :

شكراً مفعول مطلق لأحمده ، مثل قمت وقوفاً ، وعزيزَ الجند حال، ومثله عظيم المجد ، وأيضاً جهاداً في موضع الحال أي مجاهداً ، وقبل بلوغ خبر مقدم ، وما تعلمون مبتدأ مؤخر ، فالله نصب على التحذير ، وكلبها فاعل شديد، ومثله ما بعده .

المعنى :

(أحمده شكراً لإنعامه) . ومن شكر الله شكره الله : « وكان الله شاكراً عليماً ــ ١٤٧ النساء » . أي يثيب الشاكر ، ويزيده من فضله : « ولئن شكرتم لأزيدنكم ــ ٧ ابراهيم » . وكل شكر يسمى جزاء ووفاء (وأستعينه على وظائف حقوقه) وهي السمع والطاعة والإخلاص . وأيضاً طلب العون منه على طاعته وأداء حقوقه ، حق له ، لأنه (عزيز الجند) لا مثيل لجنده قوة ومنعة (عظيم المجد) الواحد الأحد في ملكه وسلطانه .

(وأشهد أن محمداً الخ) .. بلّغ رسالة ربه ، ودافع عنها ، وعن الانسان وكرامته ، وقاتل الطغاة المعتدين ، وحطم أوثانهم وسلطانهم حتى أصبحت كلمة الاسلام هي العليا ، وكلمة الظلم هي السفلى ، وعاش المسلمون بنور الدين والإيمان بلا ضعف ووهن ، وبلا مذلة وهوان .

(فاعتصموا بتقوى الله الخ) .. في القصاص والعقوبات حياة وردع عن الجرائم ، كما قال القرآن الكريم ، وأثبتت التجارب الطويلة ، ولكن التقوى حارس وشرطي من الداخل لا يغفل ويغيب ولا يحابي ويرتشي ، والعقوبات شرطي من الخارج يغفل ويغيب ويحابي ويرتشي ، (وبادروا الموت الخ) .. بالموت تختم الحياة ، ومن قصّر وأهمل فهو من القوم الخاسرين (وكفى بذلك واعظاً الخ) .. وزاجراً عن الجرائم والاعتداءات (وقبل بلوغ الغاية الخ) .. وهي القيامة ، والدنيا طريق اليها ووسيلة ، والمعنى أنتم تعلمون علم اليقين بأن مصيركم الى اللحد والطم وكسر الأضلاع وصمم الأسماع ، ومن ذلك الى ما هو أشد ، ومع هذا لا تبالون وتتورعون .

(فإن الدنيا ماضية بكم على سَنَن) على طريق من قد مضى قبلكم من الهلاك والدمار (وأنتم والساعة في قرن) أي مقرونان ، لأنها آتية لا ريب فيها، والآتي بحكم الحاضر ، لعلاقة الأول (وكأنها قد جاءت بأشراطها) بعلاماتها .. ومن مات فقد قامت قيامته (وأزفت بإفراطها) عطف تفسير (وأناخت بكلاكلها) كناية عن الأهوال والأثقال ، وتقدم مثله مع الشرح في الخطبة ١٠٧ (وأخرجتهم من حضنها) «يخرجون من الاجداث كأنهم جراد منتشر - ٧ القمر ».(وصار جديدها رثاً ، وسمينها غثاً) . يبلى الجديد ، ويهزل السمين (في موقف ضنك المقام) وأي موقف أشد هولاً من الوقوف بين يدي الله للعرض والحساب، ومنه الى العقاب والعذاب ؟ . (وأمور مشتبهة عظام) . كل شيء يوم القيامة عظيم وغريب عن العقول والأوهام يبعث الدهشة والحيرة ، والفزع والهلع .

(ونار شديد كلبها) . اشارة الى قوله تعالى: « يوم نقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل من مزيد ٣٠ ق » . (عال لجبها) «إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور - ٧ الملك » (غمّ قرارها) أي أرضها ، وهي مستورة ومغطاة بالناس والحجارة واللهيب والدخان (مظلمة أقطارها) سوداء ليلاء تُرهب وتُرعب. وتقدم مثله في الخطبة ١٠٧ .

بادروا الآجال بالأعمال .. فقرة ٤ - ٦ :

« وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً » قَدْ أُمِنَ الْعَذَابُ ، وَانْقَطَعَ الْعِتَابُ . وَزُحْزِحُوا عَنِ النَّارِ ، وَاطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدَّارُ ، وَرَضُوا الْمَثْوَى وَالْقَرَارَ . الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً ، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً . وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَاراً ، تَخَشُّعاً وَاسْتِغْفَاراً . وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلاً تَوَحُّشاً وَانْقِطَاعاً . فَجَعَلَ اللهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَآباً ، وَالْجَزَاءَ ثَوَاباً . وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا . فِي مُلْكٍ دَائِمٍ ، وَنَعِيمٍ

قَائِمٍ[٤] . فَارْعَوْا عِبَادَ اللهِ مَا بِرِعَايَتِـهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ . وَبِإِضَاعَتِهِ يَخْسَرُ مُبْطِلُكُمْ . وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ . فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ ، وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ . وَكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ الْمَخُوفُ . فَلاَ رَجْعَةَ تَنالُونَ ، وَلاَ عَثْرَةَ تُقَالُونَ ، اسْتَعْمَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِـهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ[٥] . إِلْزَمُوا الأَرْضَ ، وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلاَءِ . وَلاَ تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى أَلْسِنَتِكُمْ ، وَلاَ تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ . فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيداً وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، وَاسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ . وَقَامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلاَتِهِ لِسَيْفِهِ . وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلاً[٦] .

اللغة :

زمر : جمع زمرة أي الجماعة . والمثوى : المنزل .

الإعراب :

زمراً حال من الذين اتقوا ، والذين كانت أعمالهم بدل من واو الجماعة في رضوا ، وتخشعاً واستغفاراً نصب على المصدرية أي يخشعون ويستغفرون ، أو في موضع الحال أي خاشعين ومستغفرين ، ومثله توحشاً وانقطاعاً ، وما برعيته «ما»

موصول مفعولاً لارعوا ، وكأن قد نزل أي كأنّه قد نزل ، ورجعة مفعول مقدم لتنالون ، ومثله ما بعده ، وشهيداً حال .

المعنى

«وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زُمراً – ٧٣ الزمر » . ذلك جزاء المحسنين (الذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية) . والعمل الصالح والزاكي هو الذي يحل مشكلة من مشكلات الحياة ، ويسير بها الى الأمام (وأعينهم باكية) لا على المال والجاه ، بل خوفاً من الله ، وألماً من الجور وفساد الأوضاع (وكان ليلهم في دنياهم نهاراً) لا لتدبير الدسائس والمؤامرات ، بل للتفكير في خلاص أنفسهم من غضب الله وعذابه ، وخلاص المعذبين في الأرض بأيدي الطغاة والمستغلين . (وكان نهارهم ليلاً توحشاً وانقطاعاً) عن المفاسد والمظالم (... وكانوا أحق بها وأهلها) . وفيه تقديم وتأخير ، والأصل وكانوا هم أهل الجنة وأحق بها ، لأنهم عملوا لها عملها (في ملك دائم ، ونعيم قائم) ومثله في الخطبة ٨٣ : لا ينقطع نعيمها – أي الجنة – ولا يظعن مقيمها ، ولا يهرم خالدها ، ولا ييأس ساكنها .

(فارعَوا عباد الله ما برعايته الخ) .. دعوا المشاحنات والمعارك الكلامية ، والبحث فيما لا يجدي نفعاً ، وفكروا في ضعفكم وتخلفكم ، والأخطار التي دهمتكم وأحاطت بكم ، وابنوا حياتكم على العلم والعمل المنتج ، لتكونوا شيئاً مذكوراً مع لأمم المتقدمة ، لا من البلدان « النامية » .. هذا الوصف الذي ستر به الغرب عواركم وشناركم (وبادروا آجالكم) . استعدوا للموت حيث لا إقالة ولا رجعة، واتركوا وراءكم من الأعمال ما تُذكرون به عند الله والناس .

(إلزموا الأرض الخ) .. المراد بلزوم الأرض السكون والإغضاء ، وبهوى الألسن هفوات اللسان ، كالكذب والغيبة ، وكان في أصحاب الإمام (ع) المؤمن المخلص كالأشتر وحجر بن عدي ، وفيهم الخائن المنافق كالأشعث بن قيس وغيره من عملاء معاوية .. وربما اصطدم في حين من الأحيان بعض المؤمنين مع المنافقين ، وكاشفوهم بما يضمرون ويعملون ، فخاف الإمام أن تنشأ الخلافات بين جنده والفرقة التي لا اجتماع معها ولا رجاء في خير،فأمر المؤمنين من أصحابه بالسكون والصبر على المنافقين (ولا تستعجلوا بما لم يعجله الله لكم) انه تعالى ما

أمركم بحساب من خان ونافق ، فلا تتكلفوه وتتعرضوا له .

(فإنه من مات منكم على فراشه الخ) .. الخطاب للمخلصين من أصحابه ، والمعنى عليكم بأنفسكم ، لا يضركم من ضل اذا اهتديتم ، وأي انسان يموت على الإيمان بالله وطاعته ، والولاية لرسول الله وأهل بيته ، وعلى نية الجهاد في سبيل الله والحق ، فهو مع الشهداء والصدّيقين وحسُن أولئك رفيقاً .

الخطبة

- ١٨٩ -

لا تضعوا من رفعته التقوى .. فقرة ١ – ٣ :

الْحَمْدُ لِلّهِ ٱلْفَاشِي حَمْدُهُ ، وَالْغَالِبِ جُنْدُهُ ، وَٱلْمُتَعَالِي جَدُّهُ . أَحْمَدُهُ عَلى نِعَمِهِ التُّؤَامِ ، وَآلاَئِهِ العِظَامِ . ٱلَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا ، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى ، وَعَلِمَ مَا يَمْضِي وَمَا مَضَى . مُبْتَدِعِ الْخَلاَئِقِ بِعِلْمِهِ . وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ ، بِلاَ ٱقْتِدَاءٍ وَلاَ تَعْلِيمٍ ، وَلاَ احْتِذَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعٍ حَكِيمٍ . وَلاَ إِصَابَةِ خَطَأٍ وَلاَ حَضْرَةِ مَلأٍ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . ٱبْتَعَثَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ ، وَيَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ . قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ الْحَيْنِ ، وَاسْتَغْلَقَتْ عَلى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ(١) . أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللهِ عَلَيْكُمْ ، وَٱلْمُوجِبَةُ عَلى اللهِ حَقَّكُمْ . وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللهِ وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلى اللهِ . فَإِنَّ ٱلتَّقْوَى فِي اليَوْمِ الْحِرْزُ وَالْجُنَّةُ ، وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلى

الْجَنَّةِ . مَسْلَكُهَا وَاضِحٌ ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ . لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى الْأُمَمِ الْمَاضِينَ وَالْغَابِرِينَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَداً إِذَا أَعَادَ اللهُ مَا أَبْدَى ، وَأَخَذَ مَا أَعْطَى ، وَسَأَلَ مَا أَسْدَى . فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا . أُولٰئِكَ الْأَقَلُّونَ عَدَداً . وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ »(٢) . فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا ، وَكُظُّوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا . وَاعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَفٍ خَلَفاً ، وَمِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقاً . أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ ، وَاقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ . وَأَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ ، وَارْحَضُوا بِهَا ذُنُوبَكُمْ ، وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ ، وَبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ ، وَاعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا ، وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا . أَلَا فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا ، وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَّاهاً ، وَإِلَى الْآخِرَةِ وُلَّاهاً . وَلَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَى ، وَلَا تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا . وَلَا تَشِيمُوا بَارِقَهَا ، وَلَا تَسْتَمِعُوا نَاطِقَهَا ، وَلَا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا . وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا ، وَلَا تُفْتَنُوا بِأَعْلَاقِهَا(٣) .

اللغة :

تَوائم وتُؤام : جمع توأم ، وهو المولود مع غيره في حمل واحد . والآلاء: النعم . وبحكمه : بحكمته . ويضربون في غمرة : يمضون في شدة . والحَسين

— بفتح الحاء — الهلاك . والرين — بفتح الراء — الحجاب والدنس . والغابرين: الباقين ، ويستعمل فيما مضى ، فيكون من الأضداد . وأسدى : أعطى. وأهطعوا: أسرعوا ، أي لا يفوتكم شيء من سماع الحكمة والموعظة التي تستوجب التقوى . وكظوا عليها : اصبروا على ثقلها . وارحضوا : اغسلوا . ولا تشيموا : لا تنظروا . والبارق : السحاب ، والبارقة : السحابة . والأعلاق : جمع العلق، والعلقة — بكسر العين — هي القطعة .

الإعراب :

المصدر من أن تستعينوا مجرور بالباء المحذوفة ، والمجرور معطوف على ما قبله أي وأوصيكم بالاستعانة الخ . وما أقل من أفعال التعجب ، و « ما » بمعنى شيء ومحلها الرفع بالابتداء ، وأقل فعل ماضٍ ، وفاعلها مستتر ، والجملة خبر ، ومن قبلها مفعول به ، وحقّ حملها مفعول مطلق .

المعنى :

(الحمد لله الفاشي في الخلق حمده). كل الخلائق تسبح بحمد الله بلسان المقال أو بلسان الحال . وكتب بعض الشارحين في تفسير الحمد الفاشي ١٥ صفحة ، نقلها من هنا وهناك ، ولا أدري لمن كتب ؟ وخلاصتها ما أشرنا اليه ، وكانت أوقات القدامى تتسع للشروح والتعليقات وملحقاتها ، وللنقاش الفارغ (والغالب جنده) ان حزب الله هم الغالبون بالحجة والبرهان في الحياة الدنيا ، وبالقوة والسلطان في الدار الآخرة .

(والمتعالي جده) أي كماله وجلاله (أحمده على نعمه التؤام وآلائه العظام) بكثرتها وتتابعها ، والرزق والصحة من النعم ، ما في ذلك ريب ، ولكن النعمة العظمى عند الإمام هي الهداية والقدرة على الخير وصالح الأعمال (الذي عظم حلمه الخ) .. يقضي بعدل ، ويرحم بعلم ، ويغفر بحلم حتى كأنه لم يُعصَ (مبتدع الخلائق الخ) .. خلق الكون بعلمه وحكمته اختراعاً لا محاكاة لأحد أو مشورته أو حضوره .. كان الله ولم يكن معه شيء .

(واشهد ان محمداً عبده ورسوله ابتعثه الخ) .. رحمة للعالمين ، فأنقذهم من الجهالة والضلالة ، وقادهم الى النور والهداية .. وتقدم مثله مراراً ، وأخيرها في الخطبة السابقة بلا فاصل ١٨٨ .

التقوى :

(عباد الله أوصيكم بتقوى الله) . لا معنى لتقوى الله إلا طاعته ، كما يومىء قول الإمام : (فإنها حق الله عليكم) . وهي فرض وحتم على العبد ، وهو تعالى يثيب عليها سواء أكان سببها والباعث عليها الرهبة من عذابه ، أم الرغبة في ثوابه ، أم شكراً لإنعامه وتعظيماً لكماله ، وان كانت الطاعة بهذا الباعث أفضل وأكمل . وبهذه المناسبة نشير الى قول الإمام الباقر (ع) : والله ما شيعتنا إلا من اتقى الله . وقال حفيده الإمام الرضا (ع) : ليس من أوليائنا من هو في قرية فيها عشرة آلاف رجل ، فيهم من هو أورع منه .

(والموجبة على الله حقكم) . الطاعة حق لله على عبده ، والثواب عليها حق للعبد على ربه ، والفرق ان طاعة العبد لله فرض بحكم العقل ، أما الثواب على الطاعة منه تعالى فقد فرضها هو على نفسه : « كتب ربكم على نفسه الرحمة — ٥٤ الانعام » . كتبها على نفسه لأن سنته الإفضال ، وعادته الإحسان ، وسبيله العفو ، كما قال الإمام زين العابدين : « سبحانك ما أبين كرمك في معاملة من أطاعك أو عصاك ، تشكر للمطيع ما أنت توليته له ، وتملي للعاصي فيما تملك معاجلته فيه ، أعطيت كلاً منهما ما لم يجب له وتفضلت على كل منهما بما يقصر عمله عنه » .

(وان تستعينوا عليها بالله) . إن كنت تريد طاعة الله حقاً فاطلب العون عليها منه تعالى ، وقل صادقاً : « وما توفيقي إلا بالله » فإن هذا الطلب من الطاعة أيضاً (وتستعينوا بها على الله) أي على العافية والخلاص من عذاب الله حيث لا سبيل الى النجاة منه إلا بالطاعة (فإن التقوى في اليوم الحرز والجُنة ، وفي غد الطريق الى الجنة) . المراد باليوم الدنيا ، وبالغد الآخرة ، والجنة — بضم الجيم — الوقاية ، وعطفها على الحرز للتفسير ، والمعنى ان للتقوى أثرها البالغ دنياً وآخرة ، أما في الدنيا فلأنها تبتعد بصاحبها عن الشر والأذى والفتن

والجرائم . ومن البداهة ان هذا المتقي أعظم الناس راحة واستقراراً ، وله في الآخرة مساكن طيبة ، وأجر كريم .

(مسلكها واضح) . وهو الاستقامة ، والعلم والعمل النافع للأفراد والجماعة (وسالكها رابح) . وأي شيء أكثر ربحاً للمرء من أثر نبيل ينتفع به الناس ؟ (ومستودعها حافظ) من يتقي الله فقد جعل تقواه وديعة عند الله ، وهو سبحانه يحفظها له ، ويكافئه عليها بأحسن منها (لم تبرح عارضة نفسها الخ) . ما من أحد إلا وهو يستطيع أن يتقي الله سواء أكان من القرون الخالية ، أم الحاضرة أم الآتية .. اللهم إلا إذا كان وحشاً كاسراً .. وأيضاً ما من أحد إلا وهو في حاجة الى التقوى يوم القيامة ، لأنها السبيل الوحيد للنجاة . وفي الحديث: كفُّ الأذى عن الناس صدقة .

(اذا أعاد الله ما أبدى) أي ان الانسان في أشد الحاجة الى التقوى في يوم القيامة ، وقوله : « أعاد .. وأبدى » إشارة الى قوله تعالى : « كما بدأنا أول خلق نعيده ــ ١٠٤ الأنبياء » . (وأخذ وأعطى) . الله يحيي ويميت (وسأل عما أسدى) لتُسألُنّ يومئذ عن النعيم (فما أقل من قبلها) لأن الكرام قليل (فأهطعوا بأسماعكم الخ) .. استجيبوا لدعوة التقوى ، واعملوا بها ، واجعلوها نعم الخلف لما سلف من الذنوب (ومن كل مخالف موافقاً) من أسلف المعصية وخالف التقوى فليستدرك الآن ، ويعمل بموجبها وعلى وفقها قبل الفوات .

(أيقظوا بها نومكم) . للغفلة عثرات ، والتقوى درع حصين من الغفلات والعثرات (واقطعوا بها يومكم) . اشغلوا يومكم بالطاعات لا بالمحرمات (واشعروها قلوبكم) . اجعلوا قلوبكم تحس وتشعر بالتقوى ، فإنها ربيع القلوب (وارحضوا بها الخ) .. التقوى للنفس طهور ، ولأدوائها دواء ، ولموتها عدة وقوة (واعتبروا بمن أضاعها،ولا يعتبرن بكم من أطاعها) . نبذ غيركم التقوى فأخذه الله بالعذاب، فاعتبروا به ، ولا تكونوا عبرة لمن سمع وأطاع .

(فصونوها وتصونوا بها) . لا تدنسوا التقوى بالتأويلات ، واتخذوا منها حرزاً رادعاً عن المحرمات (وكونوا عن الدنيا نزّاهاً) بعد أن حث على التقوى وبيّن محاسنها ، حذر من الدنيا ومساوئها، والمعنى : نزّهوا أنفسكم بحلال الله عن حرامه (والى الآخرة وُلاّها) أي اعملوا لها عملاّ (ولا تضعوا من رفعته التقوى) . إن أكرمكم عند الله أتقاكم. فلا يكن الكريم عنده حقيراً عندكم (ولا ترفعوا من

رفعته الدنيا) لمال أو سلطان ، فإن الفقر والغنى بعد العرض على الله (ولا تشيموا بارقها) لا تنظروا الى زينة الدنيا وزخرفها ، وازهدوا في حرامها وحطامها (ولا تسمعوا الخ) .. الى من يوسوس ويزين لكم القبائح والسيئات ، ويضفي عليها أثواب النعم والخيرات .

دار حرب وسلب .. فقرة ٤ — ٥ :

فَإِنَّ بَرْقَهَا خَالِبٌ وَنُطْقَهَا كَاذِبٌ . وَأَمْوَالَهَا مَحْرُوبَةٌ ، وَأَعْلَاقَهَا مَسْلُوبَةٌ . أَلَا وَهِيَ الْمُتَصَدِّيَةُ الْعَنُونُ ، وَالْجَامِحَةُ الْحَرُونُ ، وَالْمَائِنَةُ الْخَؤُونُ . وَالْجَحُودُ الْكَنُودُ ، وَالْعَنُودُ الصَّدُودُ ، وَالْحَيُودُ الْمَيُودُ . حَالُهَا انْتِقَالٌ ، وَوَطْأَتُهَا زِلْزَالٌ ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ ، وَعُلْوُهَا سُفْلٌ . دَارُ حَرَبٍ وَسَلَبٍ ، وَنَهْبٍ وَعَطَبٍ . أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَاقٍ ، وَلَحَاقٍ وَفِرَاقٍ . قَدْ تَحَيَّرَتْ مَذَاهِبُهَا ، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا ، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا[٤] . فَأَسْلَمَتْهُمُ الْمَعَاقِلُ ، وَلَفَظَتْهُمُ الْمَنَازِلُ ، وَأَعْيَتْهُمُ الْمَحَاوِلُ . فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ ، وَلَحْمٍ مَجْزُورٍ ، وَشِلْوٍ مَذْبُوحٍ ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ . وَعَاضٍّ عَلَى يَدَيْهِ ، وَصَافِقٍ بِكَفَّيْهِ ، وَمُرْتَفِقٍ بِخَدَّيْهِ ، وَزَارٍ عَلَى رَأْيِهِ ، وَرَاجِعٍ عَنْ عَزْمِهِ . وَقَدْ أَدْبَرَتِ الْحِيلَةُ وَأَقْبَلَتِ الْغِيلَةُ ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ . وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ ، وَمَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بَالِهَا « فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ »[٥] .

اللغة :

خالب : خادع . ومحروبة ومسلوبة بمعنى واحـد . والمتصدية : المتعرضة . والعنون : من عنّ الشيء إذا ظهر . وفرس جامح وجموح : يركب رأسه لا يثنيه شيء . والحرون : الممتنعة عن السير . والمائنـة : الكاذبة . والخؤون : مبالغة في الخيانة . والجحود والكنود بمعنى واحد . والعنود : مبالغة في العناد . والصدود : مبالغة في الصد والهجر . والحيود : من حاد ومـال عن الطريق . والميود : من مـاد اذا تحرك واضطرب . وحـرب – بفتح الراء – السلب . والمحاول : جمع محالـة : وهي القدرة عـلى التصرف . ومعقور : مجروح . ومجزور : منحور أو مسلوخ . والشلو : ولد الناقة والعضو . ومسفوح : مسفوك. والغيلة : الشر . والبال : القلب والخاطر .

الإعراب :

دار حرب خبر لمبتدأ محذوف أي هي دار ، فمن ناج متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي هم بين ناج الخ .. ولات حين « لا » تعمل عمـل ليس ترفع الاسم وتنصب الخبر ، والتاء زائدة مثل تاء رُبة ، وقال ابن هشام : « وعملها واجب ، وله شرطان : كون معموليها اسمي زمان ، وحذف أحدهما ، والغالب كونه المرفوع – أي الاسم – نحو ولات حين مناص أي لات الحين حين مناص أو ليس الحين حين مناص » فالحين الأول اسمها ، والحين الثاني خبرها، وهيهات اسم فعل بمعنى بَعُدَ .

المعنى :

(فإن برقها خالب) .. ذكرنا معاني المفردات في فقرة اللغـة ، ولا شيء وراءها غير ذم الدنيا ، وهي في نظر الإمام (ع) كارثة ومأساة ، ولا حد ونهاية لما فيها من سوء وشر ، والطامع فيها خاسر إلا ما كان منها وسيلة للخير والعمل النافع ، وتقـدم ذلك مرات ومرات ، ونعود الآن الى هذا الموضوع بأسلوب آخر ، ونتساءل بوحي من كلام الإمام في هذه الخطبة :

هل من حال واحدة من حالات الدنيا يمكن الركون اليها والاعتماد عليها ؟ وما هي هذه الحال ؟ هل هي الشباب أو الصحة؟ ولا أحد أكثر قلقاً واهتزازاً من شباب هذا العصر .. وهل ينجي الشبابُ من الموت ، والصحة والسقم ؟ واذا تجاوزنا الشباب والصحة الى المال والثراء ، والنفوذ والسلطان فهل يدوم شيء من ذلك ، أو يسلم من الآفات والمفاجآت ؟ وقد رأينا وقرأنا ألواناً من الحادثات حلت بأهل الجاه والمال ، ورأيناهم معها يتمنون لو كانوا نسياً منسياً .. وبالأمس القريب انتحر هتلر .. ومن الذي لم يفقد عزيزاً ، أو يقع في أزمة خانقة ؟.

والآن هل فهمت حقيقة الدنيا ؟ وهل تعيد النظر في موقفك منها ، وتراها – كما رآها الإمام – وسيلة ، والهدف هو العمل لبناء مجتمع صالح ، كما أراده الله ورسوله الذي قال : « لا تؤمنوا .. حتى تحابوا .. أفشوا السلام بينكم) ولا حب وسلام ما وجد على ظهرها شائبة للظلم والعدوان .

(أهلها على ساق سياق) كناية عن حالة النزع والاحتضار حيث تلتوي إحدى ساقي المحتضر على الأخرى من شدة الهول . قال سبحانه : «والتفّت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق – ٢٩ القيامة » . (ولحاق وفراق) هم السابقون ، ونحن اللاحقون (وقد تحيرت مذاهبها ..) أي تحير الناس فيها (ومرتفق بخديه) . المرفق هو الموصل بين الساعد والعضد ، والمعنى واضع خديه في كفيه ، ومرفقيه على ركبتيه ، والمراد انه حزين كئيب (ومضت الدنيا لحال بالها) . مضت لشأنها وفي طريقها لا تلوي على شيء ، ولا تكترث بمن كان يعبدها ويحرص عليها .

الخطبة

- ١٩٠ -

ما بين الله وأحدٍ هوادة وصداقة .. فقرة ١ - ٢ :

الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي لَبِسَ ٱلعِزَّ وَٱلْكِبْرِيَاءَ وَٱخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُمَا حِمًى وَحَرَماً عَلى غَيْرِهِ ، وَٱصْطَفَاهُمَا لِجَلاَلِهِ ، وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ . ثُمَّ ٱخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلاَئِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ ٱلْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ ٱلْقُلُوبِ ، وَمَحْجُوبَاتِ ٱلْغُيُوبِ : « إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ » اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَافْتَخَرَ عَلى آدَمَ بِخَلْقِهِ ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ . فَعَدُوُّ اللهِ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ ٱلْعَصَبِيَّةِ ، وَنَازَعَ اللهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ . وَٱدَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ . أَلاَ تَرَوْنَ كَيْفَ

صَغَّرَهُ اللهُ بِتَكَبُّرِهِ ، وَوَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ . فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُوراً ، وَأَعَدَّ لَهُ فِي الآخِرَةِ سَعِيراً[1] . وَلَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ الأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ ، وَيَبْهَرُ العُقُولَ رُوَاؤُهُ ، وَطِيبٍ يَأْخُذُ الأَنْفَاسَ عَرْفُهُ لَفَعَلَ . وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الأَعْنَاقُ خَاضِعَةً ، وَلَخَفَّتِ البَلْوَى فِيهِ عَلَى المَلاَئِكَةِ . وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ تَمْيِيزاً بِالاخْتِبَارِ لَهُمْ ، وَنَفْياً لِلاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ ، وَإِبْعَاداً لِلْخُيَلاَءِ مِنْهُمْ . فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ وَجَهْدَهُ الجَهِيدَ ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللهَ سِتَّةَ آلاَفِ سَنَةٍ لاَ يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ سِنِي الآخِرَةِ عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِـدَةٍ . فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ ؟ كَلاَّ ، مَا كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً . إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَأَهْلِ الأَرْضِ لَوَاحِدٌ . وَمَا بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحَةِ حِمًى حَرَّمَهُ عَلَى العَالَمِينَ[2] .

اللغة :

الحرم — بفتح الحاء والراء — ما يحميه الانسان ويدافع عنـه . والحمية : الأنفة . والجبرية : العلو والعظمـة . والرُّواء : حسن المنظر . والعرف — بفتح العين — الرائحة . والهوادة : الرخصة واللين .

الإعراب :

ساجدين حال من فاعل فقعوا ، وتمييزاً مفعول من أجلـه ليبتلي ، فمن ذا مبتدأ وخبر ، وبعد متعلن بيسلم ، وعلى الله «على» بمعنى من ، قـال تعالى : «الذين اذا اكتالوا على النـاس يستوفون – ٢ المطففين» . وكلا حرف ردع وزجر .

المعنى :

(الحمد لله الذي لبس الخ) .. المتكبر هو الذي يرى غيره حقيراً بالإضافة اليه ، فإن كانت هذه الرؤية صادقة ، ومن القوي في كل شيء ، والكامل من كل وجه – كان التكبر مدحاً لازماً ، وان كانت الرؤية من ضعيف لا حـول ولا قوة له إلا بالله ومن الله – كانت الرؤية كاذبة ، والتكبر قبيحاً ومذموماً ، ومن البداهة أن الله سبحانه هو وحده الكامل من كل جهة،والقاهر فوق عباده، وان كل شيء سواه في قبضته وفيض من رحمته ، وعليه تكون كبرياؤه وتكبره تعالى حقاً ومدحاً ، وكل متكبر غيره فهو مفتر كذاب ، ولذا جاء في الحديث القدسي : « الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قصمته » . وقال سبحانه : « أليس في جهنم مثوى المتكبرين – ٦٠ الزمر » .

(ثم اختبر بذلك ملائكته الخ) .. ذلك إشارة الى الكبرياء أو المنازعة فيها ، والمراد بالاختبار هنا مجرد التمييز والإظهار ، لأن الله يعلم السر وأخفى ، والمعنى انه تعالى أراد أن يظهر للملائكته وغيرهم ، من عصى وتكبر على أمره ، ويميّزه عمن أطاع وتواضع،فأمر الملائكة أن يسجدوا لآدم الذي خلقه من تراب ، يُداس بالأقدام ، ولا شيء أهون منه ، فاستجابوا لأمره طائعين ، بل ومغتبطين ايضاً بحلاوة الطاعة ولذتها ، ورفض إبليس بصلافة ، واحتج على الأمر واعتبره إهانة له ، ومساً بكرامته تماماً كما يفعل بعض أرباب المناصب الذين يقولـون : « لا نسمح ولا نرضى بهذا » إذا سمعوا كلمة حق ونصيحة .

رفض إبليس وتفلسف ، وأظهر ما كان يبطن من الترفع والتكبر ، وقال لله بشموخ : ألمثلي يقال هذا ؟ وكيف أسجد لمن هو دوني ؟ أنا خـير منه ، هو

من تراب ، والتّراب أرض وظلام ، وأنا من نار ، والنار تعلـو وتشرق !..
وكل من يرى نفسه شيئاً فما هو بشيء عند الله ، قال سبحانـه : « الله الذي خلقكم من ضعف – ٥٤ الروم » . وقـال الرسول الأعظم (ص) : اللهم اليك أشكو ضعفي وقلة حيلتي .

وبعد ، فلا رذيلة أثقل وأسمج من التكبر ، وبالخصوص إذا كان سببه التعصب للأصل والعرق (ألا ترون كيف صغّره الله الخ) .. الضمير لإبليس .. استعظم نفسه ، واستصغر غيره ، فصغره الله وحقره .. وكل من يأنف من المساواة مع مخلوق ، ويستأثر عليه بغير حق فهو أحقر كائن .. ان الخلق كلهم عباد الله ، والكبرياء والعظمة لله وحده . وتقدم الكلام عن قصة إبليس مع آدم في الخطبة ١ فقرة « آدم وإبليس » .

الملائكة والأنانية :

(ولو أراد الله أن يخلق آدم الخ) .. لماذا خلق الله آدم من مـادة لا وزن لها ولا ثمن ، ولم يخلقه من أعز الأشياء وأثمنها ؟ وأجاب الإمام بأن الملائكـة يشاركون الانسان في حب الذات والأنانية ، وان كانت طبيعتهم وظروفهم غير طبيعة الانسان وظروفه .. فالإنسان يحابي نفسه ، ويعطيها فضائل ليست فيها ، وقد يملكه الغرور بصفة كالعلم ، فيأنف بسببها من المساواة مع الآخرين والتواضع لمن هو دونه علماً ومكانة .. وما إلى ذلك من لوازم حب الذات وآثارها ، ولا بد من وجود هذه الأنانية في الملائكـة ، وبها يكون لهم الاختيار والحرية وإلا بطل تكليفهم ، ولم يكن لهم من فضل في أي شيء ، وكانوا تماماً كالثمرة على الشجرة ، والريشة في مهب الريح .. وبكلمة ان الأنانية في الملائكة كغريزة الجنس في الانسان حيث يستطيع كبحها والصبر عليها .

وبعد أن خلق سبحانه حب الذات في الملائكة بالمعنى الذي أشرنا اليه وأعطاهم الحرية الكاملة – أراد أن يظهر كلاً منهم على حقيقته بالفعل الذي يستحق بـه المدح أو الذم ، فخلق آدم من طين ، وأمرهم بالسجود له (تمييـزاً بالاختبار لهم ، ونفياً للاستكبار عنهم ، وإبعاداً للخيلاء منهم) فمن سمع وأطاع فهو من المقربين ، ومن أعرض ونأى فهو مطرود من رحمته تعالى كإبليس . ولو ان الله

خلق آدم «من نور يخطف الأبصار .. وطيب يأخذ الأنفاس» ثم أمرهم بالسجود فامتثلوا وسجدوا — لو كان الأمر كذلك لم يكن للملائكــة من فضل ، لأنه لا يتعارض مع الأنانية وحب الذات . ويأتي في هذه الخطبــة ان الله سبحانه اختبر عباده بأحجار لا تبصر ولا تسمع ، وانه لهذه الغاية جعلها بأوعر بقاع الأرض .

الفرق بين الشيطان وإبليس :

(فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس الخ) .. في القــرآن الكريم كلمات يستوي في معرفتها العالم والجاهل مثل الأعين والآذان ، وكلمات يعرفها أهل اللغة مثل كلمة الطلح — الموز — وكلمة شطأ الزرعُ أي ما يتفــرع عنه من أغصان وثمر ، وفيه كلمات يجب الرجوع في فهمها والمـراد منها الى القـرآن نفسه ، أو الى النص من المعصوم ، ومن هذا النوع كلمتا إبليس والشيطان حيث لا نعرف كائناً يقال له : إبليس أو شيطان .

وقد رأينا الذكر الحكيم يطلق كلمة الشيطان على الشيطان الإنسي ، والشيطان الجني ، وعلى الوسوسة والخواطر السوداء . قال تعالى : « شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً — ١١٢ الأنعـام » . وقال تعالى فيما يعود الى الوسوسة ونحوها : « اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون — ٢٠١ الأعراف » . وأوضحُ من هذه الآية قوله تعالى حكايـة لقول يوسف : « من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي — ١٠٠ يوسف » . وما نزغ بين يوسف وبين اخوته إلا عداوة الحسد .

أما إبليس فهو كائن حسي يدرك ويعقل،ويفعل ويترك بإرادته واختياره ، ولذا خاطبه سبحانه وقال له : « ما منعك أن لا تجسد إذ أمرتك — ١٢ الأعراف » وطرده ولعنه ، واحتج هو بأصله ، وهدد وتوعد بكيده وضلالته ، وقد أجابه، جلّت كلمته : « لأملأن جهنم منك وممن اتبعك منهم أجمعين — ٨٥ ص » . وإذن فتأويل كلمة إبليس بغير الحسي — جهل وتضليل ، أما كلمة الشيطان فيصح تأويلها بما يوسوس ويزين حسياً كان أو معنوياً .

(إذ أحبط عمله الطويل — الى — ساعة واحدة) . هذا شاهد آخر على ان إبليس كائن حسي لا معنوي ، وانه عبد الله دهراً طويلاً ، ثم ارتــد ونكص

على عقبيه حيث تمرد على أمره تعالى فكان من الخاسرين ، أما التحديد بستة آلاف أو دونها أو أكثر منها كما في بعض الروايات فهو كناية عن طول أمد العبادة ، وانها لم تجده نفعاً مع معصية لحظة ، كما قال الإمام : (فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته) أي معصية إبليس والطرد من رحمة الله وإحباط العبادة التي امتدت أمداً غير قصير ، ومهما كان المراد بتحديد أمد عبادة إبليس فنحن غير مسؤولين عن معرفته يوم القيامة ، ولا يمت الى حياتنا بسبب قريب أو بعيد .

(كلا ، ما كان الله ليدخل الجنة بشراً بأمرٍ أخرج به ملكاً) بفتح اللام ، والمراد به هنا إبليس ، والمعنى ان الله طرد إبليس من رحمته لمعصية واحدة ، فكيف يرجو رحمته تعالى من عصاه في كثير من الذنوب ؟. كلا : « ان رحمة الله قريب من المحسنين – ٥٦ الاعراف » . (ان حكمه في أهل السماء الخ).. ليس لله صداقة وعلاقة مع أحد من خلقه ، فكل عباده عنده سواء يتعامل معهم على أساس العمل : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد – ٤٦ فصلت » سواء أكانوا من أهل الأرض أم من أهل السماء .

وتسأل : كيف عدّ الإمام إبليس من الملائكة مع ان الآية ٥٠ من سورة الكهف تقول : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » ؟

الجواب :

ان الإمام عدّ إبليس من الملائكة تبعاً لهذه الآية حيث اعتبرت إبليس من الملائكة ، ثم أخرجته من بينهم بعد أن فسق وتمرد... وهو من الجن ما في ذلك ريب،لنص الآية ، ولكن الله سبحانه أجرى عليه حكم الملائكة ، وأمره بالسجود كما أمرهم ، لأنه كان يشاركهم في العبادة ويزيد ، ولما كان منه ما كان أُخرج من بينهم وطرد وعليه فكان من الملائكة حكماً ، وهو من الجن موضوعاً . نجيب بهذا لمجرد التوجيه .. والله أعلم بغيبه .

في كل أمة جنود لإبليس .. فقرة ٣ – ٥ :

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنِدَائِهِ ، وَأَنْ

يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ . فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ ٱلْوَعِيدِ ، وَأَغْرَقَ لَكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ . وَقَالَ : « رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ ، وَرَجْماً بِظَنٍّ مُصِيبٍ . صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ ، وَإِخْوَانُ ٱلْعَصَبِيَّةِ ، وَفُرْسَانُ ٱلْكِبْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ . حَتَّى إِذَا ٱنْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ مِنْكُمْ ، وَٱسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَةُ مِنْهُ فِيكُمْ ، فَنَجَمَتِ الْحَالُ مِنَ السِّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ ، ٱسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ . فَأَقْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الذُّلِّ ، وَأَحَلُّوكُمْ وَرَطَاتِ ٱلْقَتْلِ ، وَأَوْطَأُوكُمْ إِثْخَانَ الْجِرَاحَةِ طَعْناً فِي عُيُونِكُمْ ، وَحَزّاً فِي حُلُوقِكُمْ ، وَدَقّاً لِمَنَاخِرِكُمْ ، وَقَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ ، وَسَوْقاً بِخَزَائِمِ ٱلْقَهْرِ إِلَى النَّارِ ٱلْمُعَدَّةِ(٣) . فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ جَرْحاً ، وَأَوْرَى فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحاً مِنَ ٱلَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ . فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ ، وَلَهُ جِدَّكُمْ ، فَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَى أَصْلِكُمْ ، وَوَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ ، وَدَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ ، وَقَصَدَ بِرَجْلِهِ سَبِيلَكُمْ . يَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ . لَا تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ ، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ . فِي حَوْمَةِ ذُلٍّ . وَحَلْقَةِ ضِيقٍ . وَعَرْصَةِ مَوْتٍ . وَجَوْلَةِ بَلَاءٍ . فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ ٱلْعَصَبِيَّةِ وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ

تَكُونُ فِي ٱلْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ ٱلشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ، وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ[٤].
وَٱعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلى رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلْعَ ٱلتَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، وَٱتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ، فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وَأَعْوَاناً، وَرَجْلاً وَفُرْسَاناً. وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلى ٱبْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ اللهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَتِ ٱلْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ ٱلْحَسَدِ، وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ ٱلْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ ٱلْكِبْرِ ٱلَّذِي أَعْقَبَهُ اللهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثَامَ ٱلْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ[٥].

اللغة :

الرجل – بفتح الراء وسكون الجيم – جمع راجل أي يمشي على رجليه. وفوّق السهم : وضعه في الوتر. وأغرق الأمر : بالغ فيه. ونزع بالسهم : رمى به، وبالدلو : جذبها. والجموح من الرجال : العنود. والطماعية : الطمع. ونجمت : ظهرت. ودلف : مشى. وورطات : جمع ورطة – بفتح الواو – وهي الأمر الشاق. وخزائم : جمع خزام أو خزيمة، وهي حلقة يُشد فيها الزمام. وأورى الزند : أخرج ناره. ومناصبين : مجاهرين بالعداوة. ومتألبين: مجتمعين ومحتشدين. وأجلب : صاح. والمسلحة : القوم المسلحون أو المكان الذي يرابطون فيه.

الإعراب :

المصدر من أن يعديكم منصوب بنزع الخافض أي احذروا من عدواه لكم،

وقذفاً نصب على المصدرية أي يقذف قذفاً أو في موضع الحال أي قاذفاً ، ومثله رجماً وطعناً وما بعده ، وفي حومة متعلق بمحذوف حالاً من كاف الخطاب في يقتنصونكم .

المعنى : .

(فاحذروا عباد الله — الى — النزع الشديد) . المراد بعدو الله إبليس ، وبندائه وخيله ورجله وسهمه — المغريات والشهوات ، وانه بهما يصطاد ويضلل أبناء آدم عدوّه اللدود ، وروي عن إبليس انه قال : مهما تورع ابن آدم ، واحتاط لدينه فإني موقعه ، لا محالة ، بجريمة من ثلاث : أن يأخذ المال من غير حل ، أو يمنعه من غير حق ، أو ينفقه في غير وجهه .. فالدرهم والدينار هما المحك الوحيد أخذاً وعطاء ، والحد الفاصل بين الإخلاص والخيانة ، وبهما يُمتحن المؤمن لا بصلاته وصيامه ، ولا بتواضعه ، أو بأية فضيلة من الفضائل .

(ورماكم من مكان بعيد وقال : « رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين — ٢٩ الحجر») . الشيطان لا يعتدي على أحد ، انه يزيّن ويحسّن ، ويغري ويكذب في المواعيد ، وخيار الانسان بيده ، فإن تنازل عنه للشيطان ، وأسلم له القياد — فعل به ما يشاء ، ورماه من قريب حيث يجري منه مجرى الدم .. وقال بعض العارفين : إن الشيطان مهذب ، يقرع الباب،ويتوارى خلفه ، فإن فتحتَ له دخل وإلا تركك ومضى في سبيله .

(قذفاً بغيب بعيد ، ورجماً بظن مصيب) . وفي بعض النسخ «غير مصيب» بزيادة «غير» وهو خطأ بدليل قول الإمام بلا فاصل : « صدقه به أبناء الحمية » وقوله تعالى : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه — ٢٠ سبأ » أي أصاب في ظنه بهم ، ولم يخطىء ، واذن فكلمة «غير» حشو ، والمعنى ان إبليس قال : لأغوين بني آدم ، ولم يكن عند قوله هذا آدمي على وجه الأرض ، وانما قال ذلك ظناً ورجماً بالغيب .. ومع هذا صدق في ظنه ، لأن الناس كلهم من حزبه إلا قليلاً .

(صدقه به أبناء الحمية الخ) .. الهاء في صدقه لإبليس ، وفي « به » لظنه

في قوله : « ولأغوينهم أجمعين » والمعنى لقد صدق ظن إبليس على أهل المعصية والكبرياء والجاهلية ، وتسرب الى نفوسهم من طريق تعصبهم لأصلهم ، وسفههم وحبهم للتعاظم والشهرة الزائفة (حتى اذا انقادت له الجامحة منكم الخ) .. المراد بالجامحة النفوس التي لم يقرع الشيطان بابها بعدُ ، ولكنها على تمام الاستعداد لأن تفتح له ، وتنقاد اليه ، والمعنى ان نفوسكم طاهرة في الظاهر ، وخبيثة في الباطن ، ولما حركها الشيطان ظهرت على حقيقتها ، وتبين للجميع انكم من جند الشيطان وأنصاره .

(استفحل سلطانه عليكم — الى — النار المعدة لكم) . واو الجماعة في أقحموكم وما بعده من الأفعال هي لجنود إبليس ، والمعنى استحوذ عليكم الشيطان ، واحتل نفوسكم بجنوده فأوردها موارد الذل والهلكة في الدنيا ، وساقها في الآخرة الى النار وغضب الجبار فأصبح أعظمَ في دينكم جرحاً الخ.. وفي بعض النسخ «حرجاً» وهو خطأ ، والضمير المستتر في أصبح يعود للشيطان ، والمعنى ان وساوس الشيطان وألاعيبه أشد ضرراً عليكم دنيا وديناً من اخوانكم في الانسانية الذين تجاهرونهم بالعداء وتتألبون على حربهم ومنابذتهم .

(فاجعلوا عليه حدكم ، وله جدكم) . الضمير في « عليه وله » للشيطان ، والمراد بالحد الغضب والحدة ، وبالجد — بكسر الجيم — الجهد والطاقة ، والمعنى حاربوا الشيطان بكل ما تملكون من طاقة وحول وقوة (فلعمر الله لقد فخر الخ).. المراد بالأصل والنسب هنا آدم ، والمعنى ان إبليس ازدرى أباكم آدم ، ورماكم بنبال الهوى ، وداسكم بأقدام الشهوات ، وضربكم بسيوف المغريات حتى أذلكم ، وأوقعكم في البلاء والشدة ، ولم يبقِ لكم من باقية . وهذا تكرار وتوكيد لما تقدم من قوله : (دلف بجنوده نحوكم الخ) .

(فأطفئوا ما كمن في قلوبكم — الى — نزغاته ونفثاته) . المسلم الحق هو الانسان المتفتح الذي يحب ويسع الناس جميعاً ، أما الذي يتعصب لعرق أو لون أو فئة — فما هو بمسلم ، بل هو من أتباع الشيطان ، وعلى سنة الجاهلية وأهلها ، وسيتكلم الإمام عن العصبية مطولاً في هذه الخطبة ، فإلى هناك (واعتمدوا وضع التذلل — الى — جنوده) . دعوا الترفع والتكبر ، فإنه ينم على صاحبه بالصغار ، وتواضعوا للحق ، وانقادوا له ، واسمعوا منه ، فإنه الدرع الواقي من إبليس وجنوده .

(فإن له – أي لإبليس – من كل أمة جنوداً وأعواناً) . وما كان إبليس في يوم من الأيام أقوى سلطاناً ، وأعز نفراً منه في هـذا العصر ، فجنوده في الغرب يصنعون ويخترعون أسلحة الخراب والدمار ، أما الشرق فقد أصبح وكراً للخوتة وعملاء الغرب .. وعلى دوي القنابل ، واغنيات العملاء ، وبكاء المنكوبين، وأنين الجائعين – يرقص الشيطان ويطرب ، وبخاصة بعد أن تعهد زعماء الاشتراكية أن لا يصطدموا مع زعماء الامبريالية !.. لقد كان اختلافهما رحمة ومناعة للضعيف، فصار اتفاقهما طعنة ونقمة .

(ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه الخ) .. قيل : هذا إشارة الى ما حدث بين قابيل وهابيل ، وان نار الغضب وعداوة الحسد في قلب الأول طغتا على القربى وصلة الدم ، والسبب غواية الشيطان وفتنته (الكبر الذي أعقبه الله بـه الندامة الخ) .. قتل قابيل أخاه هابيل ، ثم ندم تماماً كما ندمت أمه حواء من قبل ، وباء بإثمه وإثم أخيه ، وكان من أصحاب الجحيم . ذلك جزاء من اقتص أثر الشيطان وترسّم خطاه .

لا تطيعوا الأدعياء .. فقرة ٦ – ٨ :

أَلَا وَقَدْ أَمْعَنْتُمْ فِي ٱلْبَغْيِ ، وَأَفْسَدْتُمْ فِي الْأَرْضِ مُصَارَحَةً لِلّهِ بِالْمُنَاصَبَةِ ، وَمُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمُحَارَبَةِ . فَاللّهَ اللّهَ فِي كِبْرِ الْحَمِيَّةِ وَفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ . فَإِنَّهُ مَلَاقِحُ الشَّنَآنِ وَمَنَافِخُ الشَّيْطَانِ الَّتِي خَدَعَ بِهَا الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ ، وَٱلْقُرُونَ الْخَالِيَةَ . حَتَّى أَعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ ، وَمَهَاوِي ضَلَالَتِهِ ، ذُلُلاً عَلَى سِيَاقِهِ ، سُلُساً فِي قِيَادِهِ . أَمْراً تَشَابَهَتِ ٱلْقُلُوبُ فِيهِ ، وَتَتَابَعَتِ ٱلْقُرُونُ عَلَيْهِ . وَكِبْراً تَضَايَقَتِ الصُّدُورُ بِهِ(٦) . أَلَا فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَتِكُمْ وَكُبَرَائِكُمُ الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ ، وَأَلْقَوا الْهَجِينَةَ عَلَى رَبِّهِمْ ،

وَجَاحَدُوا اللهَ مَا صَنَعَ بِهِمْ . مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ ، وَمُغَالَبَةً لِآلَائِهِ ، فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ ٱلْعَصَبِيَّةِ . وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ ٱلْفِتْنَةِ ، وَسُيُوفُ ٱعْتِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ . فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْدَاداً ، وَلَا لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَّاداً . وَلَا تُطِيعُوا الْأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ ، وَهُمْ أَسَاسُ ٱلْفُسُوقِ وَأَحْلَاسُ ٱلْعُقُوقِ . ٱتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلَالٍ ، وَجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ . وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ . ٱسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ وَدُخُولاً فِي عُيُونِكُمْ ، وَنَفْثاً فِي أَسْمَاعِكُمْ . فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ ، وَمَوْطِئَ قَدَمِهِ ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ(٧) . فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَصَوْلَاتِهِ ، وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلَاتِهِ ، وَٱتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ ، وَٱسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ لَوَاقِحِ ٱلْكِبْرِ كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ . فَلَوْ رَخَّصَ اللهُ فِي ٱلْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ . وَلٰكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ . فَأَلْصَقُوا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ ، وَعَفَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ . وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَكَانُوا أَقْوَاماً مُسْتَضْعَفِينَ . وَقَدِ ٱخْتَبَرَهُمُ اللهُ بِالْمَخْمَصَةِ ، وَٱبْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ ، وَٱمْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ ، وَمَخَضَهُمْ بِالْمَكَارِهِ . فَلَا تَعْتَبِرُوا الرِّضَا وَالسُّخْطَ بِالْمَالِ وَٱلْوَلَدِ جَهْلاً بِمَوَاقِعِ ٱلْفِتْنَةِ وَٱلِاخْتِبَارِ

فِي مَوَاضِعِ ٱلْغِنَى وَٱلِاقْتِدَارِ ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ » فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ»[8] .

اللغة :

أمعنتم : أبعدتم وبالغتم . والمصارحة : المجاهرة أو المظاهـرة . والمناصبة : العداوة والمقاومة . والملاقح : من اللقاح أي علوق الأنثى من الذكر . وأعنقوا : غابوا . وحنادس : جمع حندس ، وهو الظـلام الشديد . وسياقه : من ساق الماشية . والهجينة : القبيحة . والاعتزاء : الانتساب والانتماء . وأحلاس : جمع حلس : كل ما يوضع على ظهر الدابـة تحت السرج . والعقوق : العصيان . ومثاوي : منازل . وخدودهم : حفرهم ، وفي بعض النسخ بالحاء ، وهو خطأ. والمخمصة : الجوع . والمجهدة : المشقة .

الإعراب :

مصارحة مفعول من أجله لأفسدتم أي أفسدتم عداوةً ومقاومة لله،أو في موضع الحال أي ناصبين العداء لله ، وذُلـلاً حال من واو وأعنقوا ، ومثله سُلساً ، وأمراً مفعول لفعل محذوف أي اعتمدوا أمراً ، ومكابرة مفعول من أجله لجاحدوا ومثله استراقاً ، ويجوز أن يكون في موضع الحال أي مسترقـاً ، وجهلاً مفعول من أجله لتعتبروا .

المعنى :

(ألا وقد امعنتم في البغي الخ) .. كل بغي وفساد في الأرض هـو حرب

على الله ومقاومة له بالذات ، وكل غضب وحرب على الظلم والضلال هو انتصار لله سبحانه .. فالارتباط بين العمل لوجه الله والعمل لخدمة الانسان — وثيق ومتين، ويستحيل ان يفترق أحدهما عن الآخر .. وأية جدوى من الإيمان بالله وحبه إذا لم يكن دافعاً على عمل يرضيه ، وعاصماً من الانحراف عن سبيله ووحياً من خُلق محمد (ص) الذي بُعث ليتمم مكارم الأخلاق ؟

(فالله الله في كبر الحمية ، وفخر الجاهلية) . أبداً .. لا حـدود لطموح الانسان ورغباته، وقد صور الفيلسوف «راسل» هذا الطموح في كتاب «السلطان» بقوله: « كل إنسان يود أن يكون إلهاً ، وقليلون هم الذين يرون ذلك مستحيلاً وصعب المنال » . هذا صحيح ، ولكن الذين يتمنون التأليه ولا ينالوه — يشبعون رغبتهم من التعاظم ، أو الفخر بعظام الأموات ، أو المناصب ، أو الاعـلان عنهم في الصحف وغـير ذلك من الوسائل والدعايات المزيفة (فإنه ملاقح الشنآن) . ان الفخر والكبر ينمان عن الحمق والصغـار ، ويحدثان ردة فعل على صاحبهما حيث يكرهه الناس ، ويتباعدون عن قربه (ومنافخ الشيطان الخ) .. أي نفخ الشيطان في أنوف الرؤساء من روحه التي تمردت على أمر الله وطاعته ، وبهـذه النفخات أهلك الأمم الماضية ، ويهلك الأمم الآتية . وغرض الإمام (ع) أن يشجب رذيلة الكبرياء ، ويبين انها أصل البلاء .

(ألا فالحذر الحذر من طاعـة ساداتكم) . حذّر الإمام من الذين يعشقون المناصب والرياسة لا لشيء إلا للذة الحكم وشهوة السلطان ، وأيضاً حذّر من الذين يتعشقون الكراسي كوسيلـة تمكنهم من الوصول الى غاياتهم ومآربهم ، أما من يطلب الحكم لإقامة العدل وإحقاق الحق ، وللقضاء على الشر والفساد — أما هـذا فواجب الطاعة والمؤازرة . قيل : ان الشيطان عرض على السيد المسيح (ع) ممالك الأرض اذا سجد له فأبى ، ولو كانت له مآرب أخرى لسجد وركع ،.وتطوع للخيانة والعمالة كأكثر أمراء عصره وهذا العصر وحكامه .

(الذين تكبروا عن حسبهم ، وترفعوا عن نسبهم) أي احـذروا السادات الذين يتنابزون بالألقاب ، ويتفاخرون بالمناصب . وفي الحديث الشريف : «حسَب الرجل دينه ، ومروءته خلقه ، وأصله عقله » . (وألقوا الهجنية على ربهم) . ما زال الحديث عن الزعماء ، والمعنى انهم يتعاظمون على الناس ، لأن الله هـو

الذي ألبسهم قميص العظمة ، وحرم غيرهم منه ، كما يزعمون ، وهـذه جرأة وفرية على الله الذي قال : ان أكرمكم عند الله أتقاكم (وجاحدوا الله ما صنع بهم الخ) .. ان الزعماء يستظهرون بنعمة الله على عباد الله ، ويعاندون أمره بالشكر والتواضع ، ويجحدون آلاءه تمرداً وعناداً .

(فإنهم قواعد الخ) .. المراد بالعصبية التعصب لغير الحق ، وبالفتنة الفرقة والفساد ، وبالاعتزاء الانتساب . والقصد هو مجرد الذم ، وان الزعماء هم أصل الداء والبلاء (فاتقوا الله ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً) . النعمة تستوجب الشكر والتواضع . والكبر ضد التواضع ، والكفران ضد الشكر . والقصد النهي عن رذيلة الكفران والكبر (ولا لفضله عندكم حساداً) . المراد بالحساد هنا الأعداء ، والمعنى لا تعملوا ما يستوجب زوال النعمة عنكم ، وإلا يكون شأنكم مع أنفسكم شأن العدو الذي يتمنى زوال النعمة عن عدوه . وبكلمة لا تكونوا أعداء أنفسكم .

(ولا تطيعوا الأدعياء — الى العقوق) . الدعيّ هو الذي ينتسب الى غير أبيه ، ومثله النذل الخسيس حيث يدعي الشرف والمكانة ، والمعنى أنتم ودعاء وأبرياء ، لأنكم لا تهدفون الى شيء سوى العيش في أمان واستقرار وبكدّ اليمين وعرق الجبين ، أما الرؤساء الخبثاء فهم سفلة ولصوص قد تخصصوا بأساليب الخداع ، وتفننوا في طرق السلب والاستغلال ، وعليكم أن تكافحوهم ، ولا تركنوا اليهم ، ومن تحالف معهم عن وعي وعلم ، ومن أجل الربح والكسب فهو مجرم وخائن ، ومن ركن إليهم عن غفلة وجهل أخذوا منه دينه وضميره الصافي النقي ، وبره لوطنه وأمته ، وأعطوه الكدر والمرض والباطل .. وقد يُعذر المنعزل والساكت عن الأمر بالمعروف اذا أيقن بعدم الجدوى من وعظه وإرشاده .. وعلى أية حال فإن لكلٍ ظروفه الخاصة ، شريطة أن لا يُحرّف ويزيف بالتأويل والتضليل .

(اتخذهم إبليس مطايا الخ) .. إن الزعماء المنحرفين يفعلون بوحي من الشيطان ، وينطقون بلسانه ، وينظرون بعينه ، وبأذنه يسمعون ، بل هم في قبضته وتحت قدمه . وتقدم مثله أكثر من مرة في هذه الخطبة بالذات .

(فاعتبروا بما أصاب — الى — مثلاته) . المراد بالأمم المستكبرين الجبابرة من

سادة الأمم كفرعون موسى، ونمرود ابراهيم،وغيرهما من طغاة الأكاسرة والقياصرة، أما الكثرة العاملة فكانت تصنع للكبار القصور والأهرامات،وتبني الحصون والسدود، وتحفر الترع والأنهار .. وقد أخذ سبحانه بصواعقه وعواصفه المستكبرين والتابعين لهم من المستضعفين ، أخذ أولئك بظلمهم ، وهؤلاء بنومهم على الضيم والظلم .. ويقول الإمام للمستضعفين : اتعظوا بمن سبق ، وكافحوا العدوان قبل أن ينزل عليكم العذاب بغتة ، ويعم الظالمَ والساكت عنه .

(واتعظوا بمثاوي خدودهم ، ومصارع جنوبهم). وفي بعض النسخ حدودهم، وهو خطأ ، والمعنى اتعظوا بالقبور التي أكلت الخدود،وأبلت الجنوب (واستعيذوا بالله من لواقح الكبر ، كما تستعيذونه من طوارق الدهر) . ما من عاقل إلا ويخشى المخبآت والمفاجآت ، ولكن المتكبر لا يخشى،بل لا يتصور إطلاقاً عاقبة التعالي والكبرياء وإلا تواضع وتنازل عن شموخه ، واذا سلم المتكبر من طوارق الدهر فهل يسلم من سكرات الموت وظلمة القبر .

(فلو رخّص الله في الكبر لأحد لرخص فيه لخاصة أنبيائه الخ) .. بل نهاهم عنه ، وقال لخاتمهم وسيدهم : « واخفض جناحك للمؤمنين – ٨٨ الحجر» . وفي الحديث : من تواضع رفعه الله ، ومن تكبر خفضه الله » وقد امتحن سبحانه أنبياءه بأنواع من المكاره فصبروا ورضوا بما قضى وأحب .. وأوذي محمد(ص) في سبيل الله أشد الإيذاء ، فما تظلّم أو تبرم ، بل تطلع الى خالقه ، وشكا اليه ضعفه وهوانه على الناس .. وخاف أن يكون قد غضب الله عليه ، فلاذ به ، وقال : أعوذ بنور وجهك أن تنزل بي غضبك ، أو تحل عليّ سخطك .. لك العتبى حتى ترضى .. إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي . أما قول الإمام عن الأنبياء والأولياء : « فألصقوا بالأرض خدودهم الخ » .. فهو كناية عن شدة خضوعهم وتواضعهم لله جل وعز .

(فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال الخ) .. لو كان رضاه تعالى يعتبر بالمال لكان أصحاب الملايين في « وول ستريت » وأرباب الشركات والاحتكارات ، في أعلى عليّين عند الله ، وكان المعذبون في الأرض الذين لا عم لهم ولا خال – في الدرك الأسفل من النار .. حاشا لله .. ولكنه يختبر عباده بالمال والسلطان كما يختبرهم بالمخمصة والمجهدة ، لتظهر الأفعال التي يُستحق بها الثواب والعقاب ..

هذا ، الى ان الدنيا دار زوال وفناء ، ولا تعادل عند الله جناح بعوضة ، وقد جعلها للمرور والتزود من الصالحات الى دار الخلد والبقاء ، فكيف يكون الحقير الزائل جزاء من أحسن وتورع ؟.

وتسأل : هل لنا أن نفهم من اختباره تعالى عباده بالمال أو الحرمان انهما بقضائه وقدره ، وان العبد لا أثر له في شيء من ذلك ؟.

الجواب :

لقد جرت سنة الله في خلقه ان من عمل واجتهد رزّقه الله،ومن أهمل وتكاسل حرمه الله ، وان من اقتصد ودبر عاش حميداً ميسوراً ، ومن بذّر وأسرف قعد ملوماً محسوراً مؤمناً كان أم كافراً ، براً أم فاجراً .. ولن تجد لسنّة الله تبديلاً .. واذن فللإنسان حريته وأثره ، والاختبار منه تعالى انما يكون بعد الجد والعمل ، فمن أفاد مالاً من عمل مشروع ، وأنفقه في وجهه فهو من الطائعين ، وان أفاده من حرام ، وأنفقه في غير حل فهو من العصاة .. وان فشل في عمله ، وذهب جهده سدى ، ومع هذا صبر وقال : ما فعل الله بي إلا خيراً ، فهو مشكور ومأجور ، وان سخط على الله وقضائه ، وخرج عن الحدود يميناً وشمالاً فهو من الذين باءوا بغضب من الله وعذابه .

موسى وفرعون .. فقرة ٩ — ١١ :

وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ وَدَوَامَ عِزِّهِ فَقَالَ : « أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هٰذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ وَبَقَاءَ الْمُلْكِ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ ، فَهَلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ » إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ ، وَاحْتِقَاراً لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ(٩) . وَلَوْ أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ

يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ ، وَمَعَادِنَ العِقْيَانِ ، وَمَغَارِسَ الْجِنَانِ ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ ٱلْأَرْضِ لَفَعَلَ ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ البَلَاءُ ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ ، وَٱضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ . وَلَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلِينَ ، وَلَا ٱسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا لَزِمَتِ الْأَسْمَاءُ مَعَانِيهَا . وَلٰكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ ، وَضَعَفَةً فِيمَا تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلَأُ القُلُوبَ وَالعُيُونَ غِنًى ، وَخَصَاصَةٍ تَمْلَأُ الْأَبْصَارَ وَالْأَسْمَاعَ أَذًى[١٠] . وَلَوْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَا تُرَامُ وَعِزَّةٍ لَا تُضَامُ ، وَمُلْكٍ تَمْتَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ لَكَانَ ذٰلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الِاعْتِبَارِ وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الِاسْتِكْبَارِ ، وَلَآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ ، فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً . وَلٰكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ ٱلِاتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ وَالتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ وَالْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ وَالِاسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ وَالِاسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً لَا تَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ . وَكُلَّمَا كَانَتِ البَلْوَى وَالِاخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتْ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ[١١] .

اللغة :

أساورة : جمع سوار . والذهبان : جمع ذهب . والعقيان ـ بكسر العين ـ

الذهب الخالص . والخصاصة : الفقر . وتشوبها من غيرها : تختلط من غيرها ، قال تعالى : « لشوباً من حميم — ٦٧ الصافات » أي خلطاً من حميم .

الإعراب :

هلا للطلب والتحضيض ، وإعظاماً مفعول من أجله ، لقال ، ولفعل جواب لو أراد الله ، وغنى تمييز ، ومثله أذى ، وأموراً خبر يكون الاتباع ، وخاصة صفة لأمور ، وله متعلق بخاصة أي أموراً مختصة به أو له .

لا حق ولا إنسانية إلا عند الأغنياء !

(ولقد دخل موسى — الى — لبسه) . انطلق موسى وهرون الى فرعون بأمر الله ، ودخلا عليه ، وهما يلبسان مدارع الصوف ، وبيدهما العصي، ودعواه الى الله ، وشرطا له بقاء ملكه ودوام عزه ان أسلم وأطاع .. وسخر فرعون ممن يشترط له هذا ، ولا جاه له ولا مال .. فقال له موسى : « أوَ لو جئتك بشيء مبين » ؟. ولكن الشيء المبين والحق اليقين عند فرعون وأمثاله هو الذهب والملك..ولذا قال فرعون: يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟. ثم قال لموسى : « لئن اتخذتَ إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين » .

وأقر «نيتشه» هذه الفلسفة ، واستدل عليها بقوله على لسان زرادشت : « إذا كان هناك إله فكيف أستطيع أن لا أكون إلهاً ، ولهذا فليس ثم من إله » .. أبداً .. ليس للكون إله ، والدليل ان نيتشه أو زرادشت ليس بإله .. وأيضاً ليس للفقير من حق ، ويستحيل أن يكون الفقير محقاً ، والدليل انه بلا مال وجاه .. ولا عجب فهذا هو المنطق السائد عملياً في كل عصر ، وان كان باطلاً باتفاق الجميع من الوجهة النظرية .

(ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه — الى — لفعل) . لا واسطة بين الله وعباده إلا التبليغ عنه على لسان أنبيائه بهدف الإيمان به والعمل بشريعته عن قناعة لا عن رغبة أو رهبة .. وإذا كان هذا هو الغرض من بعثة الأنبياء فلا موجب —إذن— لأن يزودهم سبحانه بكنوز الدنيا وحدائقها وطيورها ووحوشها (ولو فعل) أي

لو زود سبحانه الأنبياء بمتاع الحياة الدنيا (لسقط البلاء) والاختبار والامتحان ، لأن الناس عبيد للدنيا ، ولمن في يده شيء منها ، وعليه يكون إيمانهم بالأنبياء الأغنياء إيماناً بالمال لا برسالة الله وأنبيائه .

(وبطل الجزاء) لأنه لغير الله (واضمحلت الأنباء) والأحاديث عن الأنبياء وسيرتهم وعظمتهم وشريعتهم حيث يكون الحديث عنهم ، والحال هذه ، حديثاً عن الدنيا التي يملكونها ، لا حديثاً عن الله وحلاله وحرامه (ولمّا وجب للقابلين اجور المبتلين) لأن المراد بالمبتلى من أظهره التمحيص على حقيقته ولن يكون هذا إلا في الضراء وساعة العسرة (ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين) لأن أهل الإحسان يعطون ولا يطمعون في الربح (ولا لزمت الأسماء معانيها) لكل كلمة معنى تدل عليه ، ولكل اسم مسمى يُفهم منه ، ومعنى الإيمان بالله ورسله هو التصديق به وبهم ، ولو أسمينا من آمن طمعاً، أسميناه مؤمناً — لوضعنا الكلمة في غير مدلولها ، والاسم في غير مسماه .

(ولكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوة الخ) .. أولياء الله أهون الناس شأناً عند الطغاة وأهل الدنيا ، لفقرهم وقلة يدهم ، ولكنهم أغنياء بالصدق والأمانة،وبالهداية والتقوى،بل هم أقوى وأغنى من خلق الله وبخلق على الإطلاق، لا تهزمهم الملوك والجبابرة عن عزمهم ولا تثنيهم الشهوات والأموال عن دينهم وضمائرهم (ولو كانت الأنبياء أهل قوة الخ).. بماذا تبرهن على تجردك للحق ؟. أبانقيادك له رغبة أو رهبة ، أو بإيمانك به لوجه الحق وثباتك عليه حتى ولو دفعت الثمن غالياً من نفسك وأهلك ومالك ؟. والجواب واضح وبسيط ، فمن آمن خوفاً أو طمعاً فهو تاجر ، ومن آمن لوجه الحق وحده مهما تكن النتائج والعواقب فهو المؤمن حقاً وواقعاً ، وعلى هذا لو كانت الدنيا مع الأنبياء لآمَن منْ في الأرض جميعاً ، واختلط الحابل بالنابل ، والمؤمن بالفاجر .

(فكانت النيات مشتركة ، والحسنات مقتسمة) لو ان الدنيا مع الأنبياء وآمن بهم من آمن لكان ايمانه مشوباً بحب الدنيا ، وهذا هو معنى الاشتراك ، وأيضاً كان عمله بأمر من الأنبياء موزعاً بين حب الله وحب الدنيا ، وهذا هو المراد بالتقسيم (ولكنّ الله سبحانه أراد أن يكون الاتباع — الى — شائبة) . جرد سبحانه أنبياءه من زينة الدنيا ليكون الإيمان خالصاً لوجهه الكريم ، قال تعالى :

« وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين – ٥ البينة » . وقال نبيه العظيم : انما الأعمـــال بالنيات ، ولكل امـــرىء ما نوى .. ومن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه .

(وكلما كانت البلوى أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل) . ولذا قيـــل : الأجر على قدر المشقة . وعن رسول الله (ص) : إن عظيم البلاء يكافأ به عظيم الجزاء .

والخلاصة لا شيء عند الأنبياء إلا الله والحق ، ولا يعتزون إلا به،ولا يخافون إلا منه ، ومن ادعى الإيمان بالله ورسله ، ثم اعتز بغير الله ، وخاف من سواه فهو كاذب في دعواه .

بيت الله الحرام .. فقرة ١٢ – ١٤ :

أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هٰذَا الْعَالَمِ بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ . فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَامـاً . ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الْأَرْضِ حَجَراً ، وَأَقَلِّ نَتَائِقِ الْأَرْضِ مَدَراً. وَأَضْيَقِ بُطُونِ الْأَوْدِيَةِ قُطْراً . بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَة ، وَرِمَالٍ دَمِثَــةٍ . وَعُيُونٍ وَشِلَةٍ ، وَقُرًى مُنْقَطِعَةٍ . لَا يَزْكُو بِهَا خُــفٌّ ، وَلَا حَافِرٌ وَلَا ظِلْــفٌ(١٢) . ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ ، وَغَايَةً لِمَلْقَى رِحَالِهِمْ . تَهْوِي إِلَيْــهِ ثِمَارُ الْأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارٍ سَحِيقَةٍ وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ ، وَجَزَائِرِ

بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ ، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلاً يُهلونَ لِلّهِ حَوْلَهُ . وَيَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْثاً غُبْراً لَهُ . قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ ، ٱبْتِلَاءً عَظِيماً وَٱمْتِحَاناً شَدِيداً وَٱخْتِبَاراً مُبِيناً . وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ ، وَوَصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ(١٣) . وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ وَمَشَاعِرَهُ ٱلْعِظَامَ بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ ، جَمِّ الْأَشْجَارِ ، دَانِي الثِّمَارِ ، مُلْتَفِّ الْبُنَا ، مُتَّصِلِ ٱلْقُرَى ، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ ، وَأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ ، وَرِيَاضٍ نَاضِرَةٍ ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ ٱلْبَلَاءِ . وَلَوْ كَانَ الْإِسَاسُ ٱلْمَحْمُولُ عَلَيْهَا ، وَالْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا بَيْنَ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ ، وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ وَنُورٍ وَضِيَاءٍ لَخَفَّفَ ذَلِكَ مُسَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ ٱلْقُلُوبِ ، وَلَنَفَى مُعْتَلِجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ ، وَلٰكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ . وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَى فَضْلِهِ ، وَأَسْبَاباً ذُلُلاً لِعَفْوِهِ(١٤) .

اللغة :

نتائق : جمع نتيقة أي الأرض المرتفعة ولو نسبياً . والمدر : قطع من الطين اليابس . والقطر – بفتح القاف – المطر ، – وبكسرها – ضرب من النحاس، وبضمها – كما هنا – الاقليم والناحية . ودمثة : سهلة لينة . ووشلة : قليلة . ولا يزكو : لا ينمو . والخف : للجمل . والحافر : للفرس ونحوه . والظلف: للبقر والغنم . والمثابة : مجتمع الناس ، أو اسم لمكان الرجوع ، والمثوبة : الثواب والجزاء . والمنتجع – بفتح الجيم – المكان يقصده الناس طلباً للمنفعة . والمراد بالرحال هنا ما يصحبه المسافر . وتهوي : تسرع أو تحن . والمراد بثمار الأفئدة أمانيها . ومهاوي : جمع مهوى أي الجو . وفجاج : الطريق بين جبلين . ويرملون : يهرولون . والأشعث : المنتشر الشعر . والسرابيل : كل ما يلبس . والشعائر : الدلائل ، والمشاعر أمكنتها . والبرة : الحنطة ، والسمراء أجودها . وأرياف : جمع ريف أي أرض فيها زرع وخصب . ومحدقة : من أحدقت الروضة إذا صارت حديقة . وعراص : جمع عرصة ، وهي الساحة . ومغدقة: فيها ماء . وناضرة : حسنة وجميلة . والإساس – بكسر الهمزة – جمع اس وأساس أي أصل البناء . والاعتلاج : الالتطام والاختلاط .

الإعراب :

حجراً تمييز ، ومثله مدراً وقُطراً ، وذُللاً حال لأنه جمع ذليل ، ومثله شُعثاً وغُبراً ، وابتلاء نصب على المصدرية أي ابتلوا ابتلاء ، ومثله امتحاناً واختباراً ، ولكان قد صغر جواب لو أراد سبحانه ، ولخفف جواب لو كان الاساس ، وإخراجاً مفعول من أجله ليبتليهم .

المعنى :

(ألا ترون ان الله سبحانه اختبر الأولين الخ) .. بنى سبحانه البيت الحرام من حجر وطين تماماً كالبيوت التي نسكنها ، وألزم بزيارته وحجه من استطاع اليه سبيلاً .. يخضع ويتذلل ، ويستغيث ويستجير ، وهذا الإلزام والوجوب كان

من زمن سحيق يبتدىء بآدم ، والى آخر يوم ، وابراهيم (ع) أعـــاد ما بدأه السابقون . وكان البيت الحرام وما زال في واد غير ذي زرع،لا ثمر ولا مطر ، أما طريقه فكان بحاراً وجبالاً ، والحج اليه متاعب ومصاعب تزيد المؤمن ثواباً ، وتميزه عمن عصى وتمرد .. كانوا يمشون أو يركبون الدواب الى شاطىء البحر ، ثم يركبون البحر الى الصحراء ، يقطعونها على الجمال ، ويعانون التعب والخوف من القتل أو السلب ، ويقاسون الجوع والعطش ، والحر والبرد .

أما اليوم وبعد السيارة والطيارة فالحج نزهة وسياحة ، ولا شيء فيـــه للثواب والتمييز والاختبار إلا النية الخالصة ، والتلبية لدعوة الله وحدها ، والشعور بالتوجه والانقطاع اليه تعالى عسى أن يتوب ويغفر . وروي أن النـبي (ص) أشار الى ذلك بقوله : « يأتي زمان على الناس يخرج أغنياؤهم الى بيت الله للسياحة، وفقراؤهم للتجارة ، وعلماؤهم للسمعة ، وقلة منهم تخرج لوجـه الله » . والمراد بالفقراء هنا كل من يتخذ الحج وسيلة للربح والاتجار كالمعرفين الذين يقودون جماعـة من الحجاج بأجر معلوم،أما العلماء فالمراد بهم أصحاب العمائم الذين ترسلهم الحكومات باسم البعثة لا لشيء إلا للسمعة كما في الحديث .

ان بيت الله الحرام أحجار لا تضر ولا تنفع كما قـال رسول الله (ص) من قبل وقال الإمام وغير الإمام من بعد ، ولكن هذه الأحجار رمز للإجماع عـلى توحيد الله وعبادته ، وشعار لتقديسه وتعظيمه : « ومن يعظّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب — ٣٢ الحج ». وليس الإسلام بدعاً في ذلك،فكل الأمم والطوائف من بني آدم — لها رموز وشعائر مطهرة مقدسة . (انظر ما نقلناه في كتاب : « من هنا وهناك » بعنوان زيارة القبور) .

(ثم أمر آدم (ع) وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه) أي ان يحجوا الى بيت الله الحرام ، وقيل : انه كان خيمة يطوف حولها آدم ، ثم بناها ابنـــه شيث بالحجر والطين (فصار مثابة لمنتجع أسفارهم) إشارة الى قوله تعالى في الآية ١٢٥ من سورة البقرة : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً » . ومنتجع إشارة الى المنافع التي ذكرها سبحانه في الآية ٢٨ من سورة الحج : « ليشهدوا منافع لهم». (تهوي اليهم ثمار الأفئدة) إشارة الى الآية ٣٧ من سورة ابراهيم : « فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم » . (من مفاوز قفار) «وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر — ٢٧ الحج ».

(حتى يهزوا مناكبهم — الى — محاسن خلقهم) . على الحاج قبل كل شيء . أن يلبس ثوبيّ الاحرام ، وهما إزاران يلف أحدهما حول وسطه ، والثاني على الظهر والصدر والكتفين ، ولا خيط يشبك أحدهما بالآخر ، والى هذا أشار الإمام بقوله : « قد نبذوا السرابيل الخ » .. أما إعفاء الشعور فهو إشارة الى ان المحرم — بكسر الراء — يترك شعره بلا قص وحلق ونتف ، ثم يرفع صوته بالتلبية والتهليل والتكبير ، ثم يطوف ويسعى ، ويصلي ويستغفر .

(ابتلاء عظيماً ، وامتحاناً شديداً الخ) .. لماذا نبذ السرابيل ، وتشويه المحاسن ، والهرولة ذهاباً وإياباً ، والطواف حول الأحجار بتذلل وتضرع ؟.. لا تسلْ .. انك عبد مأمور .. ولمولاك حق التمحيص والاختبار بالأمر والنهي ، وما عليك إلا أن تطيع ، وعلى قدر طاعتك يُعرف مقدار حبك لله ، وجزاؤك عنده .

(ولو أراد الله سبحانه أن يضع بيته الحرام الخ) .. الله على كل شيء قدير ، وأيضاً هو عليم حكيم، يعلم انه لو أعطى الدنيا لأنبيائه لآمن الناس بدنياهم لا بنبوتهم ورسالتهم .. وأيضاً لو جعل بيته الحرام في حدائق وأنهار لكان مقهى وملهى ، ومسرحاً و « بلاجاً » للشياطين لا مهبطاً للملائكة المقربين ، ومسجداً للعاكفين : « وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود — ١٢٥ البقرة » .

وقيل : ان موقع مكة في الخريطه الجغرافية كموقع القلب من الجسد ، لأنها وسط بين الشمال والجنوب ، وان نسبة بلاد الغرب اليها قرباً وبعداً كنسبة بلاد الشرق .. ومهما يكن فإن رحلة المسلم الى مكة هي رحلة حب لله ورسوله ، انه يحن ويهرع الى مكة ، ويقبّل الحجر الأسود ، وهو يرجو أن تمس شفتاه نفس المكان الذي قبّله محمد ، ويطوف حول البيت، وهو يأمل أن تقع قدماه في نفس المكان الذي وطأه محمد (ص) .

(ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد الخ).. تقدم مثله مع الشرح مفصلاً في الخطبة ١٤١ وفي هذا المعنى قوله تعالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات — ١٥٥ البقرة » .

فَاللهَ ٱللهَ فِي عَاجِلِ ٱلْبَغْيِ ، وَآجِلِ وَخَامَةِ ٱلظُّلْمِ ، وَسُوءِ عاقِبَةِ ٱلْكِبْرِ فَإِنَّهَا مَصْيَدَةُ إِبْلِيسَ ٱلْعُظْمَى ، وَمَكِيدَتُهُ ٱلْكُبْرَى الَّتِي تُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوَرَةَ ٱلسُّمُومِ ٱلْقَاتِلَةِ . فَمَا تُكْدِي أَبَداً ، وَلَا تُشْوِي أَحداً لَا عَالِماً لِعِلْمِهِ ، وَلَا مُقِلاًّ فِي طِمْرِهِ . وَعَنْ ذٰلِكَ مَا حَرَسَ اللهُ عِبَادَهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَٱلزَّكَوَاتِ ، وَمُجَاهَدَةِ الصِّيَامِ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْمَفْرُوضَاتِ تَسْكِيناً لِأَطْرَافِهِمْ ، وَتَخْشِيعاً لِأَبْصَارِهِمْ ، وَتَذْلِيلاً لِنُفُوسِهِمْ ، وَتَخْفِيضاً لِقُلُوبِهِمْ ، وَإِذْهَاباً لِلْخُيَلَاءِ عَنْهُمْ لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ عِتَاقِ ٱلْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ تَوَاضُعاً ، وَٱلْتِصَاقِ كَرَائِمِ ٱلْجَوَارِحِ بِالْأَرْضِ تَصَاغُراً ، وَلُحُوقِ ٱلْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ ٱلصِّيَامِ تَذَلُّلاً . مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ إِلَى أَهْلِ ٱلْمَسْكَنَةِ وَٱلْفَقْرِ(١٥) . ٱنْظُرُوا إِلَى مَا فِي هٰذِهِ الْأَفْعَالِ مِنْ قَمْعِ نَوَاجِمِ ٱلْفَخْرِ ، وَقَدْعِ طَوَالِعِ ٱلْكِبْرِ . وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحداً مِنَ ٱلْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ الْجُهَلَاءِ ، أَوْ حُجَّةٍ تَلِيطُ بِعُقُولِ ٱلسُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ . فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ لَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عِلَّةٌ . أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأَصْلِهِ . وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ فَقَالَ : أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ . وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الْأُمَمِ فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ

النِّعَمِ . فَقَالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ[١٦] .
فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ مِنَ ٱلْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ ، وَمَحَامِدِ الأَفْعَالِ ، وَمَحَاسِنِ الأُمُورِ الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَاءُ وَالنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ ٱلْعَرَبِ وَيَعَاسِيبِ ٱلْقَبَائِلِ بِالأَخْلاَقِ الرَّغِيبَةِ ، وَالأَحْلاَمِ ٱلْعَظِيمَةِ ، وَالأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ ، وَالآثَارِ الْمَحْمُودَةِ . فَتَعَصَّبُوا لِخِلاَلِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ ، وَٱلْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ ، وَالأَخْذِ بِالْفَضْلِ ، وَٱلْكَفِّ عَنِ ٱلْبَغْيِ ، وَالإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ ، وَالإِنْصَافِ لِلْخَلْقِ ، وَٱلْكَظْمِ لِلْغَيْظِ ، وَٱجْتِنَابِ ٱلْفَسَادِ فِي الأَرْضِ . وَٱحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثُلاَتِ بِسُوءِ الأَفْعَالِ وَذَمِيمِ الأَعْمَالِ . فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ . وَٱحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ[١٧] .

اللغة :

التساور : التواثب والتقاتل . ولا تُكدي : لا تمتنع عن القتال . ولا تُشوي : لا تخطىء في ضرباتها . والطمر — بكسر الطاء — الثوب البالي . والخشوع للقلب لا للبصر ، ولكنه هنا كناية عن الذل والهوان . والخيلاء : الكبرياء . والنواجم : جمع النجم ، وهو ما برز وظهر . والقدع : المنع . وتليط : تلصق . والمراد بالجوار هنا الأمان والعهد ، ومثله الذمام . والمثلات : العقوبات .

الإعراب :

الله نصب على التحذير ، لا عالماً ولا مقلاً بدل مفصل من مجمل ، والمبدل

منه «أحداً» ، وما حرس « ما مصدرية » والمصدر المنسبك مبتدأ ، وعن ذلك متعلق بمحذوف خبراً مقدماً أي وحراسة الله حاصلة لعباده المؤمنين ، وتسكيناً مفعول من أجله لمجاهدة أو لحرس ، وتواضعاً مفعول من أجله لتعفير، وتصاغراً لالتصاق ، وتذللاً للحوق ، وغيركم نصب على الاستثناء من أحد ، والمعنى فما وجدت أحداً إلا إياكم ، وأموالاً تمييز ، والمصدر من أن تكون مجرور بمن محذوفة أي من كونكم أمثالهم .

المعنى :

(فالله الله في عاجل البغي الخ) .. البغي والظلم والجور بمعنى واحد ، والكبر ان تضع نفسك فوق موضعها .. وللظلم والكبر أسوأ الآثار دنيا وآخرة . وتقدم الكلام عن رذيلة الظلم في شرح الخطبة ١٧٤ ، وعن الكبر في هذه الخطبة ، وسئل الإمام الصادق عن الإلحاد ؟. فقال : ان الكبر أدناه . ونسب الإمام رذيلة الظلم والكبر إلى إبليس ، لأنه أول من ظلم وتكبر ، وانه يوسوس للعالِم والجاهل وللغني والفقير ، فيقول للعالِم : أنت بعلمك فوق الناس أجمعين . وللجاهل : أنت بذكائك غني عن التعلم والسؤال . وللغني ، أنت مالك المُلك تؤتي المُلك من تشاء . وللفقير : ليس لله عليك من فضل . وبالمناسبة نقل صاحب «الكافي» عن الإمام الصادق : ان الفقراء يتوجهون غداً الى الجنة تلقائياً ، وقبل أن يحاسَبوا . فيقول خازن الجنان : كيف أقبلتم قبل الحساب ؟. فيقولون : ما أعطيتمونا شيئاً تحاسبوننا عليه ؟ فيقول الله : صدقوا افتحوا لهم الأبواب .

(وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات) . الصلاة تواضع ، والتواضع ضد الكبر ، وإذن فالصلاة تصون المصلي من هذه الرذيلة .. ثم ان الصلاة عهد لله على عبده أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر . وإذا كانت الصلاة تُروّض النفس والأعضاء بالحركات فإن الزكاة تروضها بالمال وبذله ، ولا شيء أثقل عليها من ذلك (ومجاهدة الصيام الخ) .. ومن جرب وجده الجهاد الأكبر ، وهل للنفس من جهاد وترويض أكثر من الصبر على الجوع والعطش ، وعن الشاي والدخان ؟.

(تسكيناً لأطرافهم) وهي الأيدي والأرجل والعضو المعلوم، والمراد بتسكينها

كفها عن الحرام (وتخشيعاً لأبصارهم الخ) .. كناية عن التواضع والتذلل لله (ولما في ذلك من تعفير الخ) .. كأنّ سائلاً يقول : لماذا كانت العبادة سبباً للمنع عن المحرمات وذل النفوس والقلوب ؟ فأجاب الإمام بأن الصلاة ركوع وسجود ، والصيام جوع وعطش ، وكل ذلك يستوجب التذلل والانكسار .. هذا ، الى ان الزكاة تسد حاجة المعوزين ، وتربط رب المال بمجتمعه .

(انظروا الى هذه الأفعال الخ) .. إشارة الى الصلاة والصيام والزكاة ، وأنها تطهر النفس من رذيلة الكبر والفخر (ولقد نظرت فما وجدت الخ) .. يقول الإمام لأصحابه ما رأيت أحداً يتعصب لشيء إلا ويبرره بسبب حقاً كان أم باطلاً ، وان المبطل قد يتغلب بالتمويه على عقل سفيه أو جاهل ، أو يعرّض أفكاره للبلبلة والاهتزاز — على الأقل — إلا أنتم (فإنكم تتعصبون لأمرٍ ما يُعرف له سبب ولا علة) صحيحة ولا فاسدة كالعلة التي تذرّع بها إبليس حين تعصب على آدم وقال : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين — ١٢ الأعراف ».

(وأما الأغنياء من مترفة الأمم الخ) .. قال أهل اللغة : ترف الرجل اذا تنعم، وأترفه المال أبطره وأفسده . ولا شيء أدل على فسادهم وإفسادهم من انهم لا يفكرون إلا من خلال المال ، ولا يستمعون إلا للكسب والربح ، أما الحق والعقل ، والدين والعدل فحديث خرافة ، والذي يملك المال هو السيد المحق : « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أُرسلتم به كافرون وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذّبين — ٣٥ سبأ » . وأنكر مترفو قريش نبوة محمد (ص) لا لشيء إلا لأنه لا يملك كنزاً ولا جنة يأكل منها : « أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً — ٨ الفرقان » .

الاسلام والتسامح :

(فإن كان لا بد من العصبية الخ) .. التعصب للحق والدفاع عنه فضيلة ، أما التعصب للعرق أو اللون أو الأفراد والفئات ، وما الى ذلك فهو رذيلة . هذا ملخص ما أراده الإمام ، أما الوفاء والنجدة والبر والإنصاف وكظم الغيظ واجتناب الفساد فهي مجرد أمثلة ، وقد شهد القريب قبل البعيد انه لا عصبية ولا قبلية في

الاسلام ، وان أساس الفضل هو التقوى ، وان خير الناس أنفع الناس للناس ، كما قال الرسول الأعظم .

وقال الفيلسوف الانكليزي الشهير « برتراند راسل » في كتاب « السلطان » ، ترجمة خيري حماد – الطبعة الأولى – آذار ١٩٦٢ ص ١٦٥ : «وقد أظهر المسلمون في بداية عهدهم تسامحاً في التعامل مع المسيحيين الذين أخضعوهم ، ولا ريب في ان الفضل في سهولة فتوحاتهم واستقرار امبراطوريتهم يعود الى هذا التسامح الذي يبدو بارزاً اذا ما قورن بالحماسة التعسفية والاضطهادية التي عرفت بها الكنيسة الكاثوليكية » .

(واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم الخ) .. تقدم هذا مراراً ، ومن ذلك قوله المتقدم في هذه الخطبة : « فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم الخ » .

الأذى في سبيل الحق .. فقرة ١٧ – ٢٠ :

فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ ، وَزَاحَتِ الْأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ ، وَمُدَّتِ الْعَافِيَةُ فِيهِ عَلَيْهِمْ ، وَانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ ، وَوَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ مِنَ الِاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ ، وَاللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ ، وَالتَّحَاضِّ عَلَيْهَا وَالتَّوَاصِي بِهَا ، وَاجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ ، وَأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ . مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ ، وَتَشَاحُنِ الصُّدُورِ ، وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ ، وَتَخَاذُلِ الْأَيْدِي(١٨)، وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ وَالْبَلَاءِ . أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلَائِقِ أَعْبَاءً ، وَأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلَاءً ، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالاً . اتَّخَذَتْهُمُ الْفَرَاعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، وَجَرَّعُوهُمُ الْمُرَارَ فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ

وَقَهْرِ الغَلَبَةِ . لَا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي ٱمْتِنَاعٍ ، وَلَا سَبِيلاً إِلَى دِفَاعٍ . حَتَّى إِذَا رَأَى اللهُ جِدَّ ٱلصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلى الأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ ، وَالِاحْتِمالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ ٱلبَلَاءِ فَرَجاً ، فَأَبْدَلَهُمْ العِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ ، وَالأَمْنَ مَكَانَ الخَوْفِ فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً . وَأَئِمَّةً أَعْلاماً ، وَبَلَغَتِ ٱلكَرَامَةُ مِنَ اللهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَبْلُغِ الآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ[19] . فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الأَمْلَاءُ مُجْتَمِعَةً ، وَالأَهْوَاءُ مُتَّفِقَةً ، وَالقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً ، وَالأَيْدِي مُتَرَادِفَةً ، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً ، وَٱلبَصَائِرُ نَافِذَةً ، وَٱلعَزَائِمُ وَاحِدَةً . أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً فِي أَقْطَارِ الأَرَضِينَ ، وَمُلُوكاً عَلى رِقَابِ ٱلعَالَمِينَ . فَانْظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ حِينَ وَقَعَتِ ٱلفُرْقَةُ ، وَتَشَتَّتَتِ الأُلْفَةُ وَٱخْتَلَفَتِ ٱلكَلِمَةُ وَالأَفْئِدَةُ ، وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَازِبِينَ قَدْ خَلَعَ اللهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ . وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ[20] .

اللغة :

حاليهم — بفتح اللام — مثنى حال أي صفة الشيء وهيئته ، ويستوي فيه التذكير والتأنيث ، والمراد بالحالين هنا السعادة والشقاء . وتخاضّ القوم : حث بعضهم بعضاً . والفقرة : الخرزة من خرزات الظهر . وأوهن : أضعف . والمنة — بضم الميم — القوة . والمرار : شجر مر . والأملاء — بفتح الهمزة — جمع ملأ أي القوم والجماعة . والأرباب : السادات . ومتحازبين : شيعاً وأحزاباً .

الإعراب :

شأنهم مفعول لزمت ، وكيف كانوا « كيف » خبر مقدم لكانوا ، وعبراً حال من قصص .

المعنى :

(فإذا تفكرتم في تفاوت الخ) .. المراد بالأمـــر هنا السبب الموجب للقوة والعزة ، والمعنى اذا رجعتم الى تاريخ الأمم وجدتم أمة ضعيفة متخلفة ، وأخرى قوة متحضرة ، فادرسوا مواطن الضعف واستقصوا أسبـــاب التخلف في تلك ، ومواطن القوة والتقدم وموجباته في هذه ، واعتبروا بما قد رأيتم من خير وشر ، فإن الاعتبار منذر ناصح ، والعاقل من انتفع بالنذر ، واعتبر بالغير .

وكرر القرآن الكريم هذه النصيحة في العديد من آياتـــه ، من ذلك قوله : « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها — ٤٦ الحج » . وأهملنا نحن هذه النصيحة ، وتلقفها الغرب ، فأنشأ مراكـــز لدراسة القومية من كل أمة ، ودينها وتقاليدها وأوضاعها وتراثها وفئاتها ، واقتصادها وما تستهلكه من السلع كماً وكيفاً ، يدرس الغرب كل ذلك بهدف نهب المقدرات ، وتصدير رأس المال واحتكار الأسواق ، وشن الحرب النفسية عندما تدعو الحاجة.

هذا وشبابنا يتلهون بأفلام الجنس والجريمة ، والرؤساء بالمشاحنات والخطابات، أما نصف العمائم والقلانس أو أكثر فإنها في شغل شاغـــل بالشعوذة والتخطيط المنظم للحصول على المال من كل طريق حتى من أعـــداء الديـن والانسانية .. والمدهش أنه كلما تكرر العدوان على العرب ، وزادت حدته — عانوا مزيداً من التفكك والانقسام . كما حدث بعد حرب ١٩٤٨ أو حرب ١٩٦٧ مع اسرائيل! مئة مليون عربي يذلهم مليونان ونصف يهودي !.. فهـــل حدث مثل هذا في التاريخ ؟. وان قال قائل : انها أمريكا لا اسرائيل . قلنا في جوابه : بل الخلاف والشقاق . فلقد أذلت فيتنام أمريكا ، وجعلتها تضرب في غمرة ، وتموج في حيرة لا تدري أين السبيل ؟.

(وزاحت الأعداء له عنهم — الى التواصي بها) . ضمير « له وبه وعليه »

يعود للأمر في قوله : « فالزموا كل أمر » . وضمير « عنهم وعليهم ومعهم وحبلهم » يعود للأمة العزيزة في كيانها ومكانتها ، والمعنى عليكم أن تأخذوا درساً نافعاً من تاريخ الأمم ، وتسلكوا كل طريق جعل منها أمة قوية ترهبها الأعداء، وغنية فيما تملكه من طاقة وثراء ، وتبتعدوا عن طريق الضعف والتخلف ، وليس من شك ان وحدة الصفوف عامل من عوامل القوة والرقي ، فالزموا الالفة ، واجتنبوا الفرقة ، وحثوا عليها ، وتواصوا بها (واجتنبوا كل أمر كسر الخ).. مالكم وللضغينة والشحناء ؟ انها وهن للقوة ، ومنافرة للقلوب ، وشلّ للأيدي وتحطيم للسيوف .

(وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم الخ) .. المراد بالمؤمنين هنا المستضعفون ، وبالفراعنة الجبابرة الطغاة ، والمراد بالصبر على الأذى في محبة الله ـ الإخلاص والثبات على الحق ، والمعنى كان فيما مضى مجموعة من المجانين يقول بعضهم : أنا الله ، انا ربكم الأعلى ، وآخر يقول : لستُ إلهاً ، ولكني مرسوم من قبل الله ، وكلّ من هذا وذاك يطارد الضعفاء وينكل بهم ، وهم لا يملكون حولاً ولا قوة إلا الهداية وتحابب القلوب وثباتها على الإخلاص والإيمان ، ولمّا علم الله فيهم خيراً جعل لهم فتحاً ومخرجاً ، ومنّ عليهم بالكرامة والسلطان، والأمن والاستقرار ، وبالعلم ومعرفة الحقائق ، فعاشوا حياة ما كانوا يحلمون بها من قبل .

(فانظر كيف كانوا حيث كانت الخ).. الجمل في هذه الأسطر مختلفة المبنى متحدة المعنى ، والقصد منها التأكيد على انه لا حياة لقوم إلا بوحدة الكلمة ، وانه متى تحققت هذه الوحدة والالفة اتجهت الجهود والعقول كلها الى العمل لحياة أفضل ، وانه لا شيء وراء الشتات إلا المذلة والهوان ، والشاهد على ذلك العيان ووقائع التاريخ .

وبالمناسبة قالت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية : ان في الشرق الأوسط فراغاً يجب أن يملأ ، وقالت الصهيونية : ان فلسطين يجب أن تكون وطناً قومياً لليهود على الرغم من أنوف العرب وإرادة الشعوب العربية ! وملأت أمريكا الفراغ بدولة اسرائيل .. ولولا انقسام العرب بعضهم على بعض ما كان للفراغ والاستعمار والصهيونية عين ولا أثر .

وبعد ، فلا قومية عربية أو غير عربيـــة إلا بوحدة الكلمة والنضال ، ولا إسلام ومسلمين وحق ومحقين إلا بالتعاون والتضامن ، ولا اتفاق وتعاون إلا بحاكم عادل ، ونظام لا تفاضل فيه ومحاباة فئة على فئة وامتياز فرد على غيره إلا بالعمل الصالح النافع .

النعمة برسول الله .. فقرة ٢١ ــ ٢٣ :

فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الْأَحْوَالِ ، وَأَقْرَبَ اشْتِبَاهَ الْأَمْثَالِ . تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ لَيَالِيَ كَانَتِ الْأَكَاسِرَةُ وَالْقَيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ ، يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ الْآفَاقِ ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا إِلَى مَنَابِتِ الشِّيحِ ، وَمَهَافِي الرِّيحِ ، وَنَكَدِ الْمَعَاشِ . فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبَرٍ وَوَبَرٍ ، أَذَلَّ الْأُمَمِ دَاراً ، وَأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً . لَا يَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِهَا ، وَلَا إِلَى ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا . فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ ، وَالْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ . فِي بَلَاءِ أَزْلٍ ، وَإِطْبَاقِ جَهْلٍ ! مِنْ بَنَاتٍ مَوْءُودَةٍ ، وَأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ ، وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ ، وَغَارَاتٍ مَشْنُونَةٍ(٢١) . فَانْظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً ، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ . كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَــــةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا ، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا ، وَالْتَفَّتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا .

فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرِقِينَ ، وَعَنْ خُضْرَةِ عَيْشِهَا فَكِهِينَ . قَدْ تَرَبَّعَتِ الْأُمُورُ بِهِمْ ، فِي ظِلِّ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ وَآوَتْهُمُ الْحَالُ إِلَى كَنَفِ عِـــزٍّ غَالِبٍ . وَتَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهِـمْ فِي ذُرَى مُلْكٍ ثَابِتٍ . فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْـرَافِ الْأَرَضِينَ . يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ . وَيُمْضُونَ الْأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ . لاَ تُغْمَزُ لَهُمْ قَنَاةٌ ، وَلاَ تُقْرَعُ لَهُمْ صَفَـاةٌ(٢٢) . أَلاَ وَإِنَّــكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَـكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ . وَثَلَمْتُمْ حِصْنَ اللهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ . فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ امْتَنَّ عَلَى جَمَاعَةِ هٰذِهِ الْأُمَّةِ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْـــلِ هٰذِهِ الْأُلْفَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَـا ، وَيَأْوُونَ إِلَى كَنَفِهَا ، بِنِعْمَةٍ لاَ يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَـا قِيمَةً لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ . وَاعْلَمُوا أَنَّــكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَعْرَاباً ، وَبَعْدَ الْمُوَالاَةِ أَحْزَاباً . مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلاَمِ إِلاَّ بِاسْمِهِ . وَلاَ تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلاَّ رَسْمَهُ(٢٣) .

اللغة :

يحتازونهم : يقبضونهم . والريف : أرض الزرع والخصب . والآفاق : جمع أفق أي الناحية . وبحر العراق : دجلة والفرات . والشيح : نوع من النبات . وعالة : فقراء . ودبر — بفتح الباء — القرحة في ظهر الدابة .. ووبر : شعر الجمل . والجناح : المــلاذ . والمراد بالأزل هنا الشدة . وفكهين : راضين .

وتربعت : أقامت واطمأنت . وتُغمز . تُختبر . والقناة : الرمح . والصفاة : الحجر والصخرة . والثلمة : الخلل . وثلمتم : خرقتم . وكنفها : حصنها .

الإعراب :

ما أشد اعتدال « ما » مبتدأ ، وأشد فعل ماض ، والفاعل مستتر ، والجملة خبر ، واعتدال مفعول أشد ، وعالة حال ، واخوان مثله أي مصاحبين،وكذلك أذل أي أذلاء ، ودارا تمييز ، ومثلــه قرارا ، وفي بلاء أزل متعلق بمحذوف حالاً من الكثرة أي كائنة في بلاء .

اسرائيل :

(فاعتبروا بحال ولد اسماعيل وبني إسحق الــخ) .. اسماعيل ابـن ابراهيم الخليل (ع) من هاجر،وإسحق ابنه من سارة ، وإسرائيل هو يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم ، أما سبب تسمية يعقوب بإسرائيل فقــد أوضحته التوراة في سفر التكوين،الإصحاح ٣٢ ، وهو أن الله دخل في ذات ليلة على يعقوب ، وتصارع معه حتى الفجر ، فما استطاع أحدهما أن يغلب الآخر ، وعندئذ منح الله يعقوب لقب اسرائيل اعترافاً بمقدرته ، لأن اسرائيل في اللغة العبرية يعني « مصارع الله » .

ولإسرائيل هذا ١٢ ولداً ، وهم : شمعون وراؤبين ولاوي ويهــوذا ويساكر وزبولون وجاد وأشيرودان ونفتالي وبنيامين ويوسف الصدّيق . وهـؤلاء وأولادهم وأحفادهم كلهم ما عدا يوسف مجرمون وقتلة الأنبياء بشهــادة التوراة والانجيل والقرآن .. وبدأ إجرامهم أول ما بدأ بمحاولة لقتل أخيهم يوسف ، لأنه طاهر ونبيل ، ثم حاولوا قتل عيسى ومحمد ، وما بين المحاولتين قتلوا ورجموا الكثرة الكاثرة من الأنبيــاء والمرسلين (انظر انجيل لوقــا الإصحاح ١٣ وآيات القرآن الكريم) .

والمدهش أنهم كانوا يقتلون أنبياء الله تقرباً الى الله بزعم انه هو الذي أمرهم بقتل الناس حتى النساء والأطفال ، وبحرق المدن والقرى وتدميرها ما عدا الذهب والنحاس (انظر التوراة سفر يشوع الإصحاح ٦ وغيره) . قــال الاستاذ علي

الدالي في مقال نشرته «جريدة الجمهورية المصرية» تاريخ ١٨ مايو أيار ١٩٧٢ : « ان اليهودي في القرن العشرين الذي بقر بطون الحبالى في دير ياسين هو نفس اليهودي الذي كان قبـل المسيح ينشر عدوه بالمنشار نصفين من شعر رأسه إلى أسفله ، وهو نفس اليهودي الـذي فتح بطون الأبرياء المسيحيين في قبرص أيام الرومان ، وتحزم بامعائهم ليفاخر العالم بقوته ، ويثبت تفوقه في الانتقام المروع».

ثم استشهد « الدالي » بنص نقله عن كتاب التلمود: « نحن شعب الله المختار.. نحن البشر على الصورة التي تركزت في مخيلة الله .. وغيرنا لا يبصر إلا موضـع قدميه .. وقد شاءت الطبيعة أن نسود العالم ونسيطر عليـه بأسره ... فيجب أن تكون مطامعنا واسعة ، وحماستنا خارقة ، وظمأُنا للانتقام حاراً ومستعراً » .

أما دين محمد (ص) فيقول : « أيها النـاس ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم من آدم ، وآدم من تراب ، وان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي على عجمي فضل ، ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى » .

ان العنصرية الإجرامية هي دين اليهود ومبدأهم وشعارهم بنص التوراة والتلمود أي الكتابين المقدسين عند اليهود .. وما من ريب ان هذه الروح الصهيونية تحمل في طبيعتها السبب الكافي للقضاء عليها .. وبهذا نطق القرآن والتوراة ، فلقد جاء في سفر التثنية من التوراة الاصحـاح ٢٨ ما نصه بالحرف الواحد : « يجعلك الرب — الخطاب لشعب اسرائيل — منهزماً أمام أعدائك ، تخرج عليهم من طريـق واحد ، وفي سبع طرق أمامهم ، وتكون قلقاً في جميع ممالك الأرض ، وتكون جثتك طعاماً لجميع طيور السماء ووحوش الأرض » .

أما دولة اسرائيل والاعتراف بهـا كأمر واقع فهي في علم الله الذي قال : « فلا يغررك تقلبهم في البلاد . كذّبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعـدهم وهمت كل أمـة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحـق فأخذتهم فكيف كان عقاب — ٥ غافر » .

(فما أشد اعتدال الأحوال ، وأقرب اشتباه الأمثال) . المـراد بالاعتدال التناسب ، وبالاشتباه المشابهـة ، والمعنى ان أحوال المسلمـين اليوم تشبه أحوال بني اسرائيل من قبل من حيث التشتت والتفرق ، والذل ونكد العيش ، وتسلط البعيد وتحكمه في المقدّرات والمصير .. وقول الإمـام : « الأكاسرة والقياصرة »

يشير الى اللذين حكموا اليهود وفعلوا بهم الأفاعيل كبختنصر والفرس والرومان .. وحذر الإمام أن يصيب المسلمين ما أصاب بني اسرائيل ، ومن قبله وعظ وحذر رسول الله والقرآن .. وما أفاد الوعظ والتحذير .

(فالأحوال مضطربة – الى – مشنونة) . الكلام مستأنف ، والمـراد بـه العرب ، فالأحوال أحوالهم ، والأيدي أيديهم ، والكثرة كثرتهم بدليل قوله : « بنات موءودة ، وأصنام معبودة .. وغارات مشنونة ». والقصد المقارنة والمشابهة من حيث الذم والقبح بين جاهلية العرب وعنصرية اليهود .

(فانظروا الى مواقع النعم عليهم الخ) .. ضمير « عليهم » يعود للعرب ، والمراد بالرسول محمد (ص) الذي دعا دعوة العدل والمساواة ، فسخر منه ومن دعوته الطواغيت لا لشيء إلا لأنه جعل الآلهة إلهاً واحداً .. ولكنه صمد وأصر على كلمة « لا إله إلا الله محمـد رسول الله » فحاولوا أن يثنوه بالحسنى ، فعرضوا عليه المال والسلطان ، فسخر منهم ومضى في دعوتـه ، فاضطهدوه ونكلوا به ، فما زاده ذلك إلا ثباتاً وايماناً ، وعندئـذ حاصروه وأحكموا الحصار عليه وعلى أسرته ثلاث سنوات ، فلم يعبأ .. ولما أعيتهم الحيل تآمروا على اغتياله ، فأعمى الله أبصارهم عنه ، وهاجر من بينهم الى المدينـة ، فتبعوه بعدتهم وعددهم ، فانتصر عليهم بإذن الله .

وباسمه قضى المسلمون على ملك كسرى ، وحرروا المستعمرات من حكم قيصر ووصلوا الى حدود الهنـد والصين وجنوب فرنسا ، وبفضله أعطوا شرق الأرض وغربهـا فيضاً من العلوم والحضارة .. ثم انقسمت الخلافـة ، وتعددت الممالك الاسلامية ، ومع هذا بقي للمسلمين شأن وكيان مدة ألف عـام أو تزيد ، ولا أدري هل يعود المسلمون كما كانوا خير أمة أخرجت للنـاس تؤمن بالله ورسوله قولاً وعملاً ؟.

غاندي وعلماء المسلمين :

أكتب هذه الكلمات في سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٧٢ ، والمؤتمر الاسلامي السابع ينعقد في القاهرة .. واذا عطفنا هذه « السبعة » على اخوتها في السعودية وليبيا والمغرب

لرأينا نمواً مستمراً وسريعاً في هذا الميدان .. لكن — يا للأسف — اذا التمسنا الثمرات والنتائج العملية لهذه التحركات مجتمعة — لوجدناها تماماً كضم صفر الى صفر ، لا يخرج منه أي شيء ايجابي يفيد المسلمين .

والنتيجة العملية التي يترقبها كل عربي ومسلم من هذا المؤتمر وأمثاله هي أن يرى بادرة خير ، وبارقة أمل في أن أمنه وزمامه في يد جيشه وحكومته ، لا في يد اسرائيل والصهيونية ، وان مصيره ومستقبله في إرادة شعبه وأمته، لا في إرادة موسكو وواشنطن ، أو مجلس الأمن والأربعة الكبار .. إن العدو يستهتر بجيوشنا ودولنا ويقابلها بازدراء وخشونة .. فهل يرضى علماء المسلمين أن تستهتر اسرائيل بهم أيضاً ، وتسخر منهم ومن تجمعاتهم وقراراتهم ؟.

إن الأيدي الخفية حركت بعض المؤتمرات التي حملت عنوان التعايش بين الأديان .. ونحن نبرىء وننزه المؤتمر الاسلامي عن ذلك ، ولكن نتساءل : لماذا لا يصدر علماء المؤتمر نداء يحرمون فيه البضائع والسلع الأمريكية شراء واستعمالاً ، كما فعل غاندي من قبل في مقاطعته السلبية ضد الانكليز ؟. وهل صاحب «العنزة» أكثر إخلاصاً لوطنه وأمته من علماء المسلمين لدينهم ووطنهم ؟ وهل يجهل علماء المؤتمر ان الولايات المتحدة هي أساس الداء والبلاء .. وان نداءهم هذا له وزنه وأثره ، وبخاصة اذا بذلوا وسعهم لكي يوقع النداء أيضاً كل عالم في كل قطر ، وتطوعوا لتنفيذه والعمل به زرافات ووحدانا ؟.

ومما يوجع ويفجع أن اسرائيل تشدد وتكرر عدوانها على سوريا ولبنان، وتقتل الأبرياء والنساء والأطفال في نفس الوقت الذي يعقد فيه المؤتمر السابع لعلماء المسلمين ببلدة قناة السويس وبالقرب من جيوش العدو المرابط على ضفة القناة .

هذا ، وعلماء المؤتمر في شغل شاغل « بالبحث عن المجتمع المثالي في الإسلام، وعن جدل القرآن ، وكيف يتكوّن المسلم في ظل المناهج ، وعن التأمينات ، وشهادة الاستثمار ، وودائع صندوق الادخار .. » الى آخر ما جاء في جريدة الأخبار المصرية تاريخ ٨ — ٩ — ١٩٧٢ .

أبهذا يا أصحاب الفضيلة تغيظون اسرائيل ؟ وتنتقمون من الولايات المتحدة ، وتنقذوننا من اليأس والقنوط، والذل والهوان ؟ وهل هذا هو واجب العلماء الوحيد الآن فقط لا غير يا حملة القرآن ؟

وكنت قد أرسلت برقيــة للمؤتمر الرابع أو الخامس – والتردد من ضعف الذاكرة – ناشدت فيهــا الرئيس والأعضاء أن يتدارسوا المقاطعة السلبية للسلع الأمريكية ، ولكنهم غضوا الأبصار ، وختموا على الآذان .. اللهم رُدّ علينــا غربتنا ، وعرفنا بمن يسمع ويبصر من علمائنا ، ويزهر ويثمر من زعمائنا . انك حميد منان .

(ألا وانكم قد نفضتم – الى – الجاهلية) . المراد بحصن الله الإسلام الذي أمر بالألفة والتعاون على الخير والصالح العام ، والمراد بأحكام الجاهلية الفرقــة وانتهاك الحرمات ، والمعنى ان الله سبحانه قد تفضل عليكم بنور الإسلام ، فأبيتم إلا ظلمات الجاهلية وأرجاسها (ان الله سبحانه قد امتنّ على جماعة هذه الأمة الخ).. أي على المسلمين ، والمراد بالعقد بينهم الالفة التي تدعو الى التعاون المتكامل على أساس الإيمان والعقيدة ، ويقول الإمام : ان هذا التعاون هو (أرجح من كل ثمن ، وأجلّ من كل خطر) أي جليل ، لأن التعاون بهذا المفهوم يكون لخدمة الجميع لا لصالح فئة على حساب فئة أخرى . قال سبحانه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان – ٢ المائدة » . ومن البداهــة ان البر للجميع ، أما الاختصاص بفرد أو بفئة فإثم وعداون .

(واعلموا انكم صرتم بعد الهجرة أعراباً) لا أثر للإسلام في قلوبكم وأعمالكم إلا قول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . (وبعد الموالاة أحزابــاً) . يشير بالموالاة الى قوله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض – ٧١ التوبة » أي انهم كانوا كذلك في عهد رسول الله وهجرته ، ثم صاروا أعداء متخاصمين (ما تتعلقون من الاسلام الخ) .. إن الاسلام أبعد الأديان عن المظاهر والشكليات .. انه يقين ، ويقين المسلم انما هو في عمله الخالص لوجه الله لا في قوله ومظهره . وتقدم مثله في الخطبة ١٥٠ وغيرها .

الاسلام أمن وأمان .. فقرة ٢٤ – ٢٥ :

تَقُولُونَ النَّارَ وَلَا الْعَارَ ، كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِئُوا الْإِسْلَامَ عَلَى وَجْهِهِ ، انْتِهَاكاً لِحَرِيمِهِ ، وَنَقْضاً لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللهُ لَكُمْ حَرَماً

فِي أَرْضِهِ وَأَمْناً بَيْنَ خَلْقِهِ . وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ ، ثُمَّ لَا جَبْرَائِيلُ وَلَا مِيكَائِيلُ وَلَا مُهَاجِرُونَ وَلَا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَكُمْ إِلَّا الْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَكُمْ . وَإِنَّ عِنْدَكُمُ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَقَوَارِعِهِ ، وَأَيَّامِهِ وَوَقَائِعِهِ . فَلَا تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلاً بِأَخْذِهِ ، وَتَهَاوُناً بِبَطْشِهِ ، وَيَأْساً مِنْ بَأْسِهِ . فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقَرْنَ الْمَاضِيَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ . فَلَعَنَ اللهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَالْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاهِي(٢٤) . أَلَا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْإِسْلَامِ وَعَطَّلْتُمْ حُدُودَهُ وَأَمَتُّمْ أَحْكَامَهُ ، أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِي اللهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنَّكْثِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ . وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ . وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّدْهَةِ فَقَدْ كُفِيتُهُ بِصَعْقَةٍ سُمِعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِهِ وَرَجَّةُ صَدْرِهِ . وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ . وَلَئِنْ أَذِنَ اللهُ فِي الْكَرَّةِ عَلَيْهِمْ لَأُدِيلَنَّ مِنْهُمْ إِلاَّ مَا يَتَشَذَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَذُّراً(٢٥) .

اللغة :

كفأ واكتفأ الإناء : أماله وقلبه . والميثاق · العهد . ونكثه : نقضه . والقاسطون : الجائرون عن الحق . والمارقة : الذين خرجوا من الدين . والردهة – بفتح الراء – النقرة يجتمع فيها ماء السماء . وصُعِق : غشي عليه وذهب

عقله . ووجب القلب : اضطرب . ورجّ الصدر : اهتز . وأديلن منهم: أنتصر منهم . ويتشذر : يتفرق .

الإعراب :

النار والعار منصوبان بمحذوف أي ندخل النار ولا نتحمـل العار ، وانتهاكاً مفعول من أجله لتكفؤا ، لا جبرائيل بالفتحة اسم «لا» تشبيهاً بالنكرة مثل معضلة ولا أبا حسن لها ، وجهلاً مفعول لأجله ، وتشذراً مفعول مطلق .

المعنى :

(تقولون النار ولا العار) . هذا تفريع على قوله : « ما تتعلقون من الاسلام إلاّ باسمه » والمعنى انكم تقولون بأفواهكم ما ليس في قلوبكم .. صحيح انكم تنطقون بكلمة الشهادتين ، ولكنكم لا تعملون بموجبها ، وأيضاً تقولون : النار ولا العار ، ومع هذا لا تصونون حقاً ، ولا تمنعون ضيماً (كأنكم تريدون أن تكفئوا الإسلام على وجهه الخ) .. هذا كناية عن معاكستهم لدين الله ، وانهم تنكبوا عن طريقه الى طريق المتاهة والضلالة.وتقدم مثله في الخطبة ١٠١ و ١٠٦ .

(الذي وضعه الله لكم – الى – بينكم) . ضمير وضعه يعود الى الإسلام ، والمعنى ان الله سبحانه شرع لكم من الدين ما هو أمنٌ وخير دنيا وآخرة ، فإن عاكستم وخالفتم عشتم في خوف وحرب مع أهل الكفر والبغي ، ولا تجدون ولياً ولا نصيراً إلا ما شاء الله (وان عندكم الأمثال من بأس الله الخ) .. المراد بالأمثال الآيات والأحاديث عما أصاب الطغاة من السابقين الذين جعلهم سبحانه عبرة وعظة للاحقين ، لعلهم يتقون ، والمراد ببأس الله وقواعده وأيامه ووقائعه واحد ، وهو العذاب ، والانتقام ، والمعنى:لماذا تتهاونون بأمر الله ونهيه ، وأنتم تعلمون بطشه وانتقامه ، وتهديده ووعيده ؟ هل استبطأتم ذلك ، وتقولون مثل ما قال الأولون : ائتنا بما تعدنا ؟ انه تعالى يمهل ولا يهمل .

ثم بيّن الإمام السبب الموجب لغضب الله ولعنته على من أدبر وتولى ، بيّنه بقوله : (إلا لتركهم الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر) ومعنى هذا ان دين

الله ايجابي لا سلبي ، فهو لا يرضى منك أن تترك المنكر وكفى ، بـل عليك أيضاً أن تنهى عنه ، وتجاهد من أصر عليه بما تملك من طاقة (فلعن الله السفهاء) وهم الشباب من أهـل الجهل والطيش ، لعنهم سبحانه (لركوب المعـاصي) كالفجور والخمر والميسر ، وأيضاً لعن (الحلماء) أي الشيوخ المتقدمين في السن (لترك التناهي) . لا ينهى بعضهم بعضاً عن الفتن والدسائس والمؤامرات .

(ألا وقد قطعتم قيـد الإسلام) . ان الإسلام قيد ولجام يكبح ويمنع عن الجرائم والموبقات تماماً كالعقل يكبح الشهوات (وعطلتم حدوده) وهي حلال الله وحرامه (وأمتم احكامـه) عطف تفسير (ألا وقد أمرني الله بقتال اهل البغي الخ) .. يشير الى الناكثين أصحاب الجمـل ، والقاسطين أهل صفين ، والمارقين الخوارج،وان الله قد أمره بقتالهم فسمع وأطاع . وعن رسول الله (ص): ان علياً يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين . نقل هذا الحديث الحافظ النيسابوري في « مستدرك الصحيحين » ج ٣ ص ١٣٩ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢٤ هـ وابـن الأثير في « أسد الغابة » ج ٤ ص ٣٢ طبعة مصر سنة ١٢٨٥ هـ ، والمتقي الهندي في « كنز العمال » ج ٦ ص ٨٢ طبعـة حيدر آباد سنة ١٣١٢ هـ . (نقلنا رقم الجزء والصفحة وتاريخ الطبع عن كتاب « فضائل الخمسة من الصحاح الستة »).

(أما شيطان الردهة الخ) . وهو حرقوص بن زهير ، وكان أسود منتن الريح ، وله عضد وليس له ذراع ، وعلى رأس العضد مثل ثدي المرأة ، ومن أجل هذا لُقب بذي الثدية وبالمخدج أي الناقص ، وبذي الخويصرة ، وكـان من رؤوس الخوارج . وفي صحيح مسلم كتاب « الزكاة » ، وأبي داود بـاب قتال الخوارج : ان رسول الله (ص) قد أشار الى هذا الشيطان بقوله : « يخرج قوم — أي الخوارج — من أمتي يقرأون القرآن ليس قراءتكم الى قراءتهم بشيء.. يمرقون في الإسلام كما يمرق السهم من الرمية .. وان فيهم رجلاً له عضـد ، وليس له ذراع على رأس عضده مثل حلمة الثدي . وروى البخاري هذا الحديث في ج ٤ باب علامات النبوة في الإسلام : وان هذا الشيطان أتى النبي ، وهـو يقسم قسماً ، فقال : يا رسول اعـدل ، فقال له : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟.

وروى أهل التاريخ أن الإمام بعد أن انتهى من قتل الخوارج قـال : اطلبوا ذا الثدية بين القتلى ، فبحثوا عنه فلم يجدوه . فقال الإمام : لقد أخبرني رسول

الله (ص) بقتله ، والله ما كَذبت ولا كُذبت . اطلبوا الرجل وانه مع القتلى ، فبحثوا عنه حتى وجدوه في حفرة،فنسب اليها (وبقيت بقية من أهل البغي الخ).. وهم معاوية وأصحابه ، ان تمكن منهم الإمام قضى عليهم وعلى دولتهم ، ولا يُبقي إلا مشمراً وهارباً .

النبي وعلي .. فقرة ٢٦ — ٢٧ :

أَنَا وَضَعْتُ فِي الصِّغَرِ بِكَلاَكِلِ الْعَرَبِ ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ . وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ . وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ ، وَيَكْنُفُنِي إِلَى فِرَاشِهِ ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ . وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ . وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ ، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْلٍ . وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ (٢٦) . وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاَقِهِ عَلَماً وَيَأْمُرُنِي بِالاِقْتِدَاءِ بِهِ . وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي . وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا . أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ . وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْــهِ وَآلِهِ ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا هٰذِهِ الرَّنَّةُ ؟ فَقَالَ هٰذَا الشَّيْطَانُ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ . إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَى مَا أَرَى إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ . وَلٰكِنَّكَ وَزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ (٢٧) .

اللغة :

الكلاكل : الصدور ، والمراد بها هنا كبار العرب . ونواجم القرون : ما برز منها ، والمراد بها هنا سادات القبائل . وعرْفه : رائحته الذكية . وخطلة: الخطأ . والفصيل : ولد الناقة . وحراء – بكسر الحاء – جبل من جبال مكة المكرمة .

الإعراب :

بكلاكل الباء زائدة ، والفتحة على ربيعة ومضر علامة الجر ، لأنهما ممنوعان من الصرف للعلمية والتأنيث ، وقال الشيخ محمد عبده : هما بدل من قرون . والأظهر جرهما بالإضافة .

الإمام علي :

(أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب الخ) .. من درس تاريخ الاسلام رأى ان الدعوة الاسلامية مرت في العديد من المراحل ، والأساسية منها ثلاث :

المرحلة الأولى : إعلان الدعوة وبثها بلا عنف ، والثبات عليها مهما تكن الظروف والمصاعب ، وتحمُّل العذاب والتنكيل بلا محاولة الدفاع والمقاومة ، لأن المقاومة مع العجز انتحار .. وقد تحمّل النبي(ص) والصحابة الكثير في هذه المرحلة، واستشهدت منهم أم عمار وأبوه ياسر ، واستمرت هذه المرحلة ١٣ سنة في مكة.

ولك أن تسميها بمرحلة المقاومة السلبية ، وبمثلها أو قريب منها حرر غاندي الهند من الاستعمار . ومن أقواله : « اذا كنا صادقين فإن القمع لن يثبط همتنا ، ولن يدفعنا الى المبادرة الغاضبة بمجابهة العنف بالعنف ، ذلك ان العنف انتحار » أي لمن لا يملك القوة الرادعة .

المرحلة الثانية : الدفاع بعد إكمال العدة والعدد لردع العدوان مع توطين النفس على الفداء والتضحية ، ومن هذه المرحلة حرب بدر وأُحُد وغيرهما من الغزوات.

المرحلة الثالثة : الهجوم على العدو وتطويقه ، وأخذ المبادرة قبـــل أن يثب ويباغت بهجومه وعدوانه .. وأيضاً لا بد لهذا الهجوم الرادع من إكمال العـــدة والعزم على الفداء والتضحية ، وما بلغت الدعوة هذه القوة إلا بعد غزوة الأحزاب وتشتيتها حيث هتف النبي يقول : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ولا شيء بعده .. الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، وفي هذه المرحلة كان فتح مكة .

ورافق عليٌّ النبي (ص) في مراحله كلها ، وسبق الناس الى الإيمان بدعوته ، والتمسك بعروته ، ودافع عنه وعنها بنفسه لا يرجو إلا رضا الله ومودة الرسول، بل كان علي يبث الدعوة لمحمد (ص) قبل البعثة ، ويحدث الغلمان من أترابه عن خلق محمد وعظمته ، قال الاستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في كتاب « محمد رسول الحرية » الطبعة الأولى ص ٦٥ : « كان علي ، وهو في الثامنة يحدث الغلمان في مثل سنه عن ابن عمه ويقول : ان محمداً ألغى في بيته كلمة العبيد والجواري ، وأحل مكانهما كلمة فتاي وفتاتي ، وهو يصبر على الخدم ، فما يقول لواحد منهم « أف » مهما يخطىء » .

وكان عتاة قريش يُغْرون الصبيان برسول الله (ص) فيصحب معه علياً يذبهم عنه . ومن جهاده في المرحلة الأولى مبيته على فراش رسول الله ليلـــة الهجرة . وهنا أدع الحديث لغيري تجنباً لمواضع التهم .. فقد نشرت جريدة الأخبار المصرية تاريخ ٨ – ١٢ – ١٩٦٧ كلمة بعنوان « مشاهدات فدائية في تاريخ الإسلام » جاء فيها :

« ان تاريخ الإسلام حافل بضروب باسلة من أمثلة الفدائية النبيلـة .. وأظهر من نعرف من فدائيي العصر النبوي علي بن أبـي طالب ، ومواقفه الفدائيـة أكثر

من ان تحصر ، ولعل أولها في تاريخ الدعوة مبيته ليلة الهجرة عـــلى فراش ابن عمه متوقعاً ما سيحيق به من الموت المباغت إذ أحاط به الأعداء من كل صوب، فهانت عليه نفسه وراء ما ينشد من تفدية صاحب الدعوة ، ومكث الليل الطويل ينتظر الموت ما بين لحظة وأخرى ، وقد برقت الأسنة ، ولمعت السيوف .. ان مخاطرات علي الفدائية تغلغلت في أعماقه حتى غدت احدى وسائل التصبر في بطولاته، وحسبك أن تعلم انـــه في طليعة المتقدمين في ميدان المبارزة الحربية ، وانه بطل الإسلام » .

أما الكاتب الإسلامي المصري الاستاذ عبد الكريم الخطيب فقـــد استوحى من المبيت معنى دقيقاً ما سبقه اليه عالم وباحث ، قال في كتاب علي بن أبي طالب ص ١٠٥ وما بعدها طبعة ١٩٦٧ :

« هذا الذي كان من علي في ليلة الهجرة .. لم يكن أمراً عارضاً ، بل هو عن حكمة لها آثارها ومعقباتها ، فلنا أن نسأل : أكان لإلبـــاس الرسول (ص) شخصيته لعلي أكثر من جامعة القرابـة القريبة بينهما ؟. وهـل لنا أن نستشف من ذلك – أي من ان الرسول ألبس شخصيته لعلي – انه اذا غاب شخص الرسول كان علي هو الشخصية المهيأة لأن يخلفه ، ويمثل شخصيته ، ويقوم مقامـــه ؟.. وأحسب اننا لم نتعسف كثيراً حين نظرنا الى علي ، وهو في برد الرسول ، وفي مثوى منامه الذي اعتاد أن ينام فيه – فقلنا : هذا خلف الرسول والقائم مقامه».

وبحق قال الأستاذ الخطيب : إن شيعة علي لا يقيمون شاهداً من هذه الواقعة يشهد لعلي انه أولى الناس برسول الله على حين نراهم يتعلقون بكل شيء يرفـع علياً الى تلك المنزلة أي الخلافة . ولي أن أجيب عن الشيعة بأنهم لا يستدلون بشيء على خلافة إمامهم إلا بأقوال السنّة ، وعلى هذا جرت عادتهم منذ القديم تجنباً لمواطن التهم .. وما رأوا أحداً قبل الأستاذ الخطيب استدل بهذه الواقعة على أولية علي بالخلافة ، ولما أنطقه الله به أخذوه عنـه ، كما فعلت أنا . ثم قال الخطيب الكريم :

« إن علياً خدع قريشاً بمبيته على فراش رسول الله ، ومكر بها عن محمـد حتى أفلت من بين أيديها ، وسلم من القتل ، وقد صفعها علي بفعلته هذه صفعة مذلة ومهينة ، فأضمرت قريش لعلي السوء ، وأرهقته وتجنت عليه بعد أن دخلت

الاسلام .. إن هذا الذي كان من علي ليلة الهجرة في تحديه لقريش، هذا التحدي السافر ، وفي استخفافه بها ، ان ذلك لا تنساه قريش لعلي أبداً ، ولولا انها وجدت في قتل علي يومئذ إثارة فتنة تمزق وحدتها لشفت ما بصدرها منه، ولكنها تركته ، وانتظرت الأيام لتسوي حسابها معه .. ولحق النبي بالرفيق الأعلى، وترك علياً وراءه يصطدم بالأحداث ، ويكابد الشدائد حتى يلحق بالرسول .. ألا يبدو لنا من هذه الموافقات ما نستشف منه ان لعلي شأناً في رسالة الرسول ، ودوراً في دعوة الاسلام ليس لأحد غيره من صحابة الرسول » .

وبعد ، فإن الاستاذ عبد الكريم الخطيب لا يمت الى الشيعة بأم ولا أب ، ولا بتربية وبيئة ، وإنما نطق بوحي من ضميره ودراسته مجرداً عن كل غاية ، فالتقى مع شيعة علي من حيث لا يريد .. ثم تنبه للعواقب ، وخاف من تهمة التشيع ، وثورة المتعصبين من الشيوخ ، فاتقاهم بقوله : « وبعد فهذه خطرات لا نحسبها على تلك القضية ، ولا نأخذ بها فيها » . ولكن أسلوبك في التعبير — أيها الأستاذ الكريم — ينم عن شعور قلبك وإيمانه ، لا عن خطرات خيالك ووساوسه ، ان هذه الخطرات والوساوس تتجلى في اعتذارك بقولك « لا نأخذ بها فيها » ان هذا الاسلوب ان دل على شيء فإنه يدل على الشك والحيرة والارتباك. وعلى أية حال فأنت معذور لقوله تعالى : « الا ان تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير — ٢٨ آل عمران » .

قدمنا ان الدعوة الإسلامية مرت بثلاث مراحل أساسية : الأولى مجرد الإيمان والإعلان مع الثبات والصبر على الأذى . والثانية ردع العدوان . والثالثة الهجوم الرادع ، وأشرنا الى جهاد الإمام في المرحلة الأولى . ومن جهاده في المرحلة الثانية بلاؤه يوم بدر ، وبعد أن تحدث عبد الكريم الخطيب عن هذا اليوم في كتاب « علي بن أبي طالب » قال : « فأنت ترى كيف كان ابن أبي طالب سيفاً بتاراً يضرب أئمة الكفر من قريش » .

وقال عن يوم أحد : « وكان لعلي يوم أحد ما كان له يوم بدر من الإطاحة برؤوس أئمة الكفر من قريش..ومن قتلى علي في هذا اليوم طلحة ابن أبي طلحة صاحب راية المشركين في تلك الوقعة ، فغير منكور إذن تلك اليد الضاربة ، وهذا السيف لعلي في معركة الإسلام ، وأيضاً غير منكور التراتُ التي كانت للمشركين عند علي ، والتي لم يخل منها بيت من بيوت قريش » .

وقال عن وقعة الأحزاب : « قال النبي (ص) حين برز علي لابن ودّ يوم الخندق : الآن برز الإسلام للشرك كله .. وقال حذيفة بن اليمان : لو قسمت فضيلة علي بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين أجمعهم لوسعتهم. وقال ابن عباس في قوله تعالى : «وكفى الله المؤمنين القتال» بعلي . والحق ان مكان علي في معارك الاسلام أكبر من أن تخفى وراء التعصب في مواقف الخصومة والملاحاة ، ولو ان بطولة علي كانت موضع شك لما سار الحديث عنها مسير المثل ، فكان مما قيل : لا فتى إلا علي ، ولا سيف إلا ذو الفقار. إن علياً أكثر المسلمين شدة على مشركي قريش ، وإفجاعاً لهم في الأبناء والآباء والأعمام والأخوال ، وهذه الإحن على علي ، وتلك الترات في نفوس قريش المشركة ظلت حية بعد أن دخلت في الاسلام .. وبعد موت النبي تناولت قريش بسيوفها شيب بني هاشم وشبابها وصبيانها وشرّدت عقائلها وحرائرها ، وكأنما تثأر بهذا لقتلاها في بدر وأحد ، وحسبنا أن نذكر هنا مصرع الحسين وآل بيته في كربلاء ، وما تلا ذلك من وقائع » .

ومن جهاد الإمام في المرحلة الثالثة بلاؤه يوم خيبر وقتله مرحباً، ويوم حنين، وفي حصار الطائف ، وما الى ذلك مما ذكره أهل السير والتاريخ .

(وضعني في حجره ، وأنا ولد الخ) .. إن المعيار الصحيح للموازنة والمفاضلة بين صحابة رسول الله وغيرهم هي النصح للاسلام ، والجهاد في سبيله ، والعلم والعمل به وأحكامه ، أما السبق الى الاسلام فقد كان في أول البعثة أعظم الفضائل وأهم أنواع الجهاد على الاطلاق حيث لا قوة للإسلام ، ولا جماعة للمسلمين ، وحيث يعاني النبي (ص) من السفهاء شراً وعنتاً ، ولا ذابّ ومعين ، ومن أجل هذا يعتبر المسلم آنذاك من المؤسسين أو في حكمهم ، قال سبحانه : « الذين اتبعوه في ساعة العسرة — ١١٧ التوبة » . وقال : « والسابقون السابقون أولئك المقربون — ١٠ الواقعة » أي السابقون عند البعثة ، أما بعد الهجرة ووجود العدة والعدد فلا فضل لسابق على لاحق إلا بما أشرنا اليه .

وكان لعلي فضيلة السبق الى التصديق بالاسلام ونبيه يوم لا مسلم إلا محمد وخديجة وهو ثالثها ، كما قال بالإضافة الى الخلال الفضلى ، والى قرابة قريبة من رسول الله (ص) تجعله،مجتمعة فيه — أولى الناس برسول الله (ص) : « واولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله — ٦ الأحزاب » .

(ولم يجمع بيت واحد يومئذ الخ) .. في سيرة ابن هشام عن ابن اسحق : « كان أول ذكر أسلم وصلى علي بن أبي طالب ، والثاني زيد بن حارثة » . ومثله في كتاب «وحي القلم» لمصطفى صادق الرافعي ج ٢ ص ١٨ الطبعة الثانية ، وكتاب « اليمين واليسار في الاسلام » لأحمد عباس صالح ص ٥٠ طبعة سنة ١٩٧٢ وكتاب « محمد رسول الحرية » لعبد الرحمن الشرقاوي ص ٦٩ الطبعة الأولى . ونقل الفيروزآبادي في كتاب « فضائل الخمسة من الصحاح الستة » ج ١ المقصد الثاني ، الفصل التاسع والعاشر ، نقل عن أكثر من عشرين مصدراً قديماً : إن علياً أول من أسلم وآمن ، وذكر صاحب « الفضائل » رقم الجزء والصفحة ، وزمان الطبع ومكانه .

(ولكنك وزير) . جاء في « الرياض النضرة ج ٢ ص ١٦٣ الطبعة الأولى بمطبعة الاتحاد المصري ، والدر المنثور للسيوطي عند تفسير قوله تعالى : « رب اشرح لي صدري » : إن رسول الله (ص) قال : « اللهم اني أسألك بما سألك أخي موسى أن تشرح لي صدري ، وأن تيسر لي أمري ، وأن تحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي ، أشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبّحك كثيراً ، انك كنت بنا بصيراً » .

وقال مسلم في صحيحه ج ٢ ص ١٠٨ طبعة سنة ١٣٤٨ هـ : إن رسول الله قال لعلي : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى .

النبي والشجرة .. فقرة ٢٨ — ٣١ :

وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا أَتَاهُ ٱلْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ قَدِ ٱدَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَاهُ عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ . فَقَالَ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : وَمَا تَسْأَلُونَ ؟ قَالُوا تَدْعُو لَنَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، فَإِنْ فَعَلَ اللهُ لَكُمْ ذٰلِكَ أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا نَعَمْ[٢٨] . قَالَ : فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيئُونَ إِلَى خَيْرٍ ، وَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلِيبِ ، وَمَنْ يُحَزِّبُ الْأَحْزَابَ . ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : يَا أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ فَانْقَلِعِي بِعُرُوقِكِ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللهِ . فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَانْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ وَقَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، مُرَفْرِفَةً ، وَأَلْقَتْ بِغُصْنِهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَبِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي ، وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ[٢٩] . فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذٰلِكَ قَالُوا ـ عُلُوّاً وَاسْتِكْبَاراً ـ : فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا وَيَبْقَى نِصْفُهَا فَأَمَرَهَا بِذٰلِكَ ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيّاً ، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالُوا ـ كُفْراً وَعُتُوّاً ـ فَمُرْ هٰذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ فَأَمَرَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَرَجَعَ .

فَقُلْتُ أَنَا : لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ فَإِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِـــكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى تَصْدِيقـاً بِنُبُوَّتِكَ وَإِجْلَالاً لِكَلِمَتِكَ(٣٠) . فَقَالَ ٱلْقَوْمُ كُلُّهُمْ : بَـــلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ، عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هٰذَا (يَعْنُونِي) وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ سِيمَاهُمْ سِيمَا الصِّدِّيقِينَ ، وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ الأَبْرَارِ . عُمَّارُ اللَّيْـلِ وَمَنَارُ النَّهَارِ . مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ ٱلْقُرْآنِ . يُحْيُونَ سُنَنَ اللهِ وَسُنَنَ رَسُولِهِ . لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَعْلُونَ ، وَلَا يَغُلُّونَ وَلَا يُفْسِدُونَ . قُلُوبُهُمْ فِي ٱلْجِنَانِ وَأَجْسَادُهُمْ فِي ٱلْعَمَلِ(٣١) .

اللغة :

لا تفيئون : لا ترجعون . والقليب : البئر . وقصف الرعد : اشتد صوته، وقصف البعير : هدر في الشقشقة .

الإعراب :

مرفرفة حال من الضمير المستتر في وقفت ، وعلواً مفعول من أجله لقالوا ، ودوياً تمييز ، وتصديقاً مفعول من أجله ، وساحر خبر لمبتـــدأ محذوف أي هو ساحر ، وعمار الليل أي هم عمار الليل .

الخوارق والمعجزات :

هذا الحديث عن الشجرة واضح لا يحتاج الى تفسير ، وقديماً قيل : توضيح الواضحات من أشكل المشكلات .. ومن المفيد أن نشير بهذه المناسبة الى من ينكر الخوارق والمعجزات، انما ينكرها لسبب واحد، وهو انها خرق لسنن الطبيعة، وهذا ما يرفضه العلم بمعناه الحديث .

الجواب :

أولاً : إن خرق العادة ليس بعزيز . وما أكثر ما روى الرواة من ذلك على مر العصور .. وفي هذه السنة ١٩٧٢ التي نحن فيها نشرت الصحف طرفاً من هذا الباب ، ومنه ما جاء في جريدة « أخبار اليوم » المصرية تاريخ ٢٢-٧-١٩٧٢: إن رجلاً مشهوراً في أمريكا « برويك » اذا تصور جسماً انعكست صورته في عينيه ، وقد تضايق من كثرة تردد العلماء عليه ، يأتيه أحدهم ومعه الكاميرا ، ويطلب منه أن يتصور الأهرام أو برج ايفل – مثلاً – ثم يجعل عدسة الكاميرا في مواجهة عيني «برويك» وبعد أن يأخذ صورة العينين يفحصها ويطبعها مراراً، فتأخذه الدهشة حين لا يرى في الصورة إلا الشيء الذي طلبه .. وأحدث تجربة قام بها « برويك » هي انه طلب الى ثلاثة من المصورين أن يقفوا أمامه في وقت واحد ، ثم نظر الى العدسات الثلاث الواحدة تلو الأخرى ، فالتقطت كل عدسة من عينيه صورة لمبنى الأمم المتحدة من أربع جهات مختلفة .

وأيضاً يوجد الآن في هولندا رجل عجيب اسمه « سريوس » يستطيع أن يحرك أي شيء خفيف الوزن كالقلم بمجرد النظر اليه إذا شاء .. وتحير العلماء في تفسير هذه الظاهرة وتلك ، وبحثوا ، وأطالوا البحث الدقيق في عيني سريوس ودماغ برويك ، ولكنهم لم يصلوا الى شيء .. فهل يجب علينا أن ننكر الشيء الذي رأيناه بالعين ولمسناه باليد – لا لشيء إلا لأن العلم الحديث عجز عن تفسيره ؟ ان العلم يفسر الأشياء التي تسير على مبدأ النظام ، ولا نظام للشذوذ . ولذا قيل : الشاذ لا يقاس عليه ، وهذه الظواهر التي أشرنا اليها كلها شاذة ، ولكنها ممكنة الوقوع .

ثانياً : يجب أن نفرق بين مرتبة الإمكان وجواز حدوث الشيء عقلاً ، وبين

وقوعه بالفعل ، ولا نخلط بينهما ، فإذا أردنا أن نثبت أو ننفي حادثة ما ــ تعين علينا أن نبدأ أولاً من مرحلة الإمكان والجواز ، فإن كانت الحادثة جائزة الوقوع في ذاتها ــ انتقلنا الى مرتبة الوقوع ، ونظرنا : هل وقعت أم لا ، كالصعود للقمر ، أمـا إذا كانت الحادثة ممتنعة الوقوع عقلاً وذاتاً ــ فيجب نفيها بلا توقف وبحث، لأن ما امتنع إمكانه امتنع وقوعه حتماً ، مثل دخول الجمل بطوله وعرضه في سم الخياط على ضيقه . والمعجزة بشتى أنواعها ممكنة الوقوع ، فإذا نُقلت الينا بطريق صحيح وجب التصديق .

وبكلام آخر ان عالم الإمكان متقدم على عالم الوجود في الخارج بحكم البديهة .. والعقل هو الذي يفسر لنا أن هذا الشيء يمكن أن يوجد ، أو يستحيل وجوده في ذاته .. وإذن فمسألة الإمكان والامتناع نظرية عقلية بحتة ، فإذا حكم العقـل بإمكان وقوع الشيء كالصعود للقمر والمريخ ــ بحثنا عنه في عالم الوجود ، ولكن لا يصح بحال أن ننفيه أو نثبته إلا بالملاحظة والمشاهدة مباشرة ، أو بالروايـة الصادقة عن شاهد وعاين ، ولا ميدان للعقل ونظرياته في عالم الوقوع نفياً وإثباتاً إلا إذا كان بين الشيء الذي رأيناه بالفعل وبين ما غابت عنا رؤيته ــ ملازمـة عقلية كالملازمة بين الأثر والمؤثر والعلة والمعلول .

والذي أنكر المعجزات ونفاها من عالم الوجود لم يعتمد في انكاره هذا عـلى الملاحظة والمشاهدة ، كما يجب ، وإنما اعتمد على العقل ونظرياته ، وهذا عين الخطأ والخلط بين عالم الإمكان الذي هو من شأن العقل ووظيفته ، وبـين عالم الوقوع الذي هو من شأن الملاحظة والمشاهدة .

وعلى هذا يكون الاستدلال بالعقل على نفي المعجزة من الوجود تماماً كالاستدلال به على نفي القمح من دكان القصاب لا لشيء إلا لأنه يبيع اللحم .

وتسأل : ان الصعود للقمر الذي جعلته مثلاً قد حصل بوسائل طبيعية معروفة، أما المعجزة فليس لها من سبب معلوم .

الجواب :

قلنا : إن المعجزة لا بد أن تكون ممكنة الوقوع ، لا من النوع المستحيـل عقلاً ، وهذا هو المهم ، أما كون سبب وجود المعجـزة غير طبيعي فليس

بالشيء المهم ، لأن خالق الطبيعة عنده أسباب كثيرة ، ومن الجائـــز أن يكون من جملتها دعوة النبي أو غيرها مما نجهل .. وبكلمة : إن العقل حـــكم بإمكان المعجزة ، وقد ثبت وجودها بالدليل فوجب التصديق والايمان تماماً كـــما آمن العلماء بأن صور الأشياء تنعكس في عيني «برويك» بمجرد تصوره لها مع جهلهم بالسبب .

الخطبة

١ : —

همام وصفات المتقين .. فقرة ١ — ٤ —

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ ، لِأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ وَلاَ تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ . فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ . فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ . مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ ، وَمَلْبَسُهُمُ الاِقْتِصَادُ ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ . غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ(١) . نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاَءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ . وَلَوْلاَ الْأَجَلُ الَّذِي كُتِبَ لَهُمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ . عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ ، وَهُمْ وَالنَّارُ

كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ . قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ . وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ(٢) . صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً . تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ . أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا . وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا . أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهُ تَرْتِيلاً . يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ . فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً ، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً ، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبُ أَعْيُنِهِمْ(٣) . وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ . فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ ، يَطَّلِبُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ . وَأَمَّا النَّهَارُ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ . قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ(٤) .

اللغة :

الاقتصاد : الاعتدال في الانفاق بلا تقتير أو تبذير . ويحزنون به أنفسهم : يجلبون لها الحزن . ويستثيرون به دواء دائهم : يوجدون الدواء للداء . والزفير والشهيق : من صفات الصوت . وحانون على أوساطهم : راكعون . ومفترشون لجباهم : ساجدون . والقداح : السهام . وبريها : نحتها .

الإعراب :

غنياً حال ، ومثله آمناً ، وكالتي الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف ،

أي (نزلت نزولاً مثل نزول الخ).. وشوقاً مفعول من أجله لتستقر ، وفاعل أعقبتهم ضمير مستتر يعود الى الأيام ، وتجارة مربحة خبر لمبتدأ محذوف أي تلك أو تجارتهم مربحة ، وطمعاً مفعول من أجله ، ومثله شوقاً .

المعنى : .

قال الشريف الرضي : ان صاحباً لأمير المؤمنين (ع) يقال له همام وكان عابداً – سأل الإمام في ذات يوم أن يصف له المتقين كأنه ينظر اليهم . فتثاقل، ثم قال : يا همام اتق الله وأحسن . فلم يقتنع همام وألح ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد فإن الله خلق الخلق حين خلقهم الخ » .. انه تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته ، فهو – إذن – غني عن كل شيء ، واليه يفتقر كل شيء وجوداً وبقاءً ، وتقدم ذلك مراراً .

(فقسم بينهم معايشهم الخ) .. ان الله تعالى لا يسيّر الكون عبثاً وجزافاً ، بل على نظام كامل ومطرد ، وأيضاً لا يتعامل مع الناس إلا عن طريق العمل ، ومن أجل هذا جهز الإنسان بأدوات العمل كالعقل والقدرة والإرادة ، وحدده له على لسان أنبيائه ورسله ، فمن سمع وأطاع ضمن سبحانه له الصلاح والفلاح دنيا وآخرة ، ومن أعرض وآثر البطالة فما له عند الله إلا الحرمان والخذلان : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون – ١١٧ هود » . وتقدم الكلام عن ذلك في الخطبة ٢٣ وغيرها (منطقهم الصواب) لا يقولون ما لا يعتقدون ولا يفعلون (وملبسهم الاقتصاد) يلبسون ثوباً واحداً ، أو ثوبين – على الأكثر – بلا مضاهاة ومباهاة . (ومشيهم التواضع) يمشون على فطرتهم وطبيعتهم بلا خيلاء وتصنع .

(غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم) كناية عن عفة النفس ، وصونها عما يشين (وقفوا أنفسهم على العلم النافع لهم) . لا يقدسون إلا الحق والحكمة، ولا يهتمون إلا بالعلم المنتج ، إذ لا دين بلا علم ، والعامل بغير علم يفسد أكثر مما يصلح (نزلت أنفسهم منهم في البلاء الخ) .. يرجون رحمة الله عند الشدة، ويخافون بأسه عند النعمة . قال الإمام الصادق (ع) : « لا يكون العبد مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو».

وهذا شأن العاقل مؤمناً كان أم كافراً ، لا ييأس ويستسلم مهما كانت المصاعب . وأيضاً يحتاط ، ويحذر العواقب ، وان أقبلت الدنيا عليه بكاملها .

(ولولا الأجل الذي كتب عليهم الخ) .. انهم في قلق دائم ، يتنازعهم عاملان : رجاء الثواب ، والخوف من العقاب ، وتعادلت قوة هذا مع قوة ذاك ، واذا توازنت القوى بين المتصارعَين كان لكلٍ أثره البالغ ، ومن أجل هذا لم تستقر أرواح المتقين وأجسادهم طرفة عين ، ومن أين يأتيها الاستقرار ، وهي ساحة وميدان لهذه الحرب الشعواء ؟ ولولا الأجل المكتوب لذهبت أنفسهم ضحية الخوف والقلق .

(عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم). أبداً لا تنفك المسببات عن أسبابها ، والنتائج عن مقدماتها . فالضعيف ينهزم أمام القوي ، والجهل أمام العلم ، والعقيدة تحطم الحواجز ، والإخلاص يبعث على التضحية ، وكذلك من أيقن بالله وجلاله ، وقدرته وكماله فإنه يرى كل من عداه وما عداه هباء وسراباً ، ولذا لا يبحث إلا عن مرضاة الله ، ولا يصدر في أعماله إلا عن قصد التعظيم لله ، والرغبة في ثوابه ، والرهبة من غضبه وعذابه .

(فهم والجنة كمن قد رآها الخ) .. هذا تصوير ليقينهم وإيمانهم بالله ، وانهم قد بلغوا الذروة منه عن علم وبصيرة لا عن تقليد ومحاكاة . وقال سبحانه حكاية عن الجاحدين : « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين — ٨٤ غافر » . أما صفوة المتقين فقد رأوا بأس الله وعذابه ، وهم في دار الدنيا ، رأوه بنور العلم والايمان بلا شبهة ووسوسة شيطان ، وأشفقوا منه وابتعدوا عن طريقه .

(قلوبهم محزونة) مخافة التقصير في جنب الله والحق . وكفى المرء نقصاً أن يرى نفسه كاملاً (وشرورهم مأمونة) . قال رسول الله (ص) : شر الناس من تخاف الناس من شره . وقال الإمام : طوبى لمن عزل شره عن الناس . أسوأ الناس من لم يثق بأحد لسوء ظنه ، ولا يثق به أحد لسوء فعله (وأجسادهم نحيفة) من السهر والعمل فيما يرضي الله (وحاجاتهم خفيفة) لا يطلبون من الدنيا إلا سد الحاجة (وأنفسهم عفيفة) استغنت بحلال الله عن حرامه .

(صبروا أياماً قصيرة — الى — ربهم) . ما من أحد إلا ويحتاج الى شيء من

متاع الدنيا ، ويسعى اليه جاهداً .. وقد تكون حاجته في يد ظالم لا ينالها صاحبها إلا بكرامته والتلوّن في دينه وضميره ، أو يقف دونها غير ذلك من الحواجز التي لا يتخطاها الانسان إلا بالدخول فيما لا يليق .. ومن صبر عن حاجته ، وضحى بها في سبيل دينه وكرامته — أبدله الله عنها ما هو خير وأبقى (أرادتهم الدنيا فلم يريدوها) كان في مقدورهم أن يبلغوا من الدنيا ما يريدون لو تنازلوا عن دينهم وكرامتهم ، ولكنهم أبوا إلا مرضاة الله .

(وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها) . حاولت الدنيا أن تمتلكهم وتستعبدهم بالمال والجاه ، فحرروا أنفسهم منها بالصبر عن الملذات والشهوات ، وعاشوا أحراراً لا سلطان عليهم إلا لله وحده (أما الليل فصافّون الخ) .. التزموا طريق الله وحده قياماً وصياماً ، وتسبيحاً وتهليلاً ، وعملاً وجهاداً .. يتلون القرآن لا للتغني والتلهي ، بل للاهتداء بنوره ، والاعتصام بحبله ، والوقوف عند حدوده . هذا ملخصٌ لمعنى هذه الجمل العديدة من قوله : « أما الليل .. الى بري الأقداح » وهو توكيد وتوضيح لما تقدم ، وبماذا نفسر ونشرح كلمات كلها أو جلها للتبجيل والتكريم ؟.

قوة في دين .. فقرة ٥ — ٨ :

يَنظُرُ إِلَيْهِمُ ٱلنَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ وَيَقُولُ قَدْ خُولِطُوا . وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ . لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ . وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ . فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ . وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ إِذَا زُكِّيَ أَحَدُهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ : أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي ، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي . اَللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ ، وَٱجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ ، وَٱغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ(٥). فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ ، وَحَزْماً فِي لِينٍ ،

وَإِيماناً فِي يَقِينٍ . وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ ، وَقَصْداً فِي غِنًى ، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ . وَطَلَباً فِي حَلَالٍ ، وَنَشَاطاً فِي هُدًى ، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ . يَعْمَلُ ٱلْأَعْمَالَ ٱلصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ . يُمْسِي وَهَمُّهُ ٱلشُّكْرُ ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ ٱلذِّكْرُ . يَبِيتُ حَذِراً وَيُصْبِحُ فَرِحاً . حَذِراً لِمَا حُذِرَ مِنَ ٱلْغَفْلَةِ . وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ(٦) . إِنِ ٱسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ . قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ . وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى . يَمْزِجُ ٱلْحِلْمَ بِالْعِلْمِ . وَٱلْقَوْلَ بِالْعَمَلِ . تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ . قَلِيلاً زَلَلُهُ . خَاشِعاً قَلْبُهُ . قَانِعَةً نَفْسُهُ . مَنْزُوراً أَكْلُهُ . سَهْلاً أَمْرُهُ . حَرِيزاً دِينُهُ . مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ . مَكْظُوماً غَيْظُهُ . الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ ، وَٱلشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ . إِنْ كَانَ فِي ٱلْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي ٱلذَّاكِرِينَ . وَإِنْ كَانَ فِي ٱلذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ . يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ . بَعِيداً فُحْشُهُ . لَيِّناً قَوْلُهُ . غَائِباً مُنْكَرُهُ . حَاضِراً مَعْرُوفُهُ . مُقْبِلاً خَيْرُهُ . مُدْبِراً شَرُّهُ(٧) . فِي ٱلزَّلَازِلِ وَقُورٌ ، وَفِي ٱلْمَكَارِهِ صَبُورٌ . وَفِي ٱلرَّخَاءِ شَكُورٌ . لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ . وَلَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ . يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ . لَا يُضِيعُ مَا ٱسْتُحْفِظَ . وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ . وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ . وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ . وَلَا يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ . وَلَا

يَدْخلُ فِي ٱلْبَاطِلِ . وَلَا يَخْرُجُ مِنَ ٱلْحَقِّ . إنْ صَمتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ ، وَإنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ . وَإنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ ٱلَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ . نَفْسُهُ فِي عَنَاءٍ . وَٱلنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ . أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ ، وَأَرَاحَ ٱلنَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ . بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ . وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ . لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ ، وَلَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ[٨] ،

اللغة :

خولطوا : فسدت عقولهم . مشفقون : خائفون . قصداً في غنى : معتدلون في سعيهم لطلب المال . وتحرج : تجنب الحرج أي الإثم . وحريزاً : حصيناً . ولا يحيف : لا يظلم . ولا ينابز : لا يعيب .

الإعراب :

المصدر من انك الخ مبتدأ مؤخر ، ومن علامة خبر مقدم ، وحـذراً الثانية تأكيد للأولى ، وأمله فاعل « قريباً » ومثله ما بعده .

المعنى :

(ينظر اليهم الناظر فيحسبهم الخ) .. كبرت نفوسهم ، وزكت قلوبهم على حساب أجسامهم ، فقد هزلت وضعفت حتى تكاد تتهالك إعياء، وحتى ظن الرائي انهم مرضى أو من أهل البَلَه !. كلا ، انها الهمة والنفوس العالية:

واذا كانت النفوس كباراً   تعبت في مرادها الأجسام

(لا يرضون من أعمالهم بالقليل) لأنهـم خلقوا للنضال والعمل ، لا للبطالة والكسل ، وفي الوقت نفسه لا يغالون في قدراتهم ، ولا يخدعون أنفسهم بالغرور والمباهاة ، بل يخافون من الخطأ والتقصير (اذا زُكي أحد منهم خاف) من قول الزور وحبائل الغرور (فيقول أنا أعلم بنفسي من غـيري) . للانسان حياتان : باطنية وظاهرية ، والظاهر للناس ، أما الباطن فلله ولصاحبه. فهو وحده من بين الخلائق يستطيع أن يتأمل دخيلته ويعرفها ، ولا سبيل الى معرفة الآخرين بها إلا عن طريقه . قال تعالى : « ينبؤ الانسان يومئذ بما قدّم وأخّر بـل الانسان على نفسه بصيرة — ١٤ القيامة » . وقال الفيلسوف الانكليزي « راسل » في كتاب « الفلسفة بنظرة علمية » : « إن معرفة بعض الحقائق عن الانسان مستحيلة إلا عن طريقه .. ولما كان هو أداة المعرفة لنفسه وجب دراسته كأداة للمعرفة » .

(اللهم لا تؤاخذني بما يقولون) يدعو الله ويعوذ به أن يدخل العجب والغرور الى نفسه من الإطراء ، فيكون من الخاسرين (واجعلني أفضل مما يظنون) في من الخير والحسنات (واغفر لي ما لا يعلمون) من الهفوات والسيئات .

(فمن علامة أحدهم — الى — عن طمع) . إن الدليل القاطع عـلى التقوى حقاً وصدقاً هو الاستقامة والمسلك السليم النابع عن الوعي واليقين ، والحزم والثبات ، والحلم والاعتدال ، والتواضع والتجمل عند الحاجة ، والنشاط والاجتهاد في الأعمال الصالحة النافعة مع القناعة والكف عن المحرمات ، والتعبد لله وحده ، والتوكـل عليه دون سواه (يعمل — أي المتقي — الأعمـال الصالحة على وجل) . العالم المتورع يتوقع الخطأ في أقواله وأفعاله ، ويخشى النقص والخلـل ، ولذا يحترس ويحتاط جهد المستطاع ، والذي يرى عمله كاملاً من كل وجه فهو جاهـل مركب .

(يمسي وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر) . هو شاكر ذاكر لله تعالى في جميع حالاته وأوقاته .. وتفلسف بعض الشارحين ، وأطال في الفرق بين الشكر مساء ، والذكر صباحاً معتمداً على وهمه وفهمه (يبيت حذراً الـخ) .. يتهم نفسه بالخطأ والتقصير فيخاف ، وأيضاً يرجو الصواب بتوفيق الله وفضله فيطمئن. وهذه هي سمة العلماء المتقين ، وقال قائل منهـم : إن أصبت فمن الله وعنايته ، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان (إن استعصت عليه نفسه الخ) .. للمتقي ميول

وأهواء تريد منه ، وتلح عليه ، وهو لا يستطيع أن يتحرر منها ، ويقتلعها من الجذور ، ولكنه لا يستجيب لها ، ولا تحيد به عن الطريق القويم .. انها تناديه وتصرخ به ، وهو يتجاهل ويعرض .

(قرة عينه فيما لا يزول ، وزهادته فيما لا يبقى) . تريده الأهواء للدنيا ، ويأبى هو إلا الآخرة (يمزج الحلم بالعلم) حلمه عن وعي وحكمة لا عن ضعف ومسكنة ، وهو تكرار لقوله : « علماً في حلم » . (والقول بالعمل) . يفعل ما يقول ، ولا يقول ما لا يفعل (تراه قريباً أمله الخ) .. لا ييأس من روح الله ، وإن زلت به القدم يوماً تاب وأناب ، يكبح شهوته ، ويكظم غيظه .. خاشع قانع يأكل ليعيش ، ولا يعيش ليأكل .

(الخير منه مأمول : والشر منه مأمون) لأنه انسان يعيش على حساب نفسه وأتعابه ، ووحش الغاب هو الذي يعتدي ويفترس (ان كان في الغافلين كُتب مع الذاكرين) . لا يخوض مع الخائضين ، ولا يتأثر بجار السوء وبيئة الفساد . انه على صلاحه ، ولو امتلأت الدنيا فساداً . (وان كان في الذاكرين لم يُكتب من الغافلين) وان عاشر أقواماً ميامين انسجم معهم ، وطاب نفساً وعملاً (يعفو عمن ظلمه) أي يدفعه بالحسنى والكلمة الطيبة ، فإن عاد الى صوابه وإلا جاهده بكل ما يملك ، لأن السكوت عن المعتدي اغراء له وتشجيع على الظلم والعدوان .

(ويصل من قطعه) ان كان المقاطع إنساناً شاكراً لا وحشاً كاسراً (بعيداً فحشه) عفيف اللسان (غائباً منكره الخ) .. تكرار لقوله : « الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون » . (لا يحيف على من يبغض الخ) .. إذا رضي لا يدخل في باطل ، وإذا غضب لا يخرج عن الحق (يعترف بالحق قبل أن يُشهد عليه) . لا يبخس الناس أشياءهم ، ولا يتعمد التهويش والمغالطة ، لأنه صادق مع نفسه وغيره (لا يضيع ما استحفظ) . هذا الوصف يختص بأهل العلم بالله وشريعته ، لأنه تعالى ائتمنهم عليها ، وأمرهم بتبليغها بلا تحريف ولا تزييف ، قال عز من قائل : « بما استُحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشونِ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً — ٤٤ المائدة » .

(ولا ينابز بالألقاب) . لا يصف أحداً بلقب يكرهه (ولا يشمت بالمصائب)

لأن الشماتة تنم عن اللؤم والصغار .. ومن يحذر العواقب لا يشمت . وبحكمة قيل: لا تشمت بأخيك ، فيعافيه الله ويبتليك (ولا يدخل في الباطـل الخ) .. ألزم نفسه أن يقوم بما عليه من واجب ، ويتساهل بما له من حق خاص، وان يناصر المحقين ، ويجاهـد المبطلين ، وان لا يحزن لفوات كلمة تبرزه ، وتومىء الى مكانته ، وان لا يسيء الى مخلـوق ، ولا يتكل إلا على نفسه بعد الله ، وان يتأدب بآداب الشرع والدين بلا تحجر وتزمت ، ولا رياء ونفاق .

قال الشريف الرضي : فما أتم الإمام كلامه حتى صعق همام صعقة كانت نفسه فيها . عليه رحمة الله ورضوانه . قال أمير المؤمنين (ع) : لقد كنت أخافها عليه.. هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها فقـال قائل : فما بالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ان لكل أجل وقتـاً لا يعدوه ، وسبباً لا يتجاوزه . فهلاً ! لا تعد لمثلها ، فإنما نفث الشيطان على لسانك .

ان الانسان ابن الأرض ، وبها يشبه ، وإذا قارنا بين هذا القائل وقسوته ، وبين همام ورحمته ـ ظهر أن التفاوت بينهما تماماً كالتفاوت بين البلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه ، والبلد الخبيث الذي لا يخرج أبداً ، أو يخرج نكداً .

وقال قائل : إن الإمام (ع) يصف في هذه الخطبة قوماً في الخيال لا في عالم الوجود ، أو هو يصف نفسه ، أو أمنيته كما ينبغي أن يكون الانسان ، لا كما هو كائن بالفعل .. ان للإنسان جسماً وعواطف ورغبات ، فكيف ينفصل عنها؟ وهل ينفصل الشيء عن نفسه وطبيعته ؟

الجواب :

أولاً : ان هذه الخطبة دعوة ودعاية الى التقوى وحسن السلـوك ، ويومىء الى ذلك اتباع الكلام أسلوباً يكثر فيه التكرار والترديد ، ومن شرط الأمر بالشيء والدعوة اليه ان يكون ممكناً لا يستعصي على قدرة المكلف وإرادته ، وان يكون فيه جهة خير وصلاح، وما من صفة ذكرها الإمام إلا وفيها خير كثير ، وتتناولها إرادة المكلف وقدرته ، وإذن تصح الدعوة الى التحلي بهذه الصفات ويجوز العقاب على المخالفة والمعصية .

ثانياً : ان الغاية من الدعوة الى سبيل الله والاستقامة أن يكبح الانسان أهواءه وميوله ، وان يحكمها ولا تتحكم به ، ولولاها لكان روحاً بلا جسد ، وملاكاً

من السماء لا ابن الأرض ، وكان التكليف بالنسبة اليه لغواً وعبثاً ، لأنه بلا معنى وموضوع .. أجل،ان المشكلة هي مشكلة البيئة والعيش في مجتمع الضلال والفساد، والعبقري هو الذي يصمد أمام التقاليد ، وليس كل الناس أبا ذر .. ومن هنا كان عقاب المذنب في بيئة التقى والصلاح أشد منه في بيئة الضلال، وثواب المتقي في هذه أعظم منه في تلك حيث يكون القابض على دينه في بيئة الفسق والفجور كالقابض على الجمر . والإمـــام يدعو الى الاستقامة والثبات عليها مهما كانت الظروف .

الخطبة

-١٩٢-

المنافقون .. فقرة ١ — ٣ :

نَحْمَدُهُ عَلى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ المَعْصِيَةِ . وَنَسْأَلُهُ لِمِنَّتِهِ تَماماً وَبِحَبْلِهِ اعْتِصَاماً . وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللهِ كُلَّ غَمْرَةٍ ، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ . وَقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الأَدْنَوْنَ ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الأَقْصَوْنَ . وَخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا ، وَضَرَبَتْ لِمُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا ، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ وَأَسْحَقِ المَزَارِ . أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ . وَأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ المُضِلُّونَ ، وَالزَّالُّونَ المُزِلُّونَ . يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً ، وَيَفْتَنُّونَ افْتِنَاناً ، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ ، وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ . قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ ، وَصِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ . يَمْشُونَ الْخَفَاءَ . وَيَدِبُّونَ الضَّرَاءَ ، وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ

ٱلعَيَاء . حَسَدَةُ الرَّخاء ، وَمُوَكِّدُو ٱلبَلاَء ، وَمُقَنِّطُو الرَّجَاء . لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ ، وَإلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ ، وَلِكُلِّ شَجْوٍ دُمُوعٌ . يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاء ، وَيَتَرَاقَبُونَ الْجَزَاء . إنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا ، وَإنْ عَذَلُوا كَشَفُوا ، وَإنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا . قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلاً ، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلاً ، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلاً ، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً ، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحاً . يَتَوَصَّلُونَ إلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ ، وَيُنَفِّقُوا بِهِ أَعْلاَقَهُمْ . يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ ، وَيَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ . قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ ، وَأَضْلَعُوا المَضِيقَ . فَهُمْ لُمَّةُ الشَّيْطَانِ وَحُمَةُ النِّيرَانِ « أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

اللغة :

الغمرة : الشدة . وتلون : تنكر . وأبعد وأسحق وأقصى بمعنى واحد . ويفتنّون : يتفننون ويسلكون أساليب متنوعة . ويعمدونكم : يدعمونكم بالأكاذيب لدفع التهمة عنهم . ودويّة : من الداء ، وهو المرض . وصفاحهم : وجوههم. والداء العياء : أعيى الأطباء . وألحفوا : ألحوا . والأعلاق : جمع علق ، وهو الشيء النفيس . وأضلعوا المضيق : جعلوه ضيقاً . واللمة – بفتح الميم مع التخفيف – الجماعة . وحمة – بالتخفيف – إبرة العقرب .

الإعراب :

على ما وفق له « ما » اسم موصول بمعنى الذي ، والهاء في « لـه » يعود الى

« ما » . وتماماً مفعول نسأله أي نسأله التمام والاعتصام ، والخفاء منصوب بنزع الخافض أي في الخفاء ، ومثله الضراء ، ويجوز أن يكون نائباً عن المفعول المطلق أي يمشون المشي الخفي ، ويدبون الدبيب المضر .

المعنى

(نحمده على ما وفق له الخ) .. المؤمن يعلم حق العلم أن التوفيق الى الخير بشتى أنواعه هو من الله ، ولذا يحمده ويقول : « وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب – ٨٨ هود » . وليس من شك ان من يستنصح الله ويخلص له يشمله تعالى بتوفيقه وعنايته (ونسأله لمنته تماماً ، وبحبله اعتصاماً) . منته تعالى نعمته ، وحبله دينه وشريعته .. وهو سبحانه المسؤول أن يمن علينا بالسلامة في الدين والبصيرة .

(ونشهد أن محمداً الخ) .. كانت أسرة رسول الله (ص) قبل البعثة قوية وغنية ، ولما أرسله الله رحمة لهم وللعالمين ثارت عليه ثائرتهم ، ولقي منهم ومن غيرهم أشد الإيذاء ، وقالوا عنه من جملة ما قالوا : ساحر وشاعر ، وأبتر ومجنون ! وهل من شيء أدل على جنونه – بزعمهم – من رفضه لما عرضوه عليه من المال والسلطان ؟.. وكان أشدهم عليه أبو جهل وأبو سفيان وأبو لهب. وكان يصبر ويستهين بكل شيء في سبيل دعوته ورسالته .. أخرجه أهل الطائف طرداً من بلدهم ، وسلطوا عليه سفهاءهم يرمونه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه . فقال : اللهم اهدِ قومي ، فإنهم لا يعلمون .

النفاق :

للذنب أنواع ودرجات ، فمنه ما يكون مع الله تعالى ، ومنه مع المذنب نفسه، ومنه مع الناس ، ومنه ما يجمع هذه الجرائم الثلاث كالنفاق . وليس من شك ان الاحتيال على الله غير ممكن ، لأنه يعلم السر وأخفى ، ولكن الاحتيال على عباد الله ذنب لا يغتفر .. وأيضاً لا يتصور النفاق ممن يعيش في عزلة عن الناس لأنه لم يلتقِ ويحتك بواحد منهم – كما هو الفرض – ومعنى هذا ان النفاق داء

اجتماعي ، وجد مع المجتمعات التي تضم القوي والضعيف ، والخاضع والمسيطر ، وانه يتطور معها جنباً الى جنب في جميع المراحل ، وانه يتعقد أكثر فأكثر كلما زادت حياة الجماعة نمواً في التعقيد .

وبهذا نجد التفسير الصحيح لشيوع النفاق وتفاقه في هذا العصر «المتقدم» على كل صعيد ! .. يغزون البلاد الآمنة باسم حماية الأقليات ، ويقيمون القواعد العسكرية للعدوان بعنوان المحافظة على السلم ، ويلقون ألوف الأطنان من القنابل على المنشآت والنساء والرجال والأطفال بزعم القضاء على العنف والعدوان ، وينهبون الأقوات والقـدرات باسم التجارة والتعـاون ، وينتشرون للتجسس في شرق الأرض وغربها تحت رايـة التبشير في الدين ، وينشئون المكاتب لتدبـير المؤامرات وتحطيم إرادة الشعوب بعنوان نوادي الثقافة ، ومكاتب الأنباء ، ويتجمع العملاء والخونة تحت راية الجمعيات الخيرية والمجالس المذهبية والحفلات الدينية !. أما التجارب النووية والأسلحة الكيماوية التي تهدد العالم بكارثة شاملة ، أما هذه فالقصد منهـا تطوير العلوم لخير الانسان ، ومصلحة الحضارة .. الى غير ذلك من الجرائم التي ترتكب باسم العلم والدين والانسانية .

ومن هنا شاع القلق والتشاؤم في هذا العصر بين جميع الفئات ، واهتزت القيم والمبادىء ، وضاعت الثقة في كل شيء حتى في رجال الدين ، والمنظمات الخيرية فضلاً عن السياسيين ، وعن الصحافة صاحبة الجلالة الملعونة على حد ما قال بعض الصحفيين ، وساد الايمان بأن ما من أحد إلا ويعمل لمصالحه ومطامعه ، وان المصلح مخادع ، والمخلص مدلس .

ومن غريب الصدف أني بعد ما كتبت هذه الأسطر قرأت في مجلة «الحوادث البيروتية» تاريخ ٢٢ — ٩ — ١٩٧٢ ما نصه بالحرف : « في الفترة بين كانون الثاني وحزيران ألقت الطائرات الأمريكية عـلى لاوس وكمبوديا وفيتنام الشماليـة والجنوبية ما زنته ١١٢ طن ، ومع هـذا أعلنت الولايات المتحدة أنها ليست في حالة حرب مع أية دولة من هذه الدول » .

وبعد ، فهل نطالَب بالدليل إذا قلنا : ان النفاق من أمهات الرذائل الاجتماعية التي لا تُحد ولا تُعد ، وانه مزيج من الخيانة والغدر ، والكذب والمكر ، والضلال والفساد ، والظلم والاستبداد ، وانه أفسد المدنية الحديثة ؟ وقال بعض العلماء :

قل للذي قال « ليس بعد الكفر ذنب » : ماذا أبقيت للنفاق ؟. أليس سبحانه هو القائل : « ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار – ١٤٥ النساء » ؟. وهل وراء الأسفل وراء ؟. ونجيب بأن النفاق زيادة في الكفر ، أو كفر وزيادة .

وبعد هذه الإشارة نعود الى شرح الكلمات ، ونوجز ما أمكن ، لأنها واضحة بخاصة بعد أن مهدنا بما تقدم (فإنهم الضالون المضلون) تماماً كوباء الكوليرا ، فاسد ومفسد (والزالون المزلون) عطف تفسير (يتلونون ألواناً) لهم ألف وجه ولسان (ويفتنّون افتناناً) يتفننون في أساليب المكر والخداع (ويعمدونكم بكل عماد) اذا أسأتم بهم الظن حاولوا اقناعكم بشتى الأساليب انهم على خير (ويرصدونكم بكل مرصاد) يضعون ضدكم خطط الفتن والشقاق .

(قلوبهم دوية) إشارة الى قوله تعالى : « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً – ١٠ البقرة » . (وصفاحهم نقية) إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم(وان يقولوا تسمع لقولهم – ٤ المنافقون » . (يمشون الخفاء ، ويدبون الضراء) . كجرثومة السرطان تفسد اللحم والدم دون أن تظهر بنفسها (وقولهم شفاء ، وفعلهم الداء العياء)« وإذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ – ١١٩ آل عمران » . (حسدة الرخاء) يحسدون كل ذي نعمة ، ويسخطون على الله ، لأنه أنعم بها عليه (ومؤكدو البلاء) إذا رأوا ضعيفاً مبتلى ازدروه ، وسخروا منه ، بل واعتدوا عليه سفهاً ولؤماً (ومقنطو الرجاء) إذا نزلت بإنسان نازلة حملوه على اليأس والقنوط من رحمة الله .

(لهم بكل طريق صريع) يغررون بالسذج البسطاء ، ويوقعونهم في الهلكات (والى كل قلب شفيع) . يستميلون القلوب بالملق والتواضع الكاذب (ولكل شجو دموع).الشجو الحزن ، والمعنى يسكبون دموع التماسيح أمام الحزين المصاب لمآرب شخصية (يتقارضون الثناء ويتراقبون الجزاء) . يطري بعضهم بعضاً بقصد المقايضة والمبادلة في النفاق (ان سألوا ألحفوا) ان طلبوا حاجة ألحوا وبالغوا (وان عذلوا كشفوا) ان سخطوا أشاعوا وأذاعوا بالحق وبالباطل . (وأن حكموا أسرفوا) في الجور والفساد والضلال .

(قد أعدوا لكل حق باطلاً الخ) . يمثلون جميع الأدوار في مسرح النفاق الكبير ، ويجيدون التمثيل في صنع المقالب والاحتيال ، وإثارة الشبهات حول الطيبين ، وإيقاظ الفتن ، وفساد كل مشروع فيه خير وصلاح (يتوصلون الى

الطمع باليأس الخ) .. يتوسلون الى الحياة الدنيا وزينتها بإظهـــار الزهد فيها ، واليأس منها ، والرغبة في الآخرة وحدها كذباً ورياء (يقولـون فيشبهون) أي ان أقوالهم تثير الشكوك والشبهات حول الحقائق والنوايا الطيبة (ويصفون فيموهون). يلبسون الحق بالباطل ، وهم يعلمون .

(قد هونوا الطريق) قرّبوا البعيد ، وبعـدوا القريب (وأضلعوا المضيق) . إذا وقع إنسان في مشكلة ، وضاق عليه المخرج لا يساعدونه على الخلاص ، بل يزيدونه ضيقاً على ضيق ، وتعقيداً على تعقيد (فهم لمة الشيطان) حزبه وجنوده (وحمة النيران) حطب جهنم يصلونها فبئس المصير .

الخطبة

- ١٩٣ -

باب الله مفتوح للجميع .. فقرة ١ – ٣ :

الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ وَجَلالِ كِبْرِيَائِهِ مَا حَيَّرَ مُقَلَ الْعُيُونِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ ، وَرَدَعَ خَطَــرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ . وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَإِيقَانٍ ، وَإِخْلاَصٍ وَإِذْعَانٍ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَأَعْلاَمُ الْهُدَى دَارِسَةٌ ، وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ . فَصَدَعَ بِالْحَقِّ ، وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ . وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ ، وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ(١) . وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً . وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلاً . عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ ، وَأَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ . فَاسْتَفْتِحُوهُ وَاسْتَنْجِحُوهُ ، وَاطْلُبُوا إِلَيْهِ وَاسْتَمْنِحُوهُ . فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ ، وَلاَ أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ . وَإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ ، وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ

وَجَانٌّ . لاَ يَثْلِمُهُ ٱلْعَطَاءُ ، وَلاَ يُنقِّصُهُ الْحِبَاءُ وَلاَ يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ ، وَلاَ يَسْتَقْصِيهُ نَائِلٌ . وَلاَ يَلْوِيـــهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ ، وَلاَ يُلْهِيهِ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ . وَلاَ تَحْجُزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلْبٍ . وَلاَ يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ . وَلاَ تُولِهُهُ رَحْمَـــةٌ عَنْ عِقَابٍ . وَلاَ يُجِنُّهُ ٱلْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ . وَلاَ يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ ٱلْبُطُونِ . قَرُبَ فَنَأَى ، وَعَلاَ فَدَنَا . وَظَهَرَ فَبَطَنَ ، وَبَطَنَ فَعَلَنَ . وَدَانَ وَلَمْ يُدَنْ . لَمْ يَذْرَإِ الْخَلْقَ بِاْحتِيَالٍ ، وَلاَ ٱسْتَعانَ بِهِمْ لِكَلاَلٍ[٢] . أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّهَا الزِّمَامُ وَٱلْقِوَامُ . فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا ، وَٱعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا تَؤُولُ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ ، وَأَوْطَانِ السَّعَةِ ، وَمَعَاقِلِ الْحِرْزِ وَمَنَازِلِ ٱلْعِزِّ فِي يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ، وَتُظْـــلِمُ لَهُ الأَقْطَارُ . وَيُعَطَّلُ فِيهِ صُرُومُ ٱلْعِشَارِ . وَيُنفَخُ فِي الصُّورِ . فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ ، وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ . وَتُدَكُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ ، وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ . فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَقاً ، وَمَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقًا . فَلاَ شَفِيعٌ يَشْفَعُ وَلاَ حَمِيمٌ يَدْفَعُ ، وَلاَ مَعْذِرَةٌ تَنْفَعُ[٣] .

اللغة :

مقل العيون : جمع مقلة ، وهي شحمة العين ، والمراد بالمقل هنـــا البصائر لا الأبصار . والمهمهة : صوت يُسمع ولا يُفهم منـــه شيء ، والمراد بمهاهم النفوس هنا الأفكار . وطامسة : دارسة . وصدع الشيء: شقه ، وصدع بالحق : تكلم به جهاراً . وهملا: سدى . استفتحوه : اطلبوا منه النصر والفتح . واستنجحوه :

سألوه النجاح والصلاح . واستمنحوه : ادعوه أن يمنحكم من فضله . ولا يستنفده : لا تنفد خزائنه . لا يثلمه : لا ينقصه . لا يلويه : لا يميله . لا توله : لا تذهله. لا يجنه : لا يستره . لا يقطعه : لا يفصله . ولم يذرأ . لم يخلق . وكَلّ : تعب . والزمام : المقود . والقوام – بفتح القاف – الاعتدال ، وبكسرها العماد والنظام ، وبضمها الداء . والدعة – بتشديد الدال مع الفتح – السكينة والراحة وسعة العيش . وصروم : قِطع من الإبل . والعشار : نوع من النوق . والشم : جمع أشم . والشوامخ : جمع شامخ ، والمعنى واحد أي عال ورفيع . والصم : جمع أصم أي الصلب ، ومثله الصلد ، ولكنه أملس . وسملقاً : مستوياً .

الإعراب :

ما حير « ما » اسم موصول مفعولاً لأظهر ، واعلام الواو للحال ، وعبثاً مفعول لأجله ، أو في موضع الحال أي عابثاً .

المعنى :

لا جديد في هذه الخطبة، فهي تكرار لما تقدم مضموناً ومحتوى، وسبق الكثير منها بالنص الحرفي ، ولذا نوجز في الشرح،ونحيل اللاحق على السابق مع الإشارة الى رقم الخطبة (الحمد لله الذي أظهر الخ) .. كل ما في الكون فيه قدرة وإبداع وحكمة تدل على الحكيم المبدع ، وآمن العديد من الفلاسفة والعلماء بوجود هذا الحكيم إيمانهم بأنفسهم ، ولكن عجزت عقولهم عن إدراك ذاته تعالى وحقيقته ، لأن العقل محدود ، والمحدود لا يدرك من لا حد له . هذا هو الواقع فمن رضي وأقر فقد نجا وفاز ، ومن أبى قلنا له : « إنك ميت وانهم ميتون». وتقدم مرات ، منها في الخطبة ١ والخطبة ٨٩ والخطبة ١٨٠ .

(واشهد أن لا إله إلا الله شهادة إيمان الخ) .. لا يتطرق اليه الشك،وتقدم مثله في الخطبة ٢ و ٩٩ و ١٧٦ (واشهد ان محمداً عبده الخ) .. أرسل سبحانه قبل محمد (ص) العديد من الرسل،الرسول بعد الرسول ، ومعه شريعة الله وتعاليمه : وبمرور الزمن صارت نسياً منسياً ، فبعث الله محمداً لإحيائها ، وبما

يجعل رسالته آخر الرسالات ، ونبوته خاتمة النبوات ، فأدى محمد أمانة الله كما أراد ، وسد بها كل فراغ .

(انه لم يخلقكم عبثاً الخ) .. الحكيم لا يعبث ، والقوي العادل لا يحابي ، وإذن فالتكليف عام ، والمسؤولية تشمل الجميع . وتقدم مثله في الخطبة ٦٣ و ٨٤ (وعلم مبلغ نعمه عليكم) فمن شكرها فهو عند الله من المحسنين ، ومن كفر بها فهو من الخاسرين (فاستفتحوه الخ) .. أطيعوه والتجئوا اليه تعالى ، واسألوه وحده ، فيزيدكم من فضله . وروي ان كريماً قضى حاجةً لسائل ، وبعد أيام جاء اليه وقال : أنا الذي قضيت حاجته يوم كذا . فقال له : مرحباً لمن توسل الينا بنا .

(فما قطعكم عنه حجاب الخ) .. باب الله مفتوح لداعيه ، وحجابه مرفوع لراجيه ، والطريق اليه سهل يسير : الاخلاص في الدعاء ، والصدق في الرجاء . وأقسم اني طرقته ، فنلتُ أكثر مما أملت (وانه لبكل مكان) بعلمه وعنايته . وتقدم مرات ، منها في الخطبة ١٧٦ (وفي كل حين وآن) لأنه سرمدي دائم (ومع كل إنس وجان) هو معكم أينما كنتم بعلمه وعنايته ، وعليه فهو عطف تفسير على ما قبله (لا يثلمه العطاء) لا تنقص خزائنه بالنوال (ولا ينقصه الحباء) عطف تفسير (ولا يستنفده سائل) . لو أعطى السائلين أضعاف ما سألوا ما أثّر ذلك في ملكه وكرمه ، وتقدم في الخطبة ٨٩ .

(ولا يستقصيه نائل) . لا حد ولا نهاية لجوده ،وإذن فمن يستوعبه ويستقصيه؟ (ولا يلويه شخص الخ) .. لا يذهله ويصرفه شيء عن شيء ، لأنه محيط بكل شيء . وتقدم في الخطبة ١٧٦ و ١٨٠ (ولا تحجزه هبة عن سلب) . ارتبك الشارحون في تفسير هذه الجملة ، والذي نفهمه منها انه تعالى قد يعطي نعمة الدنيا لمن يكره ، ويمنعها عمن يحب ، فلا الكراهة تمنعها ، ولا الحب يوجبها ما دامت الحكمة هي الموجب والمقياس ، واستوحينا هذا المعنى من الجملة التالية بلا فاصل وهي (ولا يشغله غضب عن رحمة) أي قد يرحم من غضب عليه ، ويعفيه في الدنيا من البلوى ، وفي الوقت نفسه يبتلي من رضي عنه بأشد النوائب على حسب الحكمة .

(ولا تولهه رحمة عن عقاب) . الله كريم ، ما في ذلك ريب ، فإذا منع العطاء عن عبد من عبيده فلا ينتفي عنه وصف الكرم ، لأن المنع كان لسبب

موجب ، وأيضاً الله رحيم ، واذا عاقب فلا ينتفي عنه وصف الرحمة،لأن العقاب كان لسبب موجب (ولا يجنه البطون عـــن الظهور ، ولا يقطعــه الظهور عن البطون) . لا يجنه أي لا يستره ، والمعنى هو الباطن بذاته،الظاهر بآثاره (قرب) من كل شيء بعلمه وعنايته (فنأى) عن كل شيء بذاته وصفاته . ليس كمثله شيء وسبق في الخطبة ٤٩ و ٦٤ وجاء في الخطبة ٨١ « علا بحوله » أي بسلطانه وقوته « ودنا بطوله » أي بفضله وإحسانه (ودان ولم يُدن) . « لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون — ٢٣ الأنبياء » .

(لم يذرأ الخلق باحتيال) . المراد بالاحتيال هنا المهارة ودقة النظـر ، ومن ذلك قولهم : فلان حسن الحيلة . والله يقول للشيء كن فيكون (ولا استعان بهم لكلال) . ضمير « بهم » الى الخلق ، والكلال التعب ، والله يعين ولا يعان ، والتعب للعاجز . وتقدم في الخطبة ١٨٤ (فإنها الزمام والقوام). تقود التقوى الى كل خير ، وهي العماد الذي يرتكز عليه نظام الحياة (فتمسكوا بوثائقها الخ) . من أخذ بالتقوى فقد فاز دنياً وآخرة. وتقدم الكلام عن ذلك بالتفصيل في الخطبة ١٨٩ فقرة «التقوى» (في يوم تشخص الخ) .. يشير الى يوم القيامة وأهواله . وتقدم في الخطبة ١٠٧ (فلا شفيع الـخ) .. ولا شيء يجدي يوم الدين إلا التقوى ، ولا يقل معها عمل ، وكيف يقل ما يقبل ؟ كما قال الإمام .

وبعد ، فإن الإيمان بالله يدخل في مفهومه الإيمان بعدله ، ولا يستقيم مع العدل الإلهي أن يستوي البر والفاجر ، ويفلت المسيء من العقاب ، ويحرم المحسن من الثواب « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون — ١٨ السجدة » .

الخطبة

- ١٩٤ -

بادروا الفوت :

بَعَثَهُ حِينَ لا عَلَمٌ قَـائِمٌ . وَلَا مَنَارٌ سَاطِعٌ . وَلَا مَنْهَجٌ وَاضِحٌ . أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ .. وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوصٍ ، وَمَحَلَّةُ تَنْغِيصٍ . سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ . وَقَاطِنُهَا بَائِنٌ . تَمِيدُ بِأَهْلِهَـا مَيَدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَـا الْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ . فَمِنْهُمُ الْغَرِقُ الْوَبِقُ . وَمِنْهُمُ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ الْأَمْوَاجِ تَحْفِزُهُ الرِّيَاحُ بِأَذْيَالِهَـا ، وَتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا . فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ ، وَمَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلَكٍ . عِبَـادَ اللهِ الْآنَ فَاعْلَمُوا وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ ، وَالْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ ، وَالْأَعْضَاءُ لَدْنَةٌ ، وَالْمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ ، وَالْمَجَالُ عَرِيضٌ ، قَبْلَ إِرْهَاقِ الْفَوْتِ ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ . فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ ، وَلَا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ .

اللغة :

دار شخوص : فراق وانتقال . والتنغيص : التكدير . وظاعن : راحل . وقاطن : مقيم . وبائن : مفارق . وتميد : تضطرب . ولجج : جمع لجة أي معظم الماء . والوبق : الهالك . ولدنة : لينة . والمراد بالإرهاق هنا اقتراب الأوان .

الإعراب :

فما غرق « ما » اسم موصول مبتدأ ، وجملة فليس بمستدرك خبر ، وقبل إرهاق متعلق بإعملوا .

المعنى :

(بعثه حين لا علّم قائم الخ) .. الضمير في بعثه لرسول الله (ص) ، وعلم – بفتح اللام – والمراد منه ومن المنار واحد ، والمنهج الطريق . وكل دعوة للصلاح والإصلاح هي نتيجة لوجود الفساد ، فالدعوة الى التوحيد نتيجة لوجود الشّرك ، والدعوة الى العلم نتيجة لانتشار الجهل. وبعث سبحانه محمداً (ص) حيث ساد الضلال والجاهلية ، ولا آمر وزاجر .

(وأحذركم الدنيا الخ) . لعمر الانسان في الحياة الدنيا نهاية ، والآخرة هي دار الخلود ، ومن حصر طموحه في ملذات الدنيا وكفى فقد آثر الزائل على الدائم ، ولذة ساعة على سعادة الأبد .. هذا ، الى ان ما من سرور في الدنيا إلا وهو مشوب بحزن وكدر (تميد بأهلها الخ) . كل بني آدم هدف للرزايا والخطوب ، لا يسلم منها واحد . ومن تخطاه الكدر في يومه فلن يفلت منه في غده تماماً كقوم في سفينة أصابها إعصار فاختل توازنها ، وذهب تماسكها، وتناثر ما فيها ومن فيها .. واذا أسعف القدر ، ونجا واحد الى البر بطريق أو آخر ، فأمامه ما يُلحقه بالرفاق .

(الآن فاعلموا الـخ) .. وفي بعض النسخ فاعملوا ، وهو أنسب بالسياق

(والألسن مطلقة الخ) .. بادروا العمل ، وأنتم في سلامة من عقلكم ، وصحة من أجسامكم (والمنقلب فسيح السخ) .. الفرصة مؤاتية ، والتسويف يفوّت المقصود ، والعاقل يأخذ بالحزم ، وينتهز الفرص ، والأمل فيما بعد مع القدرة الآن — تقصير وحمق (فحققوا عليكم نزوله) . اعملوا كأنكم ترون الموت مجسماً أمام أعينكم ، وانه لا يمهلكم إلا بمقدار ما تعملون وتتزودون لآخرتكم (ولا تنتظروا قدومه) لأنه يأتيكم على غفلة .

الخطبة

-١٩٥-

مواساة عليّ للنبي:

وَلَقَدْ عَلِمَ ٱلْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ. وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي ٱلْمَوَاطِنِ ٱلَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ، وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا. وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي. وَلَقَدْ وَلِيتُ غُسْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَٱلْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَةُ مَلَأٌ يَهْبِطُ وَمَلَأٌ يَعْرُجُ وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ. يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتاً؟ فَانْفُذُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ، وَلْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ

فِي جِهَـــادِ عَدُوِّكُمْ . فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ البَاطِـــلِ . أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَـكُمْ .

اللغة :

المستحفظون : مستودعو الأمانة . وواسيته وآسيته بمعنى واحـــد أي عاونته . والنجدة : الشجاعة . وأفنية : جمع فناء ــ بكسر الفاء ــ ما اتسع أمـام الدار أي ساحته . والهينمة : الصوت الخفي . والمزلة : موضع الزلل .

الإعراب :

نجدة نصب على المصدرية أي نجدت نجدة ، فمن ذا « من » استفهام فيه معنى الإنكار ، ومحلها الرفع بالابتداء ، وذا مبتدأ ثان ، وأحق خبره ، والجملة خبر الأول ، ويجوز أن تكون « من ذا » كلمة واحـدة بمعنى أي انسان ، وتكون كلمة أحق خبراً لمن ذا ، وحياً حال من الضمير في « به » .

المعنى :

(ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد (ص) الخ) .. هم علماء الصحابة الذين أمرهم الله تعالى أن يحفظوا شريعته ، ويبلغوها للتابعين كما سمعوها من رسول الله (ص) بلا تحريف وتزييف . ويستشهد الإمام بهؤلاء الحفظة على أنه كان أطوع لرسول الله من بنانه ، وانه ما ردّ ولا تردد في شيء من أمره حتى كأنهما نفس واحدة . وليس الإمام بحاجــة الى الشهادة والشاهد بعد ان شهد الحاكم نفسه ، وقال (ص) لعلي بصراحة : « أنت مني ، وأنا منك » .

نقل هذا الحديث صاحب كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة ، نقله عن

اصحيح البخاري باب الصلح طبعة مصر سنة ١٣٢٠ هـ . وعن صحيح الترمذي ج ٢ ص ٢٢٩ طبعة بولاق سنة ١٢٩٢ هـ. وعن مسند أحمد ج ١ ص ١٠٨ طبعة مصر سنة ١٣١٣ .

(وقد واسيته بنفسي الخ) .. في كتاب الرياض النضرة عن الإمام أحمد والطبري والمتقي ج ٢ ص ١٧٢ الطبعة الأولى بمطبعة الاتحاد المصري : « ان علياً لما قتل أصحاب الألوية يوم أحد قال جبريل : يا رسول الله : ان هذه لهي المساواة . فقال النبي : ان علياً مني وأنا منه . فقال جبريل: وانا منكما يا رسول الله . وتقدم الكلام في هذا الموضوع بالتفصيل في شرح الخطبة ١٩٠ فقرة : النبي وعلي .

(ولقد قبض رسول الله (ص) وان رأسه لعلى صدري) . نقل صاحب « فضائل الخمسة من الصحاح الستة » عن طبقات ابن سعد ج٢ القسم ٢ ص٥١ طبعة ليدن سنة ١٣٢٢ هـ . وعن « مجمع الزوائد » للهيتمي ج ١ ص ٢٩٣ طبعة سنة ١٣٥٢ هـ . الناشر مكتبة المقدسي،نقل عن هذين وغيرهما: «إن رسول الله(ص) قبض ، ورأسه في حجر علي » .

(ولقد سالت نفسه في كفي،فأمررتها على وجهي) . المراد بنفسه دمه (ص). والنفس في اللغة تطلق على الدم ، يقال : دفق نفسه أي دمه . وقال الشيخ محمد عبده : « روي ان النبي (ص) قاء في مرضه دماً يسيراً ، فتلقى دمه أمير المؤمنين في يده ، ومسح به وجهه » . (ولقد وليت غسله) روى ذلك كثير من أهل السير والتاريخ ، منهم الإمام ابن حنبل في مسنده ، وابو نعيم في حليته،وابن سعد في طبقاته . (أنظر كتاب فضائل الخمسة) .

(والملائكة أعواني الخ) .. قال ابن أبي الحديد : « أما حديث الهينمة وسماع الصوت فقد رواه خلق كثير من المحدثين » . وقال الغزالي في « إحياء العلوم : إن الملائكة بأجمعها دخلت على النبي (ص) بعد موته،وصلت عليه . »

(فمن ذا أحق به مني حياً وميتاً ؟). نشأ الإمام في حجر النبي (ص) وكفاه الكثير من أموره قبل البعثة ، وبعد نزول الوحي كان أول من آمن بمحمد (ص) وصلى معه من الذكور ، وأول من فداه بنفسه — أنظر شرح الخطبة ١٩٠ — وضرب بين يديه بالسيف ، وهو في مقتبل العمر ، وقتل أبطال الشرك والضلال، وفرج هموم النبي ، وواساه بنفسه في كل موطن ، وكان له شرف خدمته

وتمريضه وملازمته عند الاحتضار ، ثم شرف غسله وتجهيزه ، وغيره من الصحابة في سقيفة بني ساعدة يتصارعون على الخلافة وسلطان محمد (ص) .. وكان الإمام بعلمه وأخلاقه امتداداً لشخصية النبي (ص) وبهذا الامتداد المحمدي ، وهذه الروح النبوية « حافظ على حيوية الحماسة الأصلية في نفوس شطر من المؤمنين » على حد ما قال الفيلسوف الانكليزي الشهير «برتراند رسل» في كتاب السلطان ص ٦٥ طبعة آذار ١٩٦٢ . ألا تنطق هذه الخلال والكثير من أمثالها بأن الإمام أولى الناس بحب النبي حياً ، وبخلافته ميتاً ؟.

(فانفذوا على بصائركم) يخاطب الإمام بهذا أصحابه ويقول لهم : امضوا الى قتال عدوكم ، فأنتم على بصيرة من أمركم ، وما عليكم إلا الصدق في النية ، والثبات على عزم الجهاد (فوالذي لا إله إلا هو) ان الجهاد مع الإمام كالجهاد مع رسول الله (ص) وان الجهاد مع الناكثين والقاسطين والمارقين كالجهاد مع أبي سفيان في بدر وأحد والأحزاب . قال المستشرق الألماني « فلهوزن » في كتاب « تاريخ الدول العربية » ص ٧٦ طبعة ١٩٥٨ : « ان رجالاً اقتحموا الموت من أجل علي هم أقوى دليل على انه مع الحق ، ونذكر منهم عبدالله بن بديل ، وهاشم بن عتبة ، وخصوصاً عمار بن ياسر الصحابي المسن الذي قال النبي فيه : ستقتله الفئة الباغية » (انظر شرح الخطبة ١٧١ فقرة : « من هو الخليفة ؟ ») . وقال ابن الجوزي في كتاب « صيد الخاطر » ص ٣٨٥ : « لا يختلف العلماء ان علياً لم يقاتل أحداً إلا والحق معه لقول النبي : اللهم أدرْ معه الحق كيفما دار » .

وبعد ، فقد شرحت كلمات هذه الخطبة بما جاء في كتب الثقات من أهل السُنة ، لأن العلم يستمد قوته — في موضوعنا — من فلسفة الذي يخاطبه ، لا من عقيدة المتكلم وكفى . وأنا أكتب لكل راغب أياً كان دينه ومذهبه . وقد شرح صاحب «منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة» — هذه الخطبة بستين صفحة ملأها بروايات من البحار والصافي وزهر الربيع والكافي، ولا أدري هل يجد قارئاً لها ؟ والقارىء الشيعي لا يحتاج الى هذا الإسراف، ولا يهتم إلا بفهم المعنى المراد، وغير الشيعي لا يقتنع إلا بمنطقه وفلسفته .

الخطبة

- ١٩٦ -

التقوى دواء .. فقرة ١ ـ ٣ :

يَعْلَمُ عَجِيجَ ٱلْوُحُوشِ فِي الفَلَوَاتِ ، وَمَعَاصِيَ العِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ ، وَٱخْتِلَافَ النِّينَانِ فِي البِحارِ الغَامِرَاتِ ، وَتَلاَطُمَ المَاءِ بِالرِّيَاحِ العَاصِفَاتِ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُ اللهِ وَسَفِيرُ وَحْيِهِ وَرَسُولُ رَحْمَتِهِ . أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ٱبْتَدَأَ خَلْقَكُمْ ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ ، وَبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ ، وَنَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ ، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ[1] . فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ ، وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ ، وَصَلاَحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ ، وَطُهُورُ أَنْفُسِكُمْ ، وَجَلاَءُ عَشَا أَبْصَارِكُمْ وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ ، وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ . فَٱجْعَلُوا طَاعَةَ اللهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ ، وَدَخِيلاً دُونَ شِعَارِكُمْ ، وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْلاَعِكُمْ وَأَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ ، وَمَنْهَلاً لِحِينِ

وُرُودِكُمْ ، وَشَفِيعاً لِدَرَكِ طَلِبَتِكُمْ وَجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ ، وَمَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ ، وَسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ ، وَنَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ[٢] . فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ ، وَمَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ ، وَأُوَارِ نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ . فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا ، وَاحْلَوْلَتْ لَهُ الأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا ، وَانْفَرَجَتْ عَنْهُ الأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا ، وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا ، وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ الكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا ، وَتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا ، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا ، وَوَبَلَتْ عَلَيْهِ البَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا . فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ ، وَوَعَظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ ، وَامْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ . فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ[٣] .

اللغة :

العجيج : رفع الصوت . والنينان : جمع نون أي الحوت . والغامرات : المياه تغمر الأشياء وتغطيها . والنجيب : المختار . والسفير : الرسول يمثل من أرسله . والمفزع : الملجأ . وجاش قلبه : اضطرب من حزن أو خوف . والشعار : الثوب الداخلي يلصق بالبدن . والدثار فوق الشعار . والدرك : اللحاق والإدراك . والجنة – بضم الجيم – الوقاية . والأوار : حرارة النار . وعزبت : غابت . والإنصاب : الإتعاب . وتحدبت : عطفت . ونضب الماء : غار . والرذاذ والارذاذ : مطر خفيف .

الإعراب :

وإليه خبر مقدم ليكون معادكم ، وبه نجاح أي ويكون به نجاح ، ومثله ما بعده ، ودخيلاً وما بعده من المنصوبات عطف على « شعاراً » وأوار عطف على متالف ، وعبّدوا فعل أمر .

المعنى :

تكلم الإمام (ع) في هذه الخطبة عن التقوى والنبي (ص) والإسلام والقرآن ، وهذه الموضوعات — كما ترى — متماثلة متشابكة، فالحديث عن واحد منها حديث عن الجميع بخاصة القرآن والإسلام .. هذا ، الى أن الإمام تكلم عن ذلك بأسلوب خطابي لغرض الإقناع بإعداد النفوس وإثارتها وتشويقها . ومن شروط الأسلوب الخطابي الفصاحة والتوكيد والترديد وضرب الأمثال مع الحماسة وحسن الأداء والإيقاع ، وكل ما له صلة بالوصول الى الغرض المطلوب ، وهو تحريك الجماهير التي لا تعرف التعقل والتبصر . ومن البداهة ان مجال التفسير والتعليل هو للقضايا العقلية والفلسفية لا الخطابات الحماسية ، ومن أجل هذا نكتفي من الكلام بما يشبه التعليق ، كما فعل ابن أبي الحديد على خلاف عادته في شرح سائر الخطب .

(يعلم عجيج الوحوش الخ) .. هذا تعظيم وتمجيد لله تعالى ، لأن كل من آمن بالله يعلم بأنه خبير عليم .. وقد يكون الغرض النهي عن الخيانة في السر ، لأن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون (وأشهد أن محمداً الخ) .. أمين الله على وحيه ، وصفيّه من خلقه ، وقائد الخير ومفتاح البركة (أوصيكم بتقوى الله الذي ابتدأ خلقكم) هو سبحانه بدأ الخلق ثم يعيده (وبه نجاح طلبتكم) اليه وحده ترفع الحاجات ، وعنده نيل الطلبات (واليه منتهى رغبتكم) هو المقصود بالرغبة دون سواه .(ونحوه قصد سبيلكم) . اقصدوا الله فيما أهمكم (واليه مرامي مفزعكم) الجأوا اليه ، ولوذوا به (فإن التقوى دواء داء قلوبكم) تشفيها من الآثام كالحقد واللؤم والنفاق .

(وبصر عمى أفئدتكم) . ويتفق هذا بظاهره مع قول الصوفية : إن تحرير النفس من قيود الجسم ومطالبه — طريق للمعرفة .. ولكن مراد الإمام ان الهوى

يُعمي ويُصم عن الحق والواقع (وشفاء مرض أجسادكم) . لأن التقوى تُلزم بتعاليم الاسلام أياً كان نوعها ، والاسلام ينهى عن التخمة لأنها رأس كل داء ، ويأمر بالحمية لأنها أصل كل دواء (وصلاح فساد — الى — أبصاركم) عطف تفسير على دواء داء قلوبكم ، وبصر عمى أفئدتكم (وأمن فزع جأشكم) . التقوى أمان من غضب الله وعذابه .

(وضياء سواد ظلمتكم) . المتقي ينظر الى نفسه بعين الصدق والواقع لا بعين الغرور والجهل المركب، ويلوم نفسه قبل أن يلوم الآخرين ، ويرى منهم أحسن الصفات ، ومن نفسه أصغر السيئات ، ويعترف بأخطائه ويحاول تفاديها ، وينسى ويغفر ، ولا يهرب من الواقع بالمكر والخداع (فاجعلوا طاعة الله شعاراً — الى — أضلاعكم) الدثار ظاهر ، والمراد بالشعار والدخيل واللطيف بين الأضلاع — الخفي المستور ، والمعنى اجعلوا طاعة الله في السرائر لا في المظاهر ، وفي الأفعال لا في الأقوال .

(وأميراً فوق أموركم) . اصدروا في أفعالكم عن طاعة الله ومرضاته لا عن المصالح والمطالب الشخصية (ومنهلاً لحين ورودكم) . طاعة الله هي المنهل العذب يوم القيامة أي تؤدي اليه (وشفيعاً لدرك طلبتكم) . أبداً لا شفاعة عند الله إلا التقوى والطاعة (وجُنة ليوم فزعكم) طاعة الله وقاية من عذابه يوم القيامة (ومصابيح لبطون قبوركم) . العبد الصالح يستضيء في قبره بنور عمله (وسكناً لطول وحشتكم) . المراد بالسكن هنا ما تطمئن به النفس ، وتأنس به ، قال تعالى : « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها — ٢١ الروم » وكذلك طاعة الله تؤنس الميت في لحده .

(ونفَساً لكرب مواطنكم) . نفساً — بفتح الفاء — وهو التيسير والتسهيل ، والمعنى ان طاعة الله سبحانه تسهل وتمهد للنجاة والأمان (فإن طاعة الله حرز الخ).. من المهالك (ومن أخذ بالتقوى عزبت عنه الخ) .. النقمة ، ونزلت عليه الرحمة (فاتقوا الله الذي الخ) .. هداكم سبيل الرشاد ، وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة (فعبّدوا أنفسكم) . عبّد الطريق: مهّده ويسّره للسير ، وعبّد النفس : ذللها وجعلها سلسة القياد (لعبادته) المخلص يعبد الله بلا تأفف وتبرم،على عكس المنافقين الذين إذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى .

وبعد ، فإن الانسان يستوي مع الحيوان في غريزة الجنس والطعام والشراب ، ويفترق عنه من وجوه ، وأظهرها ان في الانسان الاستعداد التام وقابلية العمل ليومه وغده ، ولا أثر لذلك في الحيوان ، ولا شيء عنده إلا الساعة التي هو فيها ، وإذن فمن الضروري ان نستغل هذه القابلية ، ونعمل للعاجلة والآجلة معاً ، ولا نهتم بالأولى فحسب ، فإن حلاوة العاجلة تذهب مع الريح ، وتستحيل الى أسى ومرارة إلا من اتقى وأصلح .

الاسلام .. فقرة ٤ – ٦ :

ثُمَّ إنَّ هٰذَا الْإِسْلَامَ دِينُ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ ، وَاصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ ، وَأَصْفَاهُ خِيرَةَ خَلْقِهِ ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ . أَذَلَّ الْأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ ، وَوَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ ، وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ ، وَخَذَلَ مُحَادِّيهِ بِنَصْرِهِ ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ . وَسَقَى مَنْ عَطِشَ مِنْ حِيَاضِهِ ، وَأَتْأَقَ الْحِيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ(٤) . ثُمَّ جَعَلَهُ لَا انْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ ، وَلَا فَكَّ لِحَلْقَتِهِ ، وَلَا انْهِدَامَ لِأَسَاسِهِ ، وَلَا زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ ، وَلَا انْقِلَاعَ لِشَجَرَتِهِ ، وَلَا انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ ، وَلَا عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ ، وَلَا جَذَّ لِفُرُوعِهِ ، وَلَا ضَنْكَ لِطُرُقِهِ ، وَلَا وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِهِ ، وَلَا سَوَادَ لِوَضَحِهِ ، وَلَا عِوَجَ لِانْتِصَابِهِ ، وَلَا عَصَلَ فِي عُودِهِ . وَلَا وَعَثَ لِفَجِّهِ ، وَلَا انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ ، وَلَا مَرَارَةَ لِحَلَاوَتِهِ ، فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاخَ فِي الْحَقِّ أَسْنَاخَهَا ، وَثَبَّتَ لَهَا أَسَاسَهَا وَيَنَابِيعُ غَزُرَتْ عُيُونُهَا ، وَمَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا ، وَمَنَارٌ اقْتَدَى بِهَا سُفَّارُهَا ، وَأَعْلَامٌ

قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا ، وَمَنَاهِلُ رَوِيَ بِهَا وُرَّادُهَا[٥] جَعَلَ فِيـهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ ، وَذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ ، وَسَنَامَ طَاعَتِهِ . فَهُوَ عِنْـدَ اللهِ وَثِيقُ الْأَرْكَانِ ، رَفِيعُ الْبُنْيَانِ ، مُنِيرُ الْبُرْهَانِ ، مُضِيءُ النِّيرَانِ ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ مُعْوِزُ الْمَثَارِ . فَشَرِّفُوهُ وَاتَّبِعُوهُ ، وَأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ . ثُمَّ إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَـا الِانْقِطَاعُ ، وَأَقْبَـلَ مِنَ الْآخِرَةِ الِاطِّلَاعُ . وَأَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ . وَخَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ ، وَأَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ . فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَـا ، وَاقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا ، وَتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا ، وَانْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِهَا ، وَانْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا ، وَعَفَاءٍ مِنْ أَعْلَامِهَا ، وَتَكَشُّفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا ، وَقِصَرٍ مِنْ طُولِهَا . جَعَلَهُ اللهُ بَلَاغـاً لِرِسَالَتِهِ ، وَكَرَامَةً لِأُمَّتِهِ ، وَرَبِيعاً لِأَهْلِ زَمَانِهِ ، وَرِفْعَةً لِأَعْوَانِهِ ، وَشَرَفاً لِأَنْصَارِهِ[٦] .

اللغة :

اصطنعه على عينه : شرعه على علمه . وأصفاه خيرة خلقه : آثره بـه . ومحادّيه : مخالفيه . وأتأق الحياض : ملأها . وبمواتحه : بدلائه ، ومتح بها : سقى بها . ولا انفصام : لا انكسار . والعفاء : ذهاب الأثر . والجذ : القطع . والوعوثة : الصعوبة . والوضح : البياض . والعصل : الاعوجاج . والفـج : الطريق الواسع بين جبلين . وأساخ هذا في هذا : أدخله فيه . وأسناخها : أصولها . وسعوز المثار : تعجز العقول عن الإحاطة بأسراره .

الإعراب :

المفعول الثاني لجعله محذوف أي ثم جعله قوياً لا انفصام الخ .

من هو المشرع ؟

(ثم ان هذا الاسلام دين الله الخ) .. يفترق الاسلام عن سائر الأديان بأن سلطة التشريع لله وحده ، وان خالق الطبيعة هو واضع الشريعة ، وان النبي ليس له منها إلا التبليغ .. وفي كتب أصول الفقه للسنة بحث خاص في ان النبي هل له أن يجتهد ويحكم بما يرى ؟. فأجاز ذلك جماعة ، ومنعه آخـــرون . وقال الشيعة بكلمة واحدة : إن النبي لا يجتهد إطلاقاً ، ولا ينطق بحكم من الأحكام إلا عن الوحي بدليل ما رواه السنة والشيعة أن المسلمين كانوا يسألون النبي (ص) في كثير من الأحيان عن بعض أمورهم ، فيقول : ما عندي بهذا علم من الله ، ثم ينزل القرآن بالحكم ، فينبئهم النبي به . وكان يقول ويكرر : « إن أتبع إلا ما يوحى إلي — ١٥ يونس » .

ونعطف على ذلك ان القول بجواز الاجتهاد على النبي (ص) — يفتح لأعـداء الاسلام الطعن والشك فيه ، وان بعضه من ظـــن الرسول واستحسانه !. وعليه يفلت الزمام ، ويهبط الاسلام من السماء الى الأرض !. كلا ، إن الاسلام واحد لا يتجزأ ، انه رسالة السماء من ألفه الى يائه ، ولا شائبـة فيه للأرض وأهـــل الأرض : « إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى — ٦ النجم » .

والاسلام حين يجرد البشرية كلها من حق التشريع يجرد في الوقت نفسه كـل انسان من حق السيطرة والاستعلاء على غيره ، ويضع الجميع على مستوى واحـد أمام الله ، ولا يبقي لأحد فضلاً وامتيازاً على آخر إلا بما يقدم من عمل صالح ، وبالتالي يُبطل مزاعم الذين يرون لأنفسهم حقوقاً مقدسة . ومن بحث عن أسباب الآلام التي عانتها وتعانيها الآن الانسانية ، وجدها أو وجد أكثرها يعود الى القوانين التي شرّعها الانسان لمصلحته كفرد ، أو لمصلحة مجموعـة من الأفراد يرتبط بهم المشرّع بسبب من الأسباب .

أما الديانة المسيحية فإنها ربطت الدين بأصوله وفروعه ، ودعائمه وأحكامه ، ربطته بإرادة الكنيسة ورجالها الذين خاطبهم انجيل متى الإصحاح ١٨ فقرة ١٨ ، وقال لهم : « كل ما تربطونه في الأرض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما تحلّونه على الأرض يكون محلولاً في السماء » . فالكنيسة هي تحلل وتحرم ، ثم تنسخ متى تشاء ما حللت وحرمت !. ومن هنا جاء تجريد السيد المسيح من طبيعة الناسوت ، والغفران والحرمان ، وبيع أذرع في السماء والجنــة ، وتحريم زواج الاكليروس ، ولكن الكنيسة الانكليزية التي حرمت الزواج على رجال الدين أباحت اللواط ، كما ان بابا روما برّأ اليهود من دم السيد المسيح،وضرب بعرض الجدار النص الذي جاء في انجيل متى .. الى الكثير الكثير .. وكله حق من عند الله !. ولا أدري كيف ينسب « دين » الى الله ، وهو من أوهام الناس ؟.

وكان من نتيجة هذه السلطة ثورة الملوك والأقوياء في اوروبا على الكنيسة لتدخلها في شؤونهم ، وانفصال السياسة عن الديـن ، ولكن الثورة انتقلت من الحاكمين الى داخل الاكليروس أنفسهم ، فمنذ بضع سنوات ثار جماعة منهم في هولندا على سلطة البابا . ومن مطالبهم الرئيسية السماح بالزواج لرجال الدين ، وقامت ثورة مماثلة في فرنسا وايطاليا وألمانيا . ويستحيل أن يحدث هذا بــين المسلمين لاتفاق مذاهبهم على ان التشريع لله وحده : « ومن لم يحــكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون — ٤٤ المائدة » .

(أذل الأديان بعزته الخ) .. وذلك بإظهاره على الدين كله .أمداً غير قصير، ثم بصموده مئات السنين ، وانتشاره شرقاً وغرباً على رغم تظاهر الأديان عليه ، ومحاربة أهلها له بكل سلاح .. والآن ، وفي القرن العشرين تقوم المساجد في ألمانيا وفرنسا وانكلترا وأمريكا ، ويرتفــع صوت المؤذن من على المآذن بالشهادة لله بالوحدانية ، ولمحمد بالرسالة . ويبلغ عدد المسلمين اليوم أكثر من ٧٠٠ مليون .

وقرأت في جريــدة « أخبار اليوم » المصرية تاريخ ٣١ — ١٢ — ١٩٦٦ ، نقلاً عن كتاب «الإسلام في التاريخ الحديث» لصاحبه « ويلفريد سميث » مــا نصه بالحرف : ان الإسلام نتيجة لتميزه بالقوة الروحية صمد للأحداث بعد انهيار الدولة العربية في بغداد عــام ١٢٥٦ م. وأرغم الفاتحين من المغول والتتار الذين قضوا عــلى الدولة الإسلاميــة ، أرغمهم الإسلام على اعتناقه ، ممــا أدى الى

تجدد الدولة الإسلامية بعد انتقـــال الحكم فيها من العرب الى الأتراك العثمانيين ، وإلى اتساع الرقعة الجغرافية للإسلام على أيدي الأتراك ، ولا شك في ان هـــذه القوة الروحية هي التي مكّنت الإسلام من الصمود أمام السيطرة الغربية في السنوات الأخيرة » .

(وسقى من عطش من حيـــاضه) أي من هدايته وعلمه (وأتأق الحياض بموانحه) . هذا العلم الغزير في الإسلام هو من الله ، ومن فهمه فقد فهم عنه تعالى (ثم جعله لا انفصام لعروته الخ) .. الإسلام قوي ومتين بأصوله ومبادئه . ومهما تأخر المسلمون اليوم فإن العيب فيهم لا في الإسلام تماماً كالذي يأمر بالمعروف ولا يجد من يسمع ، ودين السيد المسيح دين الحب والسلام ، وأكثر أتباعـــه وحوش كاسرة يمتصون دماء الشعب بلؤم وقسوة .

قال « راسل » في كتاب « السلطان » فصل العقائد منابع السلطان : « لا ريب في ان الديانة التي جاء بها محمد كانت عنصراً أساسياً في النجاح الذي حققته بلاده وحققه قومه .. وقد أظهر المسلمون منذ بداية عهدهم تسامحاً في التعامل مـــع المسيحيين الذين أخضعوهم ، ولا ريب ان الفضل في سهولة فتوحاتهم واستقرار امبراطوريتهم يعود الى هذا التسامح الذي يبدو بارزاً إذا ما قورن بالحماسة التعسفية والاضطهادية التي عُرفت بها الكنيسة الكاثوليكية » .

(ولا انقلاع لشجرته،ولا انقطاع لمدته الخ) .. يومىء الى ان الاسلام يصلح لكل عصر ، فلا يتعارض مع العقل والعلم ، ولا يدعو الى الجمود،ولا يضر بأحد، ولا يتسبب في التخلف،بل ان الصيحة لنهضة المسلمين وانقاذهم من الضعف والتخلف كانت وما زالت مقرونة بالدعوة الى الحرص على الاسلام والعمل به ، وان أخوف ما يخافه أعداء المسلمين أن يرجعوا الى كتاب ربهـــم وسنّة نبيهم ، ومن هنا كان تحديهم الرهيب للإسلام وشريعته وأهدافـه .. ولا أدري متى يتحـرك المسلمون ، ويبعث فيهم هذا التحدي السافر روح اليقظة والنهضة ؟.

(ولا وعوثة لسهولته) . الاسلام رحمة للعالمين ، قال الرسول الكريم (ص): « بعثت بالحنفية السهلة السمحة». وقال تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر – ١٨٥ البقرة » (ولا سواد لوضحه) خالص من كل شائبة تعوق الحياة عن التقدم والانطلاق (ولا عوج لانتصابه الخ) .. لا ينقضه طعن ، ولا تثنيه

شبهة ، ويهزه افتراء ، لأنه الحق المبين والصراط القويم (فهو دعائم أساخ في الحق أسناخها) وثيق الأركان ، رفيع البنيان ، كما يأتي بعد قليل (وينابيع غزرت عيونها) أي كثرت علوم الاسلام وفوائده (ومصابيح شبت نيرانها) واضح الدلالة لا غموض فيه ولا تعقيد (ومناراً اقتدى بها سفارها) أي المسافرون، والمراد بهم العلماء ، وان الاسلام يهديهم للتي هي أقوم ، ليهدوا بدورهم غيرهم (وأعلام قصد بها فجاجها) أي طرقها ، والأعلام تدل عليها ، واذا سار المسافرون على هذه الطرق انتهت بهم الى مقاصدهم .

(ومناهل رُوي بها واردها) من نهل من معين الاسلام فلا يظمأ (جعل الله فيه منتهى رضوانه) «ورضيت لكم الاسلام ديناً — ٣ المائدة» (وذروة دعائمه) يعلو الاسلام ، ولا يُعلى عليه (وسنام طاعته) من عمل بالاسلام بلغ من الطاعة لله أقصاها (فهو عند الله وثيق الأركان الخ) .. عطف تفسير على أساخ في الحق أسناخها وثبّت لها أساسها (منير البرهان ، مضيء النيران) عطف تفسير على مصابيح شبت نيرانها (عزيز السلطان) عطف تفسير على لا انهدام لأساسه، ولا زوال لدعائمه (معوز المثار) لا يُدرَك غباره ولا يُلحق مضماره (فشرّفوه) عظّموه وأحيوه بالعمل ، لا بالمظاهر (وضعوه في مواضعه) لا تتاجروا بالدين، وتأكلوا به كما تأكل الفاجرة بلحمها . (انظر شرح الخطبة ٣٢ ، فقرة « المرائي والمومس » .

(ثم ان الله سبحانه بعث محمداً (ص) بالحق حين دنا من الدنيا الانقطاع) . المراد بالدنيا هنا دنيا أهل ذاك الزمان الذي بُعث فيه محمد (ص) وحياتهم ، والمراد بالانقطاع نهايتهم وهلاكهم بسبب الفساد والضلال (وأقبل من الآخرة الاطلاع) . المراد بالآخرة نهاية أهل ذاك الزمان المظلم ، وبإقبال الاطلاع قرب هذه النهاية . وتقدم مثله في الخطبة ٢٨ و ٥٢ .

(وأظلمت بهجتها بعد إشراق) . رسالة محمد (ص) حلقة من سلسلة الرسالات السابقة التي أشرقت الدنيا بها كرسالة ابراهيم وعيسى وغيرهما من الأنبياء ، ثم أظلمت الدنيا من بعدهم برهة من الزمن حتى ولد الهدى والنور بمولد رسول الله (ص) (وقامت بأهلها على ساق) . كناية عن عصر الجاهلية الجهلاء ، وجرائمه وآثامه (وأزف منها قياد الخ) .. أوشكت الجاهلية المجرمة أن تقود أهلها الى الهلاك (واقترب من اشراطها) أي اقتربت علامات النهاية . وتقدم مثله مرات ، منها في الخطبة ٨٧ .

وبالإيجاز ان العالم قبل رسالة محمد (ص) كان في ضلال مبين،فجاءت رسالته إيذاناً بالتحول الخطير في حياة الأمة العربية،وحياة العالم كله من أقصاه الى أقصاه .

القرآن .. فقرة ٧ — ٨ :

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لاَ تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ ، وَسِرَاجاً لاَ يَخْبُو تَوَقُّدُهُ ، وَبَحْراً لاَ يُدْرَكُ قَعْرُهُ ، وَمِنْهَاجاً لاَ يُضِلُّ نَهْجُهُ ، وَشُعَاعاً لاَ يُظْلِمُ ضَوْءُهُ ، وَفُرْقَاناً لاَ يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ ، وَتِبْيَاناً لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ . وَشِفَاءً لاَ تُخْشَى أَسْقَامُهُ ، وَعِزّاً لاَ تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ ، وَحَقّاً لا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ . فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ ، وَأَثَافِيُّ الْإِسْلاَمِ وَبُنْيَانُهُ ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيطَانُهُ . وَبَحْرٌ لاَ يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ ، وَعُيُونٌ لا يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ ، وَمَنَاهِلُ لَا يُغِيضُهَا الْوَارِدُونَ ، وَمَنَازِلُ لَا يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ[٧] . وَأَعْلاَمٌ لاَ يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ وَآكَامٌ لاَ يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ . جَعَلَهُ اللهُ رِيّاً لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ ، وَرَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ ، وَمَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ ، وَنُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ ، وَحَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ ، وَعِزّاً لِمَنْ تَوَلاَّهُ ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَهُدًى لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ ، وَعُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ ، وَفَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ ، وَحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ ، وَجُنَّةً لِمَنِ اسْتَلْأَمَ . وَعِلْماً لِمَنْ وَعَى ، وَحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى ، وَحُكْماً لِمَنْ قَضَى[٨] .

اللغة :

لا يخبو : لا يخمد . والمنهاج : الطريق . ونهج الأمر : أوضحه ، والثوب: أخلقه ، والطريق سلكه . وبحبوحة الدار : وسطها وسعتها . والأثافي : يوضع عليها القدر . وغيطان : أراض مطمئنة . لا ينزف : لا ينضب . والماتحون : مستخرجو الماء . وآكام : أراضٍ مرتفعة . والفلج : الظفر . وتوسم : تفرس.

الإعراب :

نوراً حال من الكتاب أي منيراً ، وجملة لا تُطفأ صفة للنور .

المعنى :

قبل أن نبدأ بشرح هذه الخطبة قلنا : ان الإمام (ع) تكلم فيها عن التقوى والنبي (ص) والإسلام والقرآن ، وان هذه الموضوعات الأربعة متماثلة متشابكة ، وبالخصوص الإسلام والقرآن ، فإنهما شيء واحد .

ولذا وصف الإمام القرآن بنفس الصفات التي وصف بها الإسلام ، وعلى سبيل التمثيل ان قوله عن القرآن : (نور لا تُطفأ مصابيحه) مثل قوله السابق عن الإسلام : « لا انطفاء لمصابيحه » وقوله هنا : (بحراً لا يدرك قعره) كقوله هناك : « ينابيع غزرت عيونها » أي عيون دعائم الإسلام . وقوله : (لا ينضبها الماتحون) نظير « أتأق الحياض بمواتحه » .. الى قوله هنا : (لعطش العلماء) وهناك : « سقى من عطش » .. وهكذا ، بالإضافة الى أن التعبير هنا أوضح منه هناك ، وان الكلام عن القرآن تقدم في الخطبة ١٠٨ و ١٨١ . وإذن فما الغاية من الشرح والإعادة ؟

وبعد ، فإن وصف الله لكتابه يغني عن كل وصف : « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجراً كبيراً ــ ٩ الإسراء » . أما الذي نزل القرآن على قلبه فوصفه بقوله : « من قرأ القرآن ــ أو من حفظ القرآن ــ فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه » أي قرأ وفهم وعمل حيث أنزله النبي (ص) منزلة الأنبياء بلا وحي .

ونقل حسين هيكل في كتاب « حياة محمد » أقوالاً عن المستشرقين المسيحيين في صدق القرآن ، منها ما قاله « وليم موير » في كتابه حياة محمد ما نصه بالحرف : « ان كل ما في القرآن صورة صادقة كاملة لما أوحي به الى محمد ، ونستطيع أن نؤكد استناداً الى أقوى الأدلة ان كل آية من القرآن دقيقة في ضبطها تماماً كما تلاها محمد » . انظر ص ٣١ من كتاب « هيكل » عن محمد الطبعة التاسعة .. وحتى الآن ما عرفت البشرية كتاباً من نوع القرآن . والقول الفصل : « فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين — ٣٨ يونس » .

الخطبة

- ١٩٧ -

الصلاة والزكاة .. فقرة ١ – ٤ :

تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلاَةِ وَحَافِظُوا عَلَيْهَا ، واسْتَكْثِرُوا مِنْهَا ، وَتَقَرَّبُوا بِهَا ، فَإِنَّهَا كَانَتْ عَلى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً . أَلاَ تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا : « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ؟ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ » وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الوَرَقِ ، وَتُطْلِقُهَا إِطْلاَقَ الرِّبَقِ وَشَبَّهَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلى بَابِ الرَّجُلِ فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ[1] . وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لاَ تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ وَلاَ قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَلاَ مَالٍ . يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ « رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ

وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ » وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ نَصِباً بالصَّلاةِ بعدَ التَّبشيرِ لهُ بالجنَّةِ لقولِ اللهِ سُبحانَهُ « وأْمُرْ أهلَكَ بالصَّلاةِ واصطَبِرْ عليها » فكانَ يأمُرُ أهلَهُ ويصبِرُ عليها نفسَهُ[2] .

ثُمَّ إنَّ الزَّكاةَ جُعِلَتْ مع الصَّلاةِ قُرباناً لأهلِ الإسلامِ فمَنْ أعطاها طيِّبَ النَّفسِ بها فإنَّها تُجعلُ لهُ كفَّارةً ، ومِنَ النَّارِ حِجازاً ووِقايةً . فلا يُتْبِعَنَّها أحدٌ نفسَهُ ، ولا يُكثِرَنَّ عليها لَهَفَهُ . فإنَّ مَنْ أعطاها غيرَ طيِّبِ النَّفسِ بها يرجو بها ما هوَ أفضلُ منها فهوَ جاهلٌ بالسُّنَّةِ مَغبونُ الأجرِ . ضالُّ العَمَلِ . طويلُ النَّدَمِ[3] . ثُمَّ أداءَ الأمانةِ ، فقد خابَ مَنْ ليسَ مِنْ أهلِها . إنَّها عُرِضَتْ على السَّمواتِ المبنيَّةِ ، والأرَضينَ المدحوَّةِ ، والجبالِ ذاتِ الطُّولِ المنصوبةِ ، فلا أطولَ ولا أعرضَ ولا أعلى ولا أعظمَ منها . ولوِ امتنعَ شيءٌ بطولٍ أو عرضٍ أو قوَّةٍ أو عِزٍّ لامتنعْنَ ، ولكنْ أشفقْنَ مِنَ العقوبةِ ، وعقَلْنَ ما جهِلَ مَنْ هوَ أضعفُ منهُنَّ وهوَ الإنسانُ « إنَّهُ كانَ ظَلوماً جهولاً ».

إنَّ اللهَ سُبحانَهُ وتعالَى لا يخفَى عليهِ ما العبادُ مُقترِفونَ في ليلِهِمْ ونهارِهِمْ . لَطُفَ بهِ خُبْراً ، وأحاطَ بهِ عِلْماً ، أعضاؤُكُمْ شُهودُهُ ، وجوارِحُكُمْ جُنودُهُ ، وضمائرُكُمْ عيونُهُ ، وخلَواتُكُمْ عِيانُهُ[4] .

اللغة :

حت الورق عن الشجر : أسقطه ، وحت الشيء عن الثوب : حكه وأزاله . والربق : حبل فيه عرى . والحمة – بفتح الحاء وتشديد الميم – عين معدنية يستشفى بها . ونصباً : تعباً . ومقترفون : مكتسبون . وخُبْراً : علماً .

الإعراب :

فما عسى « ما » للاستفهام ، والمعنى أي شيء الخ .. واشتبه من قال هي نافية ، وعسى تامة ، لا تحتاج الى خبر ، وفاعل يبقى ضمير مستتر يعود الى « ما » وطيب النفس حال ، ومثله غير طيب النفس ، واداء الأمانة نصب على المصدرية أي أدوا الأمانة ، وخبراً تمييز ، ومثله « علماً » .

الصلاة :

تكلم الإمام (ع) في هذه الخطبة عن الصلاة والزكاة والأمانة ، وفي الخطبة ١٠٨ و ١٩٠ تكلمنا عن الصلاة والزكاة تبعاً لإشارة الإمام اليها في هاتين الخطبتين، والآن نتناول منها بعض الجهات التي لم نتعرض لها فيما سبق ، من ذلك ما أشار اليه الإمام بقوله :

(وانها لتحت الذنوب – الى – فما عسى أن يبقى عليه من الدرن) . يدل هذا الكلام بظاهره على ان الصلاة حسنة لا تضر معها سيئة ، وان الله يغفر سيئات المصلي مهما تضاعفت وتنوعت !. وليس من شك ان هذا الظاهر يصطدم مع حكم العقل والبديهة ، ومع قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره – آخر الزلزلة » . فما هو وجه الجمع ؟

الجواب :

لا أحد يجرأ على الزعم والادعاء أنه منزه عن التقصير والخطأ إلا جاهل مغرور حاشا الانبياء .. والخطيئة أنواع ، ولكل نوع درجات ، فهناك حق الله وحق الناس ، وهناك الكبيرة والصغيرة وبعض الخطايا تقبل المغفرة والتسامح ، ويختص

فيها على اللوم والعتاب أو التوبيخ ، وبعضها يوجب العقاب الخفيف ، وثالثة العقابَ الوسط ، ورابعة العذاب الأكبر . وتقدمت الإشارة الى الذنب الكبير والصغير في شرح الخطبة ١٧٤ فقرة « ألا وان الظلم ثلاثة » . وأفحش الخطايا على الاطلاق الشرك بالله ، والاعتداء على حريات الناس بكمّ الأفواه ، وتعذيب الأرواح والأجسام ، ونهب الثروات ، واغتصاب الأرض والمقدرات .. وما الى ذلك من الجرائم التي يرتكبها الأقوياء ضد الضعفاء الذين لا قدرة لهم ، ولا حيلة ووسيلة . وهذا النوع من الذنوب لا يغفر إطلاقاً، وإن صلّى المذنب الظالم وصام، وحجّ الى بيت الله الحرام .

وما عدا هذا النوع من الذنوب يقبل الغفران ، شريطة أن لا يكون فيه شائبة اعتداء على الآخرين ، وإن كانت مثقال ذرة . ومن الأمثلة التي تقبل التسامح والمغفرة سقطات اللسان مع عدم الإضرار بالآخرين ، وأكل الخبائث أو شربها بلا ضرورة ، وصناعة التماثيل والنظرة الآثمة والعصبية اذا لم يترتب عليها فساد ، بل وحلق اللحية والإسراف في الأموال على القول بالتحريم .

وغير بعيد أن يكون المراد بالذنوب التي تحتّها الصلاة وتطهر المصلي منها هذا النوع بالخصوص .. ومن الجائز أيضاً أن يكون القصد من حت الذنوب أن الصلاة بطبيعتها تحث المصلي على التوبة التي تطهره من الذنوب . ويومىء الى ذلك ويؤيده قوله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر – ٤٥ العنكبوت » أي تنهى المصلي عنهما بمجرد الدعوة والارشاد ، ولا تدفعه عنهما قسراً ، أو تخلق في نفسه النفور منهما قهراً .. لأن هذا لم يحدث بشهادة العيان . وليس من شك أن إهمال التوبة من المنكرات ، فيشمله نهي الصلاة عن المنكر .

(وقد عرف حقها رجال من المؤمنين الخ) .. الذين وجدوا حلاوة الإيمان بالله ، وبرد اليقين ، وجلال القرب منه ، وعقلوا أسرار الصلاة وأهدافها ، وان الله سبحانه يكتب لهم من ثوابها على قدر محافظتهم عليها ، واهتمامهم بها ، وإذن فلا عجب إذا أعطوها عن طيب نفس كل همهم واهتمامهم ، وجعلوها شغلهم الشاغل حتى عن الولد والمال .

ونحن نعرف الكثير من عظمة الصلاة عند الله ، وانها عمود الدين وقربان كل تقي .. وأيضاً نتحدث عن فضلها ونكتبه ونذيعه ، ولكن صلاتنا – ويا لسوء العمل – أشبه بحركة آلية أو تلقائية .. أبداً لا شيء فيها من الحضور والخشوع..

نحن نصلي والله بقصد القربة لله .. ولكن بماذا نفكر أثناء الصلاة ؟.. بالتافهات وزينة الحياة .. قال رسول الله (ص) : ان خير أعمالكم الصلاة . وتقول نفسنا الأمّارة : لا ،ان خير أعمالكم الشهرة والسمعة ، والجمع للوارث التارك للصلاة! اللهم هدايتك وغفرانك .

ونختم هذه الإشارة بهذه الفضيلة الرائعة من فضائل الصلاة ومنافعها، وأول من كشف عنها – فيما نعلم – الإمام جعفر الصادق (ع) وهي ان الأمم الماضية نسوا أنبياءهم بمرور الزمن وطول العهد ، فألزم سبحانه أمة محمد (ص) بالصلوات الخمس لفوائد ، منها أن يكون المسلم مع نبيه مدى حياته ، فيذكره ليل نهار فرضاً وندباً ، ولا ينساه أبداً مهما امتد الزمن ، وأن يقرن اسمه باسم الله في الأذان والإقامة ، وفي التشهد والتسليم ، وأيضاً في الركوع والسجود على وجه الاستحباب . ومن ترك الصلاة فقد ترك الله ومحمداً رسول الله الذي قال : بين الرجل والكفر ترك الصلاة .. الصلاة هي العهد بيننا وبينكم، فمن تركها فقد كفر .

(وكان رسول الله (ص) نصباً بالصلاة) أي يتعب بها نفسه ، ويجهدها في عبادة الله حتى تورمت قدماه ، واصفر لونه ، وحتى عاتبه سبحانه على ذلك بقوله : « طه أنزلناه عليك القرآن لتشقى » أي لتشق على نفسك ، وتحملها المشقة والعناء .

الزكاة :

(ثم ان الزكاة جعلت مع الصلاة قربانا الخ) .. أي يتقرب بها الى الله سبحانه .. حث الاسلام على الزكاة تماماً كما حث على الصلاة ، لأنه يحرص كل الحرص على الأخوة والتعاون بين الناس ، وأقام هذا التعاون على أسس قوية وثابتة ، منها أو من أهمها العمل لصالح الأغلبية العظمى التي تتكون من الفقراء والمستضعفين ، وتقديمه على صالح الأفراد ، والمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات . ومن البداهة ان الزكاة ضرب من التعاون وأساس له ، ولذا أطلق عليها في عصرنا اسم العدل الاجتماعي أو العدالة الاجتماعية. وكثير من الفقهاء يتجاوزون النسبة المئوية المحددة في الزكاة ويوجبون في أموال الأغنياء كل ما يحتاجه الفقراء .

وقد اشتهر القول عن ابن حزم : « ان للسلطان أن يجبر الأغنياء على أن

يقوموا بحاجة الفقراء إن لم تقم الزكاة بهم ، فإذا رفض الأغنياء أجبرهم السلطان وحاربهم ، واذا رفض السلطان ذلك حاربهم الفقـراء أنفسهم ، وكانوا أصحاب حق ، وكان السلطان والأغنياء الفئة الباغية » . ومعنى هذا ان للفقراء حق الثورة على الأغنياء ، وأخذ ما يحتاجون اليه من أموالهم بالقهر والغلبة وبلا ضمان وعوض أيضاً . وليس هذا ببعيد عن روح الاسلام الذي قال : ما آمـن بالله من بات شبعاناً وأخوه جائع . وقال : « ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ـ ٧٥ النساء». وتكلمنا عن الزكاة في الخطبة ١٠٨ و ١٩٠.

الأمانة :

(ثم أداء الأمانة فقد خاب من ليس من أهلها، انها عرضت على السموات الخ)..

تُطلق الأمانة على الوديعة كالمال والمصاغ والصك ونحو ذلك مما يتركه المرء عنـد غيره ، ويسأله المحافظة عليه ، وهذه الأمانـة يجب الوفاء بهـا للمؤمن والكافر ، والبر والفاجـر ، ولا تحـل خيانتهـا عقـلاً وعرفاً وشرعاً ، قال الإمـام زين العابدين (ع) : « والـذي بعث محمـداً بالحق لو ان قاتـل أبي الحسين ائتمنني على السيف الذي قتله به لأديته اليه . وأيضاً تطلق الأمانة على الوفاء بمعناه العـام الذي يشمل الوفاء للدّين والوطن ، والأهل والأصدقاء ، والمبدأ والانسانية جمعاء . والوفاء خلق كريم عند أهل السماء والأرض ، والخيانة لؤم وغدر .

واستشهاد الإمام بالآيـة يومىء الى انه يريد من الأمانة المعنى العام ، وهو الوفاء ، لأن المراد من الأمانة فيها دين الله والمسؤولية عنه . وإذن فـن الأفضل أن نشير الى معنى الآية ، ومتى عرفناه اتضح مراد الإمام ، أو ازداد وضوحاً . قال تعالى : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان انه كان ظلوماً جهولاً ـ ٧٢ الأحزاب » . وخلاصة المعنى أن الله سبحانه منح الإنسان القدرة والعقل والإرادة ، وميّزه بذلك عـن جميع الكائنات التي نعرفها ، وأهّله بهذه النعمة لتحمّل المسؤولية عن ديـن الله الذي بيّنه على لسان أنبيائه .

وعليه فمعنى حمـل الإنسان للأمانة أن فيه كل الشروط والصفات التي تؤهله للخطاب بالدين ، والتكليف بالحلال والحرام ، واستحقاق العقاب ان قصر وأهمل،

لأن الله سبحانه لم يترك له من عذر يتعلل به ، ومعنى رفض السموات والأرض والجبال للأمانة أو للدين ، معناه أنها تفقد هذه الشروط والمؤهلات، وهي القدرة والعقل والإرادة ، وبالتالي فلا يصح تكليفها بحال . وقديماً قيل : اذا أخذ ما أوهب سقط ما أوجب. ومن أقوال الإمام : متى ملّكنا الله كلّفنا ، ومتى أخذه منا وضع عنا تكليفه لنا . وبكلمة أبلغ وأجمع : « لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها — ٧ الطلاق » .

(لطف به خُبراً) . الضمير في « به » يعود الى « ما » في قوله : (لا يخفى عليه ما العباد مقترفون) . ويشير الإمام بقوله : « لطف به خبراً » الى الآية ١٠٣ من سورة الانعام : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » . والخبير والعليم بمعنى واحد،واللطيف هو العالم بدقائق الأمور وغوامضها (وأحاط به علماً) عطف تفسير (وضمائركم عيونه) أي ان ذات الصدور تشهد على العصاة تماماً كما تشهد عليهم أعضاؤهم (وخلواتكم عيونه) كل سر عنده علانية ، وكل غيب عنده شهادة .

الخطبة

-١٩٨-

معاوية يغدر ويفجر :

وَاللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي وَلٰكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ . وَلَوْلاَ كَرَاهِيَةُ ٱلْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ ، وَلٰكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ ، وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ . وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . وَاللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ ، وَلَا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ .

اللغة :

غُدَرة وفُجَرة وكُفَرة – بضم الحرف الأول وفتح الثاني – للمبالغة أي غدور وفجور وكفور . وما أُستغفل بالمكيدة : لا تجوز المكيدة عليّ كما تجوز على الغافلين . ولا أُستغمز للشديدة : لا أضعف للخطوب وإن اشتدت .

الإعراب :

بأدهى خبر ، والباء زائدة ، ومني متعلق بأدهى .

المعنى :

(والله ما معاوية بأدهى مني الخ) .. ما كان لمعاوية من هدف إلا المجد والسلطان ، وكل الوسائل حق وعدل عنده ما دامت تؤدي بنجاح الى بلوغ هذا الهدف ، ولا غاية لعلي إلا الدين وإحقاق الحق ، وفي سبيله تجب التضحية بكل عزيز وثمين . هذا هو الفرق بين الاثنين،أما نجاح معاوية فيعود الى شيء واحد، وهو أن الظروف في المجتمع الفاسد تعاكس المحق ، وتواتي المبطل بخاصة إذا كان بارعاً في الكذب والاحتيال . ولقد برع معاوية ونجح في الغدر والمكر ، وصفت له الأيام في بيئة الضلال ، واستشهد الإمام غدراً واغتيالاً .. ولكن التاريخ أنصف ، وكشف كلاً على حقيقته ، فكل الأجيال تصف معاوية بالموارية والانتهازية ، وتعترف للإمام بالإخلاص والتضحية ، والصلابة في الحق مهما تكن الخسائر .

وتقدم مضمون هذه الخطبة ومحتواها في الخطبة ٤١،وشرحناه بضرب من التفصيل، واستشهدنا هناك بما قاله الإمام هنا (انظر المجلد الأول ص ٢٥٧ فقرة «علي والسياسة»). وتجدر الإشارة الى ان ابن أبي الحديد المعتزلي كتب في شرح هذه الخطبة حوالى عشرين صفحة بالقطع الكبير ، فمن أراد التوسع فليرجع اليه والى كتاب « النصائح الكافية ، لمن يتولى معاوية » تأليف ابن عقيل .

الخطبة

- ١٩٩ -

يجمع الناس الرضا والسخط :

أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلى مَائِدَةٍ شِبَعُهَا قَصِيرٌ ، وَجُوعُهَا طَوِيلٌ . أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَاءُ وَالسُّخْطُ . وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَا فَقَالَ سُبْحَانَهُ : « فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ » فَمَا كَانَ إِلاَّ أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُوَارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي الأَرْضِ الْخَوَّارَةِ . أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَ الْمَاءَ ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التِّيهِ .

اللغة :

الخوار : الصوت ، قال سبحانه : «عِجلاً جسداً له خوار – ١٤٨ الأعراف» .
والسكة : حديدة المحراث .

الإعراب :

كان ناقصة ، واسمها محذوف ، وتسبك ان وما بعدها بمصدر خبراً لكان ، والتقدير فما كان عذابهم إلا خوار أرضهم .

لا تخش لومة لائم :

(أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله) . كل ما يجلب النفع، ويدفع الضر عن الفرد والجماعة في حدود حلال الله وحرامه فهو خير وصلاح ، وكل ما يضر بالناس بجهة من الجهات فهو شر وضلال ، ومن آمن واقتنع بطريق أو بآخر ان هذا خير وصلاح ، وذاك شر وفساد – فعليه أن يتصرف بوحي من ايمانه وقناعته ، ولا يقيم وزناً لأقوال النـــاس وآرائهم ، فإنهم لا يصدرون عن عقل وعلم ، ولا عن دين وضمير .. ويندفعون بمحض الرغبة والعاطفة الهوجاء ، والتقاليد الموروثة ، بخاصة في هذا العصر الذي أفسدته المدنية الحديثة ، وأجهزت الدعايات الكاذبة على كل ما يسمى هدى وانسانية .

قال رسول الله (ص) : « استفتِ قلبك .. البر مـــا اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب ، والإثم ما حاك في القلب ، وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » . وقال الإمام : « لا تزيدني كثرة النـــاس حولي عزة ، ولا تفرُّقهم عني وحشة » وتقدم في الخطبة ١٢٨ قوله لأبي ذر: لا يؤنسك إلا الحق، ولا يوحشك إلا الباطل .

وكلنا يعلم ان الذين صنعوا التاريخ ، وتقدمت الحيـــاة بجهودهم كانوا حمقى ومجانين عند قومهم ، لأنهم تمردوا على مقاييسهم ، ورفضوا التنازل عما يؤمنون به ويعتقدون ، وساروا وحدهم على طريق الهدى بوحي من عقولهم وصفاء قلوبهم ، وكان من الطبيعي أن يصطدموا بالكثير من العقبات ، ويعانوا النكبات ، ولكنهم ثبتوا وضحوا فكانوا من الهداة الخالـــدين ، ولو خافوا من قوة الدولة ومنطق الجماعة لخسروا أنفسهم ، وما تركوا خيراً لإنسان .

(اجتمعوا على مائدة شبعها قصير ، وجوعها طويل) . المراد بالمائدة الدنيا، وقد يشبع الإنسان منها ، ولكن الى أمد ينتهي بزواله الى اللحد حيث لا طعـــام

ولا شراب ولا شيء إلا العمل (إنمـا يجمع الناس الرضا والسخط) . قسّم الشيوعيون الناس على أساس اقتصادي ، وبعضهم على أساس عنصري أو جغرافي، وآخرون على أساس ثقافي ، أما القرآن فإنه يقسم الناس على أساس التقوى والعمل الصالح ، والى هذا يرجع كلام الإمام حيث جعل الناس فريقين : فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير ، والفريق الأول هم العاملون بالخير ، ومن رضي عنه وعنهم، ومن هنا كان للنوايا الطيبة وزنها وثوابها عند الله ، والفريق الثاني هم الساخطون على الخير وأهله .. فقد جمع الرضا بين أولئك في جنة الخلـد ، وجمع السخط بين هؤلاء في عذاب الحريق .

وعن النبي وأهل بيته (ص) : « العامل بالظلم ، والمعين له ، والراضي بـه شركاء ثلاثتهم .. من رضي أمراً فقد دخل فيه ، ومن سخطه فقد خرج منه .. من غاب عن أمر فرضي به كان كمن شهده وأتاه .. ولو ان رجلاً قُتـل في المشرق فرضي بقتله رجل في المغرب لكان الراضي شريك القاتل » .

أبداً لا يحق لأحد أن يدعي الإسلام الحق ، أو انه انسان طيب ، وهو يقيم مع الظالم علاقات سياسية أو اقتصادية أو ثقافية .. حتى ولو ملأ الدنيا بسبّـه ولعنه ، لأن أية علاقة مع الظالم هي عون له وحيـاة .. ومن أجل هذا أسمح لنفسي أن أسمي الاتفـاق الجديد بين الاشتراكية والامبريالية ، أسميه بالانتهازية العلنية..ولا تبعد كثيراً تسميتي هذه عن تسمية الاشتراكيين والامبرياليين لاتفاقيتهم « بالتجارية » .

(وانما عقر ناقة ثمود رجل واحد الخ) .. ثمود قبيلة من العرب ، سميت باسم جدها ثمود بن عامر ، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام ، فأرسل الله صالحاً لهدايتهم ، وهو أشرفهم نسباً ، وأوسعهم حلماً، فطلبوا منه أن يأتيهم بآية تصدّق رسالته ، فقال لهم : هذه ناقة الله لا مثيل لها في تاريخ النوق ، فرماها شقي بسهم فخرّت على الأرض ، وما أنكر هذه الجريمة منكر من ثمود، فأخذهم الله بغتة ، وهم لا يشعرون .

(فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض) .

خارت الأرض لانت وارتخت بحيث يغور فيها ما على ظهرها من الأثقال كما تغور حديدة المحراث الحامية في الأرض اللينة . والمعنى ان الأرض ابتلعت ثمود ، لأن بعضهم فعل المنكر ، والبعض الآخر رضي به وسكت عنه (من سلك الطريق الواضح ورد الماء) أي نال ما يبتغيه (ومن خالف وقع في التيه) حيرة وضلالة : « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب — ٣٤ غافر » .

الخطبة

- ٢٠٠ -

عند دفن بضعة الرسول (ص) :

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ عَنِّي وَعَنِ ٱبْنَتِكَ ٱلنَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ . قَلَّ يَا رَسُولَ اللهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي ، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي . إِلَّا أَنَّ لِي فِي التَّأَسِّي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ ، وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ مَوْضِعَ تَعَزٍّ . فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ . إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . فَلَقَدِ ٱسْتُرْجِعَتِ ٱلْوَدِيعَةُ ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ . أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللهُ لِي دَارَكَ ٱلَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ . وَسَتُنَبِّئُكَ ٱبْنَتُكَ بِتَضَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا فَأَحْفِهَا ٱلسُّؤَالَ وَاسْتَخْبِرْهَا ٱلْحَالَ . هٰذَا وَلَمْ يَطُلِ ٱلْعَهْدُ . وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامَ مُوَدِّعٍ

لَا قَالٍ وَلَا سَئِمٍ . فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ . وَإِنْ أُقِمْ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللهُ الصَّابِرِينَ .

اللغة :

رق : ضعف . وتجلد فلان : تكلف الجلد والصبر . والتأسي : التعزية . وملحودة : مشقوقة ومحفورة . ومسهد : قليل النوم . فأحفها السؤال : استقص في مسألتها .

الإعراب :

في التأسي خبر ان مقدماً على اسمها وهو موضع تعز ، والحال منصوب بنزع الخافض أي استخبرها عن الحال . وهذا فاعل لفعل محذوف أي حدث هذا ، وعن ملالة متعلق بفعل محذوف أي فلا أنصرف عن ملالة .

فاطمة (ع) :

أبوها خاتم الأنبياء وسيد الكونين ، وأمها خديجة بنت خويلد أول انسان آمن وصدق برسول الله (ص) وشاركه في حياته ، ومنها ذريته ، وزوج فاطمة علي أخو رسول الله أول من آمن به وصلى معه وفداه بنفسه من الذكور ، ولكن أولادها منه يُنسبون الى علي لغة ، والى النبي شرعاً لقوله : « كل ولد آدم فإن عصبتهم لأبيهم خلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وعصبتهم » .
ولدت فاطمة (ع) بمكة يوم الجمعة ٢٠ جمادى الآخرة بعد النبوة بخمس سنين ، وسميت فاطمة لأن الله فطمها وذريتها عن النار يوم القيامة ، كما في كتاب « ذخائر العقبى » عن رسول الله . وكانت أشبه الناس سمتاً ودلاً وهدياً وقياماً وقعوداً بأبيها رسول الله (ص) ، كما في « صحيح الترمذي » عن عائشة. وتوفيت بالمدينة ٣ جمادى الآخرة سنة ١١ هـ ، وعمرها الشريف ١٨ سنة،وعاشت بعد أبيها ٩٥ يوماً .

وفي « حلية الأولياء » لأبي نعيم ان النبي (ص) قال لها : يا بنية أما ترضين انك سيدة نساء العالمين ؟. قالت : يا أبت فأين مريم بنت عمران ؟. قال: تلك سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، أما والله زوّجتك سيداً في الدنيا والآخرة .

وقرأت في جريدة «الأخبار» المصرية تاريخ ٢١ - ٥ - ١٩٧٠ كلمة للأستاذ محسن محمد،تحدّث فيها عن كتاب جديد في أهل البيت بلغ أكثر من ٦٠٠ صفحة لمؤلفه توفيق أبو علم وكيل وزارة العدل بمصر . وقال الكاتب فيما قال ، وهو يعرض نماذج من هذا الكتاب الجديد :

« هؤلاء هم أهل البيت : فاطمة الزهراء،وزوجها علي،وأولادهما الحسن والحسين وأحفادهما . ولقد زرت مكة والمدينة ، ووقفت بكربلاء ، وعبرت الطريق الى النجف والكوفة ، وتمثلت لي في لحظة مواقفهم .. بطولاتهم .. استشهادهم » .

« والسيدة فاطمة أصغر بنات الرسول وأحبهن اليه ، وأمها خديجة التي ردت السكينة والأمن لرسول الله ، وتعلمت منها فاطمة أعظم الدروس ، فكانت تضمد جراح أبيها في غزوة أحد ، وتقوم وحدها بعمل البيت لا يعينها أحد ، عاشت على الكفاف لا تكذب ولا تشكو ، وتردد دائماً قول أبيها : طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به . أعرضت عن طيب الدنيا ، واستوى عندها الغنى والفقر ، والراحة والعناء ، والموت والحياة .. وعلمت ولدها الحسن دعاء يردده : الحمد الذي لا ينسى من ذكره ، ولا يخيب من دعاه ، ولا يقطع رجاء من رجاه » .

وإذن يحق للإمام أن تذهب نفسه أسى على بضعة رسول الله (ص) ويندبها بهذه الكلمة النائحة : « السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك) . روى البخاري في صحيحه باب علامات النبوة في الإسلام : ان النبي (ص) دعا فاطمة في شكواه الذي قبض فيه فبكت ، ولما أسرّ اليها بشيء ضحكت ، فسألتها عائشة عن بكائها ثم ضحكها ؟ فقالت : سارّني انه يقبض في مرضه هذا فبكيت ، ثم سارني اني أول أهل بيته أتبعه فضحكت .

(قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري ، ورق عنها تجلدي) . قوله :

« صفيتك » يشير الى مكانتها عند الله ورسوله ، قال الخطيب في تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٥٩ طبعة ١٣٤٩ هـ بمصر : « قال رسول الله : عليٌّ حبيب الله ، والحسن والحسين صفوة الله ، وفاطمة خيرة الله » . (عن كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة) .

(إلا أن في التأسي الخ) .. المصاب بفقد السيدة بضعة النبي (ص) عظيم وأليم على قلب الإمام ، ولكنه جلل اذا قيس بفقد رسول الله ، وقد صبر الإمام على هذا فبالأولى ان يصبر على ذاك . ومن أقواله : ان صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور ، وان جزعت جرى عليك القدر ، وأنت مأزور (فلقد وسدتك في ملحودة قبرك) كأنّ الإمام يقول بهذا لرسول الله : انه معه في عقله وروحه وجسمه بعد أن انتقل الى الرفيق الأعلى تماماً كما كان معه في حياته (وفاضت بين نحري وصدري نفسك) . تقدم في الخطبة ١٩٥ .

(فلقد استُرجعت الوديعة،وأخذت الرهينة) . المراد بالوديعة والرهينة السيدة أم الحسنين ، وكانت عند الإمام عوضاً عن رؤية رسول الله كما تكون الرهينة عوضاً عن الأمر الذي أُخذت عليه على حد ما قال ابن أبي الحديد (أما حزني فسرمد) دائم (وأما ليلي فمسهد) كناية عن شدة الآلام والاتراح التي تمنع من النوم .

(وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها الخ) . يشير بهذا الى قصة فدك ، ولفدك في التاريخ الاسلامي أدوار وأخبار ، وتتلخص بأن فدكاً قرية في الحجاز ، وكانت ملكاً لليهود ، فصالحوا رسول الله عليها ، ولما انتقلت اليه وهبها لابنته فاطمة . وعن كتاب « الدر المنثور » للسيوطي عند تفسير قوله تعالى: « وآت ذا القربى حقه — ٢٦ الإسراء » ان رسول الله (ص) دعا فاطمة ، وأعطاها فدكاً .. ولما قبض النبي انتزعها أبو بكر من فاطمة ، ولم يردها عمر في عهده لبضعة محمد (ص) ولما جاء عثمان وهبها لمروان بن الحكم ، وحين تولى عمر بن عبد العزيز ردها الى أولاد فاطمة ، وبعده انتزعها منهم يزيد بن عبد الملك . ثم ردها السفاح العباسي الى الفاطميين ، ثم أخذها منهم المنصور الدوانيقي وأرجعها اليهم المأمون ، وانتزعها منهم المتوكل ، وانتهى عهد الفاطميين بفدك .

(سلام مودع) لا قالٍ ولا مبغض (ولا سئم) لا ملول (وان أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين) إن اخترت المقام عند قبرك يا رسول الله فأقيم

عنده وأنا صابر وراض بقضاء الله طلباً لثواب الصابرين ، لا جازع ولا متبرم.
وقريب من هذا قول الرسول الأعظم (ص) عند موت ولده ابراهيم : « تدمع العين ، ويحزن القلب،ولا نقول إلا ما يرضي ربنا،وإنا بك يا ابراهيم لمحزونون».
وروي ان النبي (ص) بكى عند موت صاحبه عثمان بن مظعون .

وقال كاتب انكليزي: «نجد كثيراً من القصص تدل على دماثة محمد وحساسيته. فقد بكى على ابن عمه جعفر ، وأيضاً بكى حين رأى ابنة زيد بن حارثة تبكي على أبيها الذي قتل مع جعفر ، وفي ذات يوم رأى طفلاً حزيناً ، فسأله عن السبب فأجاب الطفل بأن بلبله قد مات . فبذل محمد كل جهده لتعزيته » .

الخطبة

- ٢٠١ -

الدنيا والآخرة :

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ . وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ . وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ . فَفِيهَا اخْتُبِرْتُمْ ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ . إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ . لِلَّهِ آبَاؤُكُمْ فَقَدِّمُوا بَعْضاً يَكُنْ لَكُمْ قَرْضاً وَلَا تُخَلِّفُوا كُلاً فَيَكُونَ فَرْضاً عَلَيْكُمْ .

اللغة :

المجاز : الممر . والقرار : البقاء .

الإعراب :

لله آباؤكم « لله » خبر مقدم،وآباؤكم مبتدأ مؤخر ، واللام الجارة تفيد التعجب، ويكن على الجزم بجواب الأمر ، فيكون على النصب بأن مضمرة بعد الفاء .

المعنى :

(انما الدنيا دار مجاز) هي طريق ، والغاية القيامة (والآخرة دار قرار) وخلود ، لا موت فيها ، ولا انتقال منها (فخذوا من ممركم) أي اعملوا في دنياكم (لمقركم) . سئل النبي (ص) عن أفضل الأعمال فقال : بذلُ السلام للعالم . وقال الإمام : بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد . ومن فضل الله ورحمته انه جعل مجرد حب الخير للناس وكف الأذى عنهم وسيلة لمرضاته وثوابه، قال رسول الله (ص) لأبي ذر : كف أذاك عن الناس ، فإنه صدقة تتصدق بها على نفسك (ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم) . اذا عملتم خيراً في السر فلا تنطقوا به وتعلنوه أمام الناس ، فإن الله يعلمه منكم ، ويثيبكم عليه . وقيل : معناه لا تتجاهروا بالمعصية !. وهو بعيد عن دلالة اللفظ .

(وأخرجوا من الدنيا قلوبكم الخ) .. أي من حرامها : « قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن – ٣٣ الأعراف » . (ففيها اختبرتم ، ولغيرها خلقتم) . خُلق الانسان للبقاء والخلود في الآخرة ، أما الدنيا فهي لمجرد الاختبار والتمييز بين من يستحق النعيم ومن يستحق الجحيم في دار الحساب والجزاء (إن المرء اذا هلك قال الناس : ما ترك) من حطام الدنيا .. وهذا شيء طبيعي ، لأنهم أبناء الدنيا ، وهي همهم وشغلهم (وقالت الملائكة: ما قدّم) وهذا طبيعي أيضاً ؛ لأنهم من أهل الآخرة ، ولا يمتون الى الدنيا بسبب .

(لله آباؤكم) . الآباء غير مقصودين على الاطلاق ، والقصد مجرد التعجب من انصراف المخاطبين عن الآجلة الباقية الى العاجلة الفانية (فقدموا بعضاً) من عمل الخير (يكن لكم قرضاً) أي ديّناً تستوفونه يوم لا ينفع مال ولا بنون . وفيه إيماء الى قوله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له – ٢٤٥ البقرة » . (ولا تخلفوا كلاً) لا تتركوا للوارث كل أموالكم دون أن تنفقوا منها شيئاً في سبيل الله (فتكون فرضاً عليكم) ان أنفقتم كان الدّين لكم ، وان أمسكتم كان الدين عليكم ، تُحاسبون عليه يوم القيامة،ولا تستطيعون الوفاء .

الخطبة

-٢٠٢-

تجهزوا للرحيل:

تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللهُ فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ . وَأَقِلُّوا ٱلعُرْجَـةَ عَلى الدُّنيَا . وَٱنْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَـةً كَؤُوداً ، وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً لَا بُدَّ مِنَ ٱلوُرُودِ عَلَيْهَـا وَٱلوُقُوفِ عِنْدَهَا . وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَلَاحِظَ ٱلمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ . وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ فِيهَا مُفْظِعَاتُ الأُمُـورِ وَمُعْضِلَاتُ ٱلمَحْذُورِ . فَقَطِّعُوا عَلَائِقَ الدُّنيَا ، وَٱسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَى .

اللغة:

العرجة — بضم العين — الإقامة . وانقلبوا : انصرفوا . وكؤود : شاقـة . ودانية : جادة . والمخالب : الأظفار . ونشبت : علقت . والمفظعات والمعضلات : الخطوب والشدائد . وعلائق : جمع علاقة أي التعلق والارتباط . واستظهروا : استعينوا .

الإعراب :

نحوكم نصب على الظرفية ، لأن النحو هنا بمعنى الجهة ، ويجوز النصب بنزع الخافض أي الى نحوكم .

المعنى :

هذه الخطبة في معنى التي قبلها بلا فاصل : التزهيد في الدنيا ، والترغيب في عمل الآخرة ، وتكرر ذلك بالعشرات ، ولذا نمر بهذة الخطبة مسرعين (فقد نودي فيكم بالرحيل) . الأصوات ملء الأسماع بأن الرحيل من هذه الحياة الى الآخرة — وشيك ، فاستعدوا لها (واقلوا العرجة على الدنيا) لا تحبسوا أعمالكم على الدنيا وحدها ، وتنسوا نصيبكم من الآخرة (وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد) . المراد بحضرتكم القدرة والاستطاعة ، والمعنى ما دمتم قادرين الآن على العمل فتزودوا بالأعمال الصالحات ليوم فاقتكم .

(فإن أمامكم عقبة الخ) .. وهي الموت وسكراته ، والقبر ووحشته ، والقيامة وأهوالها : « وان منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً — ٧١ مريم » . (واعلموا أن ملاحظ المنية نحوكم الخ) .. لا نجاة من الموت، انه لكم بالمرصاد، وكأن اظفاره قد علقت بأجسامكم وقلوبكم (فقطعوا علائق الدنيا) ازيلوا حبها من قلوبكم وانظروا اليها كوسيلة لا كغاية (واستظهروا بزاد التقوى) . استعينوا على عذاب الله بتقواه ، فلا مهرب منه إلا اليه .

الخطبة

-٢٠٣-

مع طلحة والزبير .. فقرة ١ — ٢ :

لَقَدْ نَقِمْتُمَا يَسِيراً وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيراً . أَلاَ تُخْبِرَانِي أَيُّ شَيْءٍ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ ، وَأَيُّ قَسْمٍ اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ ، أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ أَمْ جَهِلْتُهُ ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ . وَاللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلاَفَةِ رَغْبَةٌ ، وَلاَ فِي الْوِلاَيَةِ إِرْبَةٌ . وَلٰكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا . فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ ، وَمَا اسْتَسَنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَاقْتَدَيْتُهُ . فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذٰلِكَ إِلَى رَأْيِكُمَا وَلاَ رَأْيِ غَيْرِكُمَا ، وَلاَ وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ فَأَسْتَشِيرَكُمَا وَإِخْوَانِي الْمُسْلِمِينَ ، وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا وَلاَ عَنْ غَيْرِكُمَا[1] . وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الأُسْوَةِ فَإِنَّ ذٰلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي وَلاَ وَلِيتُهُ

هَوىً مِنِّي . بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ ، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْكُمَا فِيمَا فَرَغَ اللهُ مِنْ قَسْمِهِ وَأَمْضَى فِيهِ حُكْمَهُ . فَلَيْسَ لَكُمَا وَاللهِ عِنْدِي وَلَا لِغَيْرِكُمَا فِي هٰذَا عُتْبَى . أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الحَقِّ ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ . (ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ) رَحِمَ اللهُ امْرَءاً رَأَى حَقّاً فَأَعَانَ عَلَيْهِ ، أَوْ رَأَى جَوْراً فَرَدَّهُ وَكَانَ عَوْناً بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ(٢) .

اللغة :

إربة : حاجة وغاية . وأفضت : صارت . والأسوة : القدوة ، ومراد الإمام اتباع سنّة النبي (ص) ويجوز أن يريد التسوية في قسمة الأموال . والعتبى: الرجوع عن الإساءة وطلب الرضا ممن أسأت اليه .

الإعراب :

أي شيء مبتدأ ، وجملة دفعتكما خبر ، ولكما فيه حق مبتدأ وخبر ، والجملة صفة شيء . وفي بعض النسخ كان لكما فيه حق ، وعليه فإن في «كان» ضميراً مستتراً اسماً لكان ، وجملة لكما فيه حق خبر ، والجملة من كان واسمها وخبرها صفة شيء ، وأنا تأكيد ، وهوى مفعول من أجله لوليته .

المعنى :

(لقد نقمتما يسيراً ، وأرجأتما كثيراً) . الخطاب لطلحة والزبير ، والمراد باليسير الذي غضبا من أجله المصلحة الخاصة ، وبالكثير الذي تجاهلاه مصلحة الإسلام والمسلمين ، والمعنى ان طلحة والزبير أثارا الفتن ، وسفكا الدماء، وأضاعا

هيبة الإسلام ، وقوة المسلمين ، كل ذلك لأن الإمام لم يعط البصرة لطلحة ، والكوفة للزبير ، وساوى بينهما وبين المسلمين في الحقوق .

وفيما سبق أشرنا أن الصحابة كانوا يختلفون فيما بينهم ، ولكن ما من واحد منهم حدث نفسه أن يخرج على الجماعة ويشهر السيف حرصاً على مصلحة الإسلام.. فقد كان الإمام وحزبه يرون انه أحق الناس بالخلافة ، وعارضوا من سبقه من الخلفاء ، ولكن بهدوء ، وبالحجة لا بالسيف خوفاً من الفتنة وعواقبها ، قال سبحانه : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ــ ٢٥ الأنفال » . وفي صحيح البخاري كتاب الفتن عن رسول الله : « لا ترتدّوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض .. من خرج من السلطان مات ميتة جاهلية » . ولكن أصحاب الجمل وصفين يريدون الحكم والاستئثار ولو على دين الجاهلية .

(ألا تخبراني أي الخ) أي حق استهنت به خاصاً كان أم عاماً ؟ صحيح اني ملكت دونكما وقسّمت،ولكن هل استأثرت بشيء أو آثرت أحداً من أهلي دون الناس ؟ ألا تريان اني أقدر نفسي وأهلي بضَعَفَة الرعية،أو تريانني جاهلاً بدين الله ، أو حرّفته استجابة للأهواء والأغراض ؟

وقد أجاب التاريخ عن هذه التساؤلات . قال الكاتب المصري أحمد عباس صالح في كتاب اليمين واليسار ص ١١٨ طبعة سنة ١٩٧٢ : « ان طلحة والزبير لم يظهرا حقيقة مقصدهما من خلع البيعة لعلي ، فهما قد خلعاها لأمرين : الأول لطمعهما في الخلافة . الثاني لإبقاء الأوضاع الاجتماعية القائمة » أي في عهد عثمان. وقال في ص ١١٧ : « ثار طلحة والزبير بعلي لطمعهما في الخلافة ، وانهما يكرهان أيضاً ما يتصوران أنه مغالاة في تطبيق المبادىء الاسلامية » .

(والله ما كانت لي في الخلافة رغبة الخ) .. أراد المسلمون علياً بعد مقتل عثمان ، وقصدوه بالبيعة فتوقف ، وقال : انا لكم وزيراً خير مني أميراً . وظلت الخلافة شاغرة ٥ أيام وقيل ٨ . وبعد إلحاح وإصرار المهاجرين والأنصار ومن حضر من غيرهم ــ استجاب الإمام . وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً في شرح الخطبة ٩٠ ج ٢ ص ٤٩ . (فلما أفضت إليّ نظرت الى كتاب الله الخ).. كان الإمام هو الصراط القويم للعلم بكتاب الله وسنّة نبيه بشهادة العديد من الأحاديث النبوية ، من ذلك :

١ ـ « أنا مدينة العلم ، وعلي بابها » روى هذا الحديث الحاكمُ في مستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٢٦ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢٤ ﻫ ، والخطيب في تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٢٧ طبعة مصر سنة ١٣٤٩ ﻫ ، وابن حجر في تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٢٣٠ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢٥ ، والحافظ في الرياض النضرة الطبعة الأولى بمصر . وغـير ذلك من الكتب (انظر ج ٢ فضائل الخمسة من الصحاح الستة) .

٢ ـ « علي مع القرآن ، والقرآن مع علي » . رواه ابن حجر في صواعقه المحرقة ص ٧٥ طبعة مصر سنة ١٣١٢ ﻫ ، والحاكم في المستدرك ج ٣ ص ١٢٤ .

٣ ـ جاء في تاريخ بغداد ج ٤ ص ١٥٨ أنه قيل : يا رسول الله عمن نأخذ العلم ؟. فقال عن علي وسلمان . (الجزء الثاني من فضائل الخمسة) .

وقد شاع واشتهر ان الصحابة كانوا بعد النبي (ص) يرجعون الى الإمام في مهمات الشريعة . وعلى سبيل المثال ان أبا بكر سئل عن حكم المأبون ، فرجع فيه الى الصحابة ، وما وجد الجواب إلا عند الإمام ، فعمل به . نقل هذا صاحب « فضائل الخمسة » عن كنز العمال ج ٣ ص ٩٩ . واشتهر عن الخليفـة الثاني قوله : «لولا علي لهلك عمر .. أعوذ بالله أن أعيش في قوم ليس فيهم أبو الحسن» ، وجاء في موطأ مالك : ان عثمان أخذ بقول علي في طلاق المريض ، وفي أقل مدة الحمل .. حتى معاوية كان يسأل الإمام عن أحكام الشريعة . روى هذا صاحب « فضائل الخمسة » عن موطأ مالك ، وفي كتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر : إن معاوية لما بلغه قتل الإمام قال : ذهب العلم والفقـه بموت ابن أبي طالب . فقال له أخوه عتبة : لا يسمع منك هذا أهل الشام . فقال له : دعني عنك .

واذا كان الإمام هو المرجع الأول في العـلم بعد رسول الله (ص) .. حتى لمعاوية ـ فهل يحتاج الى مشورة طلحة والزبير ؟. وقد اشتهر عنه قوله : « سلوني قبل أن تفقدوني » . وما تجرأ على مثلها أحد من الصحابة ، ولولا إجماع الكلمة على علمه لسكت عنها تجنباً للريب والتهمة .

(وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة الخ) .. ساوى النبي (ص) في العطاء بين المسلمين ، ومثله فعل أبو بكر من بعده ، وخالفهما عمر وعثمان ، ولمـا انتهت الخلافة الى الإمام عاد الى سيرة رسول الله (ص) فعارض طلحة والزبير وأصحاب المراكز الممتازة ، عارضوا لا من وجهة اقتصادية وكفى ، بل كرهاً لمبدأ المساواة ،

لأن التقسيم بالسوية معناه ان علياً ينفذ سنّة النبي في تساوي البشر في جميع الحقوق، فلا فضل لعربي ، ولا لقرشي، ولا لصحابي إلا بالتقوى وإلا يوم القيامة حيث الحساب والجزاء ، لا في الدنيا .. وهذا هو الهدم والتهديد لنفوذ طلحة والزبير وغيرهما من «الشامخين» وكان عمر قد خوّفهم وحذّرهم من ولاية علي بقوله : « إن وليها الأجلح ليحملنكم على المحجة البيضاء والصراط المستقيم» . وفي كتاب « اليمين واليسار في الاسلام » : « كان علي يطلب من كل مسلم أن يكون على طراز رسول الله ، أو على طرازه هو حتى يتحقق الاسلام في صورته المثلى » .

(فليس لكما والله عندي ، ولا لغيركما في هذا عتبى) . هذا إشارة الى العدل والمساواة ، والعتبى الرضا ، والمعنى ان الإمام على بصيرة من دينه يمضي فيه ، ويصر عليه ، ولا يسخط الله برضا الناس مهما كانت الظروف والنتائج (رحم الله رجلاً رأى حقاً الخ) .. لا خير فيمن لا يقاوم الفساد والجور ، ولا يناصر الحق والعدل . قال رسول الله (ص) : من رأى منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » .

وتسأل : إن تقديم اليد على اللسان يتنافى مع هو معروف شرعاً وعقلاً وعرفاً من تقديم اللسان على اليد حيث يجب أولاً النهي عن المنكر ،فإن لم يجد فالحرب ؟

الجواب :

فرق بعيد بين تغيير المنكر ، وبين النهي عنه ، فإن النهي في الغالب يكون قبل الوقوع ، فهو أشبه بالوقاية ، أما تغيير المنكر فيكون بعد وقوعه،وموضوع الحديث الشريف تغيير ما وقع بالفعل من المنكر ،لا النهي عن ارتكابه قبل الوقوع.

الخطبة

- ٢٠٤ -

لا تكونوا سبابين :

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ ، وَلٰكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ كانَ أَصْوَبَ فِي ٱلقَوْلِ وَأَبْلَغَ فِي ٱلعُذْرِ ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ : اللَّهُمَّ ٱحْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ ، وَٱهْدِهِمْ مِنْ ضَلاَلَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ وَيَرْعَوِيَ عَنِ ٱلغَيِّ وَالعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ .

اللغة :

ذات الشيء نفسه ، وذات الصدور بواطنها ، وذات الشمال جهتها ، وذات البين الحال ، وهذا المعنى هو المراد هنا أي أصلح حالنا وحالهم ، ويرعوي عن الشيء : ينصرف عنه ويرجع ، ولهج به : ولع به .

الإعراب :

سبكم من اضافة المصدر الى فاعله ، وإياهم مفعول سبكم ، وذات مفعول به

لأصلح ، لأنها بمعنى الحال كما أشرنا ، وبيننا مجرور بالإضافة ، ويعرف منصوب بأن مضمرة بعد حتى .

المعنى :

قال الشريف الرضي: سمع الإمام قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشام أيام حربهم بصفين فقال : (اني أكره لكم أن تكونوا سبابين) . قال أكثر العلماء : لا يحل لأحد أن يذكر آخر بجريمة اقترفها إلا إذا أعلنها المجرم ، وجاهر بها غير مكترث بما قيل ويقال . وعن الإمام جعفر الصادق (ع) : « إذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له ولا غيبة » . أما السب واللعن فهو محرم بالذات ، ومن أكبر الكبائر بخاصة على الطيبين الأخيار .. ولا يحل على أحد بحال إلا بالإذن والترخيص من صاحب الدين والشرع ، وقد أذن بذلك في موارد ، منها :

١ — اللعنة على إبليس ، قال تعالى : « وان عليك اللعنة إلى يوم الدين — ٣٥ الحجر » .

٢ — كل من يكتم الحق ، أو يحرفه عن قصد ، قال سبحانه : « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون — ١٥٩ البقرة » .

٣ — كل منافق دجال ، قال عز من قائل : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض — الى — ملعونين أينما ثقفوا — ٦١ الأحزاب » .

٤ — المفسدون ، قال عظمت كلمته : « ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار — ٢٥ الرعد » . وبخاصة إذا كان الفساد بالظلم حيث خص سبحانه الظالمين باللعن صراحة : « إلا لعنة الله على الظالمين — ١٨ هود » .

وليس من شك ان أهل صفين ظلموا وأفسدوا في الأرض ، وقد نعتهم النبي (ص) بالفئة الباغية ، ولذا جاز قتالهم ، فيجوز سبهم بطريق أولى . وعلى هذا فنهيُ الإمام هنا محمول على ان الترك أولى ، وان غير السب أفضل وأجدى ، وهو ما أشار اليه بقوله: (ولكنكم لو وصفتم أعمالهم الخ) .. وهذا الذي ذكره الإمام بالغ الأهمية والأثر ، وهو من أحدث أساليب الحرب في العصر الحديث ، ويُسمى بالحرب الدعائية ، وهي اقناع الرأي العام بأن الخصم هو الباغي والمعتدي ،

وانه لا يقيم وزناً للقوانين الدولية ، ولا للقيم الانسانية .. وقد ضرب المستعمرون والصهاينة الرقم القياسي في الدعايات الكاذبة ، وتلاعبوا بالألفاظ والعقول والحقائق.. انهم يعتدون ويقولون : نحن المعتدى عليهم ، ويقتلون بالجملة ويقـولون : نحن أنصار السلم والعدل .

وقد أثبتت التجارب ان أية قضية مهما كانت حقاً وعدلاً فإنها تحتاج الى الدعاية والدعاة ، لأن التأثير النفسي من قوى التنفيذ للحق وإبطال الباطل، وهذا ما أراده الإمام بقوله : (وأبلغ في العذر) أمـا قوله : (كان أصوب في القول) فإنه يشير الى وجوب الأخذ بالعدل والإنصاف حتّى مع أعدى الأعداء ، وانه لا يحل الافتراء عليه بما هو بريء منه عملاً بقوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى – ٨ المائدة » .

(اللهم احقن دماءنا ودماءهم الـخ) .. المؤمن المخلص يكظم غيظه ، ولا يشفيه بالانتقام من عدوه ، والتنكيل به ، ويسأل الله سبحانه أن يصلح الحال ، ويزيل ما في نفس العدو من أوهام وأضغان ، وأن يهديه سبيل الخير والرشاد . كما قال الرسول الأعظم (ص) : اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون . وأيضاً هذا الدعاء من الدعاية الحكيمة العادلة ضد العدو والخصم .

الخطبة

- ٢٠٥ -

نسل رسول الله (ص) :

امْلِكُوا عَنِّي هٰذَا ٱلْغُلاَمَ لاَ يَهُدَّنِي ، فَإِنَّنِي أَنْفَسُ بِهٰذَيْنِ (يَعْنِي الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ) عَلَى الْمَوْتِ لِئَلَّا يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

اللغة :

املكوا عني : خذوا عني . وأنفس بهذين : أبخل بهما .

الإعراب :

لا يهدني – بفتح الدال – على نصب المضارع ، لأن الأصل لئلا يهدني .

المعنى : .

قال الشريف الرضي: في بعض أيام صفين رأى الإمام ولده الحسن (ع) يسرع الى

الحرب فقال لأصحابه : (املكوا عني هذا الغلام الـخ) .. الحسن والحسين هما ابنا رسول الله شرعاً لا عرفاً ، لقوله تعالى : « فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ــ ٦١ آل عمران » وما دعا النبي (ص) أحداً من الأبناء غير الحسن والحسين ، ومن النساء غير فاطمة ، وما كان من الأنفس إلا هو والإمام باتفاق المفسرين . وقال (ص) : « كـل ولد آدم فإن عصبتهم لأبيهم خلا ولد فاطمة ، فإني أنا أبوهم وعصبتهم » . وتقدم الكلام عن ذلك في شرح الخطبة ٢٠٠ فقرة : فاطمة .

وتسأل : إن الإمام الحسن وُلد في شهر رمضان المبارك سنة ثلاث من الهجرة ووقعة صفّين كانت سنة ٣٦ فيكون عمره الشريف ٣٣ فكيف أطلق الإمام عليه كلمة غلام ؟.

الجواب :

جاء في قواميس اللغة ان كلمة غـلام للكبير والصغير ، وان العرب يطلقونها على الذكر ساعة ولادته ، ويقولون : رُزق فلان غلاماً ، وعلى من طر شاربه وعلى الكهل .

الخطبة

-٢٠٦-

كنت أميراً فأصبحت مأموراً:

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّـــهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلى مَا أُحِبُّ حَتَّى نَهِكَتْكُمُ الْحَرْبُ ، وَقَدْ وَاللهِ أَخذَتْ مِنْكُمْ وَتَرَكَتْ ، وَهِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَكُ . لَقَدْ كُنْتُ أَمسِ أَمِيراً فَأَصْبَحْتُ اليَوْمَ مَأْموراً . وَكُنْتُ أَمسِ نَاهِياً فَأَصْبَحْتُ اليَوْمَ مَنْهِيّاً . وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ البَقَاءَ وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحمِلَكُمْ عَلى مَا تَكْرَهُونَ .

المعنى:

في كتاب «الإمامة والسياسة» لابن قتيبة ص ١١٨ طبعة ١٩٥٧ ما نصه بالحرف: « لما عظم الأمر — أي في صفين — واستحر القتال قال للإمام رأس من أهل العراق : ان هذه الحرب قــد أكلتنا ، وأذهبت الرجال ، والرأي الموادعة ، وقال بعضهم : لا ، بل نقاتلهم اليوم على ما قاتلناهم بالأمس ، وكانت الجماعة قــد رضيت ، وجنحت الى الصلح والمسالمة ، فقام علي خطيباً فقــال الخ .. وذكر ابن قتيبة هذه الخطبة كما هي في نهج البلاغة بلا تقليم أو تطعيم .

(أيها الناس انه لم يزل أمري معكم على ما أحب) . كنتم صفاً واحداً على حرب أهل الشام ، كما أحببت وأردت ، ومضيتم في قتالهــم على هدى وبصيرة مختارين لا مكرهين ، ولما اشتدت نار الحرب وهنتم وتخاذلتم ، وتفرقت كلمتكم .. أبهذا تكيدون عدو الله وعدوكم ؟ (وقد والله أخذتْ منكم وتركت) . أجل ، لقد استشهد منكم في هذه الحرب من استشهد كأية حرب من الحروب ، ولكن بقي منكم ما فيه الكفاية وزيادة ، فامضوا في الجهاد قدماً حتى النصر ، وما هو منكم ببعيد (وهي لعدوكم أنهك) أي نالت الحرب منه أكثر مما نالت منكم .

(لقد كنت أمس أميراً) تسمعون لي وتطيعون قبل حرب صفّين (فأصبحت اليوم – أي بعد الحرب – مأموراً الخ) .. كان الإمام ينصح أصحابه،ويرشدهم سواء السبيل ، ويدع الخيار لهم فيما يرون ، وقد نهاهم عن قبول التحكيم،وبيّن لهم ان رفع المصاحف حيلة وغيلة ، فأصروا على الضلال،وسكت هو دفعاً للضرر الأشد بالضرر الأخف . وسبق الكلام عن ذلك مراراً ، منها في الخطبة ١٢٠ .

(وقد أحببتم البقاء) وما أحب الحياةَ قوم إلا ذلّوا (وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون) لأن الجهاد فريضة كالصلاة وعلى الانسان أن يؤديها بملء إرادته. بالإضافة الى ان القتال بلا ايمان وقناعة لا يحقق الغرض المطلوب ، وربما أدى الى عكسه . وهذه هي سيرة رسول الله (ص) في جميع حروبه ، ينادي مناديه بالحرب ، فمن استجاب لها فقد استجاب لله ورسوله ، ومن تخلف عنها وأعرض فحسابه على ربه : « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ، يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال – ٦٤ الأنفال » .

الخطبة

- ٢٧ -

العلاء وأخوه عاصم :

مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسِعَةِ هٰذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا . وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ ، وَبَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ ، وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ . يَا عُدَيَّ نَفْسِهِ لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ ، أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ . أَتَرَى اللهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا ؟ أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ ذٰلِكَ . وَيْحَكَ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ ، إِنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ .

اللغة :

تُطلع : تُظهر أو تؤدي . ومطالعها : مواضعها . ويقدّر : يقيس أو يُشبه . ويتبيغ : يهيج به .

الإعراب :

ما للاستفهام مبتدأ ، وكنت زائدة ، وجملة تصنع خبر المبتدأ ، وويحك كلمة ترحّم ، ونُصبت بفعل محذوف أي ألزمك الله ويحاً أي رحمة ، وتستعمل للتوجع والتعجب ، وكأنت الكاف بمعنى مثل خبراً لليس أي لست مثلك .

لا سلبية في الاسلام

قال الشريف الرضي : كان الإمام بالبصرة ، فدخل على العلاء بن زياد الحارثي يعوده ، وهو من أصحابه ، فلما رأى سعة داره قال : (ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا الخ) .. الانسان يحب الحياة والمال بطبعه ، والاسلام لا ينهى عن الثراء المشروع ، ولا يكره الرفاهية والطيبات من الرزق : « قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق – ٣٢ الأعراف » شريطة أن يكون هذا الثراء عوناً على الحق ، ووسيلة لمرضاة الله وثوابه ، لا للطغيان والمضاهاة والمباهاة . قال رسول الله (ص) : من طلب الدنيا مكاثراً مفاخراً لقي الله، وهو عليه غضبان ، ومن طلبها استعفافاً وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة، ووجهه كالقمر ليلة البدر . وقال رجل للإمام جعفر الصادق (ع) : اني أحب الدنيا . قال : تصنع بها ماذا ؟ قال : أتزوج منها وأحج وأنفق على عيالي وأنيل اخواني وأتصدق. قال الإمام : ليس هذا من الدنيا ، هذا من الآخرة . وتقدم الكلام عن ذلك في شرح الخطبة ٩٧ .

وأيضاً يأمر الإسلام بالعلم والعمل ، وممارسة الحياة بحلوها ومرها ، ومشاركة المجتمع في سرائه وضرائه ، والتعاون من أجل حياة أفضل ، وإقامة العلاقات على هذا الأساس ، ومقاومة الفساد والمنكر ، قال تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » » والسعي حركة لا جمود ، ونضال لا اعتزال من أجل العبادة ، بل تعاون من أجل الصالح العام ، ومساهمة في تحمل المسؤولية . قال رسول الله (ص) : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . وقال : « الدين النصيحة لله ورسوله ولعامة المسلمين .. من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » . بهذه التعاليم وغيرها كان للمسلمين تاريخ وحضارة .

قال العلاء : يا أمير المؤمنين أشكو اليك أخي عاصم . قال : وماله ؟ قال لبس العباءة وتخلى عن الدنيا . قال عليّ به . فلما جاء قال الإمام : (يا عُدي نفسه) بضم العين تصغير عـدو (لقد استهام بك الخبيث) أزلك الشيطان ، وجعلك هائماً لا تهتدي الى رشد (اما رحمت أهلك وولدك الخ) ؟ كيف تقعد عن السعي والعمل ، وأنت مسؤول أمام الله عن أسرتك ومجتمعك ؟ وهل منحك سبحانه القدرة والعقل:وأودع فيك ما أودع من الطاقات لمجرد أن تلبس العباءة وتقيم الصلاة ؟ وهل تستقيم الأمور ، وتمتلىء البطون ، وتسكن النفوس بهـذا الجمود،وهذه السلبية ؟ وهل تدفع منكراً ، وتنشر معروفاً بهذا الخمول والانزواء ؟

قال عاصم : يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونـة ملبسك وجشوبة مأكلك . قال الإمام : (ويحك،اني لست كأنت الخ) .. على القائد أعباء قاسية وجسيمة، وأولها إقامة العدل والمساواة بين الناس في السراء والضراء على أن يبدأ القائد بنفسه وأهله .. وان وُجد فقير واحـد في رعيته عمل لـدفع المضرة عنه ، وان عجز شاركه في مكاره العيش لئلا يزداد ألمـاً على ألم ، أو يعيبه ويعيره ببلواه عائب ومعير ما دامت هذه هي حال الخليفة ودنياه .

وإذن فخشونة الإمام في عيشه جزء من جهاده وعمله من أجل الفقراء والمستضعفين، وفضيلة من فضائل القادة والحاكمين ، أما خشونة عـاصم وأمثال عاصم فجمود وانهزام .

وتجدر الإشارة الى أن صاحب « منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة » كتب حول هذه الخطبة ٣٦٥ صفحة بقياس كتابي هذا !. وكان الأجدر أن يفردهـا في كتاب مستقل عن الصوفية .

الخطبة

-٢٠٨-

الأحاديث .. فقرة ١ – ٤ :

إنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَبَاطِلاً . وَصِدْقاً وَكَذِباً . وَنَاسِخاً وَمَنْسُوخاً وَعَامًّا وَخَاصًّا . وَمُحْكَماً وَمُتَشَابِهاً . وَحِفْظاً وَوَهْماً . وَلَقَدْ كُذِبَ على رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلى عَهْدِهِ حَتَّى قَامَ خَطِيباً فَقَالَ : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »(١) .

وَإنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ : رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلْإِيمَانِ ، مُتَصَنِّعٌ بِالْإِسْلَامِ لَا يَتَأَثَّمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ ، يَكْذِبُ عَلى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُتَعَمِّداً ، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ ، وَلٰكِنَّهُمْ قَالُوا صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَأَى وَسَمِعَ مِنْهُ وَلَقِفَ عَنْهُ فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ ،

وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ ، ثُمَّ بَقُوا بَعْـدَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ السَّلاَمُ فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَئِمَّةِ الضَّلاَلَةِ وَالدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ ، فَوَلَّوْهُمُ الأَعْمَالَ وَجَعَلُوهُمْ حُكاماً عَلى رِقَابِ النَّاسِ ، وَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنيَا . وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالدُّنْيَا إِلاَّ مَنْ عَصَمَ اللهُ فَهُوَ أَحـدُ الأَرْبَعَةِ[٢] .

وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلى وَجْهِهِ فَوَهِمَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِباً فَهُوَ فِي يَدَيْهِ وَيَرْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ وَيَقُولُ أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّـهُ وَهِمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْـهُ ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذلِكَ لَرَفَضَهُ . وَرَجُـلٌ ثَالِثٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ ثُمَّ نَهَى عَنْـهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ ، فَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ ، وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ[٣] . وَآخَـرُ رَابِعٌ لَمْ يَكْـذِبْ عَلى اللهِ وَلَا عَلى رَسُولِهِ ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ اللهِ وَتَعْظِيماً لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَمْ يَهِمْ ، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلى وَجْهِهِ ، فَجَاءَ بِهِ عَلى مَا سَمِعَهُ لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْـهُ ، فَحَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِـهِ ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ ، وَعَرَفَ الْمُتَشَابِهَ وَمُحْكَمَهُ[٤] .

اللغة :

لا يتأثم ولا يتحرج : لا يتجنب الإثم والحرج . ولقف : تناول بسرعة . ولم يهم : من الوهم لا اليهْم أي الجنون . والمحكم الواضح . والمتشابه : المشكل .

الإعراب :

خطيباً حال ، ومثله متعمداً ، ورجل وما بعده من الرجال الى الرابع بدل مفصل من مجمل ، والمبدل منه أربعة ، ومبغض صفة لرابع ، وخوفاً مفعول من أجله للفعل المنفي ، وهو لم يكذب .

المعنى :

(إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً الخ) .. اتفق السنة والشيعة ان أحاديثهم المروية عن رسول الله (ص) — فيها الضعيف والصحيح ، ومن هنا وضعوا عشرات الكتب في علم الرجال ، وهو يبحث عن حال كل واحد من رواة الحديث على حدة ، وانه هل هو ثقة في النقل أو غير ثقة ؟ وأيضاً وضعوا كتباً في علم الدراية، ويبحث هذا العلم عن صفة الحديث من حيث المتن والسند والتواتر وعدمه، والإرسال وغيره .. الى غير ذلك مما هو مذكور في كتب الدراية .

(وناسخاً ومنسوخاً ، وعاماً وخاصاً ، ومحكماً ومتشابهاً) ذكرنا تحديد معاني هذه الكلمات في شرح الخطبة الأولى ج ١ ص ٦٥ (وحفظاً ووهماً) . والمراد بالحفظ ضبط الحديث كما هو عن رسول الله (ص) وعدم الخطأ فيه والذهول ، والوهم ضده (من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار) . لا ريب في هذا الحديث باتفاق المذاهب . وكان النفاق والكذب على الله وملائكته ورسله ، وعلى الناس ، بل وعلى نفس الكاذب، كان قبل النبي (ص) وبعده .. والى آخر يوم . وقال قائل : « إن الانسان هو الحيوان الذي يستطيع أن يكذب » .

ثم قسّم الإمام رواة الحديث الى أربعة أقسام :

١ — (رجل منافق مظهر للإيمان متصنع بالاسلام الخ) . والمتصنع هو الذي

يُظهر من نفسه ما ليس فيه ، وكان المنافقون يكفرون بالله ورسوله، ويستخفّون بكفرهم هذا ، ويقولون بألسنتهم : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ليعصموا دماءهم وأموالهم ، وقد أنزل الله فيهم سورة خاصة في كتابه العزيز ، واستمروا بعد النبي (ص) على النفاق ، وكان المسلمون يعاملونهم كسائر الصحابة المؤمنين جهلاً بدخيلتهم ، ويرجعون اليهم في الكثير من أمور دينهم ، ومن ارتاب بواحد منهم يسكت ولا يجرأ على الطعن فيه ، لأنه يتحصن بصحبة رسول الله (ص) وبقيت هذه الحصانة لجميع الصحابة عند السنة الى يومنا هذا . قال الغزالي في المستصفى : « ان عدالة الصحابة معلومة » وتكررت هذه الجملة في العديد من كتب أصول الفقه للسنة .

(فتقربوا الى أئمة الضلالة) . كان المنافقون وما زالوا يكيفون الدين وأحكامه وفقاً لأهواء الأقوياء والحاكمين ، ويقبضون الثمن وظيفة في الدولة ، أو دراهم معدودات .

٢ – (ورجل سمع من رسول الله شيئاً لم يحفظه على وجهه الخ) .. قال علماء المسلمين : يشترط في راوي الحديث من جملة ما يشترط أن يكون من الذين يحسنون ضبط ما يسمعون ويؤدونه على وجهه ، ولا ثقة بقول من لا يحسن الضبط وان لم يكن فاسقاً .

٣ – (ورجل ثالث سمع من رسول الله (ص) شيئاً يأمر به ، ثم انه نهى عنه الخ) .. كان رسول الله (ص) يبلّغ بعض الأحكام ، فيسمعه من كان حاضراً ، وقد يكون الحاضر السامع صادقاً واعياً لما سمع ، ولكن الرسول قد ينهى عما كان قد أمر به من قبل ، لأن المصلحة التي أوجبت العمل قد انتهت وذهبت بذهاب وقتها ، فيسمع النهيَ من حضر غير الذي سمع الأمر ، فينقل عن النبي النهي من سمعه ، وينقل الأمر من سمعه أيضاً ، والإحاطة بجميع أحاديث الرسول (ص) أمر عسير .

٤ – (وآخر رابع لم يكذب على الله الخ) .. هذا الرابع عالم قدير كما هو راوٍ ثقة وخبير ، يميز بين موارد الحقيقة والمجاز ، وبين الحديث الواضح الذي لا يجوز تأويله بحال ، والمشكل الذي يمكن تأويله بما يتفق مع العقل ومقاصد الشريعة ، ويعرف العمومات والمطلقات ، وما يعارض المعنى الظاهر من المخصصات

والمطلقات ، ويجمع بينها بما يقتضيه الفن والصناعة ، وأيضاً يعرف زمن الناسخ وزمن المنسوخ ، ولا يخلط بين المتقدم والمتأخر ، ويضع كل شيء في موضعه .

ولا يجوز الأخذ والعمل برواية الأول والثاني اطلاقاً ، وأما الثالث فيؤخذ بروايته نظرياً إذا كان صادقاً ضابطاً ، ولا يجوز الأخذ بها عملياً إلا بعد التتبع والبحث عما يعارض الرواية من الأدلة والقرائن ، فإن لم نجد المعارض عملنا بها كما هي ، وإلا قارنا بينها وبين المعارض ، وعملنا بما تستدعيه الأصول والقواعد، والرابع كالثالث ، ولا أثر للعلم وكثرته في صحة الحديث وقوته .

كلام ذو وجهين .. فقرة ٥ :

وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْكَلامُ لَهُ وَجْهَانِ : فَكَلاَمٌ خَاصٌّ وَكَلاَمٌ عَامٌّ ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لاَ يَعْرِفُ مَا عَنَى اللهُ بِهِ وَلَا مَا عَنَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ وَيُوَجِّهُهُ عَلى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ وَمَا قُصِدَ بِهِ وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ . وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُهُ حَتَّى أَنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِئُ فَيَسْأَلَهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ حَتَّى يَسْمَعُوا . وَكَانَ لاَ يَمُرُّ بِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إلاَّ سَأَلْتُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ . فَهٰذِهِ وُجُوهُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلاَفِهِمْ وَعِلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ(٥) .

الإعراب :

قد كان يكون « كان » زائدة ، و « يكون » تامة والكلام فاعلهـا ، ومن الرسول متعلق بمحذوف حالاً من الكلام ، ويجوز أن تكون ناقصة ، والكـلام اسمها ، ومن الرسول خبرها ، وله وجهان مبتدأ وخبر ، والجملة صفة الكلام ، وحتى إن كانوا « إن » مخففة مهملة ، واللام بعدها للفرق بينها وبين إن النافية .

المعنى :

(وقد كان يكون من رسول الله (ص) الكلام له وجهان الخ) .. ربما يكون بل كثيراً ما يكون للجسم الطبيعي جهتان تختلف إحداهما عن الأخرى أشد الاختلاف حتى لو أخذتَ لكل جهة صورة على حدة ، ثم عرضتها على أي انسان لتوهم انهما صورتان لكائنين مختلفين ، وما هما في الواقع إلا لكائن واحد من جهتين .

ومن الكلام ما هو قطعي الدلالة مثل لا إله إلا الله .. وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه . وليس لهذا النوع إلا وجه واحد . ومن الكـلام ما هو ظني الدلالة ، وهذا النوع يمكن أن يكون له وجهان أو أكثر كقوله تعالى : « اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين — ٦ المائدة » فقد عطف السنةُ الأرجلَ على الوجوه فأوجبوا غسلها ، وعطفها الشيعة على الرؤوس فأوجبوا مسحها . ولكلٍ دليله ، وعرضنا الدليلين في كتاب فقه الإمام الصادق (ع) .

وفي كلام الله ورسوله الكثير من هذا النوع (فيحمله السامع ، ويوجهه على غير معرفة بمعناه) . يسمع الكـلامَ من المعصوم ، ولا يفطن لمراده ، لأن له وجهـين ، فيفسره بغير الوجه المـراد ، وكان عليه أن يتهم نفسه ، ويسأل النبي (ص) عما أراد من قوله ، ولكن (ليس كـل أصحاب رسول الله (ص) من كان يسأله) هيبة لعظمته ، أو حرصاً على راحته (حتى ان كانوا ليحبون أن يجيء الأعرابي والطارىء فيسأله حتى يسمعوا) . انهـم يشعرون بالحاجة الى تعلُّم العلم من النبي ، ولكنهم يكفّون بعض الأحيان عن سؤاله لما أشرنا ، ويتمنون أن يأتي من يفتح لهم الباب .

على العكس من الإمام فإنه كما قال : (وكان لا يمر بي من ذلك شيء إلا سألته عنه وحفظته) . قال الطبري في تفسيره ج ٢٩ ص ٣٥ طبعة بولاق بمصر سنة ١٣٢٣ هـ. : « إن رسول الله قال : يا علي ان الله أمرني أن أدنياك ولا أقصيك ، وأن أعلمك وأن تعي ، وحق على الله أن تعي » . فنزلت هذه الآية : « وتعيها اذن واعية » .

الخطبة

- ٢٠٩ -

حول الكون :

وَكَانَ مِنَ اقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ يَبَساً جَامِداً . ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمٰوَاتٍ بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ ، وَقَامَتْ عَلى حَدِّهِ . وَأَرْسَى أَرْضاً يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُثْعَنْجَرُ وَالْقَمْقَامُ الْمُسَخَّرُ . قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ ، وَأَذْعَنَ لِهَيْبَتِهِ ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ . وَجَبَلَ جَلَامِيدَهَا وَنُشُوزَ مُتُونِهَا وَأَطْوَادِهَا . فَأَرْسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا . وَأَلْزَمَهَا قَرَارَتَهَا فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ . فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا ، وَأَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا . فَأَشْهَقَ قِلَالَهَا ، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا . وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَاداً ، وَأَرَّزَهَا فِيهَا أَوْتَاداً فَسَكَنَتْ عَلى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا أَوْ تَسِيخَ

بِحِمْلِهَا أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا . فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوَجَانِ مِيَاهِهَا ، وَأَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا . فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً ، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشاً فَوْقَ بَحْرٍ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لَا يَجْرِي ، وَقَائِمٍ لَا يَسْرِي . تُكَرْكِرُهُ الرِّيَاحُ العَوَاصِفُ . وَتَمْخُضُهُ الغَمَامُ الذَّوَارِفُ « إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى » .

اللغة :

الزاخر : الملآن . والتقاصُف : تزاحم الأمواج يقصف بعضها بعضاً . واليبّس : اليابس . وفطر : خلق . والأطباق : الطبقات . والرتق : ضد الفتق . والمثعنجر : الماء الكثير . والقمقام : البحر . وجبل : خلق . والجلاميد : الصخور . والنشوز : الارتفاع . وأنهد : رفع . وأساخ : أدخل . والأنصاب : جمع نصب ، وهو المنتصب . وأشهق : جعلها شاهقة . وقلال : جمع قلة ، وقلة الجبل أعلاه . وارّزها : ثبتها . وتميد : تضطرب . وأكنافها : جوانبها أو أقطارها . والمهاد : الفرش . وتكركره : تحركه وتردده . والذوارف : من ذرف الدمع اذا سال .

الإعراب :

المصدر من أن جعل اسم مؤخر لكان ، ومن اقتدار خبر مقدم ، وأوتاداً حال من هاء أرّزها .

المعنى :

أشار الإمام في هذه الخطبة الى خلق الكون ، وتقدمت هذه الإشارة منه أكثر من مرة ، والغرض مجرد التنبيه الى قدرة الله وعظمته ، كما هو دأب القرآن

الكريم .. ولست من علماء الفلك والطبيعة كي أشرح وأجري المعادلات كما يفعل المتخصصون ، واذا ذكرت شيئاً من ذلك فإنما ألتقطه من أقوالهم ، وأنقله عنهم للقارىء . وفعلت ذلك في شرح الخطبة الأولى وغيرها . ولذا أختصر هنا ما أمكن .

(وكان من اقتدار جبروته ، وبديع لطائف صنعته) . الجبروت القدرة والسلطة ، والبديع المبتدع والمخترع ، ولطائف الصنعة جودتها ودقتها التي تدل على قدرة صانعها وعظمته (ان جعل ماء البحر الزخر الخ) .. يشير بهذا الى ان الكون خلق من الماء . وتقدم الكلام عن ذلك في شرح الخطبة الأولى فقرة « حول الكون » (يحملها الأخضر المثعنجر) أي البحر ، وهو أخضر في رؤية العين (والقمقام المسخر) سخّر سبحانه البحر لمنفعة الناس وغيرهم من الخلق .

(ووقف الجاري منه لخشيته) الكون بكل ما فيه من بحار وظواهر حية وجامدة يسير على مبدأ النظام الذي أودعه الله فيه ، وقد مرت ألوف السنين أو ملايينها ، والكون على نظامه هذا ، وتمر أيضاً ملايين أخرى ، وهو على ما كان من ضبط ودقة وثبات ، ومن هنا استطاع العلماء أن يستخرجوا من ظواهر الطبيعة قوانين راسخة ثابتة إذ لا قانون بلا نظام ثابت (وجبل جلاميدها الخ) .. خلق سبحانه الصخور والجبال ، وجعل أصولها راسخة ، وأعاليها شامخة لتكون أوتاداً للأرض تمنعها من الانهيار والاضطراب . وتقدم مثله مع الشرح في الخطبة ٨٩ .

(فجعلها لخلقه مهاداً ، وبسطها لهم فراشاً فوق بحر لجي الخ) .. قال أحمد زكي في كتاب « مع الله في السماء » ما يتلخص بأن في الأرض صخراً ، يغمر أكثره طبقة من ماء ، وفوق الصخر والماء طبقة من هواء ، ونحن بني الانسان والحيوان والنبات نعيش في أعماق هذه الأشياء الثلاثة ، فمن الهواء نستمد أنفاسنا ، ويبني النبات جسمه ، ونحن نأكل النبات والحيوان الذي يأكل النبات ، ومن كليهما نبني أجسامنا .. نحن مقيدون بالأرض ، ولصالح الانسان كان هذا القيد ، ان الانسان لو ذهب في الأرض سفلاً لطمره الصخر ، أو ذهب في البحر نزولاً أغرقه الماء ، أو صعد في الهواء علواً تعذر عليه التنفس . فمن حكمة إذن كان ربط الانسان بهذه الأرض (ان في ذلك لعبرة لمن يخشى) الله وسطوته .

وبعد،فلا شيء لدي أقوله هنا إلا ان أكرر مع القرآن الكريم ونهج البلاغة : ان هذا النظام الدقيق الذي يجري عليه الكون من مجرّاته الى الذرة ، ومنذ وجوده الى نهايته ، والذي يعلّم الانسان ما ينبغي أن يتعلم ، ان هذا النظام العليم الحكيم ينطق بصراحة ، ويقول بوضوح لكل ذي قلــب وسمع : سبّح – معي –. اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوّى ، والذي قدر فهدى .

الخطبة

- ٢١٠ -

المقالة العادلة :

اَللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا اَلْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ ، وَاَلْمُصْلِحَةَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا غَيْرَ اَلْمُفْسِدَةِ فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ ، وَاَلْإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ ، فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ بِأَكْبَرِ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً . وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَنْ أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَوَاتِكَ ، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدُ اَلْمُغْنِي عَنْ نَصْرِهِ وَاَلْآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ .

الإعراب :

أيما « ما » زائدة ، وأي مبتدأ ، وجملة سمع صفة لعبد ، وأبى عطف على سمع ، وجملة فإنا خبر أي ، وبعدُ ظرف بمعنى الآن ، وهو مبني على الضم ، والمغني خبر أنت .

المعنى :

(اللهم أيما عبد من عبادك سمع مقالتنا العادلة الخ) .. وهذه المقالة هي الدعوة

الى الحرب والضرب لا الى وليمة،ولكلّ أهل ، دعوة الى تحطيم الشر والفساد، واقتلاعه من الجذور .. ولكن من يسمع ، وهل يداوى الداء بالداء ، وتستخرج الشوكة بالشوكة على حد ما قال الإمام في الخطبة ١١٩ ؟

قضى رسول الله (ص) على الشرك والخرافات والتقاليد الفاسدة، وحطم زعامات البغي والضلال ، ولكن بمعونة الحواريين الذين وصفهم سبحانه بقوله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم — ٢٩ الفتح » .. أبـداً لا علاقة لهم إلا مع الله ، ولا يحبون ويبغضون إلا فيه ومن أجله .. لا يحملون ضغناً عـلى مؤمن ، ولا يشهرون في وجهه سيفاً . ودعا الإمام دعوة النبي الى تحطيم قيادات البغي والفساد في الأرض،وهو في مستوى الدعوة والنهوض بأعبائها، ولكن المسلمين في عهده كانوا يتناحرون على السلطان ، ويقتل بعضهم بعضاً من أجله ، وما نجحت دعوة في التاريخ البشري كله إلا إذا اتفقت كلمة الأنصار ، وأحاطوها بقلوبهم ودافعوا عنها بدمائهم . وكان أصحاب الإمام كما خاطبهم في الخطبة ٩٥ : « يا أشباه الإبل غاب عنها راعيها،كلما جُمعت من جانب تفرقت من آخر » .

(فإنا نستشهدك عليه بأكـبر الشاهدين شهادة) . ضمير عليه يعود الى من نكص عن دعوة الإمام ، وقال الشيخ محمد عبده : « أكبر الشاهدين هو النبي والقرآن » . والحق انه الله تعالى لقوله : « قل أي شيء أكبر شهـادة قل الله شهيد بيني وبينكم — ١٩ الانعام » .

(ثم أنت بعدُ المغني عن نصره) . ان شئت ان تنصرنا فعلت ، وان نكص من نكص لأنك القائل : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله — ٢٤٩ البقرة » . (والآخذ له بذنبه » تعاقبه على التخلف عن نصرة الحق .

الخطبة

-٢١١

تعظيم الله تعالى :

الْحَمْدُ لِلهِ الْعَلِيِّ عَنْ شَبَهِ الْمَخْلُوقِينَ ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ . الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاظِرِينَ ، الْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ . الْعَالِمِ بِلَا اكْتِسَابٍ وَلَا ازْدِيَادٍ وَلَا عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ ، الْمُقَدِّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا ضَمِيرٍ . الَّذِي لَا تَغْشَاهُ الظُّلَمُ وَلَا يَسْتَضِيءُ بِالْأَنْوَارِ ، وَلَا يَرْهَقُهُ لَيْلٌ ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ . لَيْسَ إِدْرَاكُهُ بِالْأَبْصَارِ وَلَا عِلْمُهُ بِالْأَخْبَارِ . أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ وَقَدَّمَهُ فِي الِاصْطِفَاءِ فَرَتَقَ بِهِ الْمَفَاتِقَ ، وَسَاوَرَ بِهِ الْمُغَالِبَ . وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ ، وَسَهَّلَ بِهِ الْحُزُونَةَ حَتَّى سَرَّحَ الضَّلَالَ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .

اللغة :

لا يرهقه ليل : لا يدركه . والرتق : ضد الفتق . وساور به : غلب به . والحزونة : الخشونة . وسرّح : أبعد .

الإعراب :

عن شبه متعلق بالعلي ، ولمقال اللام زائدة لمجـــرد التوكيد ، ومقال مفعول الغالب .

المعنى :

(الحمد لله العلي) أي العالي بذاته وصفاته (عن شبه المخلوقين) لأن المخلوق حادث وممكن ومحدود بداية ونهاية ، والله واجب أزلي أبدي (والغالب لمقـــال الواصفين) لا ترقى الافهام الى الإحاطة بذاته وصفاته ، لأن للافهام حداً تنتهي عنده ، والمحدود لا يدرك المطلق الذي لا أول لأوله ولا آخر لآخـــره ، وانما يدرك وجوده من خلال آثاره .

(الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين) . الأفهام لا تدرك ذات الله سبحانه كما أشرنا ، ولكنها تدرك انه قادر حكيم من خلال عظمة الكون ، ونظامه المحكم الذي يسير عليه منذ القديم والى أن يشاء الله ، وأيضاً تدرك الأفهام ان الله رحمن رحيم ، وجواد كريم من خلال النعم التي نتقلب فيها ، ونعيش عليها (والباطن بجلال عزته عن فكر المتوهمين) كما عجزت الألسن عن وصف الذات عجزت الأفكار أيضاً عن إدراكها والإحاطة بهـــا ، وحسب هذه ان تستشعر قدرة الله ورحمته وحكمته ، وحسب تلك أن تسبح بحمده ومجده .

(العالم بلا اكتساب الخ) .. بلا دراسة نهاراً ، ومطالعة ليلاً ، وبلا روى فلان عن فلان .

وتسأل : إن الإمام يطيل ويكرر في هذا الموضوع ، كقوله في هذه الخطبة: «بلا روية ولا ضمير .. ولا إبصار وإخبار» وقوله في الخطبة ١٥٠ : «بلا أداة»

وفي الخطبة ١٨٤ « لا بجول فكرة » .. الى أمثال ذلك مع ان الأمر في غاية الوضوح ، ويكفي القول : انه تعالى عالم بذاته ، أو بلا اكتساب ؟.

الجواب :

كان الناس في عهد الإمام جديدي عهد بالإسلام ، وكان البعض منهم يقيس صفات الخالق بصفات المخلوق .. حتى اليوم يوجد هذا النوع . وروي عن بعض الأعراب انه نادى الله بقوله : يا أبيض الوجه ، وناداه آخر : يا أبا المكارم . فدعت الحاجة الى التكرار والتوكيد .

(أرسله بالضياء الخ) .. اصطفى الله محمداً (ص) لحمل الأمانة ، وأداء الرسالة ، فقام بها على أكمل وجه ، جمع شمل المتفرقين ، وقضى على الشرك والمشركين ، ورفع راية الأمن والعدل ، وحرر الناس من العبودية والجهل ، وجعلهم « سواسية كأسنان المشط » .

الخطب

- ٢١٢ -

ان للخير أهلاً .. فقرة ١ - ٣ :

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَـــدَلَ وَحَكَمٌ فَصَلَ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَسَيِّدُ عِبَادِهِ كُلَّمَا نَسَخَ اللهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا . لَمْ يُسْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ وَلَا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ . أَلَا وَإِنَّ اللهَ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلاً . وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ ، وَلِلطَّاعَةِ عِصَماً وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَـــةٍ عَوْناً مِنَ اللهِ يَقُولُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ وَيُثَبِّتُ الْأَفْئِدَةَ . فِيهِ كَفَاءٌ لِمُكْتَفٍ ، وَشِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ[1] . وَاعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمَهُ يَصُونُونَ مَصُونَهُ ، وَيُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ . يَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلَايَةِ . وَيَتَلَاقَوْنَ بِالْمَحَبَّةِ . وَيَتَسَاقَوْنَ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ . وَيَصْدُرُونَ بِرِيَّةٍ . لَا تَشُوبُهُمُ الرِّيبَةُ ، وَلَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغِيبَةُ . عَلَى ذٰلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ . فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ وَبِهِ يَتَوَاصَلُونَ . فَكَانُوا كَتَفَاضُلِ الْبَـــذْرِ يُنْتَقَى ،

فَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى . قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ ، وَهَذَّبَهُ التَّمْحِيصُ[٢] . فَلْيَقْبَلِ امْرُؤٌ كَرَامَةً بِقَبُولِهَا . وَلْيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا . وَلْيَنْظُرِ امْرُؤٌ فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ ، وَقَلِيلِ مُقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلاً . فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوَّلِهِ وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ . فَطُوبَى لِذِي قَلْبٍ سَلِيمٍ أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ ، وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرِ مَنْ بَصَّرَهُ وَطَاعَةِ هَادٍ أَمَرَهُ . وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ وَتُقْطَعَ أَسْبَابُهُ . وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ . فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ[٣] .

اللغة :

نسخ الخلق : نقلهم بالتناسل من فريق الى فريقين،أو كما قال ابن أبي الحديد: قسّم الأب الواحد الى ابنين . والعاهر : الزاني ، ومثله الفاجر . والعصم — بكسر العين وفتح الصاد — جمع عصمة ، وهي الحصانة والوقاية من الذنوب . والكفاء: الكفاية . والمراد بالرِّواية هنا الأُخوة الصادقة . والرية — بكسر الراء — من زوال العطش . والقارعة : المصيبة والقيامة . وطوبى : الهناء والخير . والحوبة : الإثم .

الإعراب :

انه عدل الضمير للقضاء والقدر ، وكلما نصب على الظرفية ، لأن « ما » مصدرية ظرفية ، والمصدر المنسبك مجرور بإضافة كل أي في كل زمان نسخ أو

ينسخ الخ وعوناً اسم ان ، وعلمه مفعول المستحفظين،ونهج السبيل منصوب بنزع الخافض أي الى نهج السبيل .

المعنى :

(وأشهد انه عدل) . ما من شيء إلا وراءه قضاء وتدبير،وهذا هو الدليل: « إن هو – أي القرآن – إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين – آخر صورة التكوير » . وكل قضاء الله عدل ، ثم أكد الإمام ذلك بصيغة الفعل الماضي وقال : «عدَل» لا شائبة في قضائه للظلم (وحكم فصل) بين الحق والباطل .

(وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وسيد عبـاده) جاء في كتاب « الصواعق المحرقة » وغيره : إن النبي (ص) قال مشيراً الى علي : هـذا سيد العرب . فقالت له عائشة : ألستَ أنت سيد العرب ؟ قال : أنا سيد العالمين، وهو سيد العرب (كلما نسخ الله الخلق فريقين الخ) .. اذا تشعب الناس الى فرق وقبائل قبل محمد (ص) كان هو في خيرها وأفضلها أماً وأباً ، وقد جاء في الصحاح ، ومنها صحيح مسلم كتاب « الفضائل » باب : فضل نسب النبي ، انه قال : إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم (لم يسهم فيه عاهر الخ) . هو خير أهل الأرض طراً حسباً ونسباً انتقل من أصلاب طاهرة الى أرحام مطهرة . هذه هي عقيدة الشيعة الإمامية في جميع الأنبياء دون استثناء. وتقدم مثله مع الشرح في الخطبة ٩٢ .

(ألا وإن الله سبحانه قد جعل للخير أهلاً) وهم موجودون في كل عصر وجيل ، ومن علامة أحدهم انه يحب الخير لكل الناس،ولا يضمر شراً لمخلوق ، ولا يعيش على حساب الآخرين ، بل من كد اليمين وعرق الجبين (وللحق دعائم) وهم العلماء الذين يبينون حكم الله للناس ولا يشترون به ثمناً قليلاً (وللطاعة عصماً) من أراد الإدمان على طاعة الله في كل شيء ، ولا يعصيه في شيء فالطريق الى ذلك سهل يسير ، وهو كتاب الله ، قال سبحانه : « كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون – ١٨٧ البقرة » .

(وان لكم عند كل طاعة عوناً الخ) .. لكل عمل جزاء غداً عند الله ، وأيضاً لكل عمل أثره في الحياة الدنيا ، فمن فتح قلبه للشيطان في الذنب الصغير اتخذه مقراً له وموطناً ما دام حياً،ومن أقبل على الله في طاعة ولو مقدار ذرة كان الله في عونه إلى غيرها ، ودفع به الى ما هو خير وأبقى : « والذين اهتدوا زادهم هدى – ١٧ محمد » . (يقول على الألسنة) أي ان ما جاء على ألسنة الأنبياء هو عون للعبد على طاعة الله (ويثبت الأفئدة) . انه تعالى يثبت الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما وعدهم من فضله وإحسانه .

(واعلموا ان عباد الله المستحفظين علمه) . المراد بعلمه سبحانه هنا دينه ، وبالمستحفظين العلماء بالدين ، لأن من علم بدين الله كان الدين وديعة لله عنده يجب عليه أن يحفظها ويحرص عليها (يصونون مصونه) أي يصونون دين الله من التحريف والتزييف (ويفجرون عيونه) ينشرون الدين بين الناس (يتواصلون بالولاية الخ) .. تآخوا في الله،وتعاونوا على الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر على تحمل المشاق من أجله (لا تشوبهم الريبة) لأنهم على بصيرة من دينهم (ولا تسرع فيهم الغيبة) لأنها تنم عن الصغار ، وتقود الى النار .

(عند خلقهم وأخلاقهم) هم أبناء الإنسان ظاهراً وواقعاً ، وخلقاً وشياً بكل ما في الانسانية من فضائل،وغيرهم حيوان في شكل إنسان (فعليه يتحابون، وبه يتواصلون) أي على عقد الأخلاق الرضية وبه يتبادلون الإخلاص والثقة ، والبر والرحمة (فكانوا كتفاضل البذر الخ) .. التمحيص والتخليص : الغربلة والتمييز بين الجيد والرديء ، والمعنى ان الأخيار يمتازون عن سائر الناس كما يمتاز البذر الصالح للزرع عن البذر الفاسد الذي لا يصلح إلا للطرح مع القمامة .

(فليقبل امرؤ كرامة بقبولها) . يأخذ نصيحتي مجاناً ومن غير ثمن إلا أن يقبلها ويعمل بها ، وسيرى أنها تعود عليه بكل خير (وليحذر قارعة الخ) .. وليتأهب ويستعد للموت قبل أن يأتيه بغتة (فليصنع لمتحوله ومعارف منقلبه) أي يعمل لآخرته فإنه يتحول وينقلب اليها عما قريب (فطوبى لذي قلب سلم الخ).. يستمع القول فيتبع أحسنه أياً كان قائله ، لأن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ولو من منافق ، كما قال الإمام :

(وبادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه) دونكم بالعجز أو الموت،وأبواب الهدى

هي أبوابه تعالى ، والله لا يغلقها أبداً،ولا يصد أحداً عنها . ولكن العبد يعرض وينصرف ، أو يرغب بعد فوات الأوان (وأماط الحوبة) ينـــدم على ما فرط وقصّر ، ويتضرع الى الله أن يغفر ويرحم (فقد أقيم على الطريق الخ) .. الأدلة قائمة على سبيل الرشد والهداية ، ومن نكب عنها قامت عليـه الحجة ، وحقت عليه كلمة العذاب .

الخطبة

-٢١٣-

لله الحجة :

الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتاً وَلاَ سَقِيماً ، وَلاَ مَضْرُوباً عَلى عُرُوقِي بِسُوءٍ ، وَلاَ مَأْخُوذاً بِأَسْوَإِ عَمَلِي ، وَلاَ مَقْطُوعاً دَابِرِي ، وَلاَ مُرْتَدًّا عَنْ دِينِي ، وَلاَ مُنْكِراً لِرَبِّي ، وَلاَ مُسْتَوْحِشاً مِنْ إِيمَانِي ، وَلاَ مُلْتَبِساً عَقْلِي ، وَلاَ مُعَذَّباً بِعَذَابِ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِي . أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً ظَالِماً لِنَفْسِي ، لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَلاَ حُجَّةَ لِي . لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلاَّ مَا أَعْطَيْتَنِي ، وَلَا أَتَّقِيَ إِلاَّ مَا وَقَيْتَنِي . اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ ، أَوْ أُضَامَ فِي سُلْطَانِكَ ، أَوْ أُضْطَهَدَ وَالْأَمْرُ لَكَ . اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي ، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ

عِنْدِي . اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ ، أَوْ نَفْتَتِنَ عَنْ دِينِكَ . أَوْ تَتَابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ .

اللغة :

عروقي : أعضائي . ودابري : نسلي . وملتبساً : مختلطاً . والتتايع – بالياء – التهافت في الشر واللجاجة ، وفي بعض النسخ تتابع بالباء لا بالياء .

الإعراب :

يُصبح تامة ، وميتاً حال من ياء المتكلم ، والمصدر من أن أفتقر وان نذهب مجرور بمن محذوفة .

المعنى :

(الحمد لله الذي لم يصبح بي ميتاً الخ) .. يحمد الإمام (ع) خالقه تعالى على نعمه التي لا تحصى ، ومنها انه أصبح سليماً معافى في بدنه وصحته . ومن أقواله : نعمتان مجهولتان : الصحة والأمان (ولا مضروباً على عروقي بسوء) أي سليم الأعضاء .

لا إيمان بلا خوف من الله :

(ولا مأخوذاً بأسوإ أعمالي) . حقر الإمام الدنيا وصغّرها ، وقوّمها بعفطة عنز ، أو ورقة في فم جرادة ، ونعتها بالأفعى وبكل سوء ورذيلة ، ولذا قطع معها العلاقات والصلات ، ومع هذا يتهم نفسه بسوء العمل ، ويحمد الله الذي لم يأخذه من مأمنه !.. وليس هذا مجرد تواضع ، ولا هو درس وتعليم للآخرين

— كما يقال — كلا ، انه صدق في الايمان ورسوخ في اليقين،ومن بداهة الحقائق ان الخوف من الله يقاس بمعرفته والفهم عنه . وكذلك الرجاء .

ومهما شككت فإني لا أشك إطلاقاً ان من أكبر الكبائر أن يمتلىء قلب المرء رعباً من المخلوق ولا يخاف الخالق في شيء ، وان من كان هذا شأنه يُعامل في الآخرة معاملة الكافر الملحد إلا ان يشاء الله . وأنا أعرف من يعترف بلسانه لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة ، ولكن لا أثر في تصرفاته للخوف من الله في كثير أو قليل .. انها تصدر عن مصلحته ، ولا شيء وراءها ، فكيف أصدق انه من الله في شيء؟ حتى ولو طلب العون منه لقضاء مصلحة من مصالح دنياه .. أبداً لا دليل على الإيمان الصادق إلا الخوف من الله عملياً لا نظرياً فقط .

(أصبحت عبداً مملوكاً ظالماً لنفسي الخ) .. فرق بعيد بين الطاغية والإمام العادل ، فالأول يريد السيطرة كغاية ، والتحكم بدماء الناس ومقدراتهم ، ويعمل جاهداً لتثبيت السلطان ودوامه في يده وفي نسله ، أو فيمن يشاء من بعده ، والوسيلة الوحيدة التي تضمن له هذه السيطرة ودوامها — كما يفكر ويعتقد — أن يملأ القلوب رعباً وهلعاً من بطشه وهيبته ، ومن أجل هذا يعتبر القوة هي النظام الحكيم لسيادته ورئاسته .

أما الإمام العادل فإنه ينظر الى الحكم على أنه تحمّل تبعات ومسؤوليات بتأمين الدعة والأمن للرعية ، وإقامة العدل والمساواة بين الجميع ، وانه لو وُجد مظلوم واحد في رعيته فهو المسؤول الأول عن ظلامته . ومن أجل هذا الشعور بالمسؤولية، وانه أجير مؤتمن — يرى أنه قد ظلم نفسه بالتصدي للحكم وقبول السلطان ، ولذا ترك بوذا الملك ، وولى هارباً .. ولو أحجم الإمام عن الخلافة في مثل الظروف التي كان عليها المسلمون آنذاك ، والأحداث التي قُتل فيها عثمان — ما اخضر للإسلام عود ، ولكن الإمام تحمل المسؤولية على ضخامتها ، وظلم نفسه ، لا لشيء إلا لأنه عبد مملوك — كما قال — لله وللإسلام وصالح المسلمين .

(اللهم اجعل نفسي أول كريمة تنتزعها من كرائمي الخ) .. أراد بالكرائم عقله وسمعه وبصره ، وكل شيء فيه يعينه على التصرف والحركة ، والإمام (ع) يتوسل الى الله أن يبقيه سالماً من الآفات ، ويقبضه اليه قبل أن يُرد الى أرذل العمر ، فيعيش قعيداً لا يقوى على شيء ، فيضجر منه القريب ، وينفر البعيد ..

والإمام أخذ هذا الدعاء من رسول الله (ص) فقد سُمع منه أكثر من مرة (أو تتابع بنا الأهواء الخ) .. أي نعوذ بالله أن تنحرف بنـا الأهواء عن الهدى الى الضلال .

وبعد ، فإن الدعاء ضرب من العبادة ، ما في ذلك ريب ، فقد حث عليـه الله ورسوله والأئمة الأطهار ، ولكن أفضل الدعاء ترك الذنوب .

الخطبة

- ٢١٤ -

الراعي والرعية .. فقرة ١ – ٢ :

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوِلَايَةِ أَمْرِكُمْ ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ . فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ . لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلاَّ جَرَى عَلَيْهِ ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلاَّ جَرَى لَهُ ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ لَكَانَ ذٰلِكَ خَالِصاً لِلهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ ، لِقُدْرَتِهِ عَلى عِبَادِهِ وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ . وَلٰكِنَّهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلاً مِنْهُ وَتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ[١] . ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلى بَعْضٍ ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا وَيُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً . وَلَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ . وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ

سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ ٱلْحُقُوقِ حَقُّ الوَالِي عَلى الرَّعِيَّةِ وَحَقُّ الرَّعِيَّـــةِ عَلى الوَالِي . فَرِيضَةً فَرَضَهَـــا اللهُ سُبْحَانَهُ لِكُلٍّ عَلى كُلٍّ ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِأُلْفَتِهِمْ وَعِزًّا لِدِينِهِمْ . فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّـةُ إِلَّا بِصَلَاحِ ٱلْوُلَاةِ ، وَلَا تَصْلُحُ الوُلَاةُ إِلَّا بِٱسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ(٢) .

اللغة :

التواصف : تفاعُل يكون بين اثنين أو أكثر ، وذلك بأن أصف لك شيئاً ، ثم تصفه أنت لي بما ترى . والتناصف : ان انصفك من نفسي ، وتنصفني من نفسك .

الإعراب :

تفضلاً مفعول من أجله لجعل ، ومن المزيـــد متعلق بـ « توسعاً » وفريضة بالرفع خبر لمبتدأ محذوف أي هي فريضة .

المعنى :

(أما بعد فقد جعل الله سبحانه لي عليكم حقاً بولاية أمركم) أي بصفتي ممثلاً للسلطة ، لا بصفتي الشخصية ، أو بأية صفة أخرى .. وقد أتى على الناس حين من الدهر لم يعرفوا فيه حاكماً ولا محكوماً ، ولا شيئاً من الحقوق العامة ، وبعد أن انتقل الانسان من حيـــاة العزلة والانفراد الى حياة الجماعة ، وخضع الفـــرد لشعورها آمن بضرورة الخضوع للرئيس والحاكم وتعظيمه وتقديسه دون أي مقابل.. وهكـذا خضع أهـــل الصين للأباطرة أبناء السماء ، وأهـــل مصر للفراعنة أبناء الشمس الخ . وبمرور الزمن عرفت الجماعات الحقوق العامـــة والمتبادلة بين الحاكم والمحكوم ، وأصبح لها مؤلفات وعلماء وكليات. وأشار الإمام في بداية هذه الخطبة

الى ان الله سبحانه شرّع أحكاماً حدد فيها حق الراعي على الرعية، وحقها عليه، وذكر طرفاً من ذلك في الخطبة ٣٤ . ثم قال :

(فالحق أوسع الأشياء في التواصف ، وأضيقها في التناصف) . الحق ميدان واسع للوصف والقول ، والناس يصولون فيه ويجولون خطابة وكتابة ومحاضرات، ولكنهم يضيقون به صدراً إذا جاء دور التطبيق والعمل (ولا يجري لأحــد إلا جرى عليه الخ) .. هذه قسمة عادلة متوازنة: لك مثل الـذي عليك ، وعليك مثل الذي لك ، وان كنت لا ترى حقاً عليك لغيرك فعليك أن لا ترى حقاً لك عليه ، وقديماً قيل : أحبب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها .. هذا هو مبدأ العدل والانصاف ، وقانون الطبيعة أيضاً ، ولا أحد فوق الطبيعــة إلا خالق الطبيعة .. ومن هنا تفجر الصراع الرهيب بين الأقوياء الـذين ينكرون التوازن العادل ويصرون على الامتياز الظالم ، وبين الضعفاء اللذين يرفضون الاستبداد والعدوان على حقوقهم وحرياتهم ، أما تحديد الحق فهو وليد الروابط بين الناس، ويختلف بحسبها .

الثواب تفضل لا استحقاق :

(ولكنه سبحانه جعل حقه على العباد أن يطيعوه) . لا حق متبادل بــين الخالق والمخلوق ، والواجب والممكن ، وهل يقاس النقص بالكمال ، والضعف بالاقتدار ؟. إن الأمر كله لله ، وعلينا أن نسمع ونطيع ، وهو يثيبنا على الشكر والطاعة لا لشيء إلا لأنه تعالى كتب على نفسه الرحمة ، كما قال في الآية ١٢ من سورة الأنعام ، وكرر هذا القول في الآية ٥٤ من السورة نفسها ، واذن فلا ثمرة وراء النزاع في ان ثواب المطيع لله تعالى هـل هو لزوم واستحقاق لمبــدأ العدالة الإلهية ، كما قال المعتزلة ، أو هو كرم وتفضل ، كما قال الأشاعرة ، والطاعة من العبد مجرد وفاء لأنعم الله ؟ لا جدوى من هذا النزاع ما دام سبحانه قد كتب على نفسه أنه لا جزاء للإحسان إلا الإحسان .

« وقول الإمام : (جعل جزاءهم عليه الخ) .. يومىء الى أن الثواب حتم بإرادة الله لا يجعل جاعل سواه ، وعلى هذا يحمل قوله تعالى في الآية ١٧٣ من سورة النساء » : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم » أي التي كتبها هو على نفسه .

(ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً الخ) .. لله على عباده حقوق هي له وحده لا صلة لها بغيره على الإطلاق ، منها الإيمان به وبكتبه وملائكته ورسله ، والتعبد له دون غيره : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه — ٢٣ الإسراء » .

ومنها حقوق للناس ، ولكن لا على سبيل الانفراد والاستقلال ، بل على سبيل التكافؤ والتضامن بين الناس بعضهم مع بعض بحيث يكون أحد الواجبين بالنسبة للآخر كالجزء المتمم له ، أي يجبان معاً ويسقطان معاً ، ومن هذا النوع التعاون على البر والصالح العام الذي يتجاوز مساعدات الفرد بسد حاجة من حاجاته الخاصة ، فإن هذا عظيم عند الله ، ما في ذلك ريب ، ولكنه عون من جانب واحد ، والتعاون مشاركة بين اثنين أو أكثر . وأيضاً من هذا النوع الحقوق الزوجية التي أشار سبحانه اليها بقوله : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف — ٢٢٨ البقرة » .

وأيضاً من هذا النوع قول الإمام : (حق الوالي على الرعية) وهو الولاء للسلطة المشروعة في شخص الوالي العادل لا الولاء لشخصه بالذات ، لأنه وكيل لا أصيل (وحق الرعية على الوالي) وهو تأمين حاجات الرعية وتحقيق أهدافها . وهذه الحقوق الانسانية المتكافئة المتبادلة بين الراعي والرعية هي (فريضة فرضها الله) ولأنه هو أصلها ومصدرها صح القول فيها : انها حقوق الله وحقوق الناس في آن واحد .

(فجعلها نظاماً لإلفتهم وعزاً لدينهم) أي بهذا التضامن والترابط بين الحاكم والمحكوم تستقيم الأمور ، ويعيش الجميع اخواناً متحابين ، ومن أجل هذا جعله سبحانه دستور الحكم وأساسه . والانحراف عنه فساد وضلال يؤول بالمجتمع الى الهلاك والوبال .

(فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة) . أبداً لا تصلح الأوضاع ، ويتم الاستقرار إلا إذا كان الوالي كفؤاً للقيام بأعباء الحكم : ومخلصاً يساوي نفسه وأهله بأضعف ضعيف من رعيته (ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية) وهذه الاستقامة معناها الولاء للسلطة القوية العادلة ، والتعاون معها على أساس مصلحة الجميع وتأمين حقوقهم .

النصيحة بمبلغ الجهد .. فقرة ٣ - ٤ :

فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الوَالِي حَقَّهُ ، وَأَدَّى الوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا ، عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ ، وَقَامَتْ ، مَنَاهِجُ الدِّينِ ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَالِهَا السُّنَنُ فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ ، وَطُمِعَ فِي بَقَــاءِ الدَّوْلَةِ ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ الأَعْدَاءِ . وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا ، وَأَجْحَفَ الوَالِي بِرَعِيَّتِهِ اخْتَلَفَتْ هُنَـالِكَ الكَلِمَةُ . وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ . وَكَثُرَ الإِدْغَالُ فِي الدِّينِ وَتُرِكَتْ مَحَــاجُّ السُّنَنِ . فَعُمِلَ بِالْهَوَى . وَعُطِّلَتِ الأَحْكَامُ . وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ . فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ . وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ ، فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الأَبْرَارُ وَتَعِزُّ الأَشْرَارُ ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللهِ عِنْدَ الْعِبَادِ(٣) . فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ وَحُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ ، فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنِ اشْتَدَّ عَلَى رِضَاءِ اللهِ حِرْصُهُ وَطَالَ فِي العَمَلِ اجْتِهَادُهُ بِبَالِغٍ حَقِيقَةَ مَا اللهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ . وَلَكِنْ مِــنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللهِ عَلَى العِبَادِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ ، وَالتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ . وَلَيْسَ امْرُؤٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ ، وَتَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ بِفَوْقِ أَنْ يُعَاوِنَ عَلَى مَا حَمَّلَهُ اللهُ مِنْ حَقِّهِ ، وَلَا امْرُؤٌ وَإِنْ صَغَّرَتْهُ النُّفُوسُ وَاقْتَحَمَتْهُ العُيُونُ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ(٤) .

اللغة :

مناهج الدين : طرقه الواضحة . ومعالم : جمع معْلَم أي ما يُستدل به على الطريق . وأذلال بفتح الهمزة – جمع ذل – بكسر الذال – أي التعبيد، وأذلال السنن كثرة العمل بها أو العمل بها على وجهها وحقيقتها . والإدغال في الأمر : أن يدخل فيه ما يُفسده . واقتحمته العيون : احتقرته .

الإعراب :

فصلح بذلك جواب اذا أدت ، فهنالك إشارة الى الزمان البعيد، ومحله النصب على الظرفية أي في ذلك الزمان ، وبمبالغ اسم ليس والباء زائدة ، ومثله بفوق .

المعنى :

(فإذا أدت الرعية الى الوالي حقه ، وأدى الوالي الخ) .. مهما اجتهدت القيادة وأخلصت في عملها ومقاصدها فإنها لا تأتي بخير إلا بمعونة الجماعة ، تلك تخطط ، وهذه تنفذ ، ومتى تم التعاون بين الطرفين تحققت الأهداف (وقامت مناهج الدين) أي استقام الناس على الطريق القويم (واعتدلت معالم العدل) ومعنى اعتدالها العمل بموجبها (وجرت على أذلالها السنن) جمع سنة ، وهي قول المعصوم أو فعله أو تقريره ، والمعنى اذا أدى كل من الراعي والرعية ما عليه سارت سنّة رسول الله (ص) في مجراها الطبيعي بلا تحريف وتزييف من أرباب الأهواء والأغراض .

(فصلُح بذلك الزمان) ذلك إشارة الى صيانة الحق المتبادل بين الراعي والرعية، ومن البداهة أن صلاح الزمان بصلاح أهله (وطُمع في بقاء الدولة) أي ثبتت واستمرت ، لأنها تقوم على الحق والعدل (واذا غلبت الرعية واليها ، وأجحف الوالي الخ) .. ان تجاوز الراعي حقه المقرر انتهى الى الاستبداد ، وان تجاوزت الرعية الحدود عمت الفوضى ، وانشقت الصفوف . وأميتت السنة ، وكثرت البدع ، ولا زاجر عن منكر وآمر بمعروف (فهنالك تذل الأبرار . وتعز

الأشرار) تبعاً للأوضاع القائمة ، والبيئة التي يعيشون فيها (وتعظم تبعـات الله سبحانه عند العباد) . المراد بالتبعات المسؤوليات أو العقاب ، ولا شك في وجود الترابط بين الجرائم والعقاب كماً وكيفاً .

(فعليكم بالتناصح في ذلك ، وحسن التعاون عليه) . أشار الإمـام أولاً الى ان أمور المجتمع لا تستقيم ، ولا تصلح فيه الأوضاع إلا إذا أدى كل من الراعي والرعية ما عليه ، فإن قصّر أحدهما أو كلاهما ظهر الجور ، وسادت البدع ، وتعطلت الأحكام ، ثم أشار الإمام الى الطريق السليم لعلاج الأوضاع الفـاسدة ، وهو التناصح والتعاون بين العقـلاء وأولي الشأن ، وذلك بأن يبحثوا عن السبب والمصدر ، فإن كان التقصير من الحاكم نصحوه وقوموه ، فإن استقام وإلا عزلوه، وان كان من بعض الرعية وفئاتها تعاونوا مع الحاكم على إصلاحها ، فـإن فاءت وإلا قاتلوها حتى تفيء الى أمر الله .

(فليس احد وان اشتد على رضا الله حرصه الخ) . أبداً ما من أحد بالغاً ما بلغ من العلم والعمل إلا وهو في حاجة الى النصيحة والتعاون ، لأنه إنسان غير معصوم،وهذا الانسان لا يعرف اخطاءه وعيوب نفسه ، لأنها تخدعه عن حقيقتها .. وغيره أعرف منه بها ، وإذن فعليه أن يتعاون معه لمعرفتها .. ومن الذي لا يحابي نفسه ، وينحاز اليها ، ويحاول بشتى الوسائل أن يبرهن عن صفائهـا وصوابها ؟ ولا علاج لهذا الـداء الا أن نعرف رأي الآخرين فينا الذين ينصفون ولا يبنون أقوالهم على الهوى والجهل .

(وليس امرؤ وان عظمت في الحق منزلته الخ) .. لنفترض – حقيقـة لا جدلاً – ان انساناً يحتاط لدينه ، ويحترس من الأخطاء جهد طاقته فهل يجوز لنا أن نفترض – أيضاً حقيقة لا جدلاً – انـه لا يخطىء في قول أو فعل مع العلم بأنه غير معصوم ؟. واذن هو دائماً في حاجـة الى العون والمساعدة (ولا امـرؤ وإن صغّرته النفوس الخ) .. وأيضاً ما من أحد – وإن ازدرته الأعـين – إلا وفيه جهة ايجابية ينتفع بها الآخرون مع العلم بأن فيه كثيراً من الجهات السلبية ، وانه في أمس الحاجة الى النصيحة والمساعدة من أجلها .

والخلاصة ان الانسان ، أي انسان ، لا يستطيع أن يصنع نفسه بنفسه ، وانه بحاجة الى معونة الآخرين من أبناء نوعه حتى ولو كانوا دونه بمراتب ، والسر ان

طبيعة الناس واحدة تعلو على كل الفوارق ، وتضم تحت لوائها كل من يمشي على رجلين ، والشيء الواحد لا ينفصل عن نفسه ، وان تلونت فروعه ، وتنوعت في شكلها ولونها .

كراهية الإطراء .. فقرة ٥ – ٧ :

إنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَ جَلاَلُ اللهِ فِي نَفْسِهِ ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ لِعِظَمِ ذٰلِكَ كُلُّ مَا سِوَاهُ . وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذٰلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ، وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ . فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللهِ عَلى أَحَدٍ إِلاَّ ٱزْدَادَ حَقُّ اللهِ عَلَيْهِ عِظَماً ، وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حَالاَتِ ٱلْوُلاَةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الفَخْرِ ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلى الكِبْرِ . وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الإِطْرَاءَ وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ . وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللهِ كَذٰلِكَ(٥) . وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذٰلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطاً للهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ العَظَمَةِ وَالكِبْرِيَاءِ . وَرُبَّمَا اسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ ٱلْبَلاَءِ . فَلاَ تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ لإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللهِ وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا ، وَفَرَائِضَ لاَ بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا ، فَلاَ تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الجَبَابِرَةُ ، وَلاَ تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ البَادِرَةِ . وَلاَ تُخَالِطُونِي بِالمُصَانَعَةِ . وَلاَ تَظُنُّوا بِي

اسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي وَلاَ الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي(٦) . فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ . فَلاَ تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ ، وَلاَ آمَنُ ذٰلِكَ مِنْ فِعْلِي إِلاَّ أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي . فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لاَ رَبَّ غَيْرُهُ . يَمْلِكُ مِنَّا مَا لاَ نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا ، وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلاَلَةِ بِالْهُدَى ، وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى(٧) .

اللغة :

السخف : ضعف العقل . والمراد من التقية هنا الخروج من المسؤولية الملقاة على عاتقه والقيام بما يجب . والبادرة : الحدة . والمصانعة : المداراة .

الإعراب :

من حق متعلق بمحذوف خبراً مقدماً لـ « ان » والمصدر من أن يصغر اسمها، ولَمن اللام للتأكيد ، ومن خبر ان أحق ، والمصدر من ان يظن اسم ان من أسخف ، وان يكون جالَ « يكون » زائدة ، والمصدر من اني أحب فاعل جال ، وانحطاطاً مفعول من أجله لتركته ، فإنه الضمير للشأن ، والمصدر من أن يقال بدل اشتمال من الحق ، والمصدر من ان يعرض بدل اشتمال من العدل .

المعنى :

قال الشريف الرضي : فأجاب الإمام (ع) رجل من أصحابه بكلام طويل

يكثر فيه الثناء عليه ، ويذكر سمعه وطاعته . فقال (ع) : (ان من حق من عظُم جلال الله سبحانه في نفسه الخ) .. نحن نقرأ ونسمع مبهورين عن العقول الالكترونية ، وصعود الانسان على القمر ، وغير ذلك من ابتكار العلم .. أما الذي تمكنت في نفسه عظمة الخالق وجلاله فإنه لا يرى ذلك ولا العقل الذي هو مصدر العلم والابتكار ولا الكون بما فيه – لا يرى كل أولاء شيئاً مذكوراً الى جانب ذرة من عظمه الله وجلاله ، بل يزداد إيماناً بالله وفهماً لعظمته ، لأنه هو المبدأ الأول لكل شيء . وتقدم في الخطبة ١٩١ قول الإمام (ع) في وصف المؤمنين : « عظم الخالق في أنفسهم فصغُر ما دونه في أعينهم » . والإمام سيد العارفين بالله وكماله وجلاله ، وأعلم العلماء بأن معرفته هذه هي من أعظم نعم الله عليه ، وانه أحق الناس أن يشكره عليها ، ومن شُكره وتواضعه لله أن يرى كل ما سواه حتّى نفسه ليس بشيء،وإذن كيف يسمح ويسمع للمديح والإطراء .

(وان أحق من كان كذلك) أي ان من صغّر وحقّر كل ما سوى الله هو الذي (عظُمت نعمة الله عليه ، ولطُف إحسانه اليه) والإمام يشعر من الأعماق بعظيم نعم الله عليه ، ولطيف إحسانه إليه ، وذلك بأنه أول من آمن برسول الله من الذكور ، وجاهد بين يديه ، وفداه بنفسه ، وأخذ العلم عنه حتّى قال واثقاً: سلوني قبل أن تفقدوني . وما دامت نعم الله عليه كثيرة وعظيمة فحقوقه عليه كذلك (فإنه لم تعظم نعمة الله على أحد إلا ازداد حق الله عليه عظماً) . وقديماً قيل : « وكما تراني يا جميل أراك » نقول هذا ، ونحن نعلم بأن أحداً لا يبلغ من شكره تعالى بعض ما تستوجبه نعمة واحدة،فكيف بما لا يبلغها العد والإحصاء !.

(وان من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس الخ) .. العقلاء يسخرون من الحاكم الذي هو مظنة الكبر والفخر ، ويرونه سخيفاً وحقيراً في نفسه وواقعه، قال رسول الله (ص)«: آفة الحسب الافتخار .. حسب المرء دينه وأدبه » . والحسب في اللغة كل ما يعد من المفاخر في مفهوم العامة (وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم الخ) . كيف تظنون بي حب الثناء ، وأنا أكرهه ، وأكره من يحبه ومن يظن اني أحبه،وأحمد الله على هذه الكراهية (ولو كنت أُحب – الى – الكبرياء) الإمام يكره المديح ، ولو افترض أن حدثته به نفسه لزجرها تأدباً مع الله ورسوله ، فإنهما أحق منه بذلك وأولى .

(وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء) أي بعد أن أجهدوا أنفسهم في العمل

وأحسنوا فيه ، وليس ذلك بمحرم عليهم ما داموا بعيدين عن الرياء ، فما من أحد إلا وهو يحب أن يظهر له الخير أمام الناس إلا صفوة الصفوة كالإمام الذي قال لأصحابه : (فلا تثنوا علي بجميل ثناء) لخير عملته ، وجهد بذلته ، لأني ما عملت واجتهدت للثناء والإطراء بل (لإخراجي نفسي الى الله سبحانه واليكم من التقية في حقوق الخ) .. أي انما فعلت الذي فعلت لأحرر نفسي من المسؤولية التي تحملتها بولايتي عليكم ، وأصبح عليَّ بموجبها حقوق وفرائض لله ولكم ، وأعمل جاهداً للوفاء بها،وما زلت مقصراً في هذا الميدان .. واذن فعلام المديح!.. وهكذا العظيم يستقل من نفسه كل خير يفعله ، وكل نوال يبذله مهما غزر وكثر.

(فلا تكلموني بما تُكلّم به الجبابرة) الذين يعانون من سرطان العظمة والكبرياء . قال الفيلسوف الصيني « لين يوتانج » : كلما زاد عدد الدجالين والمنافقين ازداد المصفقين والهاتفين (ولا تتحفظوا مني بما يُتحفظ به عند أهل البادرة) وهم الأقوياء الذين اذا خوطبوا بغير ما يشتهون من التفخيم ثاروا وهددوا، والمعنى: خاطبوني بما يخاطب به بعضكم بعضاً ، فإني واحد منكم .. هذا هو الاسلام بروحه وجوهره يحطم التمييز بين الناس مهما كانت الأنساب والمناصب . دخل على النبي (ص) أعرابي غريب ، فارتجف من هيبته . فقال له : هوّن عليك ، فإني ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة .

(ولا تخالطوني بالمصانعة) أي بالنفاق والرياء ، بل بصراحة وعلى سجيتكم (ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي الخ) .. انا لله وللحق ومع الحق ، وقد ملك عليّ عقلي وقلبي ، واختلط حبه بلحمي ودمي فكيف أتبرم به ، وأنفر منه ؟ (فإنه من استثقل الحق أن يقال له الخ) .. هذا من الواضحات التي لا يختلف فيها عالمان ولا جاهلان ، ويسميه علماء الأصول بمفهوم الموافقة ، وهو إعطاء حكم المنطوق به للمسكوت عنه بطريق أولى ، ومن أمثلته « ولا تقل لهما أف » فالمنطوق به التأفيف ، وحكمه التحريم ، فيثبت الحكم للضرب بطريق أولى، لأن علة التحريم الإساءة للوالدين ، وهي في الضرب أشد وأقوى . وأوضح مثال أو درس على الخضوع لكلمة الحق هذه الرائعة: قال أعرابي لرسول الله (ص) : يا محمد هذا المال مال الله أو مال أبيك ؟. فشهر صحابي عليه سيفه . فقال له نبي الرحمة : دعه، ان لصاحب الحق مقالاً .

(فإني لست في نفسي بفوق أن اخطىء الخ) .. أبداً لا ترى عظيماً ، ولن

تراه إلا وهو متهم لنفسه حتّى ولو كان نبياً ، فقد شهد شاهد من أهلها ببراءة يوسف ، ومع هذا قال : « وما أبرىء نفسي ان النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي — ٥٣ يوسف » حتّى الإيمان بالله يحتاج الى عونه وتوفيقه : « فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً وما تشاؤون إلا أن يشاء الله — ٣٠ الدهر » أي الا ان يوفّق ويعين (فإنما أنا وأنتم عبيد الخ).. والعبد لا يملك شيئاً مع سيده(وأخرجنا مما كنا فيه الخ) .. الله هدانا بعنايته الى الاسلام ، وأخرجنا من الظلمات الى النور : « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان — ٥٢ الشورى » .

الخطبة

- ٢١٥ -

اَللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَأَكْفَأُوا إِنَائِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي، وَقَالُوا أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ، فَاصْبِرْ مَغْمُوماً أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً، فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي، فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّةِ فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى، وَجَرَعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَى، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمَرَّ مِنَ الْعَلْقَمِ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ حَزِّ الشِّفَارِ.

اللغة :

أستعديك : أستعينك . اكفأوا إنائي : قلبوه . والرافد : المعين . والذاب : المدافع . وضننت : بخلت . وأغضيت : صبرت . والقذى : ما يقع في العين أو في الشراب من تبنة ونحوها . والشجى : ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه . والشفار : جمع شفرة أي حد السيف ونحوه .

الإعراب :

حقاً منصوب بنزع الخافض أي منازعتي في حق ، ومغموماً حال،ومثله متأسفاً.

المعنى :

قال الشريف الرضي : «مضى هذا الكلام في أثناء خطبة متقدمة إلا اني ذكرته هنا لاختلاف الروايتين » . والخطبة المتقدمة التي أشار اليها الشريف هي الخطبة رقم «٢٦» والخطبة رقم «١٧٠» وأيضاً تظلّم الإمام من قريش في الخطبة رقم «٣٣».

وبالإيجاز قامت قيامة قريش على رسول الله (ص) وحاول عتاتها جاهدين أن يطمسوا رسالته ، وقالوا عنه : انه مجنون وكاهن وشاعر وطالب مُلك .. وأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .. وبعد أن انتقل النبي الى الرفيق الأعلى اقتصوا منه بشخص أهل بيته . قال الكاتب المصري الاسلامي عبد الكريم الخطيب في كتاب « علي بن أبي طالب » ص ١٤٦ طبعة سنة ١٩٦٧ : « إن علياً كان أكثر المسلمين شدة على مشركي قريش،وأكثرهم تنكيلاً وإفجاعاً في الأبناء والآباء والأعمام والأخوال – الى أن قال – : وسنرى آثار ذلك وشواهده حين تقف قريش في وجه بني هاشم وحين تذودهم عن الخلافة ، ثم تنالهم بسيوفها ، فتقتل شيبها وشبابها وصبيانها وتشرد بعقائلها وحرائرها ، وكأنما تثأر بهذا لقتلاها في بدر وأحد » . وأشرنا الى ذلك في شرح الخطبة ١٩٠ .

الخطبة
-٢١٦-

فظائع أصحاب الجمل :

فَقَدِمُوا عَلى عُمَّالِي وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدِي ، وَعَلى أَهْلِ مِصْرٍ كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَعَلى بَيْعَتِي ، فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَمَاعَتَهُمْ . وَوَثَبُوا عَلى شِيعَتِي فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْراً ، وَطَائِفَةٌ عَضُّوا عَلى أَسْيَافِهِمْ فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا اللهَ صَادِقِينَ .

المعنى :

عضوا على السيوف كناية عن الصبر والثبات في الحرب . دخل عسكر الجمل البصرة ، وأمّن قادة الجمل وعسكره أهلها على أنفسهم وأموالهم .. وسرعان ما غدروا وقتلوا ونهبوا ، ونكّلوا ومثّلوا ، ووقف لهم جماعة من أصحـاب الإمام وشيعته ، وقاتلوهم حتّى استشهدوا ، واليهم أشار الإمام بقوله : (وطائفة عضّوا على أسيافهم ، فضاربوا بها حتّى لقوا الله صادقين) وتقـدم الكلام عن ذلك في الخطبة ١٧٠ .

وقال المستشرق الألمـاني « فلهوزن » في « تاريخ الدول العربية » ، ترجمـة أبو ريدة ص ٥١ وما بعدها طبعة سنة ١٩٥٨ : « كانت لعليّ مكانـة أكبر من

مكانة طلحة والزبير ، وحين حوصر عثمان كان الإمام يصلي بالناس ، وكان في نظر كافة أهل المدينـــة خصوصاً الأنصار هو الخليفة الطبيعي لعثمان ، وقد تلقى البيعة العامة في المسجد .. وانقلب عليه طلحة والزبير انقلاباً مخزياً ، لأنه بتلقيـه البيعة نال دونهـما نجاحاً قانونياً .. وكانا في حياة عثمان لم يألوا جهداً في الكيد له ، وكان يبدو أن ذلك من أجل علي، فقد قدماه على نفسَيهما ، ولكنهما الآن خرجا عليه خروج المنافسين ، واتهمـاه بأنه هو الذي دبر مقتل عثمان » .

الخطبة

- ٢١٧ -

قتلى قريش :

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهٰذَا الْمَكَانِ غَرِيباً . أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتْلَى تَحْتَ بُطُونِ الْكَوَاكِبِ . أَدْرَكْتُ وَتْرِي مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَأَفْلَتَنِي أَعْيَانُ بَنِي جُمَحٍ ، لَقَدْ أَتْلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوُقِصُوا دُونَهُ .

اللغة :

الوتر : الثأر ، والمراد به هنا القصاص الشرعي . واتلعوا : رفعوا أو مدوا . فوُقصوا : اندقت أعناقهم أو كُسرت .

الإعراب :

أفلتني ، الأصل أفلت مني ، ولما حُذفت « من » تخفيفاً اتصلت الياء بالفعل.

المعنى :

قال الشريف الرضي : لما مر الإمام بطلحة وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، وهما قتيلان يوم الجمل قال : (لقد أصبح أبو محمد بهذا المكان الخ) .. وأبو محمد هو طلحة بن عبد الله أو عبيد الله ، وكان من الصحابة المعروفين ، ولكنه أول من حارب الصحابة ، وشهر عليهم السيف هو والزبير وأم المؤمنين ، وكان طلحة من بني تيم بن مرة ، وينتسب هو والزبير بالأم الى عبد مناف ، كما قال ميثم البحراني ، والذي قتل طلحة مروان بن الحكم ، وكانا معاً من أصحاب الجمل يقاتلان الإمام ، كما أسلفنا .

أما عبد الرحمن بن عتاب فلم يكن صحابياً بل تابعياً وأموياً من بني عبد مناف، وحارب الإمام في عسكر الجمل ، وقُتل،وبنو جمح ينتسبون الى لؤي بن غالب، وكان منهم جماعة مع الجمل ، فقُتل بعضهم ، وهرب آخرون . والإمام يكره القتل والقتلى من قريش وغير قريش،وإنما خصهم بالذكر،لأنهم أسرة النبي (ص) وأسرته ، ويتمنى لو كانوا أنصاراً للإسلام لا أعداء له ، يُقتلون على تنزيل القرآن تارة ، وعلى تأويله تارة أخرى . ومراد الإمام بقوله : (أدركت وتري) أنه اقتص بحكم القرآن لقتلى من قَتل أصحاب الجمل من شيعته ورعيته ظلماً وعدواناً .

الخطبة

-٢١٨-

صاحب التقوى :

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ وَأَمَاتَ نَفْسَهُ ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ ، وَلَطُفَ غَلِيظُهُ ، وَبَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ ، وَتَدَافَعَتْهُ الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ وَدَارِ الْإِقَامَةِ ، وَثَبَتَتْ رِجْلَاهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ وَأَرْضَى رَبَّهُ .

المعنى :

يطلب الإمام أن يكون كل مسلم صورة مُثلى للاسلام على طراز هذا المسلم الذي وصفه بقوله : (قد أحيا قلبه) بمعرفة الله ودينه وشريعته (وأمات نفسه) بكبحها عن الشهوات والمحرمات (حتى دق جليله) نحل جسمه ، لأنه يأكل ليعيش ، ولا يعيش ليأكل (ولطف غليظه) لا غلاظة ولا فظاظة في أخلاقه .

(وبرق له لامع كثير البرق الخ) .. أطال الشارحون الكلام حول هذه الجملة، وفسروها بأقوال الصوفية في مجاهدة النفس وترويضها!. والذي نفهمه نحن ان الذي يجمع بين العلم والتقوى تتكشف له مسالك الهدى الى الحق والعدل ، وتظهر أمامه

بوضوح بلا شبهات ولا عثرات،وقد صرح القرآن بهذا في أكثر من آية : «والذين اهتدوا زادهم هدى — ١٧ محمد » . « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى — ١٣ الكهف » والعكس بالعكس : « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً — ١٠ البقرة » . « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم — ٥ الصف » .

(وتدافعته الأبواب الخ) .. قال الشارحون : المراد أبواب الرياضة وتطويع النفس الأمارة ، والانتقال من مقام الى مقام حسبما حدده الصوفية ! .. والصحيح — على فهمنا — ان كل الأبواب التي يدخل منها هذا العالم المتقي هي أبواب الهدى والحكمة والسلامة .. أبداً لا سفه ولا جهل ولا ضلال في أي شيء من أفعاله وتصرفاته ، هذا هو المراد من أبواب المتقي،وقد انتهت به الى قرار مكين وأمين.

الخطبة

-٢١٩-

التكاثر .. فقرة ١ ــ ٢ :

يَا لَهُ مَرَاماً مَا أَبْعَدَهُ ، وَزَوْراً مَا أَغْفَلَهُ ، وَخَطَراً مَا أَفْظَعَهُ . لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكَرٍ ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ، أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ ، أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَكَاثَرُونَ ؟ يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ ، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ . وَلَأَنْ يَكُونُوا عِبَراً أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً ، وَلَأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ أَحْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ . لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعُشْوَةِ . وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ . وَلَوِ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ لَقَالَتْ ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضُلَّالاً ، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالاً . تَطَأُونَ فِي هَامِهِمْ ، وَتَسْتَثْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ ، وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا ، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا ، وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ

وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ[1] . أُولَئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ ، وَفُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمُ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ العِزِّ وَحَلَبَاتُ الفَخْرِ مُلُوكاً وَسُوقاً . سَلَكُوا فِي بُطُونِ البَرْزَخِ سَبِيلاً سُلِّطَتِ الأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ . فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَاداً لَا يَنْمُونَ ، وَضِمَاراً لَا يُوجَدُونَ . لَا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ الأَهْوَالِ ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ الأَحْوَالِ ، وَلَا يَحْفِلُونَ بِالرَّوَاجِفِ ، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ . غُيَّباً لَا يُنْتَظَرُونَ ، وَشُهُوداً لَا يَحْضُرُونَ . وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا ، وَآلَافاً فَافْتَرَقُوا . وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً ، وَبِالسَّمْعِ صَمَماً ، وَبِالحَرَكَاتِ سُكُوناً . فَكَأَنَّهُمْ فِي ارْتِجَالِ الصِّفَةِ صَرْعَى سُبَاتٍ[2] .

اللغة :

المرام : المراد . والزور – بفتح الزاي – للزائر مفرداً أو جمعاً أو مثنى . وما أفظعه : ما أشنعه . واستخلوا منهم : وجدوا الديار خالية منهم . ومدّكر : من الإدكار بمعنى الاعتبار . وتناوشوهم : تناولوهم . ويتكاثرون : يتغالبون في كثرة المال والرجال . وخوت : سقطت أو خلت . وأحجى : أقرب للصواب . والعشوة : ضعف البصر . والغمرة : الحيرة . قال تعالى : « بل قلوبهم في غمرة – ٦٣ المؤمنون » أي في حيرة . وهامهم : رؤوسهم أو أعلاها . ولفظوا : تركوا . وفرّاط وفارطون : جمع فارط ، وهو الذي يتقدم القوم الى الماء أو

الكلأ . ومناهل : جمع منهل أي مورد . وحلبات : جمع حلبة – بفتح الحاء – الدفعة من الخيل . والبرزخ : ما بين الدنيا والآخرة ، والحاجز بين شيئين كالقبر ونحوه . وفجوات : جمع فجوة كالشق ونحوه . والضمار – بكسر الضاد – غيبة بلا رجعة . ويأذنون : يستمعون . ورعد قاصف : شديد الصوت . وآلاف : جمع أليف . وارتجال الصفة : الوصف على البديهة . والسبات – بضم السين – النوم .

الإعراب :

يا له مراماً « يا » للنداء ، وقيل لمجرد التنبيه ، ومراماً تمييز ، وهو بيان للضمير في «له» واللام للتعجب ، ما أبعده « ما » مبتدأ ، وأبعده فعل ماض ، والهاء مفعول ، والجملة خبر ، وأي مدكر حال من ضمير « منهم » أي كاملين في الاعتبار ، مثل : مررت بزيد أيّ رجل ، أي كاملاً ، ولأن يكونوا اللام للابتداء ، والمصدر من أن يكونوا مبتدأ ، والخبر أحق أي كونهم عبراً أحق من كونهم مفتخراً ، وضلالاً حال ، ومثله جهال .

المعنى :

قال الشريف الرضي تلا الإمام قوله تعالى : « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر وقال : (يا له ما أبعده مراماً) . أتريدون أن تُثبتوا الفضائل والمكارم لأنفسكم بكثرة الأموال والرجال حيث يقول بعضكم لبعض : رهطي أكثر أموالاً ، وأعز نفراً ؟.. هيهات، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .. ان الغنى والفقر ، والعز والذل بعض العرض على الله (وزوْرا ما أغفله) يشير بهذا الى قوله تعالى : « حتى زرتم المقابر » والمعنى عجباً من غفلتكم !. أنتم في الطريق الى زيارة المقابر ، ومع هذا تتلهون بالترهات ، وتباهون بعظام الأموات (وخطراً ما أفظعه) ان الذي تنتهون اليه شيء فظيع وخطير ، وهو الموت والقبر والحساب والجزاء . مالكم أفلا تبصرون ؟.

(لقد استخلوا منهم) . تمادى الأحياء في الافتخار والاعتزاز بالموتى من الأجداد والآباء .. وحين زار الخلف المكاثر الأجداث ما وجد فيها أحداً من

السلف الدابر (أي مدّكر) ان هذه موعظة وذكرى للعالمين (وتناوشوهم من مكان بعيد) أي ذكروا الماضين بالعز والمجد،وبين الفريقين أبعد ما بين الخافقين (أفبمصارع آبائهم الخ) .. أتفخرون بالأجسام الفانية ، والعظام البالية؟ (ولأن يكونوا عبراً الخ) .. جدير بالعاقل أن يتعظ بالموتى لا أن يفخر بهم (ولأن يهبطوا بهم الخ) .. وأيضاً جدير به أن يذل ويخشع لا ان يتعالى ويشمخ .

(لقد نظروا اليهم بأبصار العشوة الخ) .. نظروا الى الموتى بعيون غير سليمة، فخاضوا من ذكرهم في بحر من الجهالة (ولو استنطقوا عنهم — الى — أعقابهم جهالاً) . لو أن الأحياء سألوا المقابر عن أجدادهم وآبائهم — لأجابتهم بلسان الحال : انهم في الضلالة والهاوية ، وأنتم في الجهالة والغواية ، ولاحقون بهم الى أسفل سافلين (تطأون في هاماتهم) . قال ابن أبي الحديد : أخذ هـذا المعنى أبو العلاء المعري فقال :

خفف الوطء ما أظن أديم الأر ض إلا من هـذه الأجساد

(وتستثبتون في أجسادهم) . تستحيل أجسادهم الى تراب ، فتغرسون فيها الأشجار ونحوها (وترتعون فيما لفظوا) تتقلبون في اللذي تركوا من حطام الدنيا ومتاعها (وتسكنون فيما خربوا) أي فيما تركوا ، تقول : خربت الديار إذا باد أهلها، لأنها بهم تحيا وتثمر (وإنما الأيام بينكم الخ) .. بكت الأيام أو الديار على الآباء وناحت ، وعما قريب تبكي عليكم وتنوح (أولئك سلف غايتكم) المراد بالسلف من مضى وبالغاية الموت ، والمعنى هم السابقون الى المقابر ، وأنتم اللاحقون .

(وفراط مناهلكم الخ) .. مضى من كان قبلكم من الأجيال ملوكاً ومملوكين، وكان لهم في العز دعائم ، وفي الفخر سباق ، وأنتم على آثارهم تهرعون ، فلماذا تعمهون ؟ وقال الإمام مخاطباً أهل القبور : يا أهل الوحدة ، يا أهل الوحشة ، أنتم لنا فرط سابق ، ونحن لكم تبع لاحق (سلكوا في بطون البرزخ) القبـور (سبيلاً سُلّطت الأرض عليهم الخ) .. فما أبقت لهم جلداً لا لحماً ، ولا دماً ولا عظماً .. أبداً لا شيء في القبر على الإطلاق إلا الظلمات والآفـات .. وأنباء القبر عند الإمام كثيرة وكثيرة ، ولا يمل من تكرارها ، وقد مرت هذه الصفات في الخطبة ١٠٩ و ١٩٥ « والحبل على الجرار » .

وقال ميثم البحراني ما معناه : ان قول الإمام : « أصبحوا جاداً .. لا يفزعهم.. لا يحزنهم » ان هذا يُشعر بأنه لا حساب ولا عذاب في القبر . وأجاب البحراني بأن مراد الإمام ان الموتى جماد بالنسبة الى الحياة الدنيا ، أما بالنسبة الى الآخرة فإنهم يحسون ويشعرون .

وبعد، فإن غرض الإمام من كلامه عن القبور وأهلها هو التنبيه الى ان العاقل اذا تأمل وتدبر بداية االإنسان ونهايته – ينتهي لا محالة إلى الإيمان بأنه مغلوب لقوة قاهرة تتصرف فيه كيف تشاء ، ولا راد لما تريد ، وانه لا نجاة من غضبها إلا بالسمع والطاعة لأمرها ونهيها .

انقطعت الأسباب .. فقرة ٣ – ٥ :

جِيرَانٌ لاَ يَتَأَنَّسُونَ ، وَأَحِبَّاءُ لاَ يَتَزَاوَرُونَ . بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَى التَّعَارُفِ وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْإِخَاءِ . فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ . وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلاَّءُ . لاَ يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَبَاحاً وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً . أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَداً . شَاهَدُوا مِنْ أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خَافُوا ، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَرُوا . فَكِلْتَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَةٍ فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ . فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا . وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ[٣] . لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ . فَقَالُوا كَلَحَتِ الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ وَخَوَتِ الْأَجْسَادُ النَّوَاعِمُ . وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ

ٱلبِلَى . وَتَكَاءدَنَا ضِيقُ ٱلمَضجعِ . وَتَوَارَثْنَا ٱلْوَحْشَةَ . وَتَهَكَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ فَانْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُوَرِنَا ، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا . وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً ، وَلَا مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً . فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ ٱلغِطَاءِ لَكَ وَقَدِ ٱرْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ ، وَٱكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَاقَتِهَا(٤) . وَهَمَدَتِ ٱلقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقْظَتِهَا . وَعَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلًى سَمَّجَهَا ، وَسَهَّلَ طُرُقَ الْآفَةِ إِلَيْهَا ، مُسْتَسْلِمَاتٌ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ ، وَلَا قُلُوبٌ تَجْزَعُ لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ ، وَأَقْذَاءَ عُيُونٍ . لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةُ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ ، وَغَمْرَةٌ لَا تَنْجَلِي(٥) .

اللغة :

العرى : جمع عروة أي مقبض الكوز ونحوه . والجديدان : الليل والنهار . والسرمد : الدائم لا أول له ولا آخر . والمباءة : مكان النزول والاستقرار . والعبر : الأحوال التي تتعظ بها . وكلحت الوجوه : عبست وكشّرت. وخوت الأجسام : تهدمت ، ومثلها تهكمت . والهوام : الحشرات . وعاث : أفسد . وسمّجها : قبّحها وشوّهها . وأقذاء العيون : ما يقع فيها فيؤذيها .

الإعراب :

جيران خبر لمبتدأ محذوف أي هم جيران ، ولئن الواو للقسم ، واللام للتوطئة

وجواب القسم لقد رجعت ، وهو ساد مسد جواب إن الشرطية ، فلو مثّلتهم « لو » حرف امتناع لامتناع كما يقول المعربون ، أو حرف شرط ، ومثلتهم فعله ، ولرأيت جوابه ، ومستسلمات حال من الضمير في « اليها » .

المعنى :

(جيران لا يتأنسون الخ) .. لا علاقات ولا مواصلات بين أهل القبور تماماً كما هو الشأن بين الأحياء والأموات (فكلهم وحيد) في أعماق قبر مظلم وموحش (وهم جمع) قبوراً لا أرواحاً (أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً). أي هنا بمعنى أحد،والجديدان هما الليل والنهار حيث يتجددان ويتعاقبان باستمرار، وضمير « فيه » يعود الى «أي» والمعنى ان الميت لا يعرف ليلاً ولا نهاراً سواء أفارق الحياة الدنيا في ذا أم ذاك ، لأن حاله واحدة دائمة لا تحول ولا تزول من حيث القتام والظلام .

(شاهدوا من أخطار دارهم أفظع مما خافوا الخ) .. كانوا ، وهم أحياء ، يخافون من وحشة القبر ، ولدى العيان رأوا من الفظاعة فوق ما تصوروا (فكلتا الغايتين الخ) .. وهما جنة المتقين ، وجحيم الغاوين ، والمعنى ان المتقين وجدوا عند ربهم أفضل مما وعدهم به من الثواب ، وكذلك الغاوون وجدوا من العذاب فوق ما كانوا يتصورون (فلو كانوا ينطقون بها – أي بمبالغ الخوف والرجاء – لعيوا بصفة ما شاهدوا) . كل فريق من المتقين الذين رجوا الثواب ، والغاوين الذين خافوا العذاب – يعجز عن وصف ما هو فيه لو أسعفه النطق .

(ولئن عميت آثارهم – الى – من ضيق متسعاً) . تكاءدنا : شق علينا وصعب ، وتنكرت:تغيرت ، والمعنى ان الموتى لا يعبرون عن أحوالهم واختباراتهم بلسان المقال ، ولكنهم نطقوا بلسان الحال ، وسمعناهم نحن بآذان العقول يتحدثون ويقولون : الوجوه منا قد تشوهت ، والأجسام قد تهدمت ، والأرواح في شدة وضيق ، ووحدة ووحشة ، وقد طال علينا الأمد ، وانقطع منا الأمل.. وبكلمة أجمع وأبلغ قالها الرسول الأعظم (ص) : « ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه ». وهل من صدمة أفظع وأعنف من الدس في التراب حيث لا عدة ولا قوة ؟.

(فلو مثلتهم بعقلك – الى – أقذاء عيون) . لو استطعت أن تتصور الموتى على حقيقتهم ، أو تكشّف لك الغطاء عنها – لرأيت عجباً، فالأسماع للحشرات، والأبصار للتراب ، والألسن للبلى ، والقلوب جمود وهمود ، وما من عضو فيهم إلا وأفسدته الآفـــات .. وأي شيء أكثر للقلب شجىً ، وللعين قذى من ذلك ؟.

وبعد . فإن ما ذكره الإمام (ع) من أحوال الموتى ليس بالشيء الجديد ، فإن الروح متى خرجت من الجسم صار جيفة مخيفة ، سواء أكان الجسم لانسان ، أم لحيوان ، أما شقاء الروح أو هناؤها فيرتبط بالأعمال لا بالأبدان « وأزلفت الجنة للمتقين وبرّزت الجحيم للغاوين – ٩١ الشعراء » .

للموت غمرات .. فقرة ٦ – ٧ :

وَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ وَأَنِيقِ لَوْنٍ كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيَّ تَرَفٍ وَرَبِيبَ شَرَفٍ . يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ ، ضَنّاً بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ وَشَحَاحَةً بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ . فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ ، وَنَقَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ مِنْ كَثَبٍ . فَخَالَطَهُ بَثٌّ لَا يَعْرِفُهُ ، وَنَجِيُّ هَمٍّ مَا كَانَ يَجِدُهُ . وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ عِلَلٍ آنَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ . فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ الْأَطِبَّاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ ، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلَّا ثَوَّرَ حَرَارَةً ، وَلَا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلا

هَيَّجَ بُرُودَةً ، وَلَا اعْتَدَلَ بِمَازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ حَتَّى فَتَرَ مُعَلِّلُهُ ، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ(٦) ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ . وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّ خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ ، فَقَائِلٌ يَقُولُ هُوَ لِمَا بِهِ ، وَمُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ ، يُذَكِّرُهُمْ أَسَى الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ . فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا وَتَرْكِ الْأَحِبَّةِ ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ ، وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ . فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ ، وَدُعَاءٍ مُؤْلِمٍ لِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ . وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى قُلُوبِ أَهْلِ الدُّنْيَا(٧) .

اللغة :

يتعلل : يظهر العلة ، أو يشغل نفسه بالأباطيل ، وهذا هو المراد هنا . ويفزع : يلجأ . والسلوة : ما يسليك وينسيك عما يزعجك . وضناً : بخلاً . وغضارة العيش : سعته . وعيش غفول : يوجب الغفلة والطغيان . والحسك : نبات شائك . والحتوف : الموت الطبيعي أو المهلكات . والكثب : القرب . والبث : النشر والحال وأشد الحزن ، وهو المراد هنا . والنجي : المناجي . وفترات : من الضعف والفتور لا من الفترة بمعنى الهدنة . والقار : البارد . ومعلله : من يسليه أو يطببه . وممرضه : من يخدمه في مرضه . وتعايا أهله :

أظهروا العي عنــد السؤال . والأسى : ما يتأسى بــه . والغمرات : الشدائد والأهوال .

الإعراب :

كم خبرية ، ومحلها النصب مفعولاً لأكلت ، ومن عزيز تمييز « كم » والتقدير كم من عزيز جسد أكلت الأرض ، وضناً مفعول من أجله ليفزع ، وإذ فجائية لوقوعها بعد بينا ، وآنس حال من ضمير «فيه» ،وما بمعنى شيء ، وكان زائدة ، وبصحبته متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي آنس شيء هو بصحبته مثل مررت برجل هو شيء من الأشياء .

المعنى :

(فكم أكلت الأرض الخ) . من أجسادنا نحن الآدميين كباراً وصغاراً حتى من تقلب في النعيم ، وعاش على الطيبات طوته الأرض في بطنهــا ، وما زالت ضامرة تطلب المزيد تماماً كجهنم (يتعلل بالسرور الخ) .. الضمير المستــتر في يتعلل يعود الى المترف الذي كان اذا نزلت بـه نازلة انصرف عنهــا الى العود والكأس ، وعبث الحياة ولهوها (فبينا هو يضحك — الى — صحته) . اغتاله الدهر بغوائله ، وهو آمن نشوان من سكرات الفراغ والجِدة ، فتحطم وذهبت قواه مع الريح دون إشعار وسابق إنذار :

وقد يسلم الانسان من حيث يتقي ويُؤتى الفتى من أمنه وهو غافل

(ففزع الى ما كان — الى — برودة) . كان الأطباء القدامى يقيسون صحة الجسم بتوازن اليبوسة مع الرطوبة ، والحرارة مع البرودة ، فإذا اختــل التوازن وزاد أحد العنصرين المتقابلين على الآخر اعتل الجسم .. وكان العلاج في نظرهم هو العمل لإعادة التوازن والتعديل ، فإذا ارتفعت الحرارة أطفأوا حدتها بالبارد ، واذا طغت البرودة قهروها بالحار ، ولكن تطبيب ذاك المريض المترف الغافل بهذا

العلاج – جاء على العكس .. فالبارد يرفع من حرارته ، والحار يزيد في برودته! وهل لداء الموت طب أو علاج ؟.

(ولا اعتدل بممازج لتلك الطبائع إلا أمدّ منها كل ذات داء) . كلما بُذلت الجهود والعناية في اتقان الدواء وتركيبه ، وعولج به هذا المريض المترف لكي يعتدل مزاجه – تراكمت أسقامه ، واحتدمت آلامه، تماماً كمن يلقي في النار ما يزيدها اشتعالاً (حتى فتر معلله) يأساً من شفائه (وذهل ممرضه) عنه وعن أوجاعه (وتعايا أهله الخ) .. وحاروا في جواب السائلين عن عليلهم ماذا يقولون ؟ (وتنازعوا دونه شجيّ خبر يكتمونه) . واو الجماعة يعود الى أهل المريض ، وشجي خبر أي خبر مؤلم عن ذي حزن وألم ، وهو المريض ، والمعنى ان أهل المريض تناجوا في شأنه ، وحاولوا جهدهم أن يخفوا عنه ما يتشاورون فيه من أمره حرصاً منهم على راحته .

(فقائل يقول : هو لما به) أي مأيوس منه ، أو مجهول المصير (وممنّ لهم) أي جعلهم يتمنون ويأملون (إياب عافيته) ورجوع صحته الى سابق عهدها (ومصبّر لهم على فقده) ويقول ، إن هو إلا كأجداده وآبائه ، وكلنا على الأثر (فبينا هو كذلك – الى – لسانه) . إنه ذاهب الى غير رجعة ، ولكنه قبل الوداع الأخير فوجىء بغصة وحشرجة في أنفاسه ، قبضت لسانه ، وأطارت صوابه (فكم من مهمّ من جوابه عرفه فعيّ عن رده) يسأله السائل، وهو في حاله تلك ، عن أشياء تهمه وتهم الوارث ، فيفهم السؤال ، ويعرف الجواب ، ولكنه يعجز عن النطق به .

(ودعاء مؤلم بقلبه سمعه فتصام عنه) . المراد بالدعاء النداء أي ان بعض أحبائه يناديه باسمه ، فيسمع النداء ، ومع هذا يتجاهل عجزاً عن الجواب (من كبير كان يعظمه) كوالده الحنون (أو صغير كان يرحمه) كطفله وفلذة كبده (وان للموت لغمرات الخ) .. وسكرات يعجز الوصف عن استيعابها أو ان الوصف يحيط بحقيقة الموت وأهواله كما لو كان بعلم الإمام وبلاغته ، ولكن العقول لا تهضم ولا تصدق ، لأنه فوق ما تدرك وتتصور .

وبعد ، فإن الإنسان يمتلك من الطاقات ما ارتفعت به الى القمر كخطوة أولى الى غيره من الكواكب .. ومع هذا يعجز العلماء مجتمعين أن يردوا الروح الى

مكانها بعد أن تنطلق منه ، أو يمنعوها من الانطلاق ، ويحبسوها حيث هي ..
وقد تحدى سبحانه بذلك كل جاحد ومعاند حيث قال في آخر سورة الواقعة :
« فلولا إذا بلغت الحلقوم ... ترجعونها ان كنتم صادقين » بأنه لا بارىء ولا
خالق .. تأمل في هذا التحدي بلا جهل وعناد .. فإنه حجة دامغة كما هو
موعظة بالغة .

الخطبة

- ٢٢٠ -

ذكر الله سبحانه .. فقرة ١ ـ ٢ :

إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الذِّكْرَ جِلَاءً لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ . وَمَا بَرِحَ لِلَّهِ ـ عَزَّتْ آلَاؤُهُ ـ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقْظَةٍ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْأَفْئِدَةِ . يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللهِ ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ . مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ . وَمَنْ أَخَذَ يَمِيناً وَشِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ ، وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ[1] . وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَأَهْلاً أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلاً

فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ . وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ . فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذٰلِكَ ، فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا . فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذٰلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ[٢] .

اللغة :

الوقرة : ثقل السمع . والعشوة : ضعف البصر . والبرهة : المدة الطويلة . والفترات : جمع الفترة أي الهدنة . والقصد : الاعتدال . والبرزخ : الحاجز وما بين الموت والبعث .

الإعراب :

ما برح من اخوات كان ترفع الاسم وتنصب الخبر ، ولله اسمها، وعباد خبرها، ومصابيح بدل من كذلك ، وبدلاً حال من الهاء في أخلدوه ، والأيام مفعول به ليقطعون ، لأنها مثل قطعت الخيط .

المعنى :

تلا الإمام (ع) قوله تعالى: « يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ــ ٣٧ النور » . وقال : (ان الله سبحانه وتعالى

جعل الذكر – الى – المعاندة) . قيل المراد بالذكر هنا القرآن ، لقوله تعالى مشيراً اليه : « وهذا ذكر مبارك أنزلناه – ٥١ الأنبياء » . وهذا بعيد عن سياق الكلام الظاهر في كل ذكر يكون جلاءً للقلوب ، ويقظة للأسماع والابصار .. وليس من شك ان أفضل الذكر النضال في سبيل الحق ، وجهاد المعتدين عليه ، وليس هذا راجحاً فحسب ، بل هو فرض لا يغني عنه صوم ولا صلاة ولا حج وزكاة .

(وما برح لله – الى – الأفئدة) . قوله : « عزت آلاؤه » أي عظمت وكرمت نعمه ، وقوله : « في أزمان الفترات » أي الأزمنة الخالية من وجود الأنبياء ، والمعنى ان الأرض قد تخلو من رسول ونبي حيناً من الدهر ، ولكنها لا تخلو إطلاقاً من العارفين بالله العاملين بخير ، وهم الذين رأوا بحواسهم اليقظة ، وأدركوا بعقولهم النيرة ان هذا الكون هو من صنع الله سبحانه ، واستوحوا منه حكمته وعظمته ، فخافوه واتقوا بطشه وغضبه . وأسند الإمام هذا الإدراك المصيب الى الله ، لأنه مستوحى من الكون ، وهو من خلق الله وآثاره ، واليه وحده تنتهي سلسلة الأسباب مهما تعددت وتنوعت .. حتى الصورة التي يستوحيها الشاعر والرسام من أشياء الطبيعة وجمالها هي وحي من الله بالاعتبار الذي أشرنا اليه .

(يذكّرون بأيام الله الخ) .. أي بعذابه الذي صبه على من طغى في البلاد فأكثر فيها الفساد ، والمعنى ان العارفين يذكّرون ويهدون الخلق الى طريق الحق ، والذكرى تنفع الضمائر الحية تماماً كما تنفع علامات الطريق السليم في الصحارى والقفار (من أخذ القصد حمدوا اليه طريقه الخ) .. من سلك طريق الهداية شجعوه وأثنوا عليه ، وبشروه برضوان الله وثوابه ، ومن انحرف يمنة ويسرة ذموه ، وأنذروه بعذاب يخزيه ويرديه (وكانوا كذلك الخ) .. أئمة يهدون الى الحق ، وبه يعملون ، والمراد بالظلمات والشبهات الشرك وعبادة الأصنام ونحوها من التقاليد التي سادت في عصر المتقين القلائل .

(وان للذكر لأهلاً) وهم الذين وصفهم الإمام بيقظة الحواس والأفئدة ، وبالأدلة في الفلوات (أخذوه من الدنيا بدلاً الخ).. أدركوا ان الدنيا الى زوال ، وان الآخرة خير لمن قدّمت يداه من الخير ، فسعوا له سعيه ، لا تلهيهم عنه تجارة ولا بيع ، أو قيل وقال (يقطعون به أيام الحياة) لا يقتلون الوقت باللغو

والأباطيل ، لأن الأيام تأخذ من الانسان أثمن ما يملك ، فعليه أن يأخذ منها أغلى الأثمان وأعلاها . قال الإمام : ليس لأنفسكم ثمن إلّا بالجنة ، فلا تبيعوها إلا بها. وقال : لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً ، ومما لك عند الله عوضاً .

(ويهتفون بالزواجر — الى — يتناهون) . يأمرون بالمعروف ويأتمرون به ، وينهون عن المنكر ، ويتناهون عنه ، كما هو شأن المؤمنين حقاً لا شأن من يتاجر بالدين (فكأنما قطعوا الدنيا الى الآخرة ، وهم فيها الـــخ) .. هم في الدنيا بأجسامهم ، وفي الآخرة بأرواحهم وأهدافهم ، نظروا الى هذه على انها دار البقاء والخلود ، فأسسوا لها وبنوا ، ونظروا الى تلك نظرة المسافر العابر ، فتركوها لمن شاءها وأرادها لا ينافسونه في شيء من حطامها (فكأنما اطّلعوا غيوب — الى — عداتها) . البرزخ عالم ما بين الموت ويوم القيامة ،والمعنى ان العارفين بالله ينظرون بعين اليقين والإيمان الى عالم البرزخ ،فيرون كل ما وعد الله به من ثواب الأخيار ، وعذاب الأشرار ، ومن أصدقُ من الله حديثاً ؟.

(فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا) . أخبروهم بما يحدث لهم بعد الموت لعلهم يتقون (حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس ، ويسمعون ما لا يسمعون) يتحدث العارفون بالله عن عالم البرزخ كأنهم فيه بجميع حواسهم وشعورهم بصراً وسمعاً وعقلاً وقلباً ، أما أهل الدنيا فهم مع الآخرة بالسمع لا بالعيـــان ولا بشيء من الشعور والاتعاظ .. وقال ابن أبي الحديد : كأن الإمام يشرح هنا ما قاله في مكان آخر : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » .

حاسب نفسك .. فقرة ٣ :

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ ، وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ وَقَـدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ ، وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِـمْ عَنْ كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا ، أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا ، وَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ فَضَعُفُوا عَنِ الاسْتِقْلَالِ بِهَـــا فَنَشَجُوا نَشِيجاً

وَتَجَاوَبُوا نَحِيباً . يَعِجُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَاوِمِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدًى ، وَمَصَابِيحَ دُجًى . قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ ، وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِـــدُ الْكَرَامَاتِ فِي مَقَامٍ اطَّلَعَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ . رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَى فَضْلِهِ ، وَأَسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ . جَرَحَ طُولُ الْأَسَى قُلُوبَهُمْ ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ . لِكُلِّ بَابِ رَغْبَةٍ إِلَى اللهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ . فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ فَـــإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ(٣) .

اللغة :

مقاوم : جمع مقام . ويتنسمون : يتنفسون أو يشمون . والمنادح : المندوحة أي السعة والفسحة .

الإعراب :

نحيباً مفعول مطلق لتجاوبوا من غير لفظه ، ولرأيت جواب لو مثلتهم ،ورهائن خبر مبتدأ محذوف أي هم رهائن ، ولكل باب خبر مقدم ، ويد مبتدأ مؤخر .

المعنى :

(فلو تمثلتهم لعقلك ــ الى ــ لرأيت أعلام هـــدى) . لأهل الله مجالس

وخلوات يحاسبون فيهـا أنفسهم : هل تركتُ واجباً ، أو ارتكبت محرماً ؟. ويشهدون عليها بالكسل والتقصير في جنب الله والحق ، ويعنفونهـا بكل جارح ومؤلم .. وما أخذت المسكينة من الدنيا شيئاً ، ولكن مطامح الاتقيـاء الى الفوز برضوانه تعالى ليس لها حد محدود ، ومن أجل هذا يستجيرون بكـرم الله أن يرحم ويغفر ، ولا شك ان هذا الطموح والحساب الدقيق مصدره الخـوف من سواد الوجه عند الله ، ولا مصدر لهذا الخوف إلا العلم بالله وعظمته .

ولعلمهم بالله وخوفهم منه (قد حفت بهم الملائكة) . هذا كناية عن عظيم منزلتهم عند الله وملائكته ورسله وخالص المؤمنين (تنزلت عليهم السكينة الخ).. المراد بالسكينة هنا الاطمئنان والرحمة والكرامة والنعمة ، وبكلمة واحدة : السعادة كما هي عند الله ، والمعنى ان من يعيش ويحيا في الإيمان بالله وحـده ، ويلتزم بهذا الإيمان في جميع أقواله وأفعاله كهؤلاء العارفين ، ان من كان كذلك لا بد أن ينتهي الى السكينة بالمعنى الذي أشرنا اليه (فرضي) الله (سعيهم) لأنه خالص لوجهه الكريم (يتنسمون بدعائه روح التجاوز) عن تقصيرهم فيما كانوا يطمحون اليه من طاعة الله ومرضاته .

(رهائن فاقة الى فضله) أي يشعرون بالحاجة الى رحمة الله تعالى مهما عملوا واجتهدوا (وأسارى ذلة لعظمته) لا يرون لهم حولاً ولا قوة إلا بالله وحـده (جرح طول الأسى الخ) .. يحزنون ويبكون خوفاً من الحساب والجزاء (لكل باب الخ) .. يقرعون كل باب ، ويسلكون كل سبيل يوصلهم الى الله سبحانه (يسألون من لا تضيق عليه الخ) .. يسألون من عنده خزائن الأرض والسموات، ونيل المطالب والحاجـات ، ويُستغنى به ، ولا يُستغنى عنه . وتقدم مثله في الخطبة ٨٩ .

حاسب نفسك :

(فحاسب نفسك لنفسك ، فإن غيرها من الأنفس لهـا حسيب غيرك) . ما لك ولعيوب الناس وأخطائهم ؟. وهل أنت في عصمة من الخطأ والخطيئة . أو أنت وكيل على غيرك وحسيب ؟ والله سبحانه يقول لسيد الكونين : « وما

جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل – ١٠٧ الأنعام » . عليك أن تراقب وتحاسب نفسك بنفسك، لتقف بين يدي الله طاهرة من دنس الذنوب والآثام، وأن تكون لها قائداً لا مقوداً ، ومدرِّباً لا مستعبَداً، ولا تتغافل عنها أدنى تغافل.. وإلا جمحت بك من حيث لا تشعر . وتقدم مثله في الخطبة ١٣٨ .

الخطبة

- ٢٢١ -

ما غرك بربك الكريم .. فقرة ١ — ٢ :

أَدْحَضُ مَسْؤُولٍ حُجَّةً ، وَأَقْطَعُ مُغْتَرٍّ مَعْذِرَةً . لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ . يَا أَيُّهَا ٱلْإِنْسَانُ مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ، وَمَا آنَسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ . أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ . أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقَظَةٌ . أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ . فَرُبَّمَا تَرَى ٱلضَّاحِيَ لِحَرِّ ٱلشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ ، أَوْ تَرَى ٱلْمُبْتَلَى بِأَلَمٍ يُمِضُّ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ ، فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ ، وَجَلَّدَكَ عَلَى مُصَابِكَ ، وَعَزَّاكَ عَنِ ٱلْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ ، وَهِيَ أَعَزُّ الأَنْفُسِ عَلَيْكَ . وَكَيْفَ لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ . فَتَدَاوَ مِنْ دَاءِ ٱلْفَتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ ، وَمِنْ كَرَى ٱلْغَفْلَةِ فِي نَاظِرِكَ بِيَقَظَةٍ[1] . وَكُنْ لِلهِ مُطِيعاً ، وَبِذِكْرِهِ آنِساً . وَتَمَثَّلْ فِي حَالِ تَوَلِّيكَ

عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ . يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ وَيَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ وَأَنْتَ مُتَوَلٍّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ . فَتَعَالَى مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ ، وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَأَنْتَ فِي كَنَفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ . فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلَهُ وَلَمْ يَهْتِكْ عَنْكَ سِتْرَهُ ، بَلْ لَمْ تَخْلُ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ ، فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ . فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ ؟ وَأَيْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ هٰذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفِقَيْنِ فِي الْقُوَّةِ ، مُتَوَازِيَيْنِ فِي الْقُدْرَةِ لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ وَمَسَاوِي الْأَعْمَالِ[٢] .

اللغة :

أدحض : أشد دحضاً أي بطلاناً . وأقطع : أشد قطعاً أي بعداً وإبانة . وأبرح : أعجب أو أشد . وآنسك : ضد أوحشك . والبلول : الشفاء من المرض . والضاحي : من أصابته الشمس . ويُمض : يُؤلم ويوجع . وجلّدك : صبّرك أي جعلك صابراً . وتورطت : وقعت فيما لا خلاص لك منه . والكرى: النعاس ، وليس النوم كما ظن بعض المعلقين . والكنف : الظل والجانب .

الإعراب :

أدحضُ خبر لمبتدأ محذوف أي الانسان أو هو أدحض ، وحجة تمييز ، ومثلها معذرة وجهالة . وما جرأك «ما» للاستفهام مع الإنكار ، ومحلها الرفع بالابتداء ، وجملة ما بعدها خبر ، فلربما اللام زائدة ، و « ما » كافة ، ورحمة مفعول من أجله لتبكي ، وكيف حال أي على أي حال لا يوقظك خوف ، ومطرف نصب على الظرفية ، لأن الأصل قدر مطرف .

الله يمهل ولا يهمل:

تلا الإمام (ع) قوله تعالى : « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم » وقال: (أدحض مسؤول – الى – نفسه) . أبداً لا حجة ولا عذر لك أيها المتجرىء على معصية الله ، وما أنت إلا جاهل مغرور .. وقال قائل : إن الذي أغـــراه بالمعصية قوله سبحانه : « ما غرك بربك الكريم » حيث ألهمه الجواب وعلّمه أن يقول غداً اذا سئل عن ذنبه : غرني حلمك وكرمك .!. وهذا خطأ ، لأن الله سبحانه لا ينهى عن المعصية ، ثم يغري بها .

أما الإمام فإنه يفسر الكرم في الآية بالحلم والإمهال ، وانه تعالى يمهل ولا يهمل أي لا يعجل العقوبة ، وإلا ما ترك على ظهرها من دابة .. انه يمد للعاصي ، وينعم عليه ، عسى أن يؤوب الى رشده ، ويرجع عن غيّه ، وعليه يكون معنى الآية : لا تغترّ أيها الانسان بحلم الله وسكوته عنك ، فإن هذا تأنيب لك واختبار. وأجلُّ ما قرأت في هذا الباب مناجاة للإمام زين العابدين(ع) قال فيها من جملة ما قال :

« سبحانك ما أعجب ما أشهد به على نفسي ، وأعدده من مكتوم أمري ، وأعجب من ذلك أناتك عني ، وإبطاؤك عن معاجلتي ، وليس ذلك من كرمي عليك ، بل تأنيباً منك لي ، وتفضلاً منك عليّ ، لأن أرتـدع عن معصيتك المسخطة ، وأقلع عن سيئاتي المخلفة ، لأن عفوك عني أحب اليك من عقوبتي» .

(يا أيها الانسان ما جرأك – الى – هلكة نفسك) . الإمام يشعـر بآلام الناس ، ويتوجع لها ولهم،حتى عذابهم في الآخرة يشفق عليهم منه ، بل توجعه لهم من أجل هذا أشد وأعظم ، لأنه أقسى وآلم .. ومن أجـل هذا خاطب من من يستهين بمعصية الله ، خاطبه بلسان الشفيق الناصح ، ونهـاه بأسلوب السؤال والاستفهام : كيف أعرض عن خالقه ، وصرف وجهـه عن دعوته ، وطلب النوال من غيره ؟. وما الذي جرأه على هذا الضلال والاستسلام للتهلكة ؟.

(أما لدائك بلول الخ) .. الى متى هـذا التمادي في الغي ؟ ألا تفيق من نشوتك ؟ (أما ترحم نفسك – الى – أعز الأنفس عليك) . عجباً منك !. ترى غريقاً فتسعفه ، أو متألماً من لفحـة الهجير فتظلله ، ثم لا تقي نفسك من عذاب الحريق ، وأنت تملك القدرة على خلاصها وسلامتها ؟ ما شأنك ؟ هـل

ران على بصرك وبصيرتك ، أم أنت في غنى عن نفسك ؟ ولو كنت على شيء من الوعي لبكيت عليها دماً (وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمة) ومن الذي يعصمك من الله إن أراد بك سوءاً ؟ وهل أخذت منه عهداً وأماناً ؟ : « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون — ٤ الأعراف». (وقد تورطت بمعاصيه الخ) .. أي تصديت لغضب الله وعذابه ، فادفعه عنك إن كنت ذا قوة وطول .

(فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة الخ) .. المراد بالفترة هنا الفتور وعدم العزم والنشاط بقرينة قوله « بعزيمة » والمعنى كن يقظاً ونشيطاً ، ولا تكسل في طاعة الله ، وتستوحش من ذكره (وتمثل في حال توليك عنه إقباله عليك) . أنت تعرض عن الله لاهياً بملذاتك وشهواتك ، وهو يُقبل عليك بفضله وإحسانه.. تصور حالك ووضعك هذا بينك وبين نفسك عسى أن تكف وتهتدي (يدعوك الى عفوه) أي الى التوبة وطلب العفو ، لأن عفوه تعالى عن ذنبك أحب اليه من عذابك: «ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم — ١٤٧ النساء » .

(ويتغمدك بفضله ، وأنت متول عنه الى غيره) . أهذا جزاء من غمرك بالإحسان : تأكل رزقه ، وتعبد غيره ؟. فأين الوفاء والحياء ؟ (فتعالى — الله — من قوي ما اكرمه) !. نُقصّر في طاعته عمداً ، وننتهك حرماته قصداً ، ومع هذا يحلم ولا يعاجل.. سبحان ربنا إنّا كنا ظالمين (وتواضعت من ضعيف —الى— يصرفها عنك) الخطاب للإنسان ، وتواضعت : من الضعة والحقارة ، والمعنى من أنت أيها الجاهل الوضيع حتى تجرأ على الله ، وتخالفه في أمره ونهيه ؟ فكم من نعمة أسداها اليك ، وخزي ستره عليك ، ومكروه دفعه عنك ، كل هذا، وأنت متماد في الغي والضلال (فما ظنك به لو أطعته) وطلبت منه الرضوان والأمان ، فإنه يعطيك ما أملت ، ويزيدك من فضله .. انه واسع رحيم .

(لو ان هذه الصفة) وهي الإساءة للمحسن (كانت في متفقين الخ .. قوة وقدرة ، لكنت أول حاكم على نفسك بذميم الأخلاق ، ومساوىء الأعمال) لأنك أسأت لمن أحسن اليك ، فكيف والذي أحسن اليك خالقك وخالق الكائنات ؟. وقيل : ان القدرة أشد وأعظم من القوة ، ولذا جاء في القرآن الكريم : ان الله على كل شيء قدير . وليس فيه على كل شيء قوي. وفيه ان الله قوي عزيز.

أسلوب أهل البيت في التربية :

وبعد ، فهذا هو اسلوب أهل البيت (ع) في التربية والتعليم ، ومكافحة الضلال والفساد .. انهم يخلقون الشعور بالمسؤولية في نفس الإنسان ليكون له رادع من الداخل لا من الخارج فقط ، وكلنا يعلم ان المسؤولية هي التي تدفعنا الى العلم والعمل ، وبناء الحضارة والمدنية ، والخضوع لصالح الجماعة ، والتعاون على الخير ودفع الشر ، وصيانة الحقوق واحترامها ، ومن أقوال الإمام : « من كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ » أي من الفوضى ومجاوزة الحدود . وقد اختلف العلماء والفلاسفة في تعريف الانسان وتحديد هويته ، وفي رأينا انه الحيوان الوحيد الذي يشعر بالمسؤولية ، أو الذي ينبغي أن يشعر بها .

رب ناصح متهم .. فقرة ٣ – ٤ :

وَحَقًّا أَقُولُ مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ وَلٰكِنْ بِهَا اُغْتَرَرْتَ . وَلَقَدْ كَاشَفَتْكَ الْعِظَاتُ وَآذَنَتْكَ عَلَى سَوَاءٍ . وَلَهِيَ بِمَا تَعِدُكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ أَوْ تَغُرَّكَ . وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ ، وَصَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكَذَّبٌ . وَلَئِنْ تَعَرَّفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ وَبَلَاغِ مَوْعِظَتِكَ بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ وَالشَّحِيحِ بِكَ . وَلَنِعْمَ دَارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً ، وَمَحَلُّ مَنْ لَمْ يُوَطِّنْهَا مَحَلّاً . وَإِنَّ السُّعَدَاءَ بِالدُّنْيَا غَداً هُمُ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ(٣) . إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ . وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا الْقِيَامَةُ . وَلَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبَدَتُهُ ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ ، فَلَمْ يُجْزَ فِي عَدْلِهِ وَقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرْقُ بَصَرٍ فِي

ٱلْهَوَاءِ ، وَلَا هَمْسُ قَدَمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ . فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةٍ ، وَعَلَائِقِ عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٍ . فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُذْرُكَ ، وَتَثْبُتُ بِهِ حُجَّتُكَ . وَخُذْ مَا يَبْقَى لَكَ مِمَّا لَا تَبْقَى لَهُ . وَتَيَسَّرْ لِسَفَرِكَ . وَشِمْ بَرْقَ النَّجَاةِ . وَأَرْحِلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ (٤) .

اللغة :

آذنتك على سواء : أعلمتك على عدل . وتعرفتها : طلبت معرفتها . ويُوطّنها: يتخذها وطناً . والراجفة : النفخة التي تموت منها الخلائق . وحقت : وقعت . وجلائلها : عظائمها . ومنسك : موضع النسك أي العبادة . والعلائق : جمع العلاقة . وتحر : ابحث واطلب ما هو أحرى بك . وشمْ : من شام البرق اذا نظر اليه . وأرحل المطايا : إذا شد على ظهرها للرحيل . والتشمير : الجد .

الإعراب :

حقاً صفة لمفعول مطلق محذوف أي أقول قولاً حقاً ، والعظات بالرفع فاعل كاشفتك ، وبالنصب على حذف الخافض أي بالعظات ، والفاعل ضمير مستتر يعود الى الدنيا ، ولرب اللام للتوكيد،ومحلاً مفعول ثان ليوطّنها ، لأن الفعل متضمن معنى يتخذها ، وقيل محلاً تمييز ومثلها دارا ، وكم خبرية ، ومحلها الرفع بالابتداء ، وداحضة خبر ، ويوم ذاك متعلق بداحضة .

المعنى :

(ما الدنيا غرتك الخ) .. لأن كل ما فيها عظات وعبر ، ولا يعمى عنها إلا أعمى ، ولا يغتر بها إلا ضال عن الهدى (وآذنتك على سواء) أي اعلمتك بحقيقتها صدقاً وعدلاً ، وهذا من الأساليب القرآنية ، قال تعالى : « فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء ـ ١٠٩ الأنبياء » أي أديت ما عليّ بأمانة ، وما تركت

لكم من عذر (ولهي بما تعدك — الى — تغرك) . كل ما أصابك ويصيبك من مرض وفقر ونكبات فقد أنبأتك الدنيا به سلفاً بما رأيت وسمعت مما حدث لغيرك من العبر ، ولكنك لم تعتبر،وأخذتك العزة بالإثم ، وظننتَ انك قوي لا يُضام .

(ولرب ناصح لها عندك متهم) . المراد بالناصح هنا مـا يحدث في الحياة الدنيا من عبر وعظات ، وضمير لها يعود للدنيا ، واللام في « لهـا » للاختصاص مثل هذا الشعر لفـلان ، والمراد بالتهمة الاعراض عن النصيحة ، والمعـنى ان الدنيا تنصح وأنت لا تسمع . ومن أقوال الإمام : الاعتبار منذر ناصح،أي مـا يحدث لغيرك هو خير مرشد لك (وصادق من خبرها مكذّب) عطف تفسير ، لأن المعنى لا تصدّق من صدقك (ولئن تعرفتها — الى — الشحيح بك) . لو درست أحوال الماضين بإمعان ، واتعظت بما أصابهم — لوجدت الدنيا أشفق عليك من أمك وأبيك بما ألقت عليك من دروس نافعة لو كنت من الذين يعقلون .

(ولنعم دار من لم يرض بها داراً) أي نعم الدار غيرها ، وهي الآخرة ، أما الدنيا فبئست الدار هي (ومحل من لم يوطّنها محلاً) عطف تفسـير (وان السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها) أي العاملون للآخرة لا للدنيا فقط (اذا رجفت الراجفة — الى — بحقه) . قوله : « فلم يجز » جواب إذا رجفت ، والمراد بخرق البصر وهمس القدم أن ما من شيء له أثر في الحياة الدنيا إلا ويجري عليه الحساب والجزاء عند الله حتى ولو كان طرفة عين أو وطء قدم ، والمعنى إذا قامت القيامة بأهوالها ، ولحق كل عابد بمعبوده ، وكل تابع بمتبوعه — فلا يسوغ إلا الحق ، ولا يجري إلا العدل : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره — ٨ الزلزلة » .

(فكم حجة يومذاك داحضة) كما قال سبحانه : « فيومئذ لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا هم يستعتبون — ٥٧ الروم » لأنهم ظلموا وأفسدوا بعد قيام الحجة عليهم بالبيان والنهي عن الفساد والإفساد (وعلائق عذر منقطعة) . العـذر هنا بمعنى الحجة ، وانقطاع العلاقة بينه وبين أفعال الغاوين معناه إبطال عذرهم ودحضه ، وعليه يكون العطف للبيان والتفسير .

(فتحرّ من أمرك الخ) .. عليك أن تنسجم في أقوالك وأفعالك مع الصدق والعدل ، لتكون الحجة لك لا عليك فيما تقول وتفعل (وخذ ما يبقى لك مما لا تبقى له) . الباقي الدار الآخرة ، والفاني الحياة الدنيا ، فخذ من هذه ما ينفعك

في تلك . ومثله في الخطبة ٢٠١ : خـــذوا من ممركم لمقركم (وتيسر لسفرك) هيىء له الأسباب بصالح الأعمال (وشِمْ برق النجاة) . استضىء بنور الهدايـــة لتبلغ دار السلام (وارحل مطايا التشمير) . تزود للرحيل بالإخلاص لله، والنصح لعباده .

ومرة ثانية نقول : ان غرض الإمام من هذه الخطبة وأمثالها — أن يكـــون للإنسان من نفسه على نفسه حسيب ورقيب فيما يفعل أو يدع ، لأن هذا الرقيب أو هذا الشعور بالمسؤولية هو شعلة مباركة تهدي للتي هي أسلم وأقوم .

الخطبة

-٢٢٢-

الإمام وأخوه عقيل .. فقرة ١ ـ ٢ :

وَاللهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً ، وَأُجَرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ . وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبِلَى قُفُولُهَا ، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا . وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً ، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ غُبْرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ ، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً طَرِيقِي ، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا ، وَكَادَ

أنْ يَحْترِقَ مِنْ مِيْسَمِهَا . فَقُلْتُ لَهُ ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ ، أتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أحْمَاهَا إنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ ،وتَجُرُّنِي إلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ . أتَئِنُّ مِنَ الأذَى وَلَا أئِنُّ مِنْ لَظَى[1] . وَأعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا ، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا كَأنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أوْ قَيْئِهَا ، فَقُلْتُ أصِلَةٌ أمْ زَكَاةٌ أمْ صَدَقَةٌ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أهْلَ الْبَيْتِ . فَقَالَ لَا ذَا وَلَا ذَاكَ ، وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ . فَقُلْتُ هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ أعَنْ دِينِ اللهِ أتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي ، أمُخْتَبِطٌ أنْتَ أمْ ذُو جِنَّةٍ أمْ تَهْجُرُ . وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أفْلَاكِهَا عَلى أنْ أعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أسْلُبُهَا جِلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُ وَإنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لأهْوَنُ مِن وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا ، مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى . نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ وَقُبْحِ الزَّلَلِ وَبِهِ نَسْتَعِينُ[2] .

اللغة :

السعدان : نبت له شوك . ومسهداً : ساهراً أرقاً . ومصفداً : مقيداً . وقفولها : رجوعها أو فناؤها . وأملق: افتقر . واستماحني: طلب مني منحة. وشعث الشعور: شعورهم متلبدة بالأوساخ . والعظلم: صبغة النيل . والقياد : حبل يقاد به . والدنف : المرض . والميسم – بكسر الميم وسكون الياء وفتح السين – المكواة . وثكلتك : فقدتك . والثواكل والثاكلات : النساء . وشنئتها : كرهتها . والصلة العطية أو الرشوة . وهبلتك : ثكلتك . والهبول : الثاكلة . ومختبط : تتصرف

بغير هدى . وتهجر : تهذو . وجلب الشعيرة : قشرتها . وتقصمها : تكسرها بأسنانها .

الإعراب :

المصدر من أن أبيت مبتدأ ، وأحب خبر ، وظالماً حال ، ومثله شعث الشعور ، لأن رأيت هنا بصرية لا تتعدى الى مفعولين ، وكذا غبر الألوان ومؤكداً ومردداً ومفارقاً ، وصلة خبر لمبتدأ محذوف أي أهذه صلة ، وما لعلي ؟ مبتدأ وخبر .

المعنى :

(والله لأن أبيت الخ) .. كل انسان اذا خُيِّر بين التقلب على الأشواك والجر في الحبال والأغلال ، وبين عذاب الحريق — يختار الحال الأولى لأنها أهون الشرين ، سواء أكان المخير علياً أم معاوية .. والفرق أن علياً لو خُيِّر بين المبيت على الأشواك مع الجر بالأغلال والأصفاد ، وبين أن يملك الكون بأرضه وسمائه ، ورجاله ونسائه على أن يظلم نملة في قشرة شعيرة — لفضّل عذاب الدنيا ومرّها على ظلم النملة فما دونها ، وما ذاك إلا لعلمه بالله ، وايمانه بالعدل ، وزهده في الدنيا ، وخوفه من عاقبة الظلم .

أما معاوية فحب الدنيا والسيطرة جزء من طبيعته وكيانه ، والناس كلهم قطيع لعظمته وسلطانه ، ولا شيء لمن يعترض ويقاوم إلا السيف أو السم في العسل ، أما حديث الآجلة فخرافة ، أو لا يهم ما دامت العاجلة تاج وعرش .. وبكلمة ان معاوية لا يرى في الوجود إلا معاوية وابنه يزيد ، ومن رأى غير هذين فله الموت ، وحكاية « ان مات هذا فهذا ، ومن أبى فهذا » أشهر من تذكر ، والإشارة الأولى الى معاوية ، والثانية الى يزيد ، والأخيرة الى السيف[1] .

---

١ في العقد الفريد ج ٥ ص ١١٢ طبعة سنة ١٩٥٣ : خطب يزيد بن المقفع في حضور معاوية وقال : أمير المؤمنين هذا ، وأشار الى معاوية، فان هلك فهذا ، وأشار الى يزيد ، فمن أبى فهذا ، وأشار الى السيف. فقال له معاوية : أنت سيد الخطباء .

وقد يكون معاوية مهذباً مع الآخرين ، بل وسخياً ، ولكن على شرطه ، وهو أن تتفق أعمالهم مع أهدافه ، أو لا تتصادم معها – على الأقل – قال العقاد في كتاب « معاوية » ص٥٧ طبعة ١٩٦٦ : « كل دهاء يذكر لمعاوية فإنما يذكر الى جانبه رفد أو عطاء وولاية يستفيد منها من ينصره ولا ينخدع عنها في مبادلة النفع بينه وبينه ، ولا جرم كان العطاء عماد هذا الدهاء ، وكان نقش الخاتم الذي تختم به بعدُ ولايته : « لكل عمل ثواب » . وتقدم الكلام عن سياسته في شرح الخطبة ١٢٠ فقرة : عشاق الكراسي .

(والله لقد رأيت عقيلاً – الى – لظى). قصة الإمام مع أخيه عقيل يعرفها القاصي والداني ، وقد حكاها الإمام هنا بوضوح ، والمفردات التي تحتاج الى تفسير ذكرناها في فقرة : اللغة . واذن فلا داعي للتطويل بلا طائل، وأكثر الذين كتبوا عن الإمام، أو الكثير منهم استشهدوا على صلابته في الحق بموقفه مع عقيل، وآخر من ذكر هذا الموقف وأشاد به من المؤلفين الكاتب المصري الأستاذ عبد الكريم الخطيب – فيما نعلم – قال في كتاب « علي بن أبي طالب » ص ٤٣٩ وما بعدها ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧ :

« في موقف علي من أخيه عقيل ما يغني عن كل مثل يُورد ، وعن كل قول يقال ، فعقيل هو شقيق علي الأكبر .. وبينهما أُخوة صادقة خالصة ، لا تشوبها شائبة كدر أو جفوة ، وبتلك الاخوة وبحقها جاء عقيل الى أخيه يسأله بعض المال الذي اقتضته الحياة منه ، وقصرت يده عنه .. فقال له : مرحباً بك وأهلاً . ما أقدَمك علينا ؟. قال : ركبنا دين عظيم ، فجئت لتصلني . فقال له علي : والله ما لي مما ترى شيئاً إلا عطائي ، فإذا خرج فهو لك .

فقال عقيل : أترى شخوصي اليك من أجل عطائك ؟.

فقال الإمام : أتريد أن يحرقني الله بنار جهنم في صلتك بأموال المسلمين ؟.. ثم أشار الخطيب الى قصة الحديدة .. فقال عقيل : والله لأخرجن الى رجل هو أوصل لي منك .. يريد معاوية . فقال له الإمام : راشداً مهدياً » .

« ولما قدم عقيل على معاوية وصله بثلاثمئة ألف درهم .. وقال له : أنا أحسن

أم أخوك ؟ قال عقيل : أنت خير لي في دنياي ، وأخي لي في ديني .. هذه بعض أمثلة لموقف علي من رجاله وأنصاره .. وقد تحوّل كثير منهم الى جبهة معاوية بفعل هذه السياسة » .

الإمام والوافدون على معاوية :

كان الإمام (ع) يعلم ان أصحابه من أهل الدنيا لن يستطيعوا معه صبراً ، وانهم تاركوه الى معاوية .. ولعل هذا من جملة الأسباب التي دعت الإمام أن يحقر الدنيا ويطنب في بيان مساويها ، ويحذر الراغبين فيها من سوء المنقلب وكآبته .. ومهما كان فإن الإمام لم يستكره أحداً على البقاء معه ، أو يرضيه ويحابيه على حساب دينه وحساب المسلمين .. وكان يتوجه الى العقول والقلوب ، ويخاطبها بمنطق الدين والضمير ، ويبالغ في الوعظ والنصيحة ، وينذر ويحذر من عذاب الله وغضبه ، كما رأينا في خطبه ، ثم يدع الناس وما يختارونه لأنفسهم ، وهذه هي طريقة الرسول العظيم (ص) والقرآن الكريم : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ — ١٠٥ الأنعام » .

وعلى هذا الطريق سار الإمام مع أهله وجيشه وأنصاره ، لا يمارس ضغطاً ، ولا يرشي ضميراً ، ولا يتنازل عن حق أياً كانت الظروف والنتائج .. قيل له: إن جماعة من أصحابه أو رعيته لحقوا بمعاوية ، فما زاد على قوله : « والله لم ينفروا من جور ، ولم يلحقوا بعدل » . هذا هو الإمام لا يبتغي من دنياه شيئاً، ولا يقيم علاقة مع قريب أو بعيد إلا على أساس العدل والحق .. ولو ان أهل الأرض كانوا في جانب ، والحق في جانب ، لكان وحده مع الحق غير خائف ولا مستوحش ، وبهذا سطّر الإمام صفحات جليلة في تاريخ الاسلام والمسلمين ، وصدق من قال : « لو لم يسر علي سيرته المثالية أكانت تبقى تلك الجذوة مشتعلة وكامنة في النفوس ؟ إن علياً لعب دوره الجليل كأعظم ما يلعب الانسان الفائق دوره في التاريخ » .

(واعجب من ذلك طارق) وهو الأشعث بن قيس رأس المنافقين في أصحاب الإمام تماماً كعبدالله بن أبي بن سلول في أصحاب النبي (ص) . (طرقنا بملفوفة)

من الحلوى (في وعائها) وضعت في وعاء مغطى ، كما هو المعتاد (ومعجونة شنئتها) المعجونة هي الملفوفة ، وشنئتها كرهتها (كأنما عجنت بريق حيـة أو قيئها) . هذا بيان لشدة الكراهية والنفرة من حلوى الأشعث ، وانها تماماً كالسم الناقع في جوف الأفعى .

(فقلت : أصلة) ورشوة تتوصل بهـا الى غاية دنيئة وخبيثة من غاياتك (أم زكاة) مفروضة عليك (أم صدقة فذلك محرم علينا أهل البيت) . الرشوة يحرم عطاؤها وأخذها إطلاقاً على أهل البيت وغيرهم ، والزكاة حرام على كل هاشمي إلا إذا كانت من هاشمي مثله ، والمراد بالصدقة هنا ما كان ندباً لا فرضاً بدليل مقارنتها مع الزكاة المفروضة . وللفقهاء في هذه الصدقة قولان : الأول : انها تحل لكل هاشمي سواء أكان من أهل البيت ، أم من غيرهم . القول الثاني انها تحرم على أهل البيت فقط ، وهم محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع) أما غيرهم من الهاشميين فلا تحرم عليهم صدقة الندب . وظاهر قول الإمام هنـا يعزز هذا الرأي ويؤيده . وعلى أية حال فلا جدوى من النقاش في هذا الموضوع، لأن أهل البيت الآن عند الرفيق الأعلى .

(فقال : لا ذا ولا ذاك ، ولكنها هدية) وهي حلال لجميع الناس (فقلت: هبلتك الهبول) ثكلتك أمك (أعن دين الله أتيتني لتخدعني) فيه إيماء الى أن الأشعث كان قد طلب من الإمام أمراً لا يحل له،وانه حاول أن يستميله بحلواه، فزجره الإمام ووبخه بقوله : (أمختبط أنت) . تخبط خبط عشواء أي تتصرف على غير بصيرة (أم ذو جنة) بك مس من الجنون (أم تهجر) تقـول بلا خبرة ، وتهرف بما لا تعرف .

(والله لو أعطيت الأقاليم السبعة الخ) .. يزهد الإمام في الكون بجميع أقاليمه طلباً لما هو أكثر وأعظم ، ورغبة في ثواب الله ورضوانه،ويدل على ذلك بوضوح قوله : (على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت) لأن الكون بما فيه مع غضب الله ما هو بشيء ، والمبيت على حسك السعدان والجر بالأغلال مع مرضاته تعالى هو كل شيء .

أليس هذا عين الطموح والرغبة فيما هو أجلّ وأعظم من الأقاليم السبعة ؟. وهل تُقدر مرضاة الله بشيء ؟.. أبداً لا وزن لشيء عند الإمـام ، ولا يصدع رأسه

في التفكير بشيء إلا برضا الله ، فهو وحده المثل الأعلى ، والغرض الأسمى ، وفيه وحده راحته وهناؤه وسعادته .. وما أبعد ما بين فلسفة الإمام هذه، والفلسفة البرجماتية الأمريكية التي تقول : لا حق ولا خير ولا جمال في الوجود، ولا مجتمع ومجتمعات ، وانسان وانسانيات .. أبداً لا شيء على الإطلاق إلا ما يحقق لك النفع والنجاح بزيادة الدخل في هذه الحياة .

الخطبة

- ٢٢٣ -

أعوذ بالله من الفقر :

اللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ ، وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي بِالْإِقْتَارِ فَأَسْتَرْزِقَ طَالِبِي رِزْقِكَ ، وَأَسْتَعْطِفَ شِرَارَ خَلْقِكَ ، وَأُبْتَلَى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي ، وَأُفْتَتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي ، وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْـعِ « إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

اللغة :

صُن : احفظ واستر . واليسار : الغنى . والإقتار : الفقـر . واسترزق : أطلب الرزق . وافتتن : ابتلى .

الإعراب :

استرزق منصوب بأن مضمرة بعد الفاء ، ونُصب الفعل الذي بعده للعطف عليه ، وولي خبر أنت ، ومن وراء متعلق به .

المعنى :

(اللهم صُن وجهي باليسار ، ولا تبذل جاهي بالإقتار) . صيانة الوجه حفظه من التعرض للسؤال ، وقديماً قيل : السؤال ذل ولو أين الطريق . وبذل الجاه السقوط عن درجة الاعتبار والاحترام . وليس من شك ان الفقر سبب للمزيد من هذا السقوط والانهيار . وفي الحديث : الفقر الموت الأحمر . وقال الإمام : الفقر يخرس الفَطِن عن حجته،والمقلُّ غريب في بلدته .. الفقر في الوطن غربة.. الفقر الموت الأكبر .. الفقر منقصة للدين ، مدهشة للعقل ، داعية للمقت .. وقال الإمام جعفر الصادق : ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة في دينه ، وضعف في عقله ، وذهاب في مروءته .. ولذا كان النبي (ص) يكرر القول في دعائه : اللهم ارزق محمداً وآل محمد الكفاف والعفاف .

وإنما كان الفقر رقة ومنقصة في الدين لأن النفس اذا احتاجت تعرضت لما لا يجوز ، ودخلت مداخل الشر والسوء ، واذا أحرزت قوتها سكنت واطمأنت. ومن هنا كان السعي للرزق ديناً ، والتدبير عقلاً . وتقدم الكلام عن ادواء الفقر وأثره في المجتمع في شرح الخطبة ١٢٤ و ١٢٧ .

(فاسترزق طالبي الخ) .. الإمام لا يسترزق ولا يستعطف مخلوقاً على الاطلاق، ومهما كانت الظروف وتكون ، ولا يمدح من لا يستحق المدح ، وان أعطاه الدنيا بكاملها ، ولا يذم من هو أهل للمدح ، وان أساء لشخصه .. ولكنه أراد التعريض بمن يمدح ويقدح على أساس المنفعة والمصلحة الخاصة .

والجدير بالإشارة ان هذا الدعاء ورد بالحرف الواحد في الصحيفة السجّادية للإمام زين العابدين حفيد الإمام أمير المؤمنين ، وهو قطعة من الدعاء المعروف بمكارم الأخلاق .

وبعد ، فإن الاسلام يرى الفقر موتاً وكفراً ، وبؤرة لكل رذيلة وجريمة ، ولذا أعلن الثورة عليه وعلى الاحتكار،وعلى كل نظام أو عمل يؤدي الى الاستغلال والإفقار .

الخطبة

- ٢٢٤ -

الدنيا :

دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ . لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا ، وَلَا تَسْلَمُ نُزَّالُهَا أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ . الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ وَالْأَمَانُ فِيهَا مَعْدُومٌ . وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا . وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هٰذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَاراً ، وَأَعْمَرَ دِيَاراً ، وَأَبْعَدَ آثَاراً . أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً ، وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً ، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً ، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً ، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً . فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ وَالنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ الصُّخُورَ وَالْأَحْجَارَ الْمُسَنَّدَةَ ، وَالْقُبُورَ اللَّاطِئَةَ الْمُلْحَدَةَ . الَّتِي قَدْ بُنِيَ بِالْخَرَابِ فِنَاؤُهَا ، وَشُيِّدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤُهَا . فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ وَسَاكِنُهَا مُغْتَرِبٌ . بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ

مُوحِشِينَ وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ ، وَلَا يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ الْجِيرَانِ عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجِوَارِ وَدُنُوِّ الدَّارِ. وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ الْبِلَى ، وَأَكَلَتْهُمُ الْجَنَادِلُ وَالثَّرَى . وَكَأَنْ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ ، وَارْتَهَنَكُمْ ذَٰلِكَ الْمَضْجَعُ ، وَضَمَّكُمْ ذَٰلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ . فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ ، وَبُعْثِرَتِ الْقُبُورُ «هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» .

اللغة :

تارات : جمع تارة ، وهي الحين والمرة . والنمارق : الوسائد يستند اليها ، وتُعلق النمرقة على البساط . واللاطئة : اللاصقة ، والملحدة : جُعلوا في القبور لحوداً . وفناؤها ـــ بكسر الفاء ـــ ساحتها . والكلكل : صدر البعير . والجنادل : الصخور .

الإعراب :

دار خبر لمبتدأ محذوف أي هي دار ، وأحوال أي هي أحوال ، وعلى سبيل خبر انكم ، وأعماراً تمييز ، ومثله دياراً وآثاراً ، وموحشين صفة لأهل محلة ، وكأنْ مخففة ، واسمها محذوف أي كأنكم ، وكيف بكم «كيف» خبر مقدم ، والباء زائدة و «كم» مبتدأ لأنها قائمة مقام أنتم ، واشتبه بعض الشارحين في قوله: إن المبتدأ محذوف .

المعنى :

(دار بالبلاء محفوفة الخ) .. كل ما في هذه الخطبة هو تكرار وإعادة لما

جاء في الخطب السابقة من ذم الدنيا وبيان كوارثها ومآسيها .. ولا نهاية لكلام الإمام عن الدنيا ما دام حبها والتعلق بها علة العلل للويلات والمشكلات .. وأيضاً لا ينتهي حب الناس للدنيا وتمسكهم بعروتها إلا من شذّ أياً كان الناهي والزاجر. فقد نهى القرآن الكريم عن الغش والنفاق والفتنة والبغي ، وأمر المؤمنين بالاتحاد والاعتصام بالله جميعاً ، وقال الرسول (ص) : لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ومع هذا يغش المسلمون بعضهم بعضاً ، وقد ضرب بعضهم رقاب بعض بالأمس البعيد والقريب ، والآن تقوم الحرب والمذابح بينهم في باكستان والأردن واليمن .. ولكن هذا لا يمنع من النهي عن الفساد في الأرض، لقيام الحجة من جهة ، وعسى أن يفيء الباغي الى رشده من جهة ، وإن ضعُف الأمل .

هذا فيما يعود الى تكرار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أما فيما يعود إليّ شخصياً كشارح ومفسر فلا جديد لدي أشرح به هذه الخطبة بعد الذي قلته فيما سبق اللهم إلا أن ألخص ما جاء في بعض الشروح بما يلي :

ذكر الإمام في هذه الخطبة العديد من مساوىء الدنيا : أولها ان البلاء يحف بها من كل جانب . وثانيها : انها معروفة بالغدر . وثالثها : إن أحوالها متقلبة . ورابعها : إن أهلها يموتون . وخامسها : انها تتغير من حال لآخر . وسادسها: ان عيشها مذموم . وسابعها : انه لا أمان فيها . وثامنها : إن أهلها هدف للبلايا والرزايا .. الى غير ذلك . ويمكن تلخيص هذا التلخيص بكلمة واحدة : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

(وكيف بكم لو تناهت الخ) .. قال أهل العلم بالله وعدالته : إن للانسان قيامتين : صغرى وكبرى ، والأولى عالم البرزخ ، ويبتدىء بالموت ، وينتهي بالبعث ، وفي هذا العالم نوع من الثواب والعقاب ، ولكن لا على سبيل التوفية الكاملة والحكم النهائي المبرم،أما القيامة الكبرى فتبتدىء حيث تنتهي القيامة الصغرى أي من البعث الذي يرد الله فيه الأرواح الى الأجساد ، ويبعثها الى جنة أو الى نار ، وهذا البعث أو المعاد هو دار القرار ، وفيها يتم الحساب وتوفية الثواب أو العقاب ، وينتهي كل شيء .. قال سبحانه : « وانما توفون أجوركم يوم القيامة — ١٨٥ آل عمران » أي انكم في البرزخ وغرفة الانتظار تعاملون بما كنتم تعملون في الدنيا،ولكن كعربون أو بشارة .. أما التوفية الكاملة،والجزاء التام فيوم القيامة .

وقد حث الإمام في هذه الخطبة على العمل والاستعداد للقيامة الكبرى التي توفى فيها كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون .. وتساءل الإمام : ماذا تصنعون آنذاك إذا كنتم عزلاً من كل سلاح .. أنتم الآن على مفترق الطرق ، وعليكم أن تختاروا لأنفسكم السلامة والنجاة . وتقدم قوله في الخطبة ١١٨ : اعملوا ليوم تذخر فيه الذخائر ، وتبلى فيه السرائر ، واتقوا ناراً حرها شديد ، وقعرها بعيد ، وحليتها حديد ، وشرابها صديد .. ونختم هذه الكلمة بقول الرسول الأعظم (ص) : « ان الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ، وهو من أهل النار ، وان الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس ، وهو من أهل الجنة » .

الخطبة

- ٢٢٥ -

الأنس بالحبيب :

اللَّهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ الآنِسِينَ لِأَوْلِيَائِكَ . وَأَحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ . تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ . فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ . إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ الغُرْبَةُ آنَسَهُمْ ذِكْـرُكَ ، وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ المَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الِاسْتِجَارَةِ بِكَ ، عِلْماً بِأَنَّ أَزِمَّةَ الأُمُورِ بِيَدِكَ ، وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِكَ . اللَّهُمَّ إِنْ فَهِهْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي ، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طِلْبَتِي فَدُلَّنِي عَلى مَصَالِحِي ، وَخُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي ، فَلَيْسَ ذلِكَ بِنُكْرٍ مِن هِدَايَاتِكَ وَلَا بِبِدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِكَ . اللَّهُمَّ احْمِلْنِي عَلى عَفْوِكَ وَلَا تَحْمِلْنِي عَلى عَدْلِكَ .

اللغة :

آنس : أشد انساً . وتلهف عليه : حزن وتحسر ، وبه استغاث ، واليه اشتاق . وفههت : عييت وعجزت عن البيان .

الإعراب :

علماً مفعول من أجله للجأوا ، والمصدر المنسبك من ان أزمة الخ .. مجرور بالباء ، ومتعلق بـ « علماً » ونكر خبر ليس ، والباء زائدة .

المعنى :

(اللهم انك آنس الآنسين لأوليائك) . ان أولياء الله سبحانه يرتاحون ويأنسون بطاعته تعالى ومناجاته ، وهو أيضاً يزيدهم أنساً بذلك : « والذين اهتدوا زادهم هدى – ١٧ محمد » . (وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك) . وأيضاً يُغني ويكفي من توكل عليه ، لأنه خير من كفى وأغنى . (تشاهدهم – الى – مكشوفة) . هو سبحانه أعلم بهم من أنفسهم ، ولما رآهم أصفياء أتقياء شملهم ببره وإحسانه (وقلوبهم اليك ملهوفة) . وإذا التهفت القلوب وأخلصت أذعنت الجوارح ، وخلصت الأعمال من الشوائب ، لأن القلوب هي المصدر والمنبع ، ومن هنا أسند سبحانه طاعته وتعظيم شعائره الى تقوى القلوب حيث قال : عز من قائل ، في الآية ٣٢ من سورة الحج : « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » .

(ان أوحشتهم الغربة – الى – قضائك) . انهم يعلمون ويؤمنون بأن كل شيء في الكون من الذرة الصغيرة الى المجرات الكبيرة – تسير على أساس وقانون ، وان المسببات تُناط بأسبابها ، والنتائج بمقدماتها ، ولكنهم الى جانب هذا العلم والإيمان المادي يؤمنون بأن الله هو المبدأ لكل شيء ، واليه ينتهي كل شيء ، وانه خلق الكون وأودع فيه الطاقات والأسباب .. ولذا يلتجئون اليه ، وبه يتوسلون في المهات وعند الملمات (اللهم إن فههت الخ) .. أنت أعلم مني بحالي ، وقد عجزت عن بيان حاجتي اليك ، فاختر لي ما فيه خير وصلاح لدنياي وآخرتي (فليس ذلك بنكر من هدايتك) كيف وأنت خير مرجو ، وأكرم مدعو ؟

(ولا ببدع من كفايتك) بعد أن تتابع برك ، واتصل خيرك ، وعظم فضلك .

(اللهم احملني على عفوك ، ولا تحملني على عدلك) . اذا كان الإمام يسأل الله العفو ، ولا يطيق العدل فكيف بغيره ؟ وما من شك ان الله غني عن العالمين يعفو ويرحم إلا الوحش الكاسر الذي يظلم عباد الله ، ويقسو عليهم بلا رحمة ، وفي الحديث : من لا يَرحم لا يُرحم . وقيل للإمام زين العابدين (ع) : ان الحسن البصري يقول : ليس العجب ممن هلك كيف هلك ، وإنما العجب ممن نجا كيف نجا . فقال الإمام : أما أنا فأقول : ليس العجب ممن نجا كيف نجا، وإنما العجب ممن هلك كيف هلك مع رحمة الله التي وسعت كل شيء .

الخطبة

- ٢٢٦ -

لله فلان :

لِلَّهِ بَلاءُ فُلاَنٍ فَقَدْ قَوَّمَ الأَوَدَ وَدَاوَى الْعَمَدَ . خَلَّفَ الْفِتْنَــةَ وَأَقَامَ السُّنَّةَ . ذَهَبَ نَقِيَّ الثَّوْبِ ، قَلِيلَ الْعَيْبِ . أَصَابَ خَيْرَهَا وَسَبَقَ شَرَّهَا . أَدَّى إِلَى اللهِ طَاعَتَهُ وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ . رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مُتَشَعِّبَةٍ لاَ يَهْتَدِي فِيهَا الضَّالُّ وَلَا يَسْتَيْقِنُ الْمُهْتَدِي .

اللغة :

الأود : الاعوجاج : والعمد — بفتح العين والميم — المرض . وخلف الفتنة : مات قبل حدوثها . واتقاه بحقه : أدى الحق لصاحبه وقاية لمطالبته . وتركهم في طرق متشعبة : مختلفين . ولا يستيقن المهتدي : يجهل مصيره لكثرة الاختلاف .

الإعراب :

لله خبر مقدم ، وبلاء أو بلاد مبتدأ مؤخر ، والقصد المدح .

المعنى :

(لله بلاء – أو بلاد – فلان الـخ) .. قيل : المراد بفلان أبي بكر . وقيل : عمر ، وهـو الأشهر ، وأياً كان فإن الناس كانوا سعداء مع رسول الله (ص) ومـا سد فراغه أبو بكر ولا عمر ، ولكن عهدهما كان أفضل من عهد عثمان الذي فتح على أمة محمد (ص) باب « القتل والقتال الى يوم القيامة » . فلا فتنة في عهد الشيخين ، ولا خلافة موروثة ، ولا كسروية وقيصريـة ، ولا طاغية يتخذ مال الله دولاً ، وعباده خولاً .

وأي مسلم يُفضل عهد الأمويين والعباسيين وأمثالهم على عهد الشيخين ؟ فلقد استطاعا بسيرتهما في الخلافة أن يحظيا عبر التاريخ بالرضا من أكثر المسلمين ، ولا يختلف اثنان في ان الإمام كان يرى انه الأولى والأحق منهما بالخلافـة ، وأيضاً لا اختلاف في أنه كان يراهما أفضل من عثمان ، وقد صارحه بذلك حين قـال له – كما في الخطبة ١٦٢ – : « وما ابن أبي قحافة وابن الخطاب بأولى بعمل الحق منك » . وإذن فأية غرابة في قول الإمام : « لله فلان » : وكتب ابن أبـي الحديد حول هذه الخطبة ٨٧ صفحة بالقياس الكبير .. واختصر شارح آخر مكتفياً بأربعين صفحة .

وبعد ، فإن المهم في منطقي ومنطق أمثالي ، ليس لأحد أن يحكم مع وجـود الإمام .. والأهم في منطق علي (ع) أن يرضى الناس عن الحـاكم ، ولا يشكو منه فقير أو ضعيف ، وقد أعلن ذلك بقوله : والله لأسلمن مـا سلمت أمور المسلمين ، ولمّ يكُ فيها جور إلا علي خاصة .

الخطبة

- ٢٢٧ -

حول بيعة الإمام :

وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُهَا ، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا ، ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَيَّ تَدَاكَّ الْإِبِلِ الْهِيمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وُرُودِهَا حَتَّى انْقَطَعَتِ النَّعْلُ وَسَقَطَتِ الرِّدَاءُ وَوُطِئَ الضَّعِيفُ وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ النَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنِ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا الْعَلِيلُ ، وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكِعَابُ .

اللغة :

تداككتم : تزاحمتم . والهيم : العطاش . وهدج : مشى مشياً ضعيفاً لكبر سنه. وتحامل : تكلف على مشقة وإعياء . والعليل : المريض . وحسرت : كشفت عن وجهها . والكعاب والكاعب : الجارية الناهد ، قال سبحانه : « وكواعب أترابا - ٧٣ النبأ » .

الإعراب :

فاعل بلغ محذوف ، ومن سرور بيان له أي بلغ الحال من سرور الخ ، والمصدر من ان ابتهج مجرور بمحذوف أي الى ابتهاج الصغير .

المعنى :

(وبسطتم يدي فكففتها الخ) .. قال الشريف الرضي : تقدم مثله بألفاظ مختلفة .. يشير الى ما جاء في خطبة الشقشقية والخطبة ٩٠ وغيرهما . وفي شرح هاتين الخطبتين عرضت بالتفصيل ما أشار اليه الإمام هنا ، ولا جديد لديّ أعطفه على ما سبق سوى اني قرأت اليوم كلمة مطولة بعنوان « شرح في خلافة المسلمين» بقلم الأستاذ سامي محمود نشرها في جريدة « أخبار اليوم » المصرية تاريخ ٢١ – ١٠ – ١٩٧٢ ، وفيها ما يناسب المقام ، وهو قوله :

« عندما تولى عثمان أسرف على الناس وعلى أهله من بني أمية الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد ، فانتشر التذمر ، وشاعت الفتنة ، وقُتل عثمان ، أما علي هو وأبناؤه أحفاد رسول الله ، فكان طريقهم معروفاً واضحاً مستقيماً لم يترددوا فيه ، ولم يفكروا لحظة واحدة في دنيا يصيبونها ، أو امرأة يتزوجونها ، وانما كانت هجرتهم الى الله ورسوله .. أما معاوية فقد تكالب على الملك ، وجعله في ذريته من بعده ، وخالف أحكاماً كثيرة من تعاليم الاسلام ، ولم يبال معاوية وبنوه من بعده بقتل حفيد رسول الله (ص) واستباحة مكة والكعبة ، وإحلال المدينة المنورة لجنودهم ثلاثة أيام » .

الخطبة

-٢٢٨-

العمل يُرفع .. فقرة ١ :

فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ . وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ . بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ ، وَيَنْجُو الْهَارِبُ ، وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ . فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ ، وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ ، وَالدُّعَاءُ يُسْمَعُ . وَالْحَالُ هَادِئَةٌ ، وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ . وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمُراً نَاكِساً ، وَمَرَضاً حَابِساً أَوْ مَوْتاً خَالِساً . فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمُ لَذَّاتِكُمْ ، وَمُكَدِّرُ شَهَوَاتِكُمْ ، وَمُبَاعِدُ طِيَّاتِكُمْ . زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ ، وَقِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ ، وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ . قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ حَبَائِلُهُ وَتَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ ، وَأَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ . وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ ، وَقَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ . فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلَلِهِ ، وَاحْتِدَامُ عِلَلِهِ . وَحَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ ، وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ ،

وَأَلِيمُ إِزْهَاقِهِ ، وَدُجُوُّ إِطْبَاقِهِ ، وَجُشُوبَةُ مَذَاقِهِ . فَكَأَنْ قَدْ أَتَاكُمْ بَغْتَةً فَأَسْكَتَ نَجِيَّكُمْ ، وَفَرَّقَ نَدِيَّكُمْ ، وَعَفَّى آثَارَكُمْ ، وَعَطَّلَ دِيَارَكُمْ ، وَبَعَثَ وُرَّاثَكُمْ يَقْتَسِمُونَ تُرَاثَكُمْ بَيْنَ حَمِيمٍ خَاصٍّ لَمْ يَنْفَعْ، وَقَرِيبٍ مَحْزُونٍ لَمْ يَمْنَعْ ، وَآخَرَ شَامِتٍ لَمْ يَجْزَعْ[1] .

اللغة :

المراد بالملكة هنا الرق بقرينة قوله : « عتق » . وناكساً : راجعاً الى أرذل العمر لا إدراك ولا حراك تماماً كالطفل في المهد . وحابساً : مانعاً عن العمل . وخالساً : خاطفاً . وطيّاتكم : منازل سفركم ، وقيل : نياتكم ومقاصدكم . والقرن – بكسر القاف – الكفؤ . والواتر : الجاني ، والموتور من وقعت عليه الجناية . وتكنفتكم : أحاطتكم . وغوائله : مصائبه . ومعابله : جمع معبلة أي حديدة السهم والرمح . وعدوته : عدوانه . وظُلله : سحائبه وغيومه . والاحتدام : الاشتداد . والحنادس : الظلمات . وغمراته : شدائده . والغواشي : الطامات الغامرات . والإزهاق : الهلاك . والإرهاق : حمل ما لا يطاق . والدجو : الظلام. والجشوبة : الغلظة . والنجي : من تناجيه . والندي : المكان يجتمع فيه القوم .

الإعراب :

فكأن مخففة ، وأصلها فكأنه ، وبغتة مصدر في موضع الحال أي مباغتاً . وآخر لا ينصرف ، ولذا جُر بالفتحة .

المعنى :

(فإن تقوى الله مفتاح سداد) وهو الصواب في القول والعمل (وذخيرة معاد) حيث الحساب والجزاء (وعتق من كل ملكة) تحرير من رق الشهوات

و(بها ينجح الطالب) ويفوز بثواب الله ومرضاته (وينجو الهارب) من العذاب والعقاب (وتُنال الرغائب) عطف تفسير على ينجح الطالب . وتقدم الكلام عن التقوى مرات، وتحدثنا عنها بشيء من التفصيل في شرح الخطبة ١٨٩ فقرة «التقوى».

(والعمل يُرفع) الى الله سبحانه ، فيقبله ويُثيب عليه : « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه — ١٠ فاطر » . (والتوبة تنفع) لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له . وتقدم الكلام عن التوبة في الخطبة ٩٢ و ١٨١ وغيرهما. (والدعاء يسمع) ما دمتم أحياء فتستطيعون أن تتضرعوا لله وتسألوه الرحمة (والحال هادئة) أي أنتم في حال تمكنكم من العمل لآخرتكم (والأقلام جارية) تكتب لكم ثواب ما تعملون من الصالحات .

(وبادروا بالأعمال الخ) .. استبقوا الخيرات قبل أن تهرموا وتُردوا الى أرذل العمر ، أو يمنعكم المرض من الحركة أو يخطفكم الموت بغتة ، ويحول بينكم وبين ما تقصدون . وقال فيلسوف : ان الانسان يدفن أجزاء نفسه باستمرار منذ ولادته الى يومه الأخير ، لأن كل يوم يمر فهو في عالم الأموات ، ومعنى هذا ان الانسان يشرع بالموت بمجرد ما يولد ، وان الفترة التي يحياها إنما هي المدة التي تستغرق عملية الوفاة . وقال آخر : ان وجود الإنسان كآثار أقدام فوق الرمال . وسئل حكيم عن أخيه ؟ فقال : مات . قيل له : وما سبب موته ؟ فقال حياته . أي ان الانسان لا يموت لأنه يمرض أو يهرم ، بل لأنه حي . فسبحان الحي الذي لا يموت .

(وقلت عنكم نبوته) . الهاء في نبوته تعود الى الموت . ونبا السيف : لم يقطع ، والمعنى ان دلائل الموت إذا ظهرت على الإنسان فإنها لا تخطىء إلا قليلاً ولكن سرعان ما يصحح الموت خطأه ، وبكلمة الإمام ان الموت غالب غير مغلوب ، وواتر غير مطلوب أي ان الموت يقتل دون أن يطالب بدية أو قصاص.

(فيوشك أن تغشاكم الخ) .. إن سيف الموت مصلت فوق رقابكم يهددكم به في كل لحظة (فكأن قد أتاكم بغتة الخ) .. وجعلكم جثثاً هامدة باردة لا تصلح إلا للدفن والطمر ، وبعده تخلو الديار ، وتقسم الأموال .. وقائل يقول : رحمه الله ، وآخر يقول : أبعده الله !. هذه هي لعبة الموت مع الانسان. وطوبى لمن أعد له عدته .

وبعد ، فإن كل واحد منا يتنازعه أمران : لذة الحياة الدنيا وروعتها، وهول

الموت وما بعده من ظلمات وآفات . ومن يحرص على سعادته في الحال والاستقبال فعليه أن يُدخل فكرة الموت في حياته كيلا يطغى ويتجاوز الحدود، وأيضاً يُدخل فكرة الحياة بعد موته كي يستعد لها ويقبل عليها آمناً مطمئناً . ولذا قال الإمام: « فعليكم بالجد والاجتهاد والتأهب والاستعداد » .. الى آخر المقطع الآتي :

ما تدري نفس متى وأين تموت ؟

ولمناسبة الحديث عن الموت أشير الى أمر لا يحسن السكوت عليه بحال ، وهو أن الصهيونية تعمل جاهدة على التشكيك بالقيم الانسانية ، وبكل دعوة تقوم على الصدق والعدل ، وتنكر الزور والبغي، وتساوي بين الناس في الحقوق والواجبات . ذلك بأن لليهود – بوجه العموم – عقيدة عنصرية تعتبر انهم شعب الله المختار ، وان غيرهم من الناس مسخر لخدمتهم ومصالحهم ، وان لليهودي كل الحق أن يمتلك أي انسان في الشرق والغرب ، ويفعل به ما يشاء تماماً كما يمتلك الحيوان.. وعلى هذا نصت التوراة بوضوح وصراحة في سفر التثنية الإصحاح السابع ، وسفر العدد الإصحاح ٣١ .

أما كتاب التلمود فيقول : « نحن شعب الله المختار نحتاج الى نوعين من الحيوان : نوع أعجم كالدواب والأنعام والطير ، ونوع الحيوان الانساني ، وهم سائر الأمم من أهل الشرق والغرب » .

ولما كان القرآن والانجيل حرباً على هذه الوحشية الكاسرة ، وعلى كل عنصرية قرر اليهود قتل عيسى ومحمد .. ولما عجزوا عن اغتيال رسول الله بالسم والقضاء على رسالته دسوا الأحاديث المكذوبة على لسانه ، ثم طبعوا ألوف النسخ من القرآن بعد أن حرفوا الكثير من آياته ، واشتروا بعض المزيفين من أرباب العمائم للتشويه والتضليل باسم الدين .

وحين ظهر أمرهم وافتضح مكرهم سلكوا سبيلاً آخر أدهى وأحكم، اكتشفته، وأنا أقرأ جريدة « أخبار اليوم » المصرية تاريخ ٢١ – ١٠ – ١٩٧٢ ، وأحسب ان أحداً من القراء لم ينتبه اليه .. وهو أن اليهود – بحكم ما لهم من سيطرة ونفوذ على أجهزة الاعلام – نشروا في الصحف الغربية أن الكلاب في جزيرة « باربادوس » اذا قاربت الوفاة تذهب الى مقبرة خاصة لتموت فيها .. حتى كلاب الجزر الأخرى المجاورة تسبح المحيط وتتجه الى هذه المقبرة دون معرفة

سابقة بها ، وتموت هناك كما أحبت وأرادت .

وأيضاً ان القطط في جزيرة « أوزيل » حين تشعر بدنو الأجل تسرع الى مقبرة معينة لتموت فيها بهدوء ، وان القطط في هذه المقبرة تتعايش مع فيرانها بأمن وسلام ، لأن القطط في شغل بالتفكير في الموت وأهواله عن الفئران !.

تنشر الصهيونية هذه الأباطيل والأضاليل في صحف غربية ، وبلغة أجنبية ابعاداً للشبهة ، وإحكاماً للخطة ، ثم تصل هذه الصحف بطريق أو بآخر الى الكاتبين ومحرري الصحف في مصر وغير مصر،ويتلقفها بعضهم ويترجمها وينشرها عن قصد أو غير قصد ، وهذا ما تريده الصهيونية وتهدف اليه عسى أن يصدق جاهل أو ذاهل فيشكك فيما نطق به القرآن وأكده بقوله: « وما تدري نفس ... بأي أرض تموت — ٢٤ لقمان » .

ونسأل : لماذا اختصت بهذه المنقبة والفضيلة كلاب باربادوس وقطط اوزيل دون غيرها من القطط والكلاب ، ودون العالم كله منذ وُجد الى اليوم ؟. وقال أهل الاختصاص والعارفون بطبائع الحيوانات : انها لا تخاف الموت إطلاقاً لأنها لا تشعر به ، وان الانسان هو الحيوان الوحيد الذي يعرف انه سيموت ، أما غيره من الحيوانات فإنه يشعر بذاته كموجود وكفى .

وبعد ، فهل نحن في حاجة الى الحديث عن قطط اوزيل وكلاب باربادوس ، أو الحديث عن توحيد الكلمة وإعداد العدة لتحرير أرضنا المحتلة .

الجد والاجتهاد .. فقرة ٢ :

فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْاِجْتِهَادِ ، وَالتَّأَهُّبِ وَالْاِسْتِعْدَادِ ، وَالتَّزَوُّدِ فِي مَنْزِلِ الزَّادِ . وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الدُّنْيَا كَمَا غَرَّتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ الَّذِينَ احْتَلَبُوا دِرَّتَهَا ، وَأَصَابُوا غِرَّتَهَا ، وَأَفْنَوْا عِدَّتَهَا ، وَأَخْلَقُوا جِدَّتَهَا . أَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ أَجْدَاثاً ، وَأَمْوَالُهُمْ مِيرَاثاً . لَا يَعْرِفُونَ مَنْ أَتَاهُمْ ، وَلَا يَحْفِلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ ، وَلَا يُجِيبُونَ

مَنْ دَعَاهُمْ . فَاحْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا غَدَّارَةٌ ، غَرَّارَةٌ خَدُوعٌ ، مُعْطِيَةٌ مَنُوعٌ ، مُلْبِسَةٌ نَزُوعٌ . لَا يَدُومُ رَخَاؤُهَا ، وَلَا يَنْقَضِي عَنَاؤُهَا ، وَلَا يَرْكُدُ بَلَاؤُهَا . كَانُوا قَوْماً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا فَكَانُوا فِيهَا كَمَنْ لَيْسَ مِنْهَا . عَمِلُوا فِيهَا بِمَا يُبْصِرُونَ ، وَبَادَرُوا فِيهَا مَا يَحْذَرُونَ . تَقَلَّبُ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِ الْآخِرَةِ ، يَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُعَظِّمُونَ مَوْتَ أَجْسَادِهِمْ وَهُمْ أَشَدُّ إِعْظَاماً لِمَوْتِ قُلُوبِ أَحْيَائِهِمْ[٢] .

اللغة :

الدرة — بكسر الدال — اللبن. والغرة — بكسر الغين — الغفلة . والأجداث: القبور . وظهرانيهم : وسطهم .

الإعراب :

عليكم بالجد « عليكم » اسم فعل أي الزموا . وفيها خبر كانوا ، وكمن ليس منها الكاف بمعنى مماثلين حالاً من الواو في « كانوا » أي كانوا موجودين في الدنيا مماثلين للذين ليسوا من الدنيا ، وإعظاماً تمييز .

المعنى :

(فعليكم بالجد الخ) .. بعد أن أشار الى الموت قال : أعدوا له عدته (ولا تغرنكم الحياة الدنيا الخ) .. كيف تركنون اليها ، وقد رأيتم مكرها وغدرها بالسابقين واللاحقين (وأصابوا غرتها) ذهلت الدنيا عنهم ، أو هادنتهم بعض الوقت انتهبوا فيه الملذات وأشبعوا الشهوات (وأفنوا عدتها) أي متاعها من طعام وشراب وجنس، والمراد بالإفناء مجرد الاستعمال والانتفاع (وأخلقوا جدتها)

كثوب جديد ، أو سيارة من طراز حديث (وأصبحت مساكنهم الخ) . تركوا ما جمعوا للوارث ، وذهبوا الى القبور لا يحملون معهم إلا السيئات والمهلكات .

(معطية منوع) تعطي الخسيس ، وتمنع الشريف ، وكثيراً ما يكون الغنى سبباً للفساد في الأرض ، فعن السيد المسيح : ليحذر من يستبطىء الله في الرزق أن يغضب عليه فيفتح الدنيا عليه (ملبسة نزوع) قد تعطي صحة أو مالاً أو جاهاً ، ولكن سرعان ما تنزعه ولو بالموت (ولا يركد بلاؤها) أي لا يهادن، وإن جانب منها اعذوذب فاحلولى أمرّ منها جانب فأوبى كما قال الإمام . وتقدم ذم الدنيا مرات ، ومن أبلغ الخطب في هذا الموضوع الخطبة ١٠٩ .

(كانوا — أي الزاهدون والمتقون — قوماً من أهل الخ) .. هم في الدنيا يأكلون ويعملون ويلتذون ، ولكنهم أدركوا بصفاء عقولهم ان أحق اللذات بالطلب ما كان خيراً وأبقى ، فأنفقوا العمر في اللذة الباقية بقاء الأبد ، وبهذا افترقوا عن غيرهم من أبناء الدنيا،وكانوا معهم بالأبدان،وفي الآخرة بالأعمال والأرواح .

(ويرون أهل الدنيا الخ) .. المراد بيعظمون يستعظمون ، وضمير « هم » يعود الى أهل الآخرة ، والمعنى ان المهم عند أهل الدنيا هو الجسم وملذاته ، أما العقل والقلب فحديث خرافة، ولذا يرون موت الجسم أو حرمانه من الملذات أمراً فظيعاً ، أما أهل الآخرة فعلى النقيض يرون موت العقل والقلب بالجهل والضلالة هو الغريب الفظيع ، أما موت الشهوات أو كبحها فليس بغريب ولا بفظيع .

الخطبة

- ٢٢٩ -

الرسول :

فَصَدَعَ بِمَا أُمِرَ بِهِ، وَبَلَّغَ رِسَالاَتِ رَبِّهِ فَلَمَّ اللهُ بِهِ الصَّدْعَ . وَرَتَقَ بِهِ الْفَتْقَ . وَأَلَّفَ بِهِ ذَوِي الأَرْحَامِ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ الْوَاغِرَةِ فِي الصُّدُورِ، وَالضَّغَائِنِ الْقَادِحَةِ فِي الْقُلُوبِ .

اللغة :

صدع بالحق : تكلم به جهاراً . والصدع : الشق . والرتق – بفتح الراء – ضد الفتق – بفتح الفاء – . والواغرة : المتوقدة ، من أوغر صدره غيظاً ، ومثلها القادحة . والضغائن : الأحقاد .

المعنى :

قال الشريف الرضي : خطبها بذي قار ، وهو متوجه الى البصرة ، وذكرها الواقدي في كتاب «الجمل» . وذو قار موضع قريب من البصرة ، (فصدع بما أمر به ، وبلغ رسالات ربه) . الضمير لرسول الله (ص) وامتد تبليغه الرسالة

الإلهية مدى ٢٣ سنة ، وهي مدة نبوته حيث نزل عليه الوحي ، وهو في الأربعين من عمره الشريف ، وانتقل الى الرفيق الأعلى ، وهو في سن الثالثة والستين ، منها ١٣ سنة بمكة ، وفيها نزل ٨٢ سورة من القرآن، ومنها ١٠ سنوات بالمدينة ، وفيها نزل باقي القرآن الكريم .

(فلمّ الله به الصدع) . ألّف الرسول الأعظم (ص) بين القلوب القاسية المتنافرة ، وهداها الى الحق والخير بالموعظة الحسنة ، والسياسة الحكيمة، والشريعة السهلة السمحة . وحُسن الموعظة أن تكون بالرفق واللين ، وحكمة السياسة أن تخاطب العقل والضمير ، أما سماحة الشريعة الاسلامية وسهولة العقيدة فندع الكلام عنها للفرنسي الشهير جوستاف لوبون الذي قال في كتابه « حضارة العرب » : « للإسلام وحده كل الفخار في انه أول دين أدخل التوحيد الخالص الى العالم وسهولة الاسلام العظيمة تشتق من التوحيد الخالص. وهذا هو السر في قوة الاسلام». وتقدم الكلام حول الرسول ورسالته مرات ، منها في الخطبة ١ و ١٠٣ و ١٨٣ .

الخطبة

- ٢٣٠ -

حول المال :

إنَّ هـــذَا ٱلمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ وَإِنَّمَا هُوَ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَجَلْبُ أَسْيَافِهِمْ ، فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ كانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ ، وَإِلَّا فَجَنَاةُ أَيْدِيهِمْ لَا تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ .

اللغة :

الفيء في اللغة الرجوع ، وعند الفقهاء الخراج .

الإعراب :

وجلب عطف على الفيء ، وجناة مبتدأ ، وجملة لا يكون خبر .

المعنى :

قال الشريف الرضي : كلم الإمام بهذا عبدالله بن زمعة ، وهو من شيعته ،

وذلك انه قدم عليه في خلافته يطلب منه مالاً ، فقال (ع) : (ان هــذا المال ليس لي الخ) .. كان في سالف الأزمان للمسلمين دولة وسلطان استولت بالحسنى حيناً ، وبالسيف أحياناً على كثير من البلدان يوم كان للإسلام سيوف ورجال .. ثم قُدّر لأمة الإسلام ما قُدر لغيرها من الأمم المتحضرة : شباب ، ثم كهولة، ثم شيخوخة فهرم . وبكلمة: ابتلعت الحضارة الإسلامية من كان قبلها فابتلعها ما جاء بعدها من الحضارات .

والمال الذي أشار اليه الإمام هنا هو مال الغنيمة الذي حازه المسلمون بالجهاد، وأوجفوا عليه بخيل وركاب ، وقوله : (جلب أسيافهم فإن شركتهم في حربهم) واضح وصريح في ذلك .. والمسلمون الآن في طور الهرم ، يأخـذ منهم الأقوياء والطامعون كل شيء ، وهم لا يأخذون شيئاً .. وإذن فالحديث عن مال الغنيمة تماماً كالحديث عن حكم العبيد والإماء لا جدوى منه . ومن أراد معرفــة التراث والمعالم الأثرية فليرجع الى كتب الفقه للمذاهب الاسلامية .

أما سياسة الإمام في المال – بوجه العموم – فهي أشهر من أن تذكر ، ومع هذا تحدثنا عنها مراراً ، منها في شرح الخطبة ٢٢٢ ، والخطبة ١٢٤ التي قال فيها الإمام : « لو كان المال لي لسوّيت بينهم ، فكيف وانما المال مال الله » ؟.

الخطبة

- ٢٣١ -

حول اللسان :

أَلَا إِنَّ اللِّسَانَ بَضْعَةٌ مِنَ الإِنْسَانِ فَلَا يُسْعِدُهُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ وَلَا يُمْهِلُهُ النُّطْقُ إِذَا اتَّسَعَ . وَإِنَّا لَأُمَرَاءُ الْكَلَامِ ، وَفِينَا تَنَشَّبَتْ عُرُوقُهُ وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غُصُونُهُ . وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ أَنَّكُمْ فِي زَمَانٍ الْقَائِلُ فِيهِ بِالْحَقِّ قَلِيلٌ ، وَاللِّسَانُ عَنِ الصِّدْقِ كَلِيلٌ ، وَاللَّازِمُ لِلْحَقِّ ذَلِيلٌ . أَهْلُهُ مُعْتَكِفُونَ عَلَى الْعِصْيَانِ . مُصْطَلِحُونَ عَلَى الإِدْهَانِ . فَتَاهُمْ عَارِمٌ ، وَشَائِبُهُمْ آثِمٌ ، وَعَالِمُهُمْ مُنَافِقٌ ، وَقَارِئُهُمْ مُمَاذِقٌ . لَا يُعَظِّمُ صَغِيرُهُمْ كَبِيرَهُمْ ، وَلَا يَعُولُ غَنِيُّهُمْ فَقِيرَهُمْ . .

اللغة :

البضعة : القطعة . وتنشبت عروق الشيء : علِقت وتمكنت . وتهدلت:

تدلت . والعارم : الشرس المعاكس . ولبن مذق : ممزوج بالماء ، وفلان مماذق أو مذق : لا يخلص في وده .

الإعراب :

من الإنسان متعلق بمحذوف صفة لبضعة، واللام في لأمراء للتأكيد ، وباصطلاح النحاة للابتداء ، وعن الصدق متعلق بكليل .

المعنى :

قالوا : هذا الكلام جزء من خطبة طويلة ، قالها الإمام لمناسبة . وهي أنه أمر ابن أخته ام هاني جعدة بن هبيرة المخزومي القرشي ، أمره أن يخطب بالناس ولما صعد المنبر أرتج عليه ، فصعد أمير المؤمنين المنبر وقال : (الا وان اللسان بضعة من الانسان) . للتعبير صور عديدة، منها التصوير والتمثيل والخط والإشارة والحركة ، وأهمها وأوسعها جميعاً الصورة الكلامية ، لأنها تعبر نثراً وشعراً عن الله وصفاته ، وعن الكون وعجائبه ، وعن الإنسان وحقيقته ، وعما كان ويكون.. بالإضافة الى أنها صلة الوصل بين أفراد المجتمع ، ولذا امتن سبحانه على الإنسان بموهبة البيان حيث قال ، عز من قائل : « خلق الانسان علّمه البيان — ٤ الرحمن » .

ولهذه الصورة الكلامية أركان لا بد من توافرها : الأول : اللسان . الثاني : معرفة اللغة . الثالث : حضور المعاني في الذهن ، لأن الانسان يستطيع التفكير بلا تعبير ، ولا يستطيع التعبير بلا تفكير .. اللهم إلا اذا كان مجنوناً . الرابع : عدم المانع والصارف عن الكلام ، فإن لم تحضر المعاني في ذهن الانسان ، أو حضرت ولم يرغب في الكلام ، أو رغب ولكن وجد المانع ، إن كان شيء من ذلك سكن اللسان وجُمد ، والى هذا أشار الإمام بقوله : (فلا يسعده القول اذا امتنع) أي ان اللسان أو الانسان يعجز أو يمتنع عليه الكلام اذا غابت عنه المعاني ، أو حضرت ولا مقتض لبيانها ، أو وُجد المقتضي مقارناً لوجود المانع ، واذن فليس من الضروري أن يكون الصمت عجزاً عن الكلام ، بل قد يكون

لأمرٍ عارض وخارج عن الذات .. وفي هذا ايماء الى الاعتذار عما أصاب جعدة من الحصر .

(ولا يمهلــه النطق اذا اتسع) . اذا حضرت المعاني ، ووُجد المقتضي بلا مانع اتسع المجال أمام اللسان ، وتحرك بسرعة ، وانطلق بسهولة ، حيث تتراكم المعاني وتتدافع للخروج والانطلاق في صورة كلامية (وإنا لأمراء الكــلام) . وجعدة ابن اختنا ، وفيه من شمائلنا ، ورُوي أن جعدة أبدى شجاعة وثباتـاً في حرب صفين ، فقال له قائل : هذه الشجاعة من خالك . فقال له جعــدة : لو كان خالك كخالي لنسيت أباك . وتقدم الكلام حول الناس في شرح الخطبة ٧٦ و ١٧٤ .

(وفينا تنشبت عروقه ، وعلينا تهدلت غصونه) والشاهد الحسي عــلى ذلك السنّة النبوية ، ونهج البلاغة،والصحيفة السجادية وغيرها . قيل لرسول الله (ص): ما رأينا أفصح منك . فقال : وما يمنعني من ذلك ، وبلساني نزل القــرآن ؟. وقال : « أنا أفصح من نطق بالضاد .. وقد اختصر لي الكلام .. وأوتيت جوامع الكلم » أي المعاني الكبار في كلمات قصار يحتاج شرحها الى مجلدات .

(واعلموا رحمكم الله انكم في زمان القائلُ فيه بالحق قليل) . لا يختص هذا بزمان دون زمان ، ذلك بأن الحق ثقيل ، والباطل خفيف ، كما قال الإمام في كلماته القصار ، وقال غاندي : ان طريق الحقيقة ضيق مثلما هو مستقيم (واللسان عن الصدق كليل) أي قاصر وضعيف ، لأن الكذب والنفاق هو السائد والمسيطر (واللازم للحق ذليل) وهل يكون المحق عزيزاً في بيئة الباطل والفساد (أهلـه معتكفون الخ) .. الضمير في أهله يعــود الى الزمان الذي يعاني الفقير فيه من استغلال الغني ، والمحكوم من جور الحاكم ، والضعيف من طمع القوي .

(مصطلحون على الإدهان) وهو الرياء والمراوغة (فتاهم عــارم) شرس معاكس ، وجاهل تستخفه صور الانحلال « والتقاليع » تحوكها الصهيونيـة لتسيطر على عقله كما تريد ان تسيطر (وشائبهم آثم) لا يردعه عقل ولا دين (وعالمهم منافق) الدين عنده صكوك بيع وشراء (وقارئهم مماذق) يتلو القرآن ، والقرآن يلعنه ، لكذبه وريائه .

(ولا يعول غنيهم فقيرهم) . ان الله سبحانه جعل للفقراء حقاً معلومــاً

ومحدوداً في أموال الأغنياء،واعتبرهم فيه شركاء.، ولا فرق أبداً في نظر الإسلام بين أن يمسك الغني هذا الحق عن الفقير ، وبين أن يسلبه ثوبه أو قوتـه وقوت عياله .. هذا ، إذا كان الغني قد اكتسب أمواله من حل . أما اذا اكتسبها من حرام فعليه أن يرد كل مال حرام الى أهله ان عرفهم بالذات ، وان تعذر عليه ذلك كان المال الحرام بكامله للفقراء ، وفي سبيل الله من المصالح العامة ، ولا شيء منه لمن هو في يده .

الخطبة

- ٢٣٢ -

الطويل والقصير :

إنَّما فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبادِىءُ طِينِهِمْ وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلْقَةً مِنْ سَبَخِ أَرْضٍ وَعَذْبِهَا ، وَحَزْنِ تُرْبَةٍ وَسَهْلِهَا . فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أَرْضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ ، وَعَلَى قَدْرِ ٱخْتِلَافِهَا يَتَفَاوَتُونَ . فَتَامُّ ٱلرُّوَاءِ نَاقِصُ ٱلْعَقْلِ ، وَمَادُّ ٱلْقَامَةِ قَصِيرُ ٱلْهِمَّةِ ، وَزَاكِي ٱلْعَمَلِ قَبِيحُ ٱلْمَنْظَرِ ، وَقَرِيبُ ٱلْقَعْرِ بَعِيدُ ٱلسَّبْرِ ، وَمَعْرُوفُ ٱلضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ ٱلْجَلِيبَةِ ، وَتَائِهُ ٱلْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ ٱللُّبِّ ، وَطَلِيقُ ٱللِّسَانِ حَدِيدُ ٱلْجَنَانِ .

اللغة :

طينهم : جمع طينة . والفلقة — بكسر الفاء — القطعة . وسبخ : أرض ذات نزٍّ وملح . والحزن : ضد السهل . والرواء — بضم الراء — حسن المنظر . ومادّ

القامة : طويلها . وقريب القعر : قصيرها . والضريبة : الطبيعة والسجية ، يقال: هذه ضريبته التي ضُرب عليها أي طبيعته التي طبع عليها . والجليبة : التصنع أي يستجلب لنفسه ما ليس فيها . واللب : العقل . والجنان – بفتح الجيم – القلب .

الإعراب :

المصدر من انهم كانوا خبر ذلك ، أي ذلك كونهم ، ويجوز جره بباء محذوفة ، والمجرور خبر ، ومن سبخ متعلق بمحذوف صفة لفلقة .

المعنى :

قالوا : حضر جماعة في مجلس الإمام (ع) فانتهى بهم الحديث الى اختلاف الناس في طبائعهم وغرائزهم . فقال : (انما فرّق بينهم مبادىء طينهم الخ) .. وهذا الكلام يدل بظاهره على ان الناس يتفاوتون نقصاً وكمالاً في عقولهم وغرائزهم على حسب الطينة التي خلقوا منها خبثاً وطيبة .. وأيضاً على حسب الشكل والصورة قبحاً وجمالاً ، وطولاً وقصراً ، فالطويل قصير في طموحه ، والقصير طويل في همته ، والجميل ناقص في إدراكه ، والقبيح زارٍ في عمله . وليس من شك ان الإمام لا يقرر هذا كقاعدة تعم وتطرد على كلّ قصير وطويل ، وكل قبيح وجميل في شكله وهيئته ، لأن الواقع على خلاف ذلك ، بل ذكره على سبيل الأعم الأغلب ، وانه لو ترك على سجيته لترتب عليه الأثر المذكور ، ولكن التربية والبيئة والإيحاءات تهذب الكثير من مشاعره وغرائزه تماماً كالحيوان الأليف يتكيف بالرياضة والتدريب .

وعلى أية حال فما أنا من أهل هذا الفن في شيء ، ولذا رجعت الى كثير من المصادر التي تبحث عن الانسان وأصله وطبيعته .. حتى ما يزعم منها اننا أحفاد القرد .. وبحثت ونقبت لعلّي أرتضي شيئاً أشرح به كلمات هذه الخطبة ، أو أجد ما يناسبها ، فرأيت أكثر الآراء أو الكثير منها مجرد خيالات لا تقوم على أساس ، واحتمالات لا تركن اليها النفس ، ويقتنع بها العقل .. أجل ،

قرأت في بعض المصادر الشهيرة ما يتفق مع بعض كلمات الإمام في هذه الخطبة.

وأعني ببعض المصادر كتاب «الإنسان ذلك المجهول» الذي بلغ ذروة الشهرة والانتشار ، وتُرجم الى العديد من اللغات ، وطبعت منه ملايين النسخ ، ومؤلفه العالم الفرنسي الدكتور «ألكسيس كاريل» الحاصل على إجازة الطب ، وإجازة العلوم . وقد تَرجم الكتاب الى العربية شفيق أسعد فريد . وجاء في ص ٧٩ طبعة سنة ١٩٦١ ما نصه بالحرف .

«ان طبائع الانسان خاضعة لشكله ، وطريقته في شد قامته ، وشكل وجهه» . ويتفق هذا مع قول الإمام : (فتام الرواء .. وقبيح المنظر الخ) .. يتفق هذا مع قول الإمام في إناطة الطبيعة بالشكل وخضوعها له . وأيضاً جاء في نفس الصفحة : «العباقرة ليسوا طوالاً ، فقد كان نابليون قصيراً» . وهذا عين قول الإمام : (ومادّ القامة قصير الهمة .. وقريب القعر بعيد السبر) أي الغور والاختبار . وفي ص ٨٠ من الكتاب المذكور : «ان طوال القامة أكثر استعداداً للإصابة بالجنون المطبق في حين ان قصار القامة أكثر استعداداً للجنون الأدواري» .

وإذا أثبت العلم ما قاله الإمام فيما يعود الى الشكل وأثره في السلوك — فمن الجائز أن يُثبت في يوم من الأيام — ولو بعد ملايين السنين — ان أفراد الإنسان يختلفون على حسب طينهم وأرضهم تماماً كما قال الإمام . وما يدرينا أن بعض العلماء في هذا العصر قد أدرك وقرر ذلك ، ولم يصل الينا قوله بعدُ . ومهما يكن فإن كل ما في الإنسان ينطق ويسبح بحمد خالقه وخالق الأكوان : «وصوّركم فأحسن صوركم واليه المصير — ٣ التغابن» .

(ومعروف الضريبة منكر الجليبة) . ان الذي يعرفه الناس بطبيعة خاصة يتصنع ويتكلف بغير ما تعرفه من طبعه ، ويظهر ذلك عليه ، ويُستنكر منه (وتائه القلب متفرق اللب) من ضُرب قلبه يتشتت عقله في أجواء لا تمت الى حياته بسبب (وطليق اللسان حديد الجنان) وذو الحدة في ذكائه أو غضبه ينطلق لسانه بسرعة البرق .

الانسان والعلوم:

وبعد ، فإن الانسان يُبحث عنه في علم التاريخ لما يترك من آثار ، وفي علم

الطبيعة لأنه كائن طبيعي ، وفي علم الحيوان لأنـه من صنوفه ، وعـلم الاجتماع باعتباره عضواً من المجتمع ، وعلم النفس لما فيه من غرائز وملكات، وعلم الأخلاق بالنظر الى سلوكه بعقل وإرادة ، وعلم الطب وعلم وظائف الأعضاء باعتباره كائناً حياً وعضوياً ، وعلم الفقه بالنظر الى ما يحل له ويحرم عليه من الأفعال والتروك، وعلم الفلسفة لإدراكه ونظرياته وكونه أداة لمعرفة نفسه بنفسه وغير ذلك . ويكفي القول : إن الانسان هو مصدر العلوم ، وليس للعلوم حد ولا عد .

الخطبة

-٢٣٣-

تأبين الرسول الأعظم :

بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْأَنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ . خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّياً عَمَّنْ سِوَاكَ وَعَمَّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً . وَلَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً وَقَلَّا لَكَ ، وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمْلَكُ رَدُّهُ وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ . بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ .

اللغة :

الشؤون : عروق الدمع . والماطل : المسوف . والمحالف : الملازم .

الإعراب :

أنت مبتدأ ، وبأبي متعلق بمحذوف خبراً ، وأمي عطف على أبي ، والمصدر من أنك أمرت مبتدأ أي لولا ثبوت أمرك .

المعنى :

قال الشريف الرضي : ان الإمــام قال : وهو يلي غسل رسول الله (ص) وتجهيزه : (بأبـي أنت وأمي يا رسول الله الخ) .. كل الناس يحزنون ويتألمون لفقد عزيز أو قريب ، ويسكبون الدموع أياماً، ثم ينتهي كل شيء كأنْ لم يكن إلا اذا كان للفقيد صلة وثقى بالثاكل ، أو كان عظيم الخطر في نفسه ، فحزن الولد على الوالد – مثلاً – يكون على قدر عطفه عليه ، وبره به،وفائدته منه ، فإذا كان لهذا الوالد البار شأن وخطر تضاعف الحزن وتراكم .

وكان الرسول الأعظم (ص) أباً لعلي ولزوجته وأبنائه ، وفي الوقت نفسه كان أخاً له بالمؤاخاة .. وأيضاً كان استاذه طوال ٣٠ عاماً حتى آتت النبوة أكلها في نفس الإمام علماً وخلقاً ، ومن هنا كان لعلي خصائص لم تكن لأحـد سواه ، واذا عطفنا على ذلك خطر الرسول ، وانه سيد الأولين والآخرين – أدركنـا الى أي مدى بلغ الشجن والأسى في نفس الإمام لفقد سيد الكائنات .

(لقد انقطع بموتك الخ) .. يشير الى ان النبوة ختمت برسول الله (ص) وانه لا خبر بعده من السماء ، لأن الله سبحانه قد بيّن كل ما أراد أن يقوله ، بيّنه كاملاً وواضحاً على لسان محمد (ص) والى هذا أشار خاتم النبيين بقوله : « انما مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنى داراً ، فأكملها وحسّنها إلا موضع لبنة ، فكان من دخل فيها ونظر اليها قال : ما أحسنها إلا موضع هــذه اللبنة ، فأنا موضع اللبنة ، ختم بـي الأنبياء » .

(خصصت حتى صرت الخ) .. الخطاب لرسول الله (ص) . قال الشيــخ محمد عبده : « النبي (ص) خص أقاربه وأهل بيته حتى كان فيـه الغنى والسلوة لهم عن جميع من سواه ، وهو برسالته عام للخلق ، فالنــاس بالنسبة الى دينه سواء » . (ولولا انك أمرت – الى – الشؤون) أنت يا رسول الله أمــرت بالصبر ، وقلت عند موت ولدك ابراهيم : « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضي الرب » ونحن على سنتك يا رسول الله وطوع إرادتك . وقد رُؤي النبي (ص) أكثر من مرة يبكي لميت ، ولحزين بائس ، وخوفاً من الله ، وعلى أمته ، وعند سماع القرآن .

(ولكان الداء مماطلاً) أي لا تبرح الكآبة من القلب بحال تماماً كالمدين المماطل،

انه يسوّف ويؤجل ، ولا يفي بما عليه و(الكمد محالفاً) عطف تفسير و (قلاّ لك) قلّ فعل ماض والألف ضمير التثنية ، يعود الى مماطلة الداء ومحالفة الكمـــد ، والمعنى ان هذين قليلان لفقدك يا رسول الله (ولكنه ما لا يُملك رده الخ) . ضمير الغائب للموت ، ويملك مبني للمجهول ، والمعنى ان الموت حتم ، والجزع لا يُرجع ما فات، وإذن فالصبر أولى وأجدى . ومن حكم الإمام : ان صبرتَ جرى عليك القدر وأنت مأجور ، وان جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور .

الخطبة

- ٢٣٤ -

حول الهجرة :

فَجَعَلْتُ أَتَّبِعُ مَأْخَذَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَطَأُ ذِكْرَهُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْعَرَجِ .

المعنى :

(فجعلت اتبع مأخذ رسول الله (ص) فأطأ ذكره حتى انتهيت الى العرج) بفتح العين والراء ، وهو موضع بين مكة والمدينة . قيل : ان هـذا من كلام ذكر فيه الإمام خروجه من مكة الى المدينة لاحقاً بالنبي (ص) بعد أن بات على فراشه، وسلّم ودائعه الى أهله كما أمره رسول الله (ص) . وقال الشريف الرضي: « فأطأ ذكره » من الكلام الذي رُمي به الى غايتي الإيجاز والفصاحة ، أراد أني كنت أعطى خبره من بدء خروجي الى ان انتهيت الى العرج .

وتقدم الكلام عن الهجرة وقصة المبيت على الفراش في شرح الخطبة ١٨٩ فقرة « الإمام علي » ، وفي شرح الخطبة ٢٢٩ أشرنا الى مدة النبوة ، وكم قضى منها النبي (ص) في مكة والمدينة ، والى عمره الشريف . ونعطف على ما أسلفنا قول المستشرق الفرنسي « جان بروا » في كتابه « محمد نابليون السماء » ترجمة محمد صالح البنداق طبعة سنة ١٩٤٧ .

قال حول الهجرة في ص ٤٤ : « حين وصل النبي (ص) الى المدينة أراد كل واحد من الزعماء أن يزداد منزلةً بضيافته .. والنبي ذو الخلق الكبير ترك القياد للناقة كي يساوي بين الجميع ، وما زالت الناقة تقطع طرقات المدينة حتّى أناخت أمام دار أبي أيوب الأنصاري » . وفي ص ٤٦ : « أفلت النبي من مؤامرة قريش الفتاكة ، وترك على فراشه نهباً لسيوف المؤامرة البطل المضحّي والمؤمن الشاب ابن عمه وربيبه علي بن أبي طالب » .

الخطبة

-٢٣٥-

خذ من نفسك لنفسك:

فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ فِي نَفَسِ ٱلْبَقَاءِ وَٱلصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ ، وَٱلتَّوْبَةُ مَبْسُوطَةٌ . وَٱلْمُدْبِرُ يُدْعَى ، وَٱلْمُسِيءُ يُرْجَى . قَبْلَ أَنْ يَخْمُدَ ٱلعَمَـلُ ، وَيَنْقَطِعَ ٱلْمَهَلُ ، وَيَنْقَضِيَ ٱلْأَجَلُ ، وَيُسَدَّ بَابُ ٱلتَّوْبَـةِ وَتَصْعَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ . فَأَخَذَ ٱمْرُؤٌ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ . وَأَخَــذَ مِنْ حَيٍّ لِمَيِّتٍ ، وَمِنْ فَانٍ لِبَاقٍ ، وَمِنْ ذَاهِبٍ لِدَائِمٍ . ٱمْرُؤٌ خَافَ اللهَ وَهُوَ مُعَمَّرٌ إِلَى أَجَلِهِ ، وَمَنْظُورٌ إِلَى عَمَلِهِ ، ٱمْرُؤٌ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِهَا وَزَمَّهَا بِزِمَامِهَا ، فَأَمْسَكَهَا بِلِجَامِهَا عَنْ مَعَاصِي اللهِ وَقَادَهَا بِزِمَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللهِ .

اللغة :

في نفس البقاء — بفتح الفاء — أي في سعته وفسحته . والمهل : من الإمهال . ومعمر الى أجله : عاش إلى أجله . وزمها بزمامها : قادها بقيادها .

الإعراب :

فاعملوا الفاء لترتيب الكلام عليها ، وأنتم الواو للحال ، فأخذ امرؤ أمر في صيغة الماضي ، وامرؤ خاف بدل من امرىء في قوله : « فأخذ امرؤ » ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف أي الناجي امرؤ خاف ، ومثله امرؤ ألجم نفسه .

حول العمل والبطالة :

(فاعملوا وأنتم في نفس البقاء) . للإنسان أعضاء وملكات ، وفيه قوى وطاقات: مادية كالسمع والبصر واليدين والرجلين ، وروحية كالإدراك والحب والكراهية ، وهي بمجموعها تشكل مصنعاً هائلاً يعمل وينتج ، وقد يبدع ويبتكر بمجرد أن يوطّن النفس على الجد والكفاح ، ومن أهمل وآثر الراحة والبطالة على العمل فهو تماماً كمن أقفل مصنعاً ينتج الخير وينفع صاحبه والناس .. هذا الى ان البطالة سرطان يقتل الروح والجسم ، ويسلُب الإنسان إنسانيته ، ويجعل الحيوان خيراً منه.وأفضل ، لأنه يعمل وينتج . حتى الحجر قد يُنتفع به،أما البطال فموته خير من حياته ، وعدمه خير من وجوده .

ويقول الإمام : بادروا العمل النافع الصالح ما دمتم مزودين بأدوات القدرة وآلاتها ، واغتنموا الفرصة قبل فوات الأوان ، واعتبروا بمن أضاعها،وعما قريب يجري القدر عليها وعليكم ، ويذهب كل شيء ، فتتحسرون وتندمون حيث لا تجدي الحسرات والآهات (والصحف منشورة) تسطّر ما فعلتم بتلك الثروة والطاقة التي أنعم الله بها عليكم : هل أسأتم استعمالها،أو وضعتم كل شيء منها في موضعه، وحققتم الهدف الذي وُجد من أجله .

(والتوبة مبسوطة) . فمن أخطأ واعترف بخطيئته ، وطلب العفو من الله يقبل منه ويصفح عنه ، لأنه صدق مع الله والناس ومع نفسه أيضاً ، ورفض الكذب والخداع ، وفي الحديث : من تاب من الذنب كمن لا ذنب له (والمدبر) عن الحق (يُدعى) اليه بالحكمة والموعظة الحسنة (والمسيء يُرجى) منه أن يُقلع عن إساءته (قبل أن يخمد العمل الخ) .. هذه الجملة وما بعدها تفسير وبيان لقوله في أول الخطبة : « فاعملوا وأنتم في نفس البقاء » وتقدم الشرح .

(فأخذ امرؤ من نفسه لنفسه) على الانسان أن يجدّ ويجتهد، ويضحي ويصبر من أجل مصيره ومستقبله وحريته وكرامته . وتقدم قول الإمام في الخطبة ١٩١ وهو يصف المتقين : « صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة » (وأخذ من حي لميت الخ) .. كل انسان يعرف انه سيموت ، لا محالة ، ولكن عليه أن يعرف على أيّ شيء يموت؟ وماذا يترك بعد موته لنفسه وأمته ووطنه،وليس لأبنائه ووارثه وكفى ؟ وقد يعيش واحد من الناس نكرة لا أحد يعبأ به ، أو يعرف عنه شيئاً ، ولكنه يجعل من موته تاريخاً ومجداً له ولوطنه ، كما لو مات موتاً شجاعاً يصنع الانتصار على الطغاة والمعتدين ، وقد يموت أغنى الأغنياء وأقوى الرؤساء ، ويختفي أثره بسرعة تماماً كموت الحشرات والحيوانات .

ويقول الإمام لكل حي : انك ستموت على أية حال، وفي مقدورك أن تجعل من موتك حياة لك وللآخرين ، فلا تحرم نفسك وغيرك من حياة لا ذل فيها وهوان ، ولا خوف وآلام (امرؤ خاف الله الخ) .. فسيطر على أهوائه ، وتغلب على أطماعه ، وحررها من كل شائبة ، وبذلها أو بذل منها فيما افترض عليه لربه ووطنه ومجتمعه .

الخطبة

- ٢٣٦ -

حول الحكمين:

جُفَاةٌ طَغَامٌ ، وَعَبِيدٌ أَقْـزَامٌ . جُمِّعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، وَتُلُقِّطُوا مِنْ كُلِّ شَوْبٍ مِمَّنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَقَّهَ وَيُؤَدَّبَ ، وَيُعَلَّمَ وَيُدَرَّبَ ، وَيُوَلَّى عَلَيْهِ وَيُؤْخَذَ عَلَى يَدَيْهِ . لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ . أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَـارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّـا تَكْرَهُونَ ، وَإِنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ : « إِنَّهَا فِتْنَةٌ فَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ وَشِيمُوا سُيُوفَكُمْ » فَإِنْ كَانَ صَادِقاً فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ ، وَإِنْ كَانَ كَاذِباً فَقَـدْ لَزِمَتْهُ التُّهْمَةُ . فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللهِ ابْنِ الْعَبَّاسِ ، وَخُذُوا مَهَلَ الْأَيَّامِ وَحُوطُوا قَوَاصِيَ الْإِسْلَامِ . أَلَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ تُغْـزَى ، وَإِلَى صَفَاتِكُمْ تُرْمَى .

اللغة :

جفاة : غلاظ في العشرة . وطغام : أوغاد في الدناءة والحقارة . وأقزام : أراذل في اللؤم والخساسة . والأوب : الناحية . والشوب : الخلط . وتبوأوا الدار : سكنوها ، والإيمانَ : ثبتوا عليه . وشيموا : أغمدوا . والقواصي : الأطراف . والمراد بصفاتكم هنا قوتكم .

الإعراب :

جفاة خبر لمبتدأ محذوف أي هم جفاة ، والمصدر من أن يفقه فاعل ينبغي،أي ينبغي تفقيهه وتأديبه .

المعنى :

(جفاة طغام الخ).. المقصود بالذم جيش معاوية ، فقد كانوا أوباشاً رعاعاً تجمعوا خليطاً من ههنا وهنا ، ما فيهم من له بالدين علم ، ولا بالجهاد سابقة ، ولا من الخُلق نصيب (ممن ينبغي أن يفقه ويؤدب) يحتاج الواحد منهم الى من يعلمه الضرورات من أحكام الدين ، وآداب الإسلام (ويولّى عليه) يحجر عليه لسفهه (ويؤخذ على يديه) يُمنع من التصرف في أمواله ، ويقام عليه قيم يدبر شؤونه (ولا من الذين تبوأوا الدار) أي مدينة رسول الله (ص) التي كانت آنذاك عاصمة الإسلام وعلومه (والإيمان) أي ما عمر قلبه بالإيمان ، ولا تمسّك بعروته .. هكذا كان جيش معاوية ، ولو كان على شيء من الدين والوعي لما حارب الصحابة الأبرار .. أما الإمام فقد كان في جيشه ألفان وثمانون من المهاجرين والأنصار ، منهم ثمانون بدرياً . (أعيان الشيعة ج ٣ عن المسعودي) .

(ألا وان القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما يحبون) . المراد بالقوم هنا جيش معاوية ، والتكرار للتوكيد،والذين اختاروه للتحكيم هو ابن العاص ، والشيء الذي يحبون هو الانتصار على أهل العراق ، وقد حقق لهم عمرو ما يبتغون بمكره وألاعيبه وخداعه للأشعري المغفل (وانكم اخترتم لأنفسكم أقرب القوم مما تكرهون)

الخطاب لأهل العراق ، والمراد بالقوم هنا عامة الناس ، والشيء الذي يكرهونه خذلانهم وانكسارهم الذي حدث بالفعل .

(وانما عهدكم بعبد الله بن قيس) وهو أبو موسى الأشعري (بالأمس) أي في وقعة الجمل ، وكان أبو موسى آنذاك والياً على الكوفة ، وقد نهى أهلها عن المسير الى الحرب مع الإمام ، وقال من جملة ما قال : (انها فتنة فقطّعوا أوتاركم،وشيموا سيوفكم) أي لا تطلقوا في هذه الحرب سهماً،ولا تشهروا سيفاً .

(فإن كان صادقاً — الى — التهمة) . كيف تختارون الأشعري للتحكيم ، وقد أقام الدليل من نفسه على نفسه انه لا يصلح لشيء ، ولا يوثق به في شيء ، فبالأمس القريب نهى عن السير مع الإمام ، ثم سار معه مختاراً وعن طيب نفس ، وأظهر الحب والإخلاص للإمام وجيش الإمام ، ولذا أصر أهل العراق على اختياره .. فإن كان مؤمناً بما نهى عنه من قبل فقد خالف ايمانه ويقينه عن إرادة وقصد ، وان كان كاذباً فيما نهى عنه ، وعالماً بأنه ينهى عن المعروف لا عن المنكر فهو مجرم فاسق .. وفي الحالين لا يجوز الوثوق به والركون اليه .

وقال ابن عبد البر في « الاستيعاب » ، وهو يترجم لأبي موسى الأشعري ما نصه بالحرف : « روي فيه كلام كرهت ذكره ، والله يغفر له » . وقال ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح هذه الخطبة : « روى أبو موسى الأشعري عن النبي (ص) انه قال : « كان في بني اسرائيل حكمان ضالان ، وسيكون في أمتي حكمان ضالان ، وضالٌ من اتبعهما » . فقيل له:احذر أن تكون أحدهما. فقال: كلا . فلما بلي به قيل فيه : البلاء موكل بالمنطق .

(فادفعوا في صدر الخ) .. قال الكاتب الإسلامي المصري عبد الكريم الخطيب في كتابه « علي بن أبي طالب » ص ٤٩٧ وما بعدها : « كان الإمام قد أعد ابن عباس ليلقى عمرو بن العاص : ولكن أصحاب الإمام اختلفوا عليه ، وكان الأشعث بن قيس رأس الجماعة التي نازعت في اختيار ابن عباس ، والأشعث هو الذي مهّد للتحكيم ، وأكره هو وقومه علياً على قبوله .. ولا شك ان الصلة كانت قد توثقت بين معاوية والأشعث » . وهذا الذي سجله الخطيب يتفق تماماً مع ما نقلناه عن كتاب « علي وبنوه » لطه حسين في شرح الخطبة ١٩ ج ١ ص ١٥٢ : من أن الأشعث وابن العاص قد دبرا رفع المصاحف،واختارا الحكمين سلفاً .

ثم قال عبد الكريم : « كان ابن العاص صاحب مصلحة محققة في أي خير يصيبه معاوية من التحكيم ، لأن الصك يملك مصر في يده .. وليس لابن عباس شيء ان خلصت الخلافة لعلي ، وهل لأحد مع علي مطمع ؟. ان كل الذين يعملون مع علي يعملون لله لا له ، فليس لهم عنده يد يرجون المثوبة عليها إلا من الله , فماذا يخشى القوم من ابن عباس إذن ؟ انهم لا يخشون إلا ان يدفع ابن العاص عن كيد مدبر لا يفطن اليه إلا رجل أوتي مثل ما أوتي ابن عباس من ألمعية وذكاء » .

(وخذوا مهل الأيام) . لقد بذلت لكم النصح فاقبلوه قبل أن تفوت الفرصة، وتقولوا : يا ليتنا سمعنا وأطعنا .. وبالفعل ندموا على ما فرّطوا حيث لا ينفع الندم (وحوطوا قواصي الإسلام) احفظوا أطراف المملكة الإسلامية ونواحيها من غارات أعداء الإسلام (ألا ترون الى بلادكم تُغزى) ؟ ولا بد من الإشارة أن الغزو كان من معاوية ، وزبانيته بعد التحكيم لا قبله ، وعليه فهذا الفصل ملحق بهذه الخطبة ، وليس منها . والمعروف عن الشريف الرضي أنه كان يختار من خطب الإمام فصولاً ، ويجمعها في كلام واحد (والى صفاتكم تُرمى) . المراد بصفاتهم هنا قوتهم ، لأن أصل الصفاة الحجر الصلد ، والمعنى ان العدو اتخذ قوتكم مرمى لسهامه ، وغرضاً لهجومه .

الخطبة

-٢٣٧-

أهل البيت :

هُمْ عَيْشُ ٱلْعِلْمِ وَمَوْتُ الْجَهْلِ . يُخْبِرُكُمْ حِلْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ . وَصَمْتُهُمْ عَنْ حِكَمِ مَنْطِقِهِمْ . لاَ يُخَالِفُونَ الْحَقَّ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ . هُمْ دَعَائِمُ الْإِسْلَامِ وَوَلَائِجُ ٱلِاعْتِصَامِ ، بِهِمْ عَادَ الْحَقُّ فِي نِصَابِهِ ، وَٱنْزَاحَ ٱلْبَاطِلُ عَنْ مُقَامِهِ ، وَٱنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ مَنْبِتِهِ . عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ ، لَا عَقْلَ سَمَاعٍ وَرِوَايَةٍ . فَإِنَّ رُوَاةَ ٱلْعِلْمِ كَثِيرٌ وَرُعَاتُهُ قَلِيلٌ .

اللغة :

عيش العلم : حياته .. وولائج : جمع وليجة ، وهي الموضع الـذي يُعتصم به . وعاد الى نصابه : الى أصله ومستقره . والمراد بانقطاع اللسان هنا انقطـاع

الحجة . وعقل الوعاية : حفظ في فهم . وعقل الرعاية : دعم الدّين ودفع الشبهات عنه بمنطق العقل والبديهة .

الإعراب :

عقل وعاية مفعول مطلق ، لأن المعنى أدركوا إدراك وعاية ، لا عقل سماع « لا » حرف عطف مثل: هذا زيد لا عمرو .

المعنى :

(هم عيش العلم — الى — لا يختلفون فيه) . ضمير « هم » لأهل البيت ، وتقدم الثناء عليهم في العديد من الخطب ، والصفات التي ذكرها الإمام هنا هي تكرار لما جاء في آخر الخطبة ١٤٥ . وشرحناها في ج ٢ ص ٣٤٢ (وهم دعائم الاسلام) أي قوته وسلاحه ، وحجته ولسانه ، فولاؤهم والإخلاص لهم ولاء وإخلاص للاسلام بالذات ، ومن هنا قال الرسول الأعظم (ص) : « من صلّى صلاة لم يصلّ فيها عليّ ، ولا على أهل بيتي لم تقبل منه » (رواه الدارقطني في سننه ص ١٣٦ مطبعة الأنصاري بدلهي عاصمة الهند . عن فضائل الخمسة) . واذا عطفنا هذا الحديث على حديث « الصلاة عمود الدين » كانت النتيجة ان الصلاة على أهل البيت عمود الدين . اللهم صلّ على محمد وآل محمد وسلم .

وفي « الصواعق المحرقة » لابن حجر وغيرها ان الشافعي قال :

يا أهل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم الفخر انكم من لا يصلي عليكم لا صلاة له

(وولائج الاعتصام) لمن أراد معرفة الإسلام على حقيقته أصولاً وفروعاً (بهم عاد الحق الى نصابه) أي اذا تولوا الشؤون العامة يصان لكل ذي حق

حقه ، ويجوز أن يكون المراد بالحق هنا الدين ، وأن أهل البيت يأخذونه من منبعه ومصدره لا من الشيوخ والرواة . وهذا المعنى أقرب الى السياق ، وأنسب بقول الإمام : (عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية) فهموه وعملوا به وأرشدوا إليه كما هو عند الله (فإن رواة العلم كثير ، ورعاته قليل) تماماً كعمائم الفاشلين المرتزقة في عصرنا .. كذب وتزوير ، وتكوير بلا تفكير .

الخطبة

- ٢٣٨ -

ما يريد عثمان إلا أن أكون جملاً .

يَا ٱبْنَ عَبَّاسٍ مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلاً نَاضِحاً بِالْغَرْبِ أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ ، بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدَمَ ، ثُمَّ هُوَ ٱلْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ . وَاللهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً .

اللغة :

الناضح : البعير يُحمل عليه لسقي الزرع . والغرب : الدلو العظيمة .

الإعراب :

المصدر من أن يجعلني مفعول يريد ، وأن أخرج « أن » مفسرة بمعنى أي ، ومثلها أن أقدم .

المعنى :

قال الشريف الرضي : قال الإمام هذا لابن عباس ، وقد جاءه برسالة من عثمان ، وهو محصور يسأله فيها الخروج الى ماله بينبُع ليقل هتف النـاس باسمه للخلافة بعد أن سأله مثل ذلك من قبل . وقال الشيخ محمد عبده : « كان الناس يهتفون باسم أمير المؤمنين للخلافة ، وينادون بـه ، وعثمان محصور ، فأرسل اليه عثمان يأمره أن يخرج الى ينبـع ، وكان فيهـا رزق لأمير المؤمنين ، فخرج ثم استدعاه لينصره فحضر ، ثم عاود الأمر بالخروج مرة ثانية » . فقال الإمام : (ما يريد عثمان إلا أن يجعلني الخ) .

ينبع – بفتح الياء وسكون النون وضم الباء – هي أرض من خراج المدينة . قالوا : إن النبي (ص) قسّم الأنفال ، فكانت هذه من نصيب الإمام ، فاحتفر بها عيناً فخرج ماء ينبُع كنعق البعير، فسماها الإمام ينبع ، ثم أوقفها على الفقراء والمساكين .

وتلخيص الحكاية أن الثورة اشتعلت على عثمان في كل نفس بعـد أن كان منه ما كان ، وتلاقت جموع المسلمين بالمدينة ، وتراكمت حتّى سدت الطرق والمسالك ، وهي تطالب بعزل عثمان أو برأسه ، ودافع الإمام عنه بلسانه ويـده وسوطه ، وكان يرسل المـاء في القرب الى عثمان وأهله ، وطلحة يمنع وصوله اليهم .. وكان الثوار يهتفون باسم الإمام للخلافة ، وعثمان يسمع ويغضب،ويرسل إلى الإمام ان يخرج من المدينة ، فيستجيب ولكن الثورة تزداد غضباً ولهباً،فيرسل عثمان الى الإمام أن أقدم ودافع ، فيأتي ويحاول جهـده أن يفرق الحشد بالسوط تارة ، وبالتقريع أخرى حتى خشي أن يكون آثماً في ذلك ، كما قال ، لأنـه ربما ضرب بسوطه من الجموع المحتشدة من لا يستحق الضرب ، وأهـان من لا يستحق الإهانة .. وأخيراً جرى المقدّر الذي يعرفه القريب والبعيد . وأشرنا اليـه فيما سبق .

وفي كتاب « عبقرية الإسلام » للعقاد فصل البيعة: كانت حيرة علي بين التقريب والإبعاد أشد من حيرته بين الخليفة والثوار،فكان يؤمر تارة بمبارحة المدينة ليكف الناس عن الهتاف باسمه ، ويُستدعى اليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة .

الخطبة

- ٢٣٩ -

حول الجهاد :

وَاللهُ مُستَأدِيكُمْ شُكْرَهُ وَمُورِثُكُمْ أَمْرَهُ ، وَمُمْهِلُكُمْ فِي مِضْمَارٍ مَحْدُودٍ لِتَتَنَازَعُوا سَبَقَهُ . فَشُدُّوا عُقَدَ المَآزِرِ ، وَاطْوُوا فُضُولَ الخَوَاصِرِ ، وَلاَ تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ . مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ اليَوْمِ ، وَأَمْحَى الظُّلَمَ لِتَذَاكِيرِ الهِمَمِ . وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ وَعَلَى آلِهِ مَصَابِيحِ الدُّجَى وَالعُرْوَةِ الوُثْقَى وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً .

اللغة :

مستأديكم : يطلب منكم الأداء . وأمره : أرضه وسلطانه . والمضمار : السباق والمجال ، والمراد به هنا المدة والفسحة .. لتتنازعوا : لتتنافسوا في الخيرات . والعقد – بضم العين – جمع العقدة . والمآزر : جمع المئزر ، وشد العقد هنا كناية عن الجد . وفضول الخواصر : ما يتدلى من الثوب واللباس على القدمين . والعزيمة : من العزم والصبر والثبات . والوليمة : لمد «الصحون» وامتلاء البطون . والظلم – بفتح اللام – جمع ظلمة . والتذاكير : جمع التذكرة ، وهي التي تذكرك بالشيء .

الإعراب :

شكره مفعول مستأديكم ، وأمره مفعول مورثكم، والمصدر من لتتنازعوا متعلق بمهلكم ، وما انقض « ما » بمعنى شيء مبتدأ وانقض فعل ماضٍ ، والفاعل مستتر يعود الى ما ، والجملة خبر .

المعنى :

(والله مستأديكم شكره) . يطلب سبحانه منكم أن تشكروه ، والمراد بالشكر الطاعة ، وأفضل الطاعات على الإطلاق الجهاد والتعاون لردع الطغاة عن البغي (ومورثكم أمره) . المراد بالأمر هنا أرض الله وسلطانه ، والمعنى ليس لكم – بمشيئة الله وإرادته – شيء من الدنيا والآخرة إلا بالعمل والكفاح ، ومن البداهة ان القوة شرط أساسي لكل جهاد ونضال .. وأيضاً من البداهة انه لا قوة إلا بتوحيد الصفوف والتضامن فيما بينها ، وهل قام للإسلام والمسلمين دولة وكيان إلا بالوحدة والتوحيد ؟. وهل ذهبت الأندلس من قبل ، وفلسطين من بعد إلا من تفريق الكلمة وتصديع الصفوف ؟.

(وبمهلكم في مضمار محدود) أو ممدود كما في بعض النسخ ، والمعنى لا تيأسوا وتسدوا كل النوافذ وتقولوا فات الأوان .. كلا ، فإن الطريق أمامكم ، والأمد يتسع لحل ما تعانون من مشكلات ، ولا ينقصكم شيء إلا الإخلاص وصدق النية والعزم على التضحيات (فشدوا عقد المآزر ، واطووا فضول الخواصر) هذا هو حجر الزاوية : لا نصر بلا جهاد وصبر على آثاره المريرة وخسائره القاسية (ولا تجتمع عزيمة ووليمة) . هيهات أن تجمع بين الكرامة وحب الحياة ! أبداً لا حياة لقوم لا يستقبلون الموت في سبيل حريتهم بثغر باسم ، كما قال السيد الأفغاني .

نعمة النوم :

(ما انقض النوم لعزائم اليوم) . قال الشارحون في تفسيره : قد يعزم الانسان ، وهو في ساعة من ساعات النهار أن يعمل في الليل كيت وكيت .. حتى اذا جاء الليل آثر النوم ، وتبخر العزم .. وهكذا همُّ النهار يمحوها الليل، وقالوا : ان غرض الإمام أن يبقى الانسان على عزمه ، ولا يخلد للراحة والكسل .

وظاهر الكلام يتحمل هذا المعنى ، ولكن خير منه أن الإنسان في حياته يواجه الكثير من المتاعب والمصائب التي لا صبر له عليها ، فينتهي بـــه العجز الى العزم على الخلاص منها بالهرب والفرار ، أو بارتكاب رذيلة كالانتحار ونحوه .. فــإذا نام وأخذ قسطاً من الراحة هدأت نفسه ، وخفت أثقاله ، وعدل عزمه وما مضى من أفكاره . قال الفيلسوف الفرنسي « فولتير » : « ان السماء أرادت أن تعوض عما بُلينا به من محن الحياة ، فمنحتنا الأمل من جهة ، والنوم من جهة ثانية ». وقال الكاتب الانكليزي الشهير : « هـ. ج. ويلز » : « ان النوم نعمة لا تقدّر» . وفي بدر خاف الصحابة من كثر المشركين ، فعالج سبحانه خوفهم بالنوم ومـــا استيقظوا إلا وأنفسهم تغمرها السكينة : « اذ يغشيكم النعاس أمنة ــ ١١ الأنفال» أي انه تعالى ألقى النوم عليهم ليحل الأمن في نفوسهم مكان الخوف .

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأميّ ، وعلى آله مصابيح الـــدجى والعروة الوثقى ، وسلم تسليماً كثيراً .

قسم الرسائل

والمراد بها ما يشمل الوصايا

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة

- ١ -

الى أهل الكوفة :

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ جَبْهَةِ الأَنْصَارِ ، وَسَنَامِ الْعَرَبِ . أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ . إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ ، فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُكْثِرُ اسْتِعْتَابَهُ وَأُقِلُّ عِتَابَهُ ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ ، وَأَرْفَقُ حِدَائِهِمَا الْعَنِيفُ ، وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةُ غَضَبٍ فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ ، وَبَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ وَلاَ مُجْبَرِينَ بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ . وَاعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا ، وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمِرْجَلِ وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ ، فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ .

اللغة :

جبهة الأنصار : جماعتهم،والمراد بالأنصار هنا الأعوان ، لا الصحابة الأنصار. والمراد بالسنام الرفعة . واستعتابه : استرضاؤه . والوجيف : العدْو بسرعة . والفلتة : الهفوة والبغتة . وأتيح له : قُدّر له . ودار الهجرة : المدينة . وقلعت بهم الدار : أخرجتهم . وقلعوا بها : خرجوا منها . وجاشت:غلت . والمرجل: القدر . والقطب : الذي عليه المدار .

الإعراب :

من عبد الله متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف،أي:هذه الرسالة كائنة أو تأتيكم من عبدالله ، والرسالة عطف بيان من هذه . كعيانه الكاف بمعنى مثل خبر يكون، وأهون مبتدأ ، والوجيف خبر ، والجملة خبر كان .

المعنى :

خرج الإمام (ع) من المدينة لحرب الناكثين والقاسطين بعد أربعة أشهر من خلافته ، ولما انتهى الى الرّبذة ـ مكان بين مكة والكوفة ـ كتب الى أهلها هذه الرسالة ، وكان أبو موسى الأشعري واليها ، وشريح الكندي قاضيها من قِبل عثمان ، فثبط الأشعري الناس ، وحثهم شريح على المسير مع الإمام ، وقال من جملة ما قال : « والله لو لم يستنصر بنا لنصرناه سمعاً وطاعة » . وفي تاريخ ابن الأثير حوادث سنة ٣٦ : « ان عدد الذين استجابوا للإمام من أهل الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل » . ونقل ابن الأثير عن أبي الطفيل انه قال : « سمعت علياً يقول : يأتيكم من أهل الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل ، فأحصيتهم ، فما زادوا رجلاً ، ولا نقصوا رجلاً » . وأيضاً نقل هذا بالحرف عبد الكريم الخطيب في كتابه : « علي بن أبي طالب » عن الطبري ج ٥ ص ١٩٩ .

(إن الناس طعنوا عليه الخ) .. أي على عثمان ، وذكرنا طرفاً من هذه

المطاعن في شرح الخطبة ٣ ، ونعطف على ما سبق هذه الحكاية رواها ابن الأثير في حوادث سنة ٣٥ ، واستغرقت أكثر من صفحتين بالقطع الكبير ، وملخصها ان عثمان حين أيقن بالقتل ذهب الى بيت الإمام وقال له : يا ابن عم،قد جاء من القوم ما ترى ، ولك عندهم قدر ، فردهم عني . فقال الإمام : وعلى أي شيء أردهم عنك ؟. قال : على ان أعمل بما تشير . قال الإمــام : كلّمتك المرة بعد المرة ، وتَعِد وترجع وتعمل برأي مروان وغيره . قال عــثمان : أنا أعصيهم وأطيعك . فركب علي ومعــه ثلاثون من المهاجرين والأنصار ، وردوا الناس عن عثمان . ولكن سرعان ما جاء مروان وأصحابه وأفسدوا ما أصلح الإمام، فغضبت نائلة زوجة عثمان وأسمعت مـروان ما يكره ، فــردّ عليها بما هـو آلمُ وأوجع .

(وكان طلحة والزبير الخ) .. نقل الشيخ محمد عبده في تعليقه عــلى هذه الجملة : « إن أم المؤمنين عائشة أخرجت نعلي رسول الله (ص) وقميصه من تحت ستارها ، وعثمان يخطب على المنبر ، وقالت له : هذان نعلا رسول الله وقميصه لم تبلَ، ولقد بدلتَ من دينه ، وغيّرت من سنّته . وجرى بينهما كلام المخاشنة . فقالت عائشة : اقتلوا نعثلا . تشبهه برجل معروف ، « فأتيح له أي قدر له قوم فقتلوه » أي ان القوم استجابوا بقصد أو غير قصد لأمر أم المؤمنين بقتل عثمان . وتقدم الكلام عما كان منها ومن طلحة والزبير ضد عثمان في شرح الخطبة ٢٢ و ١٣٥.

(وبايعني الناس غير مستكرهين الــخ) .. تقدم مع الشرح في الخطبــة ٣ والخطبة ٩٠ (واعلموا ان دار الهجرة الخ) .. خرج الإمام من المدينة متوجهاً الى العراق ، ومعه الكثير من أهل المدينة ، وفيهم العديد من المهاجرين والأنصار (وقامت الفتنة) التي أثارها الزبير وطلحة وأم المؤمنين (على القطب) أي بلغت الفتنة أشدها .

ومن المفيد أن نشير هنا الى ما قاله ابن أبي الحديد في شرح هذه الخطبة ، ويتلخص بأن أصحابه المعتزلة حكموا بهلاك أهل الجمــل بكاملهم إلا من تاب ، وان عائشة تابت واعترفت للإمام بخطئها ، وسألته المعذرة ، وانها قالت : ليتني مت قبل الجمــل ، ووددت ان لي من رسول الله عشرة بنين ثكلتهم كلهم ، ولم يكن الجمل . أما الزبير فقد رجع عن الحرب تائباً ، واما طلحة فإنه قبــل أن تخرج الروح منه مر به فارس ، فقال له طلحة : من أي الفريقــين أنت ؟

قال من أصحاب علي أمير المؤمنين . فقال له طلحة : امدد يدك أبايعك لعلي أمير المؤمنين ، فمدها وبايعه .

ونحن لا نناقش هذه الرواية ، لأنها اعتراف صريح بالخطأ ، وأيضاً لا نناقش هذه التوبة ونردها بقوله تعالى : « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن ـ ١٨ النساء » . لا نرد ولا نناقش بعد الاعتراف بالخطأ .

الرسائل

-٢-

أيضاً أهل الكوفة :

وَجَزَاكُمُ اللهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ .

المعنى :

(وجزاكم الله من أهل مصر الخ) .. الخطاب لأهل الكوفة ، ما في ذلك ريب،لأنه جاء بعد الانتهاء من حرب الجمل وفتح البصرة . قال الشريف الرضي: « من كتاب له (ع) اليهم بعد فتح البصرة » . وضمير « اليهم » الى أهل الكوفة ، لأنه ذُكر بعد الرسالة اليهم بلا فاصل ، ولا سبيل الى التوهم بأنه يعود لأهل البصرة . أولاً : لأنهم أعلنوا عليه الحرب ، وانضموا مع خصومه ، فكيف يقول لهم : (جزاكم الله أحسن ما يجزي العاملين بطاعته ، والشاكرين لنعمته) ؟.

ثانياً : إن الشريف الرضي نفسه قال عند الخطبة ١٣ : « بعد وقعة الجمل

قال الإمام لأهل البصرة : كنتم جند المرأة ، وأتباع البهيمة ، رغا فأجبتم ، وعقر فهربتم الخ » . وقال المسعودي في « مروج الذهب » : دخل الإمام البصرة بعد وقعة الجمل ، وقد خطب خطبة طويلة ، قال فيها : ياأهل السبخة ، يا أهل المؤتفكة .. يا جند المرأة الخ . ثم قال المسعودي : وذم الإمام أهل البصرة بعد هذا الموقف مراراً كثيرة .

الرسائل

-٣-

شريح والدار :

بَلَغَنِي أَنَّكَ ٱبْتَعتَ دَاراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً وَكَتَبْتَ كِتَاباً وَأَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُوداً ، فَقَالَ شُرَيْحٌ : قَدْ كَانَ ذٰلِكَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . قَالَ فَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظَرَ مُغْضَبٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ : يَا شُرَيْحُ ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً ، وَيُسْلِمَكَ إِلى قَبْرِكَ خَالِصاً . فَانْظُرْ يَا شُرَيْحُ لَا تَكُونُ ٱبْتَعْتَ هٰذِهِ ٱلدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ ، أَوْ نَقَدْتَ ٱلثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ فَإِذاً أَنتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ ٱلدُّنيَا وَدَارَ ٱلآخِرَةِ . أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا ٱشْتَرَيْتَ لَكَتَبْتُ لَكَ كِتَاباً عَلى هٰذِهِ ٱلنسْخَةِ فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هٰذِهِ ٱلدَّارِ بِدِرْهَمٍ فَمَا فَوْقُ . وَٱلنُّسْخَةُ : « هٰذَا مَا ٱشْتَرَى عَبْدٌ ذَلِيلٌ مِنْ عَبْدٍ قَدْ أُزْعِجَ لِلرَّحِيلِ ، ٱشْتَرَى مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ

ٱلغُرُورِ مِنْ جَانِبِ ٱلفَانِينَ ، وَخِطَّةِ ٱلْهَالِكِينَ ، وَيَجْمَعُ هَـذِهِ ٱلدَّارَ حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ : ٱلحَدُّ ٱلأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي ٱلآفَاتِ ، وَٱلحَدُّ ٱلثَّانِي يَنْتَهِي إِلَى دَوَاعِي ٱلمُصِيبَاتِ ، وَٱلْحَدُّ ٱلثَّالِثُ يَنْتَهِي إِلَى ٱلهَوَى ٱلمُرْدِي ، وَٱلْحَدُّ ٱلرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى ٱلشَّيْطَانِ ٱلمُغْوِي ، وَفِيهِ يُشْرَعُ بَابُ هٰذِهِ ٱلدَّارِ . ٱشْتَرَى هٰذَا ٱلمُغْتَرُّ بِالأَمَلِ مِنْ هٰذَا ٱلمُزْعَجِ بِالأَجَلِ هَـذِهِ ٱلدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ ٱلقَنَاعَـةِ وَٱلدُّخُولِ فِي ذُلِّ ٱلطَّلَبِ وَٱلضَّرَاعَةِ ، فَمَا أَدْرَكَ هٰذَا ٱلمُشْتَرِي فِيمَا ٱشْتَرَى مِنْ دَرَكٍ فَعَلَى مُبَلْبِلِ أَجْسَامِ ٱلمُلُوكِ ، وَسَالِبِ نُفُوسِ ٱلْجَبَابِرَةِ ، وَمُزِيلِ مُلْكِ ٱلفَرَاعِنَةِ ، مِثْـلِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ ، وَتُبَّعٍ وَحِمْيَرَ ، وَمَنْ جَمَعَ ٱلمَالَ عَلَى ٱلمَالِ فَأَكْثَرَ ، وَبَنَى وَشَيَّدَ وَزَخْرَفَ ، وَنَجَّدَ وَٱدَّخَرَ ، وَٱعْتَقَدَ وَنَظَرَ بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ — إِشْخَاصُهُمْ جَمِيعاً إِلَى مَوْقِفِ ٱلعَرْضِ وَٱلْحِسَابِ ، وَمَـوْضِعِ ٱلثَّوَابِ وَٱلعِقَابِ . إِذَا وَقَعَ ٱلأَمْرُ بِفَصْلِ ٱلقَضَاءِ « وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلمُبْطِلُونَ » شَهِدَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ ٱلهَوَى وَسَلِمَ مِـنْ عَلَائِقِ ٱلدُّنْيَا » .

اللغة :

ابتعت : اشتريت . وشاخصاً : ذاهباً . وخالصاً : مجرداً . وأزعج : سيق . والخطة : الشأن أو تخطيط الأرض المعدة للبناء . والضراعة : الذلة . ودرك — بفتح الراء — التبعة . ومبلبل الأجسام : المثير والمهيج لأدوائها وأسقامها . وتُبّع وحمير : من ملوك اليمن .

الإعراب :

أما للتنبيه وافتتاح الكلام ، وشاخصاً حال من كاف الخطاب، ومثله خالصاً . فما أدرك «ما» شرطية بدليل دخول الفاء على جوابها وهو « فعلى مبلبل الخ » ، وفيما اشترى « ما » اسم موصول و « منه » الضمير يعود على «ما » ومن درك «من» بيان لاسم الموصول أي من ضمان الذي اشتراه ، وعلى مبلبل خبر مقدم ، وإشخاصهم مبتدأ مؤخر ، وجميعاً حال من الضمير في إشخاصهم ، والى موقف متعلق بإشخاصهم .

المعنى :

شُريح تابعي ، وليس بصحابي ، أدرك عصر النبي (ص) وما رآه،واستعمله الخليفة الثاني قاضياً على الكوفة ، واستمر في هذا المنصب أكثر من ستين سنة حيث عاش مئة أو تزيد ستاً ، ومات في خلافة عبد الملك ، وكان ذا بديهة وذكاء ، تخاصم لديه رجلان، فتكلم المدعى عليه بما يشكل اعترافاً بدعوى خصمه من حيث لا يشعر ، فأدانه شريح ، ولما سأله : من الذي شهد عليه قال له شريح : شهد عليك ابن أخت خالتك .. وجاءته امرأة تبكي وتتظلم،فما رقّ لها، ولما عوتب قال : إن اخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون .

وفي « الأغاني » ج ١٦ ص ٣٦ الطبعة القديمة : إن الإمام فقد درعاً ، ثم رآها مع يهودي ، فقال له : هذه درعي سقطت مني يوم كذا وكذا . فقال اليهودي : ما أدري ما تقول ، وبيني وبينك قاضي المسلمين ، فانطلق معه الإمام الى قاضيه شريح ، ولما رآه قام له من مجلسه ، فقال له الإمام : مكانك ، فجلس وقال لليهودي : ما تقول ؟. قال : درعي في يدي ، فطلب القاضي البينة من الإمام ، فاستشهد بولده الحسن ومولاه قنبر . فقبل شريح شهادة المولى لسيده ، ورد شهادة الولد لوالده . قال له الإمام : أما سمعت حديث رسول الله (ص) « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ؟ » . قال شريح : اللهم نعم . وبالرغم من ذلك تنازل الإمام عن الدرع تنفيذاً لحكم قاضيه .

فأكبر اليهودي ما رأى وقال : أمير المؤمنين مشى معي الى قاضيه ، فقضى

عليه ورضي ، ثم قال اليهودي للإمام : صدقت ، انها درعك ، سقطت منك في اليوم الذي ذكرت عن جمل أورق — أي رمادي اللون — فالتقطتها ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله . فسرّ الإمام بإسلامه وقال : الدرع لك ومعها هذا الفرس ، وقد فرضت لك ٩٠٠ درهم . ولم يزل مع الإمام حتى قتل يوم صفين .. وقد كفانا اليهودي المسلم عن الكلام حول هذه المنقبة والفضيلة .

وقال الشريف الرضي : إن شريحاً قاضي أمير المؤمنين (ع) اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً ، فبلغه ذلك فاستدعاه وقال : (بلغني انك ابتعت داراً الخ). كان الإمام شديداً على عماله وقضاته ، وعلى كل من يأتمنه على عمل ، وكانت مواعظه اللافحة تلهب قلوبهم وأرواحهم خشية الخيانة أو التقصير .. ومن هنا قال من لا يفهم إلا بلغة صكوك البيع والشراء ، قال : علي لا يحسن السياسة.. أجل، انه لا يحسن ، بل لا يستطيع إطلاقاً أن يخون أمانة الله وعيال الله . ويأتي قوله لبعض عماله : ان عملك ليس لك بطعمة ، ولكنه أمانة في عنقك .

(فانظر يا شريح لا تكون ابتعت هذه الدار من غير مالك الخ) .. لا بأس عليك أبداً أن تشتري أو تبني بكد اليمين، اما أن تسكن أو تأكل أو تلبس على حساب الآخرين فإنك تلهو به قليلاً ،وفي النهاية وبال عليك وخسران (اما انك لو كنت اتيتني الخ) .. وهذه الحدود التي ذكرها الإمام هي حدود حقيقية للدنيا لا لدار شريح وكفى ، وقد أخذها الإمام من القرآن الكريم الذي قال عن الحياة الدنيا: أنها لعب ولهو وزينة وتفاخر وزخرف وفناء ومتاع الغرور ، وان الآخرة هي دار البقاء ، وان الناجح الرابح من فاز بها لا من فرح يسيراً ، وحزن طويلاً .

(فما أدرك هذا المشتري الخ) .. المبلبل والسالب والمزيل هو ملك الموت ، ونجّد : من التنجيد أي النقش والتزيين ، والمراد بالاعتقاد هنا ادخار المال لمجرد الكنز والتكديس ، ونظر للولد أي جمع له ليحيا من بعده براحة وهناء ، والمعنى ان كل من بنى جداراً من حرام ، واكتسب درهماً من غير حل — فقد أقام حجاباً بينه وبين الله ، ثم يجرده الموت من كل شيء ، ويسوقه عرياناً الى العرض على الله للحساب والجزاء تماماً كما فعل من قبل ويفعل من بعد بالجبابرة والقياصرة .

(إذا وقع الأمر بفصل القضاء الخ) .. المراد بالأمر أمر الله تعالى ، وبفصل القضاء حكمه الذي لا يرد،وعندئذ يربح ويفوز الأمين المخلص ، ويخسر ويهلك الخائن المنافق (شهد عـلى ذلك العقل الخ) .. لحكمه بالعدل الإلهي الذي لا يستوي عنده مصير البر والفاجر ، والمؤمن والكافر .. وهل من عاقل على وجه الأرض يشك في هذا المبدأ : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ؟.

الرسائل

- ٤ -

جهاد أهل البغي :

فَإِنْ عَادُوا إِلَى ظِلِّ الطَّاعَةِ فَذَاكَ الَّذِي نُحِبُّ ، وَإِنْ تَوَافَتِ الْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَى الشِّقَاقِ وَالْعِصْيَانِ فَانْهَدْ بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَى مَنْ عَصَاكَ ، وَاسْتَغْنِ بِمَنِ انْقَادَ مَعَكَ عَمَّنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ فَإِنَّ الْمُتَكَارِهَ مَغِيبُهُ خَيْرٌ مِنْ شُهُودِهِ ، وَقُعُودُهُ أَغْنَى مِنْ نُهُوضِهِ .

اللغة :

توافت : أدت ، وقيل : تتابعت وتمت ، والأول أنسبُ بالسياق . وانهد : انهض . وتقاعس : أبطأ . والمتكاره : الكاره ، وقيل : المتثاقل ، والمعنى قريب من الأول.

المعنى :

وصل أصحاب الجمل الى البصرة ، وعليها عامل الإمام عثمان بن حنيف ، فكتب اليه بخبرهم ، فأجابه بقوله : (فان عادوا الى ظل الطاعة الخ) .. وان

جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ــ ٦١ الأنفال» (وان توافت الأمور الخ)، فإن أبوا إلا العنف والفتنة فاقض عليها بالجهاد ، ولا تكره عليه (فإن المتكاره مغيبه خير من شهوده) ذلك ان الجهاد الحق لا يكون ولن يكون إلا بالإيمـــان والعقيدة ، فقوة الإيمان وحدها تسوق الانسان الى الجهاد والاستشهاد .. وهل تاريخ الشهداء إلا تاريخ العقيدة ؟ أما الجهاد مع المشكك والمتثاقل فإنه يفرق الآراء ، ويصدع الصفوف ، والنتيجة الفشل والخسران .. واذن فعدم الكاره أو المتقاعس خير من وجوده ، وغيابه خير من حضوره .

الرسالة

- ٥ -

الوظيفة أمانة لا طعمة :

وَإنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ وَلَكِنَّهُ في عُنُقِكَ أَمَانَةٌ ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعى لِمَنْ فَوْقَكَ . لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ في رَعِيَّةٍ وَلَا تُخَاطِرَ إلَّا بِوَثِيقَةٍ ، وَفي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إلَيَّ ، وَلَعَلِّي أَنْ لاَ أَكُونَ شَرَّ وُلَاتِكَ لَكَ وَالسَّلَامُ .

اللغة :

الطعمة : المأكلة والارتزاق . وتفتات : تستبد . ولا تخاطر : لا تقدم .

الإعراب :

بطعمة خبر ليس ، والباء زائدة واسمها ضمير مستتر يعود الى عملك و «لك» متعلق بطعمة ، والمصدر من أن تفتات اسم ليس الثانية ، وخبرها «لك» ولعلّي ألاّ أكون « ألاّ » كلمتان « ان » و « لا » والمصدر المنسبك خبر لعل .

المعنى :

كان الأشعث بن قيس عاملاً على اذربيجان من قبل عثمان ، ولما تولى الإمام الخلافة كتب اليه يطالبه بما في يده من أموال المسلمين ، وقال له من جملة ما قال : (وان عملك ليس لك بطعمة الخ) .. أنت موظف ، والوظيفة أمانة في عنقك لله والمسلمين ، وليست مزرعة لك ومتجراً (وأنت مسترعى لمن فوقك). إن عليك لحسيباً ورقيباً ، وهو الخليفة ، يحصي عليك جميع أعمالك ، ويأخذك بها ان خنت وخالفت (ليس لك ان تفتات في رعية) أي تستبد وتستغل الرعية التي أنت لها خادم وأجير .

(ولا تخاطر إلا بوثيقة) . لا تقدم على أي عمل إلا وأنت على يقين من مكانه وصحته وفائدته ، ولديك الحجة الكافية الوافية على ذلك (وفي يديك مال من مال الله) والناس عيال الله ، وإذن فالمال لهم ولسد حاجاتهم ، وليس لك ولا للخليفة الذي هو عليك حسيب ورقيب (ولعلي الا اكون الخ) .. لقد أثنيت على عثمان الذي ولاّك ، وأرجو أن تثني عليّ أيضاً .. وفيه إيماء الى انه على الأشعث أن يستقيم على الطريقة وإلا رأى من الإمام ما يكره . وتكلمنا عن هذا الأشعث في شرح الخطبة ١٩ .

الرسالة

-٦-

البيعة لأهل الحل والعقد :

إِنَّهُ بَايَعَنِي ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمانَ عَلى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ ، وَإِنَّمَا ٱلشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ ، فَإِنِ ٱجْتَمَعُوا عَلى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذٰلِكَ لِلّٰهِ رِضًى ، فَإِنْ خَرَجَ مِنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ ، فَإِنْ أَبى قَاتَلُوهُ عَلى ٱتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَوَلَّاهُ اللهُ مَا تَوَلَّى . وَلَعَمْرِي يَا مُعَاوِيَةُ لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ ٱلنَّاسِ مِنَ دَمِ عُثْمانَ ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّى فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَكَ وَٱلسَّلَامُ .

اللغة :

تتجنى : تفتري .

الإعراب :

انه الضمير للشأن ، ولعمري اللام للابتداء ، وعمري مبتدأ ، والخبر محذوف وجوباً أي قسمي ، ولئن الـلام توطئة للقسم ، ولتجدني اللام في جواب القسم الساد مسد جواب الشرط .

المعنى :

بعد أن تمت البيعة للإمام كتب لمعاوية رسالة مع جرير بن عبدالله البجلي ، ومنهـا (انه بايعني القوم الخ) .. في شرح الخطبة ٣ والخطبة ٩٠ نقلنـا عن المؤرخين ، ومنهم الطبري ، ان المهاجرين والأنصار وكثيراً غيرهم بايعوا الإمام بعد امتناعه وقوله : « أنا لكم وزيراً خير مني أميراً » وانه ما مدّ يده الى البيعة إلا بعد إلحاح الجماعة ، والصحابة في الطليعة ، ومعهم الزبير وطلحة ، وما كتب الإمام لمعاوية إلا تجنباً للفتنة .

قال عبد الكريم الخطيب في كتابه «علي بن أبـي طالب» ص ٣٧٥ و٣٧٧: « لم يكن من طبيعة علي أن يبدأ أحداً بالقتال قبل أن يبدأه ، ولم يكن يلجأ الى القتال إلا بعد أن يُنذر ويعذر .. كان يقاتل تحت هذا الشرط الـذي أخذ به نفسه .. أما مقاتلوه فإنما هي الحرب عندهم يُطلب فيها الغلب والنصر بكـل أسلوب ممكن ، وبكل وسيلة مسعفة،قال ابن حزم : « في ايام علي كانت وقعة الجمل وصفّين، وعلم الناس منه كيف كان قتال أهل البغي » .

(فلم يكن للشاهد أن يختار) اذا تمت البيعة من أكثرية الصحابة ، وحضرها غيرهم – فقد لزمته وليس له أن يرفض ويعترض (ولا للغائب أن يرد) بيعةَ الإمام الذي بايعه الصحابة . وهذه الحجة تدمغ معاوية وأصحاب الجمل، وتُلقمهم حجراً .. انهم يعترفون بخلافة الثلاثة لأنها تمت ببيعة المهاجرين والأنصار، وكذلك بيعة الإمام .. فكيف نقضوا هنا ما أبرموه هناك ؟. وقال كثير من أرباب التاريخ والسيَر : إن بيعة أبـي بكر لم يجمع الصحابة عليها ، فسعد بن عبادة لم يبايع ، ولا واحد من أهله ، وكذلك بنو هاشم وأنصارهم ، وما توقف معاوية وأضرابه عن تصحيح بيعة أبـي بكـر لامتناع من امتنـع عنها . (أنظر ما كتبناه حول التسنن والتشيع في كتاب : فلسفة التوحيد والولاية) .

(فإن خرج عن أمرهم خارج الخ) .. الضمير في أمرهم للصحابة الذين بايعوا الإمام ومن قبله ، والخارج بطعن معاوية ، والخارج ببدعة أصحابُ الجمل الناكثون ، وولاه ما تولى إشارة الى قوله تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونُصله جهنم وساءت مصيراً — ١١٥ النساء» أي من ترك الحق واتبع الباطل أوكله سبحانه اليه وعامله بما يستحق.

(ولعمري يا معاوية لئن نظرت الخ) .. أنت تعلم براءتي من دم عثمان وبدفاعي عنه ، ولكنك تكذب مع نفسك ، وتفتري عليّ لمآرب شيطانية ، ولو كنت من المتقين لمنعتك التقوى من أساليب المكر والخداع .. فافعل ما شاء لك الهوى فإن الله بالمرصاد لكل ظالم وآثم .

وقال العقاد في « عبقرية الإمام » فصل «البيعة» : كان معاوية أقدر من الإمام على الدفاع عن عثمان ، لأنه كان والياً على الشام عزيز الجند ، يستطيع أن يرسله اليه ليحميه من الشدة اللازمة حتى ولو أبى عثمان ذلك .. أما علي فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيله العقل في تلك الأزمة المحفوفة بالمصاعب من كل جانب .. كان الثوار يحسبونه أول مسؤول عن السعي في الإصلاح ، وكان الخليفة يحسبه أول مسؤول عن كف الثوار ، ولم يكن في العالم الاسلامي كله رجل آخر يعاني مثل هذه المعضلة التي تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها ولا خلاص » .

ثم قال العقاد : « ومع هذا صنع الإمام غاية ما يصنعه رجل متعلق بالنقيضين.. جاءه الثوار وعرضوا عليه البيعة ، فلقيهم أسوأ لقاء ، وأنذرهم ان عادوا ليكونن جزاؤهم عنده جزاء المفسدين في الأرض » . ومعاوية يعرف ذلك أكثر مما يعرفه العقاد ، ولكنه يأبى إلا التجني والافتراء على الإمام .

الرسالة

-٧-

جواب الإمام لمعاوية :

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَتْنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ ، وَرِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ نَمَّقْتَهَا بِضَلَالِكَ ، وَأَمْضَيْتَهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ ، وَكِتَابُ امْرِئٍ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ ، قَدْ دَعَاهُ الْهَوَى فَأَجَابَهُ ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ فَهَجَرَ لَاغِطاً وَضَلَّ خَابِطاً . لِأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لَا يُثَنَّى فِيهَا النَّظَرُ وَلَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ . الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ ، وَالْمُرَوِّي فِيهَا مُدَاهِنٌ .

اللغة :

موصولة : مجموعة من كل واد عصا . ومحبرة : مزينة . وأمضيتها : أجزتها وأنفذتها . وهجر : هذى . ولاغطاً : مصوتاً . وخابطاً : سائراً بغير هدى . والمروّي : المفكر . والمداهن : المصانع .

الإعراب :

لاغطاً حـــال من الضمير المستتر في هجر ، ومثله ضل خابطاً ، والهاء في « لأنها » للقصة ، وبيعة خبر « أن » وبيان وتفسير للهاء .

المعنى :

(أما بعد فقد أتتني منك موعظة الخ) .. اتفق الشارحون عـلى ان الخطاب لمعاوية ، وانه جواب عن رسالة بعث بها الى الإمام ، كما هـــو صريح قوله : « أتتني منك » واختلفوا في تحديد الرسالة التي أجاب عنها الإمام بهذا الجواب ، لأن معاوية بعث الى الإمام أكثر من رسالة .. وأنا كشارح لا أكترث وأهتم إلا ببيان ما قصد الإمام وأراد من كلماتـــه ، ويتلخص مراده هنا ان معاوية تعسّف وتكلف ، وحاول أن يقلد أهل البلاغة والفصاحة في رسائلهم، فجاء كلامه مزيجاً من أقوال شتى ، ومعبراً عن غيه وضلاله .

(لأنها بيعة واحدة) لا تتجزأ بطبيعتها الى رضا الصحابة بها ، ورفض من عداهم لها (ولا يُثنّى فيها النظر) لا تقبل الشك والمراجعة ، لأنها محكمة مبرمة (ولا يُستأنف فيها الخيار) لأنها تأباه بطبعها تماماً كالوفاء بالعهد ، والصدق في في الشهادة ، فما لأحد أن يقول : لي الخيار في أن أفي بما عليّ ، وأشهد بما أريد (الخارج منها طاعن) من رفض ما عقده الصحابة من البيعة فقـد عصى وتمرد على الحق ، وطعن على أهله (والمروّي فيها مداهن) ومن تردد وأبطأ عن البيعة التي عقدها الصحابة فقد داهن ونافق ، وما قصد إلا التشويش والتخريب .

الرسالة

-٨-

الى جرير البجلي :

أَمَّا بَعْدُ فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَاحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلى ٱلْفَصْلِ ، وَخُذْهُ بِالأَمْرِ الْجَزْمِ ، ثُمَّ خَيِّرْهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجْلِيَةٍ أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَةٍ فَإِنِ ٱخْتَارَ الْحَرْبَ فَانْبِذْ إِلَيْهِ ، وَإِنِ ٱخْتَارَ السِّلْمَ فَخُذْ بَيْعَتَهُ وَالسَّلاَمُ .

اللغة :

الفصل : الحكم القاطع لكل قول . وحرب مجلية : تجلي العدو عن موقفه ، وتُلجئه الى العدول عنه . وسلم مخزية : تفرض عليه شروط العدل فيستسلم لها مرغماً . فانبذ اليه : ارم اليه عهد السلم والأمان وأعلن عليه الحرب .

الإعراب :

والسلام مبتدأ والخبر محذوف أي عليك .

المعنى :

في شرح الرسالة السادسة قلنا : إن الإمام أرسلها لمعاوية مع جرير بن عبدالله

البجلي ، وأيضاً تقدّمَ في الخطبة ٤٣ : إن أصحاب الإمام أشاروا عليه بالاستعداد لحرب معاوية بعد إرساله جريراً الى الشام ، وانه أجاب بقوله : « إن استعدادي لحرب أهل الشام وجرير عندهم إغلاق للشام .. ولكن وقّت لجرير وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً » . ولما مضى الأمد المضروب كتب الإمام الى جرير هذه الرسالة ، وملخصها : لا موجب للتأخير والتطويل ، وعليك أن تنهي الأمر مع معاوية بكلمة واحدة : البيعة أو الحرب .

الرسالة

- ٩ -

النبي وقريش :

فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا وَٱجْتِيَاحَ أَصْلِنَا ، وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ وَفَعَلُوا بِنَا ٱلْأَفَاعِيلَ ، وَمَنَعُونَا ٱلْعَذْبَ ، وَأَحْلَسُونَا ٱلْخَوْفَ ، وَاضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَعْرٍ ، وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ ٱلْحَرْبِ ، فَعَزَمَ اللهُ لَنَا عَلَى الذَّبِّ عَنْ حَوْزَتِهِ ، وَالرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ . مُؤْمِنُنَا يَبْغِي بِذَلِكَ الْأَجْرَ ، وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الْأَصْلِ . وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ ، فَهُوَ مِنَ ٱلْقَتْلِ بِمَكَانِ أَمْنٍ . وكانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِذَا ٱحْمَرَّ ٱلْبَأْسُ وَأَحْجَمَ النَّاسُ قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوَقَى بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَالْأَسِنَّةِ . فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَقُتِلَ جَعْفَرٌ يَوْمَ مُؤْتَةَ . وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ ٱسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ ،

وَلٰكِنْ آجَالُهُمْ عُجِّلَتْ وَمَنِيَّتُـهُ أُجِّلَتْ . فَيَـا عَجَباً لِلدَّهْرِ إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لاَ يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا لاَ أَعْرِفُهُ ، وَلَا أَظُنُّ اللهَ يَعْرِفُهُ وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ عَلى كُلِّ حَالٍ . وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هٰذَا الْأَمْرِ فَـلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلَا إِلَى غَيْرِكَ ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيِّكَ وَشِقَاقِكَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ ، لاَ يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ وَلَا جَبَلٍ وَلاَ سَهْلٍ ، إِلَّا أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوءُكَ وِجْدَانُـهُ ، وَزَوْرٌ لاَ يَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ وَالسَّلاَمُ لِأَهْلِهِ .

اللغة :

قومنا : قريش . والاجتياح : الاستئصال . وهموا : قصدوا . والهموم : الأحزان . والأفاعيل : الإساءات . وأحلسونا : ألزمونا . وعزم : أراد . وحوزة الله : دينه وشريعته ، وحوزة النبي : جانبه ومكانته . واحمر البأس : اشتد القتال . ومؤتة : مكان في الشام . وسابقتي : فضيلتي . ويدلي : يتوسل . وتنزع : تنتهي . والشقاق : الخلاف . والزور : الزائرون . واللقيان : اللقاء .

الإعراب :

العذب صفة لمفعول محذوف أي العيش العذب ، وخلوٌ خبر من أسلم ، ومثل الـذي مفعول أراد ، فيا عجباً أي يا عجبي احضر ، وضمير انـه للشأن ، وضمير لقيانه للزور ، وأفراده باعتبار اللفظ دون المعنى .

المعنى :

(فأراد قومنا قتل نبينا واجتياح أصلنا الخ) .. كانت قريش — قبيلة النبي وعلي — تعيش بمكـة ، وتستأثر بكل الحقوق ، وما لأحد معها شيء ، ونشأ محمد (ص) فيها يتيم الأم والأب ، فكفله جدّه عبد المطلب سبع سنين ، ثم عمه أبو طالب ، ولما بلغ الأربعين من عمره اختاره الله لأمره ، فأنفذه في نفسه وزوجته خديجة وابن عمه علي وغلامه زيد ، ثم في نفر قليل .

ثم انتشر ذكر الرسول (ص) في بلاد العرب ، فأوجست قريش خيفـة من رسالته ، ونظرت اليها كثورة تجتاح سيطرتها ، وتستأصل امتيازها من الجذور .. وإذن فلا بدع أن تحاول قريش قتل النبي ، وتعتبره العدو الألد ، وانه المعتدي والبادىء . وماذا ترقب وتنتظر من قريش وغير قريش ، بل مـني ومنك أيضاً إذا حاول مريد أن يسلبك كرسي الحكم وما لك من أمر ونهي — ان كـان لك شيء منها — ويساوي بينك وبين من تستعبده وتستغله ، يساويك بـه في جميع الحقوق والواجبـات ؟. أما الحق والعدل وصالح الجماعة والإنسانية والمسؤولية ، أما هذه القيم وأمثالها فكلام فارغ في مفهوم أهل القوة والثروة .

هذا ، الى ان قبيلة النبي أرادت العيش معه بسلام ، فعرضت عليـه المال والسلطان على أن يتنازل عن دعـوة المساواة بين الناس ، وإنصاف الضعيف من القوي ، فرفض وقال : ما جئتكم لأطلب أموالكم والملك عليكم .. إنما أنا رحمة مهداة .. كلكم من آدم وآدم من تراب .. وكلمة لا إله إلا الله لا تنفصل عن كلمة الناس كلهم إخوة وعيال الله ولا يعبدون أحداً سواه .. وافعلوا ما شئتم ، فسأصبر على أذاكم حتى يحكم الله بيني وبينكم .

ولما استيأسوا منه عمدوا الى إيذائه بالقول وبالفعل ، فشنوا عليه وعلى رسالته حرب الدعايات الكاذبة والأضاليل ، ومن أراد التفصيل فليرجع الى كتب السيرة والتاريخ .. وليس النقل من دأبي إلا لضرورة ، أنا أقدرها .. آذوا النبي (ص) ونكلوا بالكثير من أصحابه،ولكن لم يبلغوا منه ما أرادوا ، فأزمعوا على الخلاص منه ، وخططوا لقتله بأن يضربوه مجتمعين ضربة رجل واحد ، ويذهب دمـه هدراً .. فأبى الله إلا أن يُتم نوره ولو كره الكافرون .

نحن وحوش :

وبعد ، فإن أهل القوة والثروة فعلوا الأفاعيل ضد رسول الله ، ما في ذلك ريب ، ونحـــن نلعنهم بعنف ، ونتقرب الى الله بلعنهم والبراءة منهم دون ان نحاسب أنفسنا وننظر الى سلوكنـــا .. وهل من واحد منا — إذا كان له امتياز واستعلاء — يضمن نفسه أن لا يفعل مع المصلحين ما فعله عتاة قريش مع رسول الله (ص) ؟ وأي فرق بين أبي جهل ، وبين من يبيع دينه للشيطـــان ولا يقيم وزناً إلا لصكوك البيع والشراء ؟ وهل يحق لأحد أن يدعي الـــدين والانسانية ، وهو لا يشعر بآلام من حوله وما حوله ؟ والطامة الكبرى أن لا تـرى إلا همك وفريستك ، وفي الوقت نفسه تجهل دخيلتك وصفاتك . وبالتـــالي فنحن وحوش كاسرة ، ولكن في صورة إنسان .

(ومن أسلم من قريش خلو مما نحن فيه الـــخ .) .. كانت قريش بطونـــاً وفروعاً ، وفي كل فرع منها فقراء ومستضعفون ، فإن أسلم واحـد منهم كان في أمن وأمان من أذى الطغاة بعشيرته أو حلفائها وأنصارها ، أما آ ل البيت فقد تظاهرت عليهم قوى الشر حتى من العشيرة والأحلاف ، وفي طليعتهم عمه أبو لهب الـذي نزل فيـــه وفي امرأته سورة خاصة ، ولولا أن يدفـــع الله عن نبيه بعمه أبي طالب لقُضي على الاسلام ، وهو في المهد ، وقال أهل السير والتاريخ : إن أبا طالب عانى الكثير الكثير في سبيل الاسلام ونبيه ، وانه كان يستنجد بأخيـــه أبي لهب ، ويستثير فيـــه النخوة والحمية شعـــراً ونثراً ، ليدفع عن ابن أخيه محمد (ص) فيرفض ، بل وساهم بقسط وافر في أذى رسول الله (ص) والكيد له ، والتأليب عليـه ، والسبب الأول زوجته أم جميـــل أخت أبـي سفيان التي وصفها القرآن بحمالة الحطب ، لأنها توقد نار الفتنة والبغضاء ضد رسول الله (ص).

(وكان رسول الله اذا احمر البأس الخ) .. كانت بدر المعركة الأولى للمسلمين مع المشركين ، واليها أشار سبحانه بقوله : « ولقد نصركم الله ببـدر وأنتم أذلة — ١٢٣ آل عمران » وفيها قُتل ابن عم النبي عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب . وفي ج ٢ من « أعيان الشيعة » : « قتل الإمام في يوم بدر على اتفاق الروايات خمسة وثلاثين رجلاً من المشركين » . وقال عبد الكريم الخطيب في كتاب « علي ابن أبي طالب » ص ١٣١ وما بعدها : « حين نتفرس في وجوه القتلى الذين

أضيفوا الى عليّ نرى انهم كان وجوه قريش ، وأهل العزة والقوة فيها ، كما انهم كانوا رؤوساً في الكفر ، والمحادّة لله ورسوله ، وانه قلّ أن يكون بيت من بيوت قريش لم ينله سيف علي في تلك الوقعة .. انه بطلها وفارسها » .

وقُتل عم النبي حمزة في معركة أُحد ، والبها أشار سبحانه بقوله: «إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ـ ١٥٣ آل عمران » . وقال الخطيب في ص ١٣٧ : « لقد كان لعلي في يوم أُحد من الإطاحة برؤوس أئمة الكفر من قريش ما كان له في يوم بدر » . واستشهدَ ابن عم النبي جعفر بن أبي طالب بمؤتة ، وكان حامل الراية ، قطعت يداه ، وما فر من المعركة ، وقال رسول الله (ص) : إن الله أبدله بهما جناحين يطير بهما في الجنة .

(وأراد من لو شئت ذكرت اسمه الخ) .. يشير الإمام الى نفسه ، وانه تمنى الشهادة ، وتلهف عليها تماماً كما يتلهف معاوية على الحكم والسلطان ، وفي الخطبة ١٥٥ : « فقلت: يا رسول الله ، أليس قلتَ لي يوم أُحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين ، وحيزت عني الشهادة ، فشق ذلك عليّ ، فقلت لي: أبشر فإن الشهادة من ورائك ، فقال لي : ان ذلك لكذلك فكيف صبرك إذن؟ فقلت : يا رسول الله ليس هذا من مواطن الصبر ، ولكن من مواطن البشرى والشكر » .

(فيا عجباً للدهر ! إذ صرت يقرن الخ)..لقد بلغ من فعل الأيام وعجائبها ان يقال : علي ومعاوية !. « هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور » ؟ قال ابن أبي الحديد : « يشير الإمام الى معاوية في الظاهر ، والى من تقدم من الخلفاء في الباطن بدليل قوله:لا يدلي أحد بمثلها » . وفي الخطبة ٣ قال الإمام بصراحة : « متى اعترض الريب فيّ مع الأول حتى صرت أقرن الى هذه النظائر » ؟. وهذا هو الشأن في كل وضع فاسد (الا ان يدعي مدع) كذباً وزوراً بأن له مثل الإمام فضيلة وجهاداً (ولا أظن الله يعرفه) حيث لا عين له ولا أثر ،وعلى حد ما قال ابن أبي الحديد : هذا من باب العلم بالسلب، لا سلب العلم .

(واما ما سألت من دفع قتلة عثمان اليك الخ) .. معاوية لا يعترف بولاية الإمام على المسلمين ، ومع هذا يُلزمه بواجبات الوالي من رد المظالم والأخذ على أيدي الظالمين تماماً كمن يقول لك : أنا لا أعترف بمعرفتك بالفقه ، ومع هذا

عليك أن تُفقه الناس !. وقد نبهه الإمام الى هذا التناقض في بعض ما أرسله اليه ، وقال : « قد اكثرتَ في قتلة عثمان ، فادخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم إليّ ، أحملك وإياهم على كتاب الله ، أما تلك التي تريد فإنها خدعة الصبي عن اللبن في أول الفصال » .

هذا ، الى ان جماهير المسلمين هي التي قتلت عثمان لأحداث نقموها عليه ، بعد أن استعتبوه وأصر .. وهل في مقدور أحد على وجه الأرض أن يحاكم الجماهير ويقتص منها ؟ ومعاوية يعرف ذلك ، ولكنه يكذب على نفسه .. وعلى أية حال فإن الجماهير التي يصر معاوية على القصاص منها ستأتيه بنفسها ، وتدور عليه دائرة السوء ، إن لم يرتدع عن غيه وضلاله .

وأشرنا فيما سبق الى ان معاوية تجاهل دم عثمان بعد أن تم له الحكم والأمر حتى كأنه لم يحارب علياً تحت راية قميص عثمان !. قال العقاد في عبقرية الإمام: « علل معاوية ثورته على الإمام باتهامه بدم عثمان ، فماذا صنع بقاتليه حين صار الملك اليه ، ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذي من أجله ثار واستباح القتال ؟. انه تبع علياً فيما صنع بقاتلي عثمان .. وقد ذكّره بعض الناس بدم الخليفة، وألحوا في تذكيره فما زاده ذلك إلا إصراراً على الإغضاء والإعفاء » .

الرسائل

- ١٠ -

الدنيا ومعاوية :

وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا . دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا ، وَقَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا ، وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا . وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقِفَكَ وَاقِفٌ عَلَى مَا لَا يُنْجِيكَ مِنْهُ مِجَنٌّ . فَاقْعَسْ عَنْ هٰذَا الْأَمْرِ ، وَخُذْ أُهْبَةَ الْحِسَابِ ، وَشَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ ، وَلَا تُمَكِّنِ الْغُوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ ، وَإِلَّا تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ ، وَجَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالدَّمِ . وَمَتَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ وَوُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ ؟ بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ . وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً فِي غِرَّةِ الْأُمْنِيَّةِ مُخْتَلِفَ الْعَلَانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ .

وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى ٱلْحَرْبِ فَدَعِ النَّاسَ جَانِبـــاً وَٱخْرُجْ إِلَيَّ وَأَعْفِ ٱلْفَرِيقَيْنِ مِنَ ٱلْقِتَالِ لِيُعْلَمَ أَيُّنَا ٱلْمَرِينُ عَلى قَلْبِهِ وَٱلْمُغَطَّى عَلى بَصَرِهِ ، فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ قَاتِلُ جَدِّكَ وَخَالِكَ وَأَخِيكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ ، وَذٰلِكَ السَّيْفُ مَعِي ، وَبِذٰلِكَ ٱلْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي ، مَا اسْتَبْدَلْتُ دِيناً ، وَلَا اسْتَحْدَثْتُ نَبِيّاً . وَإِنِّي لَعَلَى ٱلْمِنْهَاجِ ٱلَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ . وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِراً بِعُثْمَانَ . وَلَقَـــدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِباً ، فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُّ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ ضَجِيجَ الْجِمَالِ بِالْأَثْقَالِ وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي ــ جَزَعـاً مِنَ الضَّرْبِ ٱلْمُتَتَابِـعِ وَٱلْقَضَاءِ ٱلْوَاقِعِ وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ ــ إِلَى كِتَابِ اللهِ ، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاحِـدَةٌ ، أَوْ مُبَايِعَةٌ حَائِدَةٌ .

اللغة :

جلابيب : جمع جلباب ، ضرب من اللبـــاس . وتبهجت : صارت ذات بهجة وحسن . ويقفك : يُطلعك أو يحبسك . والمجـــن : الترس . وأقعس : تأخر . والأهبة : العـــدة . وشمر : اجتهـــد . والمترف : المتنعم . والسابق : الغالب . والباسق : العالي . ومتمادياً : مضى قدماً لا يلوي على شيء . والغـــرة ــ بكسر الغين ــ الغفلة ، وبضمها البياض في الجبهـة . والمرين على قلبه : مَن طغت الذنوب على قلبه . وشدخاً : كسراً . واستحدث : ابتـدع . والمنهاج : الطريق الواضح . والمراد بالحائدة هنا الناكثة .

الإعراب :

انه الضمير للشأن ، وواقف اسم يوشك ، والمصدر المنسبك من أن يقفك خبرها ، وفاعل يقفك ضمير مستتر يعود على الواقف المتأخر لفظاً والمتقدم رتبة، لأن الأصل يوشك واقف أن يقفك ، وألاّ كلمتان : « ان » الشرطية و « لا » النافية ، وجانباً نصب على الظرفية ، ومكرهين حال ، وكذا ثائراً ، وجزعاً مفعول من أجله لتدعوني وليس تمييزاً كما توهم بعض الشارحين ، والى كتاب الله متعلق بتدعوني .

المعنى :

كتب الإمام الى معاوية من جملة ما كتب : (وكيف أنت صانع الخ) .. لا يخدعنك ما أنت فيه من شهوات وملذات ، فإن الموت أمامك ، وما بعده أدهى وأمرّ ، فبادر العمل قبل الأجل إن كنت حقاً من المؤمنين ، ولا تصغ لمن يغريك بما يرديك .. والإمام يعلم ان معاوية وهب حياته لدنياه ، وانه لا يردعه عنها أي رادع ، ولكن يقيم عليه الحجة وكفى ، والدليل على معرفة الإمام بحقيقة معاوية ويأسه منه قوله : (فإنك مترف قد أخذ الشيطان منك مأخذه ، وبلغ فيك مأمله ، وجرى منك مجرى الروح والدم) . وكلمة «مترف» تشير الى ان المرء كلما أسرف في الملذات ازداد بعداً عن الروحيات ، وتحكمت فيه الأهواء والشهوات ، وكفى شاهداً على ذلك قوله تعالى : « إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى — ٦ العلق » .

(ومتى كنتم يا معاوية ساسة الخ) .. لا ريب ان أبا سفيان كان زعيماً ، ولكنه كان زعيم الشرك والجاهلية الجهلاء ، ورئيس البغي والعدوان .. قاد الجيوش ضد الاسلام وضد نبي الرحمة ، وضد كل عدل وخير ، ولما قهره الاسلام استسلم للقوة .. وفي ذات يوم نظر أبو سفيان الى رسول الله (ص) نظرة حائرة ، وقال في نفسه: ليت شعري بأي شيء غلبني محمد ! . فأدرك الرسول ما يحاك في صدره ، وضرب بكفه بين كتفيه وقال له : بالله غلبتك يا أبا سفيان .

ولما قامت دولة الأمويين باسم الاسلام ، وسنحت الفرصة عادوا الى طبيعتهم وجاهليتهم الأولى . وبناء على هذا يكون مراد الإمام من السيادة ونفيها عن أمية

السيادة الحقة العادلة لا سيادة البغي والعدوان ، ويومىء الى ذلك قوله : (ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء) أي سوابق الأسواء كزعامة أمية التي هي شر وبلاء. واذن فعلى معاوية أن يخجل من زعامة أبيه لا أن يفخر بها ويعتز،وهل في حرب الرسول الأعظم (ص) فخر ومجد ؟.

(واحذر أن تكون الخ) .. زعامتك يا معاوية كزعامة أبيك فساداً وضلالاً مع فارق واحد ، وهو ان أباك كان حرباً على الاسلام جهرة وبلا رياء ، وأنت حرب على الاسلام في الواقع ، وسلم له في الظاهر .

(وقد دعوتَ الى الحرب فدع الناس الخ) .. في كتاب «الإمامة والسياسة» لابن قتيبة ص ١٠٦ ومـــا بعدها طبعة ١٩٥٧ ما نصه : « قال علي لمعاوية : علامَ يقتتل الناس ؟.. أبرز إليّ ودع الناس ، فيكون الأمر لمن غلب . قـــال ابن العاص لمعاويـــة : أنصفك الرجل . فقال معاوية : طمعت فيها يا عمرو ! قال ابن العاص : أتجبن عن علي وتتهمني ؟. والله لأبارزن علياً ولـو مت ألف موتة . فبارزه عمرو ، وطعنه علي فصرعه ، فاتقاه عمرو بعورته ، فانصرف عنه علي حياءً وتكرماً وتنزهاً».

(فأنا أبو حسن قاتل جدك) وهو عتبة بن.ربيعة أبو هند أم معاوية ، برز اليه يوم بدر عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، واشترك الإمام في قتله (وأخيك) وهو حنظلة بن أبي سفيان ، برز اليه حمزة ، واشترك الإمام في قتله (وخالك) هو الوليد بن عتبة بن ربيعة قتله الإمام (شدخاً) كسرت رؤوسهم ، وفصلتها عن أجسامهم (وذلك السيف معي) . أنا من تعلم يا معاوية مـــا غيّرت ولا بدّلت إيماناً وعزمـــاً وجهاداً (واني لعلى المنهاج الذي تركتموه الخ) .. قال الشيخ محمد عبده : « المنهـــاج هو طريق الدين الحق لم يدخل فيـــه أبو سفيان ومعاوية إلا بعد الفتح كرهاً » . وقـال طه حسين في كتاب « مرآة الإسلام » : « عند الفتح قـــال أبو سفيان : لا إله إلا الله ، وأظهر التردد في الشهادة بأن محمداً رسول الله ، ولكنه اضطر آخر الأمر أن يعلنها » .

(وزعمت أنك جئت ثائراً بدم عثمان الخ) .. وكل الناس يعرفون انك ما حملت قميص عثمان ، وحاربت تحت رايتـــه إلا لحاجة في نفسك ، وأنت جعلت هذا القميص مثلاً لكل مكر وخداع على مدى الأيام ، ولو كنت حقاً تطلب بدم عثمان لطلبته من أصحاب الجمل ، ومن نفسك أيضاً ، لأنك خذلته ، وأنت

قادر على نصرته .

وقرأت كلمة في جريدة « الجمهورية المصرية » تاريخ ٢٥ — ١١ — ١٩٧٠ لكاتب مصري،اسمه علي الدالي ، تكلم بوحي التاريخ وبعيداً عن كل ميل وتعصب، ومما جاء في هذه الكلمة : « بـــدأ معاوية بتعكير الماء في عهد عثمان حتى يحقق أغراضه ، فتقوم الفوضى في البلاد ، ولا تجتمع كلمة المسلمين ، وبـــذلك يقفز الى السلطة .. ويقضي على الشورى ، ويجعل الخلافة كسروية إرثاً لأولاده، ولبني أمية السادة » .

(فكأني قد رأيتك تضج من الحرب الخ) .. يشير الإمام بهذا الى ما سيحدث لمعاوية وجيشه في صفّين من الضعف واللجوء الى المكر والخديعة برفع المصاحف. قال الشيخ محمد عبده : « تفرّس الإمام فيما سيكون من معاوية وجنده ، وكان الأمر كما تفرس » . وقال ابن أبي الحديد : « إما أن يكون قوله هذا فراسة نبوية صادقة،وهو عظيم،وإما أن يكون إخباراً عن غيب مفصل،وهو أعظم وأعجب» .

(وهي كافرة جاحدة الخ) .. هي تعود الى جماعة معاوية ، والمعنى ان منهم من يضمر الكفر ويظهر الاسلام،ومنهم من بايع الإمام ونكث وحارب مع أهل الجمل بالبصرة ، ثم مع معاوية بصفين ، وكلا الفريقين لا يؤمن بالقرآن ولا يعمل به ، ولكن يتخذ منه وسيلة وأداة لأغراضه ومآربه .

الرسالة

- ١١ -

فن الحرب :

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوٍّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبُلِ الْأَشْرَافِ أَوْ سِفَاحِ الْجِبَالِ ، أَوْ أَثْنَاءِ الْأَنْهَارِ كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ رِدْءًا وَدُونَكُمْ مَرَدًّا . وَلْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ . وَاجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي الْجِبَالِ وَمَنَاكِبِ الْهِضَابِ لِئَلَّا يَأْتِيَكُمُ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ . وَاعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ ، وَعُيُونُ الْمُقَدِّمَةِ طَلَائِعُهُمْ . وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ ، فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعاً ، وَإِذَا ارْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعاً ، وَإِذَا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً ، وَلَا تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غِرَاراً أَوْ مَضْمَضَةً .

اللغة :

المعسكر : موضع العسكر . والأشراف : الأماكن العالية . وقُبُلها: ما استقبلك

منها . وسفاح الجبال – بكسر السين – أسافلها . وأثناء الأنهار : ما انعطف منها. والردء – بكسر الراء – العون . والمرد : من الرد والدفع . والصياصي : الأعالي. والمناكب : المرتفعات . والهضاب : الجبال . والكفة – بكسر الكاف – المستديرة . وغراراً : قليلاً أو خفيفاً . ونوم المضمضة : أن تنام ثم تستيقظ ثم تنام، تماماً كما تأخذ الماء بفمك ثم ترميه .

الإعراب :

إياكم والتفرّق «إياكم» مفعول لفعل محذوف وجوباً أي إياكم احذّر ، وجميعاً حال ، وغراراً صفة لمفعول مطلق محذوف أي ذوقاً غراراً .

المعنى :

ليست الحرب مجرد رجال وسلاح .. انها عدة وعدد ، وتخطيط ودهاء ، وتحصين وتمويه ، وهجوم وانسحاب ، ومناورات واستنزاف طاقات .. الى غير ذلك من الأسباب التي لا بد منها للانتصار وكسب المعركة ، وقد أشار الإمام في وصيته هذه لبعض جنوده ، أشار الى طرف من هذه الأسباب :

١ – أن ينزلوا في مكان حصين يأمنون فيه مباغتة العدو ، وإليه أشار بقوله: (فليكن معسكركم في قُبيل الأشراف) أي في مكان مرتفع يحمي ظهوركم ، وتشرفون منه على العدو (أو سفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار) أو في مكان منخفض كسفح جبل ، أو ما يجري مجرى الخنادق بحيث لا يراكم العدو ، ولا تصل سهامه اليكم وضرباته لكم عن بعد .

٢ – ان يقاتلوا العدو كفرقة واحدة أو فرقتين على الأكثر حسبما تستدعيه الظروف ، لأن توزيع القوة يعرضها للخطر ، وتوحيدها أدعى للنصر . وأشار الإمام الى ذلك بقوله : (ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين) .

٣ – ان يتابعوا أخبار العدو ، ويتجسّسوا على قوته وتحركاته ، لأن عمليات الاستطلاع هي التي تقرر نتيجة الحرب ، والذي لا يعرف شيئاً عن عدوه يقاتله، وهو مغمض العينين . والى هذا أشار بقوله : (واجعلوا لكم رقباء الخ) .

٤ — ان يكونوا في آرائهم وأفعالهم ، وفي حلهم وترحالهم كرجل واحد ، فإن ذلك يبعث الهيبة والرعب في نفس العدو ، ويجنّب العسكر الكثير من المخاطر. وهذا ما أراده بقوله : (وإياكم والتفرّق) .

٥ — أن يقيموا عليهم في الليل حراساً ، وان يكون سلاحهم معداً ومهيئاً ، وأن لا يناموا إلا بقـــدر الحاجة والضرورة كيلا يهاجمهم العدو بغتـة ، وهم لا يشعرون . واليه أومأ بقوله : (وإذا غشيكم الليل) .

وبعد فإن هذه الوصايا أو التعليمات أفضل ما يمكن أن يوجّهه قائد لرجالـــه وجنوده في العصر القديم والحديث .

الرسالة

-١٢-

لا تقاتلن الا من قاتلك :

إتّقِ اللهَ الّذي لاَ بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ ولَا مُنْتَهى لَكَ دُونَهُ . وَلَا تُقَاتِلَنَّ إلّا مَنْ قَاتَلَكَ . وَسِرِ البَرْدَيْنِ . وَغَوِّرْ بِالنَّاسِ . وَرَفِّهْ بِالسَّيْرِ . وَلَا تَسِرْ أوَّلَ اللَّيْلِ ، فَإنَّ اللهَ جَعَلَهُ سَكَناً وَقَدَّرَهُ مُقَاماً لَا ظَعْناً . فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ . فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ فَسِرْ عَلى بَرَكَةِ اللهِ . فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً ، وَلَا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ ، وَلَا تَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ عَلى قِتَالِهِمْ قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَالْإعْذَارِ إِلَيْهِمْ .

اللغة :

البردين : الغداة والعشي حيث يكون الوقت بارداً . وغوّر بالناس : انزل بهم في الغائرة أي في نصف النهار وقت شدة الحر . ورفّه : خفّف وهوّن . والظعن : السفر . وروّح الإبل : ردها الى المراح . وينبطح : ينبسط . والشنآن البغضاء . والإعذار : رفع الملامة .

الإعراب :

لا تقاتلن مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد ، ومحله الجزم بلا الناهية ، والبردين نصب على الظرفية : ولا ظعناً «لا» عاطفة ، وسطاً صفة لمحذوف أي موقفاً وسطاً ، وقبل متعلق بقتالهم .

المعنى :

(ولا تقاتلن إلا من قاتلك) الخطاب لقائد المحاربين ، وهو معقل بن قيس الرياحي ، وكان الإمام قد أنفذه الى الشام في ثلاثة آلاف مقاتل .. وهذا هو الإسلام ، لا عدوان إلا على من اعتدى ، فلكل إنسان — كائناً من كان — حرمته المحرومة حتى ينتهك هو حرمته بيده بعدوانه على حرمة غيره (وسر البردين الخ) .. لا تسر في الهاجرة،ولا تسرع الخطو وقت المسير ، ولا تسافر في الليل لأنه للراحة، ولا تتعب نفسك وجندك ودوابك . والغرض الرفق بالإنسان والحيوان (فإذا وقفت) أي تهيأت للسفر فسر (حين ينبطح السحر) أي ينبسط ويمتد ، والسحر قبيل الفجر (أو حين ينفجر الفجر) يطلع وينشق .

(فإذا لقيت العدو فقف من أصحابك وسطاً) اذا دارت رحى الحرب فكن في قلب الجيش لا في المقدمة ولا في المؤخرة حيث يكون المقاتلون جميعاً بالنسبة اليك على سواء ، يمكنك أن تلقي اليهم الأوامر ، ويمكنهم مراجعتك فيما أهمهم (ولا تدن من القوم) أي جيش العدو (دنو من يريد أن ينشب الحرب) على كل حال (ولا تباعد عنهم) الى حيث يشعرون بأنك خائف منهم ..

وتجدر الإشارة الى أن هذه التعاليم الحربية تتفق مع أيام زمان حيث لا صواريخ وألغام برية وبحرية .

(ولا يجملنكم شنآنهم الخ) .. لا يجوز البطش وابتداء القتال إطلاقاً ، ومهما تكن الأسباب إلا بعد التفاوض ، واليأس من السلم العادل ، لأن الإسلام دين السلم لا دين الحرب والعدوان ، ودين الاخوّة والمساواة لا دين عبيد وسادات .

الرسالة

-١٣-

حول مالك الأشتر :

وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلى مَنْ فِي حَيِّزِكُمَا مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا، وَاجْعَلَاهُ دِرْعاً وَمِجَنّاً، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لاَ يُخَافُ وَهْنُهُ وَلَا سَقْطَتُهُ وَلَا بُطْؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا الْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَلُ .

اللغة :

في حيزكما : في إمرتكما . والمجن : الترس . والوهن : الضعف . والسقطة : الغلطة . واحزم : أولى ، والحازم : العاقل المجرب . والأمثل : الأفضل .

المعنى :

قالوا : إن الإمام بعث اثني عشر ألف مقاتل كمقدمة الى أهل الشام ، وأمّر عليهم زياد بن النضر وشريح بن هاني ، ثم دعت الأسباب الى أن يرسل مالك

الأشتر أميراً على هذا الجند ، فكتب الى زياد وشريح : (وقد أمرت عليكما الخ) .
قال ابن أبـي الحديد : « الأشتر هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث .. وكان فارساً شجاعاً ، ومن عظماء الشيعة ، شديد التحقق بولاء أمير المؤمنين ونصره » ثم ذكر ابن أبـي الحديد طرفاً من فضائل الأشتر ، وقال : روى المحدثون حديثاً يدل على فضيلة عظيمة للأشتر ، وهي شهادة قاطعة من النبي (ص) بأنه مؤمن ، وروى هذا الحديث ابن عبد البر في كتاب « الاستيعاب » ، حرف الجيم باب : جندب . ثم ذكر ابن أبي الحديد الحديث بكامله ، ورجعت الى « الاستيعاب » فوجدت الحديث بالحروف التي ذكرها ابن أبـي الحديـد ، وألخصه فيما يـلي مع الحرص والمحافظة على المعنى .

ثقلت الهموم والأسقام على أبـي ذر في منفاه بالربذة ، وظهرت عـلى وجهه دلائل الموت ، فبكت أم ذر ، فناشدها أن تستودعـه الله ، وتبصر الطريق ، وتخبر من يمر ليساعدها على تجهيزه ودفنه ، وتبصر أم ذر نفـراً من المسلمين ، فسألتهم العون ، وأسرعوا ، وهم يفدون أبا ذر بآبائهم وأمهاتهم ، ولما دخلوا عليه قال لهم : أبشروا فإني سمعت رسول الله (ص) يقول لنفر أنا فيهم: ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنـين . وليس من أولئك إلا وقد هلك في قرية وجماعة ، والله ما كذبت ولا كذبت . ولو كان عندي ثوب يسعني كفناً لي ولامرأتي لم أكفن إلا في ثوب هو لي أو لها ، واني أنشدكم الله أن لا يكفني رجل منكم كان أميراً .. فكفنه رجل من الأنصار .

وقال صاحب الاستيعـاب : كان الأشتر وحجر بن الأبرد مع الذين جهزوا أبا ذر ودفنوه، والذين وصفهم رسول الله (ص) بالمؤمنين . وقال ابن أبـي الحديد: حجر بن الأبرد هو حجر بن عدي الذي قتله معاوية ، وكان من أعلام الشيعة وعظمائها .

أبو ذر وشيعة جبل عامل:

تكلمت عن أبـي ذر في ج ٢ ص ٢٦٤ شرح الخطبة ١٢٨ ، والآن أعطف على ما سبق : ان أديباً جاء الى بيتي في يومي هذا ١٩ – ١١ – ١٩٧٢ وقال : ما الدليل على أن أبا ذر هو الذي بذر التشيع في جبل عامل ؟ قلـت : لا شيء لديّ سوى الشهرة والإشاعة . قال : أريـدك أن تفكر في ذلك ، وتسجل ما

تنتهي اليه من رأي . وبعد انصرافه رأيتني أفكر فيما قال من غير قصد، وانتهيت الى ما يلي :

من الواقع الثابت باتفاق المؤرخين وأرباب السير أن أبا ذر كان يتشيع لعلي أمير المؤمنين ، ويجتهد في الدعوة اليه سراً وجهراً ، وانه نُفي الى دمشق ، وان الجماهير أقبلت عليه أيما إقبال، وترددت أصداء كلماته وعظاته في جميع بلاد الشام، وكان يزداد عدد الذين يحضرون مجلسه يوماً بعد يوم ، وكان يغرس في نفوسهم الثورة على الطغاة ، وحبّ آل الرسول منار العلم والعدل حتى أحس معاوية ان الأرض تميد من تحته .

وكان أهل جبل عامل يقصدون دمشق في أكثر أيامهم ، يبيعون فيها ما عندهم من ناتج ، ويشترون منها حاجاتهم ، لقربها من جبلهم ، ولأنها مركز الحكم وعاصمة الإقليم ، وكان خبر أبي ذر قد انتشر في كل ناحية من نواحي الشام ، وتقصده الناس زرافات ووحداناً : فمن الجائز القريب جداً أن جماعة من العامليين الذين كانوا يكثرون التردد على دمشق قد اجتمعوا اليه ، واستمعوا منه، وآمنوا بكلماته وعظاته ، وبشروا بها بعد أن عادوا الى بلادهم ، فانتشر فيها التشيع عن هذا الطريق .

وإذن فليس من الضروري — في إسناد التشيع بجبل عامل الى أبي ذر — أن يذهب هو بنفسه الى هذا الجبل ، فإن أكثر الرسالات والأفكار تنتشر عن طريق النقباء والسفراء ، كما انتشر الاسلام وغير الاسلام . ثم تفرع عن النواة التي غرسها أبو ذر ، أو عن شجرتها بطريق أو بآخر — اثنا عشر فرعاً أي إماماً . وليس ذلك من قصدنا في هذا المقام ، وانما الغرض الأول والأخير هو أن نثبت إمكان نسبة التشيع من حيث هو في جبل عامل الى هذا الصحابي العظيم .

الرسائل

- ١٤ -

لا تقتلوا مدبراً :

لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللهِ عَلى حُجَّةٍ ، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ . فَإِذَا كَانَت الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِراً ، وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِراً ، وَلَا تُجْهِزُوا عَلى جَرِيحٍ . وَلَا تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذًى وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ . إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ . وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفِهْرِ أَوِ الْهِرَاوَةِ فَيُعَيَّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ .

اللغة :

معوراً : عاجزاً عن الدفاع يستطيع قتله كل إنسان. ولا تُجْهِزوا : لا تقتلوا.

ولا تهيجوا : لا تثيروا . والفهر : الحجر . والهراوة : العصا .

الإعراب :

حجة أخرى خبر لتركهم ، وان كان « ان » مخففة ، ومهملة عن العمل ، واللام في لنؤمر فارقة بينها وبين « ان » النافية ، ومثلها وان كان الرجل .

المعنى :

(لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم) تقدم مثله قبل قليل في الرسالة ١٢ . وفي شرح ابن أبي الحديد عن الإمام أنه قال : ما نُصرتُ على الاقران الذين قتلتهم إلا لأني ما ابتدأت أحداً بقتال ومبارزة (فإنكم بحمد الله على حجة) وهي الآية ٩ من سورة الحجرات : (فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله » . (وتركهم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى) لأن البادىء هو الظالم . قال الإمام : « للظالم غداً بكفه غصة » كناية عن الندم ، وإشارة الى قوله تعالى : « يوم يعض الظالم على يديه — ٢٧ الفرقان » .

(فإذا كانت الهزيمة الخ)..من العدو فدعوا من هرب وشأنه ، ولا تتعرضوا له بسوء ، وأيضاً لا تتعرضوا للعاجز الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، ولا تقتلوا جريحاً ،وإياكم والنساء وإن أسأن اليكم بالقول .. وهذه هي تعاليم الإسلام ، ولذا أسندها الإمام الى نبي الرحمة بقوله : (وان كنا لنؤمر — أي كان رسول الله يأمرنا — بالكف عنهن وانهن لمشركات) . وعلق الشيخ محمد عبده على ذلك بقوله : « هذا حكم الشريعة الإسلامية ، لا ما يتوهمه جاهلوها من إباحة التعرض لأعراض الأعداء نعوذ بالله » . وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : نهى رسول الله (ص) أن يُلقى السم في بلاد المشركين .. وعن قتل النساء والولدان في دار الحرب .. وعن الأعمى والشيخ الفاني .. وما بيّت عدواً قط في ليل .

وبالمناسبة كانت الطائرات الأمريكية في فيتنام تحلق فوق الغيوم والسحب الماطرة ، وتبذر فيها المواد السامة قبل أن ينزل منها الماء حتى اذا جاء الأوان أمطرت سماً

قاتلاً .. وبهذه العمليــة ونحوها أتلفت مليوني هكتار من الغابات بمــا فيها عدا الحقول والبساتين .. قال ، عز من قائل : « وترى الأرض هامــدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج — ٥ الحج » . وعليه يحق لنا أن نسمي هذه الحرب حرباً على الله وعدله وحكمته .

الرسالة

- ١٥ -

ما أسلموا ولكن استسلموا :

اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفضَتِ الْقُلُوبُ . وَمُدَّتِ الأَعْنَاقُ . وَشَخَصَتِ الأَبْصَارُ ، وَنُقِلَتِ الأَقْدَامُ ، وَأُنضِيَتِ الأَبْدَانُ . اللَّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْتُومُ الشَّنَآنِ . وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ الأَضْغَانِ . اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا . وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا ، وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا . « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ » . لَا تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ ، وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمْلَةٌ ، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا . وَوَطِّئُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا وَاذْمُرُوا أَنفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ الدَّعْسِيِّ وَالضَّرْبِ الطِّلَحْفِي . وَأَمِيتُوا الأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ . فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنِ اسْتَسْلَمُوا وَأَسَرُّوا الْكُفْرَ ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَاناً عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ .

اللغة :

أفضت : وصلت . وشخصت : ارتفعت . وأنضيت : هزلت . وصرّح : انكشف . وجاشت : غلت . والمراجل : القدور . والأضغان : الأحقاد . ولا تشتدن : من الشدة والصعوبة . والمراد بالجولة هنا الهزيمة لقوله : « بعدها حملة » تماماً مثل « فرة بعدها كرة » . واذمروا : حرضوا . والدعسي : يدعس قلوب الأعداء . والطلحفى : الشديد . والنسمة : الخلق .

الإعراب :

بعدها خبر مقدم ، وكرة مبتدأ مؤخر ، ومثلها بعدها حملة ، وقال ميثم : الياء في الطلحفى للمبالغة ، وما أسلموا جواب القسم ، وهو فوالذي فلق الحبة .

المعنى :

قال الشريف الرضي: كان الإمام (ع) يقول اذا لقي العدو محارباً: (اللهم اليك افضت – الى – الأبدان) . أبداً لا هدف للإمام من الحرب إلا وجه الله وحده، فلا نية ولا خطوة ولا كلمة ولا شيء من وراء القتال إلا رضوان الله سبحانه ، وغيظ من كفر بالله وعصاه : « ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار وينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح – ١٢٠ التوبة » .

ثم بيّن الإمام السبب الموجب لقتاله ، بيّنه بقوله : (اللهم قد صرّح مكنون الشنآن) لك وفارت أحقاد الجاهلية في صدور المنافقين على نبيك الكريم ، فأعلنوا الحرب من بعده على أهل بيته(اللهم إنا نشكو اليك غيبة نبينا وكثرة عدونا الخ). وفيه ايماء الى ان المنافقين من قريش لم يجرأوا في عهد النبي (ص) على إظهار أحقادهم على رسول الله ورسالته ،فأضمروها حتى أتيحت لهم الفرصة بموت الرسول الأعظم ، فاقتصوا منه بشخص أحبّ الخلق الى قلبه ، وهم أهل البيت .

وفيما سبق أشرنا الى ما جاء في كتاب « علي بن أبي طالب» لعبد الكريم الخطيب ص ١٤٦ ، وهو ما نصه بالحرف : « حين يمتحن المسلمون بتلك الفتن التي أطلت برأسها بعد وفاة النبي ،وحين تقف قريش في وجه بني هاشم ،وحين تذودهم

عن الخلافة ، ثم تناهم بسيوفها ، فتقتل شيبهم وشبابهم وصبيانهم ، وتشرد بعقائلهم وحرائرهم ، وكأنها انما تثأر بهذا لقتلاها في بدر وأحد » .

وقال الشريف الرضي : وكان الإمام يقول لأصحابه عند الحرب : (لا تشتدن عليكم فرة بعدها كرة) . فيه ايماء الى ان بعض أصحابه فرّوا من ميدان القتال ثم صعب ذلك عليهم ، فخفف عنهم الإمام وقال : لا بأس بالفرار إن دعت اليه الضرورة على أن يعود الفارّ الى مكانه في الميدان ، والمهم أن يكون على نية الجهاد والتضحية .. وقد فر الصحابة عن رسول الله (ص) في أحد حتى خلص اليه المشركون ، وجرحوا وجهه الشريف ، وكسروا رباعيته ، وهشّموا البيضة على رأسه،وأيضاً فرّوا عنه يوم حُنين حتى قال أبو سفيان شامتاً:لا تنتهي هزيمتهم دون البحر .

(ولا جولة بعدها حملة) عطف تفسير على ما قبلها (واعطوا السيوف حقوقها) من الضرب في هام المعتدين (ووطئوا للجنوب مصارعها) أي هيئوا بضرباتكم المحكمة أماكن لسقوط الأعداء صرعى (واذمروا أنفسكم على الطعن الدعسي ، والضرب الطلحفى) حرّضوا أنفسكم على الجهاد والعزم ان تطعنوا الطعن القاتل ، وتضربوا الضرب المميت (وأميتوا أصواتكم) لا ترفعوها ، وتقدم مثل هذا والذي قبله مع الشرح في الخطبة ١٢٢ .

(فوالذي فلق الحبة الخ) .. قال المعتزلي ابن أبي الحديد : « أقسم الإمام ان معاوية وابن العاص ، ومن والاهما من قريش ما أسلموا ، ولكن استسلموا خوفاً من السيف ونافقوا ، فلما قدروا على إظهار ما في أنفسهم أظهروه » . واتفق المسلمون كلمة واحدة على انه كان بين الصحابة منافقون ، لأن الله سبحانه أنزل فيهم سورة خاصة . وقال المفسرون : ان جماعة من المنافقين الذين كانوا يصلّون خلف النبي ويحاربون معه — اتفقوا على اغتياله والفتك به ، فأخبره الله عنهم فاحترز منهم ، ونزل فيهم : « وهموا بما لم ينالوا — ٧٤ التوبة » .

الرسائل

-١٦-

معاوية يساوم علياً:

فَأَمّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشّامَ فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأُعطِيَكَ ٱلْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمسِ. وَأَمّا قَوْلُكَ إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ ٱلْعَرَبَ إِلَّا حُشَاشَاتِ أَنفُسٍ بَقِيَتْ أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ أَكَلَهُ ٱلْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ. وَأَمّا ٱسْتِوَاؤُنَا فِي الْحَرْبِ وَالرِّجالِ فَلَسْتَ بِأَمْضَى عَلَى الشَّكِّ مِنِّي عَلَى ٱلْيَقِينِ. وَلَيْسَ أَهْلُ الشّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ ٱلْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ. وَأَمّا قَوْلُكَ إِنّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ فَكَذَلِكَ نَحْنُ. وَلٰكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ. وَلَا حَرْبٌ كَعَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ. وَلَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ. وَلَا ٱلْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ، وَلَا الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ، وَلَا ٱلْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ، وَلَا ٱلْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ. وَلَبِئْسَ الْخَلَفُ خَلَفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ. وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ ٱلَّتِي أَذْلَلْنَا بِهَا ٱلْعَزِيزَ وَنَعَشْنَا

بِهَا الذَّلِيلَ . وَلَمَّا أَدْخَلَ اللهُ ٱلْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً وَأَسْلَمَتْ لَهُ هٰذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً عَلَى حِينِ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ ، وَذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ . فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً ، وَلَا عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلاً .

اللغة :

حشاشات أنفس : بقايا أنفس . والطليق : من أطلق بعد أسر وإذلال . واللصيق : الدعي . والمدغل : المفتن المفسد . ونعشنا : رفعنا . وأفواجاً : جماعات.

الإعراب :

خلف مبتدأ ، وهو المراد من الذم ، وخبره جملة بئس الخلف ، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف أي هو خلف ، وجملة يتبع صفة ، وأفواجاً حال ، وطوعاً وكرهاً مصدران في موضع الحال أي طائعين وكارهين .

المعنى :

(فأما طلبك إليّ الشام) . كتب معاوية الى الإمام ، وقال فيما قال : كنت سألتك الشام فأبيت ، وأنا أدعوك اليوم الى ما دعوتك اليه أمس . فقال الإمام: (فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس) . قال الشيخ محمد عبده معلقاً على هذا : « كتب معاوية الى عليّ يطلب منه أن يترك له الشام .. فأجابه أمير المؤمنين بما ترى » . وقال ابن قتيبة في « الإمامة والسياسة » ص ٩٥ طبعة سنة ١٩٥٧ : « طلب معاوية من علي أن يجعل له الشام ومصر جباية ، فإن حضرته الوفاة لم يجعل لأحد من بعده بيعة في عنق معاوية » . ونقل ذلك بعض الشارحين

عن « مروج الذهب » للمسعودي ، وكتاب « صفين » لنصر بن مزاحم،وكتاب « قيس الكوفي » .

ولا عجب أن يطلب معاوية الشام طعمة،ولا يحتاج طلبه هذا الى سند وإثبات، لأنه بطبعه يحمل الدليل على صحته .. فإن الذي يعطي مصر طعمة وجبايــة لابن العاص يطلب الشام وأكثر من الشام لنفسه طعمة وجباية .. وأيضاً لا عجب أن يرفض الإمام هذا الطلب ، لأن من حرّم أموال المسلمين على نفسه فبالأحرى ان يحرمها على غيره . وتقدم في الخطبة ١٢٤ قولـه : « أتأمروني أن أطلب النصر بالجور .. لو كان هذا المال لي لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله » .

وأيضاً قال معاوية في كتابه للإمام : رقت الأجناد ، وذهبت الرجال،وأكلت الحرب العرب إلا حشاشات أنفس. فقال الإمام : (ومن أكله الحق فإلى الجنة، ومن أكله الباطل فإلى النار) . نحن سِلم لمن سالم الحق والعدل ، وحرب عــلى من حاربهما وعاندهما ، ولا نساوم أبداً على دين الله ، ولا نستسلم للباطل وأهله مهما كانت الظروف ، ونستميت دون الحق ، ومن مات في نصرته فهو مع الذين أنعم الله عليهم مــن النبيين والصديقين ، ومن مات في نصرة البغي فمصيره الى النار وبئس القرار .

وقال معاوية في كتابه المذكور:أنا وأنت في الحرب والرجال سواء. يشير بهذا إلى أنه يفاوض الإمام،ويساومه على الشام من مكان القوة، لا من مكان الضعف. فقال الإمام: (فلست بأمضى على الشك مني على اليقين الخ) .. أما قولك عندك رجال ومحاربون فصحيح،وأما قولك نحن في الحرب سواء فبعيد عن الصواب،لمكان الفرق بين من يحارب وهو على بينة من أمره ، ويقين من حقه ، وبين من يحارب وهو على يقين بأنه كاذب ومخادع في حربه ، أو يشك — على الأقل — فالأول ينطلق من موقع العقيدة والايمان ، ويصنع الانتصارات بجرأته وتضحياته ، كأهل العراق الذين يحاربون طلباً لمرضاة الله وثوابه في دار الخلود ، والثاني ينطلق من موقع الشك ، وقلبه مفعم بالرعب، كأهل الشام الذين يحاربون معك طمعاً بحطام الدنيا..واذن فلا مبرر للمقارنة والمعادلة. والى مثل هذا أشار سبحانه بقوله: «وترجون من الله ما لا يرجون — ١٠٥ النساء » . وضمير المخاطب في الآية للمؤمنين ، وضمير الغائب لأعدائهم الكافرين .

وأيضاً قال معاوية للإمام في كتابه : نحن بنو عبد مناف، وليس لبعضنا فضل

على بعض . فقال الإمام : (فكذلك نحن) . تنقسم قريش الى بطون : منها بنو هاشم بن عبد مناف ، وبنو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، والإمام هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ومعاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف (ولكن ليس أمية كهاشم الخ) . قال الشيخ محمد عبده في تعليقه : صفات الخير كلها لبني هاشم ، وصفات الشر لبني أمية .

وقال العقاد في كتاب « أبو الشهداء » : « الهاشميون والأمويون من أرومة واحدة ترتفع الى عبد مناف،ولكن الأسرتين تختلفان في الأخلاق ، فبنو هاشم في الأغلب أريحيون ، ولا سيما أبناء فاطمة الزهراء ، وبنو أمية في الأغلب نفعيون، ولا سيما الأصلاء منهم .. كان الهاشميون سراعاً الى النجدة ونصرة الحق والتعاون عليه ، ولم يكن بنو أمية كذلك » .

وقال أحمد عباس صالح في كتاب « اليمين واليسار » ص ١٢٢ طبعة سنة ١٩٧٢ : « لقد تربى معاوية في حجر أبي سفيان رأس القوى الرجعية في مكة ، وتربى علي في حجر النبي بكل ما تحمله النبوة من فداء وتضحية وايجابية للخير المطلق .. إن معاوية هو القطب الأزلي الكامن في الكون ، قلب السلب المطلق – أي الشر – وقد تصادم القطبان – أي علي ومعاوية – السالب والموجب بقدر ما تتيح الامكانية البشرية أن تكون سلباً مطلقاً ، أو ايجاباً مطلقاً » .

(ولا المهاجر) الى الله ورسوله وهو الإمام (كالطليق) ابن الطليق وهو معاوية (ولا الصريح) الواضح النسب (كاللصيق) بغير أبيه . قال العقاد في كتاب « أبو الشهداء » : « في نسل أمية شبهة نشير اليها ولا نزيد ، فهي محل الإشارة والمراجعة في هذا المقام . دخل دغفل النسابة على معاوية فقال له : من رأيت من علية قريش ؟ قال : رأيت عبد المطلب بن هاشم ، ورأيت أمية بن عبد شمس . فقال له معاوية : صفهما لي . قال : كان عبد المطلب أبيض مديد القامة ، حسن الوجه ، في جبينه نور النبوة وعز الملك .. ورأيت أمية شيخاً قصيراً نحيف الجسم ضريراً يقوده عبده ذكوان . قال معاوية : ذاك ابنه . قال دغفل : ذاك شيء أحدثتموه ، وأما الذي عرفت فهو الذي أخبرتك به) .

(ولبئس الخلف الخ) .. أنت معاوية ، تفخر بآبائك وأجدادك ، وهم وقود النار (وفي أيدينا بعدُ فضل النبوة الخ) .. أما الإمام فإنه يعتز بالله وبالإسلام

الذي أذل الطغاة ، ورفع من شأن المستضعفين ، وأنصفهم من الأقـوياء المعتدين (ولما أدخل الله العرب في دينه الخ) .. كنتم يا معاوية ألد أعـداء النبي (ص) أطلقتم حوله الشائعات والدعايات ، وجمعتم لحربه الجيوش لا لشيء إلا لأنه كان مع الضعيف ضد القوي ، ومع الفقير ضد الغني ، ولما انتشر الإسلام في الجزيرة العربية وخاب منكم الأمل استسلمتم للقوة ، وقلتم : عسى أن يكون الإسلام تجارة رابحة في الحياة الدنيا .. وقد ظهرت أحقادكم على الرسول والرسالة في مقـاصدك وأفعالك بعد أن اختار الله نبيه الى جواره .

وتسأل : ان بعض الناس يثنون على معاوية فما هو السر ؟.

الجواب :

جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي عن الإمام أحمد بن حنبل : انه سأل أباه عن علي ومعاوية ؟ فقال : اعلم ان علياً كان كثير الأعداء ، ففتش له أعداؤه عيباً فلم يجدوه ، فجاءوا الى رجل قد حاربه وقاتله فاطروه كيداً منهم لعلي . وبعـد أن نقل العقاد هذا الخبر في كتاب معاوية قال : « هذه دخيلة من دخائل النفس الصغيرة لا تصدر الثناء عن حب للمثنى عليه ، بل حقداً على غيره ، وكثير من هذا الحقد تبعثه الفضائل ، ولا تبعثه العيوب . ان تاريخ معاوية لا يحتاج الى مزيد من تفصيل ، وإنما يحتاج الى تصحيح الموازين التي تؤتى من قبلها احكام النـاس على الحوادث والرجال » .

الرسالة

- ١٧ -

البصرة مهبط ابليس :

اَعْلَمْ أَنَّ ٱلْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ وَمَغْرِسُ ٱلْفِتَنِ ، فَحَادِثْ أَهْلَهَا بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَٱحْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ . وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ وَغِلْظَتُكَ عَلَيْهِمْ ، وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلاَّ طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ . وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً وَقَرَابَةً خَاصَّةً نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلى صِلَتِهَا وَمَأْزُورُونَ عَلى قَطِيعَتِهَا . فَارْبَعْ أَبَا ٱلْعَبَّاسِ رَحِمَكَ اللهُ فِيمَا جَرَى عَلى لِسَانِكَ وَيَدِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذٰلِكَ ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ ، وَلَا يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ . وَالسَّلَامُ .

اللغة :

حادث : فعل أمر، عامل أو تعهد . والتنمر : التنكر . والوغم : الحرب والحقد. وماسة : قريبة . ومأزورون : آثمون . اربع : ارفق او قف . ويفيل: يضعف .

الإعراب :

المصدر من ان البصرة ساد مسد مفعولي اعلم ، وأبا العباس أي يا أبا العباس، والسلام مبتدأ والخبر محذوف أي والسلام عليك .

المعنى :

قال الشريف الرضي : كان ابن عباس عاملاً للإمام على البصرة ، فأرسل اليه كتاباً قال فيه : (ان البصرة مهبط إبليس ، ومغرس الفتن) . كناية عن كثرة ما يحدث فيها من فتن وضلال ، وانها ملجأ لمن يفسد في الأرض ، ويخرج على النظام .. وفيها حدثت أول فتنة كبرى في الإسلام حيث استقبلت الجمل وأصحابه ، وحاربت تحت لوائه ، وجرأت أهل الشام على شق العصا (فحادث أهلها بالإحسان اليهم) . ارفق بهم ، وقربهم منك بالمعروف ، عسى أن يسكنوا اليك فيسمعوا ويطيعوا : « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم – ٣٤ فصلت » .

(واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم) . كان أهل البصرة جنود الجمل وحماته، ولما انعقرت قوائمه ذلوا واستسلموا ، وخافوا أن يعاملهم الإمام بما يستحقون ، فأوصى عامله عليهم أن يعاملهم بالحسنى ، ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً (وقد بلغني تنمرك لبني تميم الخ) .. لأنهم أو الكثير منهم كانوا الركن الركين للجمل وهودجه (وان بني تميم لم يغب لهم نجم الخ) .. وان مات منهم سيد قام سيد

من هو العالم ؟

(وانهم لم يسبقوا بوغم الخ) .. لم يهدر لهم دم لشجاعتهم وبأسهم على حد تفسير ابن أبي الحديد ، ونقل هذا الشارح الكثير من مآثر بني تميم وخصالهم التي « ملأت السهل والجبل » . وكان في سابق الأزمان كل من يحفظ المناقب والمثالب أو يدونها – يُعد من العلماء الأعلام . والعالم الطيب اليوم في مفهوم الواعين الطيبين هو الذي يخدم الحياة ويطورها ، ويجعلها أكثر خصباً وعدلاً وأمناً .

(وان لهم بنا رحماً ماسة) . يشير الى أن بني هاشم يلتقون بالنسب مع بني تميم في إلياس بن مضر .. ولكن الإمام قال : القريب من قربته الأخلاق .. ورب قريب أبعد من بعيد ، وربُّ بعيد أقرب من قريب .. ولكن هذا لا يمنع من الإحسان لمن أساء . ومـن أقواله : عاتب أخاك بالإحسان اليـه ، واردد شره بالإنعام عليه (ومأزورون على قطيعتها) المراد بالوزر هنا ترك الأولى والأرجح.

الموظف :

(فاربع أبا العباس الخ) .. أنت موظف مسؤول عن الرعية ، ولا يحق لأي موظف أن يصدر عن ذاته وميوله ، لأن صفة الوظيفـة تمحو الصفة الشخصية ، ومن هنا رأينا الأنبياء والمصلحين لا يدخلون في حسابهم المنافع الشخصية (فإنا شريكان في ذلك) . أنت مسؤول عمن لديك أمام الله والناس ، وأنا مسؤول عنك أيضاً أمام الله والناس ، لأني مهدت لك السبيل . وبكلمة قصيرة كلانا مسؤول عـلى أساس المهمة والوظيفة .. ولكن أولاد الحرام رؤساء ومرؤوسين يتخذون من الوظيفة متجراً ومكسباً على حساب الكادحين والمستضعفين . وتكلمنا حول هذا الموضوع في شرح الخطبة ١٢٠ فقرة : حول عشاق الكراسي .

الرسالة

- ١٨ -

المعاهدون :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً ، وَٱحْتِقَاراً وَجَفْوَةً ، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلاً لِأَنْ يُدْنَوا لِشِرْكِهِمْ وَلَا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ ، فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً مِنَ ٱللِّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ ، وَدَاوِلْ لَهُمْ بَيْنَ ٱلْقَسْوَةِ وَٱلرَّأْفَةِ ، وَٱمْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَٱلْإِبْعَادِ وَٱلْإِقْصَاءِ إِنْ شَاءَ اللهُ .

اللغة :

دهاقين : زعماء . والجلباب : ضرب من اللبـاس . وداول . فسره الإمام بقوله : بين القسوة والرأفة وبين الإدناء والإقصاء .

الإعراب :

دهاقين : جمع دهقان معرّب أي اسم نكرة تلقته العرب من العجم ، وعليه يكون مصروفاً .

المعنى :

(أما بعد ، فإن دهاقين أهل بلدك الخ) .. الخطاب من الإمام لبعض عماله . ولم يشر الشريف الرضي وابن أبي الحديد وميثم الى اسم هذا العامل. ويرى بعض الشارحين انه عمر بن أبي سلمة ، وأمه أم سلمة زوجة رسول الله (ص) وانه كان أميراً على فارس ، وأهلها كانوا آنذاك على الشرك .. ومهما يكن فإن ظاهر الكلام يدل على ان نفراً من رؤوس المشركين كان بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق شكوا الى الإمام غلظة عامله وقسوته ، فكتب اليه أن لا يسيء اليهم لمكان العهد ، ولا يدنيهم منه لمكان الشرك ، ويسلك معهم منهجاً وسطاً ، ومعنى هذا أن يدعهم وشأنهم .

وتسأل : كيف نهى الإمام عن إدناء المشركين ، والله سبحانه يقول : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرّوهم وتقسطوا اليهم — ٨ الممتحنة » ؟.

الجواب :

الإدناء شيء والبر والعدل شيء آخر ، فليس من الضروري اذا أحسنت وعدلت مع انسان أن تقربه اليك ، وترفع من شأنه .

الرسالة

- ١٩ -

تهديد زياد ابن أبيه :

وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَماً صَادِقاً لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ ٱلْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ ٱلْوَفْرِ ثَقِيلَ ٱلظَّهْرِ ضَئِيلَ الأَمْرِ . وَٱلسَّلَامُ .

اللغة :

الشدة ــ بفتح الشين ــ الحملة . والوفر : المال . وثقيل الظهر : من عجز عن نفقة عياله . والضئيل : الحقير .

المعنى :

قال الشريف الرضي: كان عبدالله بن عباس عاملاً للإمام على البصرة والاهواز وفارس ، فاستعان بزياد ابن أبيه في تدبير البصرة نيابة عنه ، ولما علم الإمام بذلك

كتب الى زياد : (واني أقسم بالله قسماً صادقاً لئن بلغني انك خنت الخ) .. ويدل هــذا بظاهره أن زياداً ما خان ، ولكن الإمام خاف من خيانته فهدده وحذره من سوء العاقبة ان فعلها ، وانه لا يفلت من العقوبة ، وأدناها أن ينتزع ما في يده من مال ، ويتركه فقيراً حقيراً .

الرسالة

- ٢٠ -

موعظة زياد ابن أبيه :

فَدَعِ الإِسْرَافَ مُقْتَصِداً ، وَٱذْكُرْ فِي ٱلْيَوْمِ غَداً ، وَأَمْسِكْ مِنَ المَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ ، وَقَدِّمِ ٱلْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ . أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ أَجْرَ المُتَوَاضِعِينَ وَأَنتَ عِنْدَهُ مِنَ المُتَكَبِّرِينَ . وَتَطْمَعُ - وَأَنتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَالأَرْمَـلَةَ - أَن يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ المُتَصَدِّقِينَ . وَإِنَّمَا المَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ ، وَقَادِمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ . وَالسَّلَامُ .

اللغة :

مقتصداً : معتدلاً ، والفضل ما زاد عن الاعتدال . ومتمرغ في النعيم : متقلب فيه.

الإعراب :

مقتصداً حال من فاعل « دع » وهو أنت ، وغداً مفعول به لاذكر ، لأن الذكر حاصل اليوم لا في الغد ، والمصدر من أن يوجب مجرور بجار محذوف أي في وجوب الثواب ، والمجرور متعلق بتطمع .

المعنى :

(فدع الإسراف الخ) .. المال وسيلة لسد حاجات المعوزين ، لا للتبذير والإسراف ، والتضاهي والتباهي ، وما زاد عن حاجة المحتاجين يُنفق في مشروع عام ، أو يُدخر للشدائد كالحرب وردع العدوان .

(أترجو أن يعطيك الله الخ) .. لكل عمل جزاؤه الخاص ، فالحسنى لمن أحسن ، والسُوأى لمن أساء ، والعكس أو المساواة هنا محال في العدل الإلهي .. والمتكبر يغريه المال ويطغيه ، ويبذره على ملذاته وشهواته ، ويمنعه عن المحرومين الذين لا عم لهم ولا خال. وجزاء هذا من عند الله عذاب الحريق. والمتواضع يرى نفسه مقصراً ومضيعاً في طاعة الله ، وان أقبلت الدنيا عليه بذلها في سبيل الله ، وازداد له شكراً ، ومنه خوفاً ، ولعباده تواضعاً . وله عند الله مثوبة وحسن مآب . وهذا ما أراده الإمام بقوله : (المرء مجزي بما أسلف) .

الرسالة

- ٢١ -

حول السرور والأسف :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرَكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ ، وَيَسُوءُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ . فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ . وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا . وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ فِيهِ فَرَحاً . وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً . وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ .

اللغة :

الدرك — بفتح الراء — اللحاق . ولا تأس : لا تحزن .

الإعراب :

أما — بفتح الهمزة وتشديد الميم — قيل : هي حرف شرط بمعنى مهما يكن من شيء ، وفي منظومة ابن مالك : « أما كمهما يك من شيء وفا * لتاو تلوها وجوباً ألفا » . وقال ابن هشام في المغني : تأتي أيضاً للتفصيل والتوكيد . ويجوز أن تكون «أما» للشرط ويكون المعنى هكذا مهما يكن من شيء فإن المرء الخ ..

ويجوز أن تكون للتوكيد ، والمعنى أؤكد بعد حمد الله ان المرء الخ . والوجه الأول أرجح لكسر همزة « إن » . وفرحاً تمييز . وجزعاً مفعول مطلق لتأس .

المعنى :

أرسل الإمام كتاباً لابن عباس جاء فيه : (أما بعد، فإن المرء قد يسره الخ). ونقل الشريف الرضي عن ابن عباس انه قال : ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله (ص) كانتفاعي بهذا الكلام . ويتلخص بأنه من العبث أن تفرح بما هو آت لا محالة ، وأن تحزن على ما فات ، لأن الفائت لا يرجع بالحـــزن ، والآتي لا يستدام بالفرح ، والذي ينفعك بالآخرة ، ويبقى ببقاء الله هو الأثر الطيب الذي تتركه لأخيك الانسان .

واذن (فليكن سرورك بما نلت من آخرتك) وهو الذي أشرنا اليه من العمل لخدمة الحياة ، والإخلاص لله وعباده وعياله (وما نلت من دنيـاك) كمنصب وعقار وعمار (فلا تكثر به فرحاً) لأنه يعود عليك بالشر والوبال ، وبالأخص اذا كان من حرام . وتقدم مثله في الخطبة ١١٢ وغيرها ، ويأتي أيضاً .

الرسائل

-٢٢-

وصية الإمام بابن ملجم :

وَصِيَّتِي لَكُمْ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً . وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ . أَقِيمُوا هٰذَيْنِ ٱلْعَمُودَيْنِ وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ . أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ ، وَٱلْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ . إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي ، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي . وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ ، فَاعْفُوا « أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ » . وَاللهِ مَا فَجَئَنِي مِنَ ٱلْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ ، وَلَا طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ . وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ وَطَالِبٍ وَجَدَ « وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » .

اللغة :

القارب : طالب الماء ليلاً ، والسفينة الصغيرة .

الإعراب :

المصدر من ان لا تشركوا خبر وصيتي أي وصيتي لكم التوحيد ، ومحمد مبتدأ ، وجملة لا تضيعوا خبر ، وعبرة خبر لمبتدأ محذوف أي وأنا اليوم عبرة ، وكذا مفارقكم .

المعنى :

قال الشريف الرضي : أورد الإمام هذا على سبيل الوصية لما ضربه ابن ملجم، وقد مضى بعضه . يشير الرضي الى ما جاء في الخطبة ١٤٧ ، ويأتي الحديث مفصلاً عن استشهاد الإمام (ع) في الرسالة ٤٦ (وصيّتي لكم أن لا تشركوا بالله شيئاً) . وكلمة شيء هنا تفيد العموم والشمول ، لأنها نكرة في سياق النفي . والمعنى لتكن جميع أقوالكم وأفعالكم خالصة لوجه الله ، ولا تخافوا أو ترجوا أحداً إلا الله ، ولا تستمسكوا إلا بحبله وحده لا شريك له .

(ومحمد (ص) فلا تضيعوا سنته الخ) .. وسنة محمد عمل وجهاد لا تصوّف ورهبانية،واخوة وتعاون لا طوائف ومذاهب،وحرية وكرامة لا عبودية واستسلام . (وخلاكم ذم) لا بأس عليكم ولا لوم اذا قمتم بواجب التوحيد وسنة الرسول . وقال ابن أبي الحديد : « يرد الإمام بهذا على الذين كلفوا أنفسهم أموراً من النوافل شاقة جداً .. وهم يتلون قوله تعالى : يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . وقول الرسول الكريم : بُعثت بالحنفية السهلة السمحة » . ونعطف على ذلك هذه الرواية: « دخل رسول الله يوماً الى المسجد فرأى رجلاً يتعبد الأوقات كلها ! فقال له : من يسعى عليك ؟ قال.: أخي . فقال له النبي (ص) : أخوك أعبد منك .»

(أنا بالأمس صاحبكم) أدافع عنكم ، وأدبر أموركم ، وأهديكم سبيل الرشاد (واليوم عبرة لكم) ملقى على فراش الموت لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً (وغداً مفارقكم) بلا رجعة الى دار الفناء. وتقدم هذا والمعطوف عليه بالحرف الواحد في الخطبة ١٤٧ (ان أبق فأنا الخ) .. ان سلمت من هذه الضربة رأيت رأيي في صاحبها : اما عفواً واما قصاصاً ، وإلا فالموت غاية الأحياء إلا وجهه الكريم .

الإمام يوصي بقاتله :

(وهو — أي العفو — لكم حسنة ، فاعفوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم) . علي يأمر بالعفو عن قاتله ، وفي رواية انه قال : أطيبوا طعامه ، وألينوا فراشه.. فهل هذه أريحية وجود ، أو رحمة ورأفة ؟ كلا ، انها رغبة في الجزاء الأكبر ، والثواب الأوفر ، لأن العفو أقرب للتقوى ، والتقوى مثل الإمام الأعلى ، ولذا قال ، وهو فرح باستشهاده بين يدي الله : فزتُ ورب الكعبة . ومن قبل عاتب الإمام وطالب رسول الله (ص) بوعده له يوم أحد بالشهادة ، كما في الخطبة ١٥٤ ومن أقواله : أكرمُ الموت القتل ، والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألفُ ضربة بالسيف أهون من ميتة على فراش . واذن فلا بدع أن يعفو الإمام عن قاتله ، وإن بدا هذا العفو كأنه عطاء ورحمة .

(والله ما فجئني من الموت الخ) .. كان الإمام يتطلع الى الشهادة شوقاً ، ويعلم انها آتية لا ريب فيها ، لأن الصادق الأمين (ص) وعده بها ، وما لوعده مترك ، وكان ينتظرها بفارغ الصبر ، ويقول : ما ينتظر أشقاها أن يخضّب هذه من دم هذا ، كما في «الاستيعاب» لابن عبد البر ، باب « علي » . وقال أكثر من مرة : والله ليخضبنها من فوقها . وبهذا نجد تفسير قوله : « ما فجئني من الموت الخ » . ثم أومأ الى السبب الموجب لحبه الموت بقوله تعالى : « وما عند الله خير للأبرار — ١٩٨ آل عمران » وعلي صفوة الأبرار وإمام الأخيار . ولنا عودة الى حديث شهادته في الرسالة ٤٦ .

الرسالة

-٢٣-

وصية الإمام في أمواله :

هٰذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي مَالِهِ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ لِيُولِجَهُ بِهِ الْجَنَّةَ وَيُعْطِيَهُ بِهِ الْأَمَنَةَ . وَإِنَّهُ يَقُومُ بِذَلِكَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَيُنْفِقُ فِي الْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ . وَإِنَّ لِابْنَيْ فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ ، وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِيَامَ بِذَلِكَ إِلَى ٱبْنَيْ فَاطِمَةَ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَقُرْبَةً إِلَى رَسُولِ اللهِ ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ وَتَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ . وَيَشْتَرِطُ عَلَى الَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ الْمَالَ عَلَى أُصُولِهِ ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أُمِرَ بِهِ وَهُدِيَ لَهُ ، وَأَنْ لَا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِ نَخْلِ هٰذِهِ الْقُرَى وَدِيَّةً حَتَّى تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً . وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي اللَّاتِي أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ لَهَا وَلَدٌ أَوْ هِيَ حَامِلٌ

فَتُمْسِكُ عَلى وَلَدِهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ ، فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ قَدْ أُفْرِجَ عَنْهَا الرِّقُّ وَحَرَّرَهَا ٱلعِتْقُ .

اللغة :

يولجه : يدخله . الأمنة : الأمن . والمراد بالحدث هنا الموت ، وبالوُصلة القرابة . والوديّة : النخلة الصغيرة تنبت على جذر النخلة الكبيرة . وتشكل : تمتلىء . ومن حظه : من نصيبه .

الإعراب :

ابتغاء مفعول من أجله ، وغراساً تمييز .

شعار علي سيف ومعول :

كان الصحابة في عهد رسول الله (ص) يمارسون الحياة ويكافحون كسائر الناس فكان منهم التاجر والفلاح والعامل والراعي والحطاب وصاحب الصنعة ، وما كانوا يعتمدون على الفيء وكفى . وكان الإمام قبل الخلافة وبعدها يحيي الأرض الموات بكد اليمين وعرق الجبين، ويستعمرها بالحرث والزرع والغرس والسقي بيده الشريفة. قال ابن أبي الحديد في شرح هذه الوصية : « قد علم كل أحد أن علياً (ع) استخرج عيوناً بكدّ يده في المدينة وينبع وسويعة ، وأحيا بها مواتاً كثيراً ، ثم أخرجها عن ملكه ، وتصدق بها على المسلمين ، ولم يمت وشيء منها في ملكه». وفي كتاب « الاستيعاب » لابن عبد البر : « قُتل علي ، ولا مال احتجبه ، ولا دنيا أصبا بها » .

لقد عمل علي في الأرض من أجل الجائعين تماماً كما جاهد بالسيف في سبيل الله والدين . واذا كان شعار الاشتراكيين المطرقة والمنجل فإن شعار عليّ السيف والمعول ، هذا للمعوزين ، وذاك للمعتدين على أقوات العباد وأرزاقهم، وكلاهما

بمنزلة سواء عند الله وفي منطق الحياة وتقدمها .. وغريبة الغرائب أن شيعة علي يكثرون الكلام والتأليف في فضائله ومناقبه ، ويجهلون أو يتجاهلون عمله ونضاله في الأرض من أجل الانتاج ومنافع الناس،ويركزون همهم واهتمامهم على النصوص والأقوال .. ولا سر — فيما نعتقد — إلا لأنهم أو الكثير منهم يستهلكون ولا ينتجون ، وفي الوقت نفسه يتطلعون بشوق الى المديح والثناء مكافأة على الكسل والاسترخاء .

(هذا ما أمر به عبدالله علي بن أبي طالب الخ) .. جعل الإمام في وصيته الولاية على صدقاته التي أنشأها بيده — للإمام الحسن ، ومن بعده للإمام الحسين، واشترط على الولي شرطين : الأول أن (يأكل منه بالمعروف) أي بمقدار الحاجة والضرورة كأي إنسان يتولى الصدقات أو أموال الأيتام .. هذا إذا كان في حاجة ماسة،قال تعالى : « ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف — ٦ النساء » . وفي الحديث: ان رجلاً سأل النبي (ص) عن يتيم في حجره : هل يأكل من ماله ؟ قال له : كلْ بالمعروف . الشرط الثاني أن (ينفق منه بالمعروف) أي على ذوي الحاجات بما يسدها من غير تجاوز .

(وان لابني فاطمة من صدقة علي الخ) .. يحق لأولاد الإمام أن يأكلوا بالمعروف من ثمار ما تصدق وأوقف ، سواء أكانوا من سيدة النساء أم من غيرها. وكانوا — على رواية الشيخ المفيد — ٢٧ ذكراناً واناثاً : أربعة من سيدة النساء، والباقون من أمهات شتى (ويشترط على الخ) .. الولي ان لا يتصرف في أصول الوقف كالشجر وما ينبت على جذوره ، لا يتصرف ببيع ولا هبة ، أو بأي نحو يضر بالأعيان ، وله التصرف في الثمار على وجهها .. وهذا الشرط حتم حتى ولو سُكت عنه،لأنه من طبيعة آثار العقد تماماً كالاستمتاع بين الزوجين بالنسبة الى عقد الزواج .

أما الحديث عن العبيد والإماء في عصرنا فضيعة للوقت،وتكثير كلام بلا جدوى.

الرسالة

- ٢٤ -

العمال :

أَنطَلِقْ عَلى تَقْوَى اللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ . وَلاَ تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً ، وَلاَ تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهاً ، وَلاَ تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللهِ فِي مَالِهِ ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلى الْحَيِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ ، ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ ، وَلاَ تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ ، ثُمَّ تَقُولُ : عِبَادَ اللهِ ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللهِ وَخَلِيفَتُهُ لِآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللهِ فِي أَمْوَالِكُمْ ، فَهَلْ لِلهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلَى وَلِيِّهِ ؟ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ لاَ ، فَلَا تُرَاجِعْهُ ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ ، فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ تَعْسِفَهُ أَوْ تُرْهِقَهُ ، فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ . فَإِنْ كَانَ

لَهُ مَاشِيَةٌ أَو إِبلٌ فَلَا تَدْخُلْهَا إلا بِإِذْنِـــهِ ، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُـلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْـهِ وَلَا عَنِيفٍ بِهِ ، وَلَا تُنَفِّرَنَّ بَهِيمَةً وَلَا تُفْزِعَنَّهَا وَلَا تَسُوءَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا ، وَاصْدَعِ المَـالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعَرَّضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ . ثُمَّ اصْدَعِ الْبَاقِي صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعَرَّضَنَّ لِمَـا اخْتَارَهُ . فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ اللهِ فِي مَالِهِ فَاقْبِضْ حَقَّ اللهِ مِنْهُ . فَإِنِ اسْتَقَـالَكَ فَأَقِلْهُ ثُمَّ اخْلِطْهُمَا ثُمَّ اصْنَـــعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلاً حَتَّى تَأْخُـذَ حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ . وَلَا تَأْخُذَنَّ عَوْداً وَلَا هَرِمَةً وَلَا مَكْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ ، وَلَا تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ رَافِقاً بِمَالِ المُسْلِمِينَ حَتَّى يُوَصِّلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ ، وَلَا تُوَكِّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحاً شَفِيقاً وَأَمِيناً حَفِيظاً ، غَيْرَ مُعْنِفٍ وَلَا مُجْحِفٍ ، وَلَا مُلْغِبٍ وَلَا مُتْعِبٍ ، ثُمَّ احْدِرْ إِلَيْنَا مَا اجْتَمَـــعَ عِنْدَكَ نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ بِهِ . فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَلاَّ يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا وَلَا يَمْصُرَ لَبَنَهَا فَيَضُرَّ ذَلِكَ بِوَلَدِهَا ، وَلَا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً . وَلْيَعْـــدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا ، وَلْيُرَفِّهْ عَلَى اللاَّغِبِ . وَلْيَسْتَأْنِ بِالنَّقِبِ وَالظَّالِعِ . وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُدُرِ وَلَا يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الْأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ الطَّرِيقِ ،

وَلْيُرَوِّحْهَا فِي السَّاعَاتِ ، وَلْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَافِ وَالْأَعْشَابِ حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ اللهِ بُدُناً مُنْقِيَاتٍ غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ ، لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ أَعْظَمُ لِأَجْرِكَ وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ .

اللغة :

لا تروّع : لا تفزع . لا تجتاز : لا تمر . لا تُخدج : لا تبخل . وأنعم: قال نعم . والعسف : الجور . والرهق : تكليف ما لا يطاق . وصدعين : نصفين . والعوْد : المسن . والهرم : أسن . والمهلوسة : الضعيفة أو المريضة . والعوار : العيب . والملغب والمتعب بمعنى . واحدر : أسرع . والفصيل : ولد الناقة . ولا يمصر لبنها : لا يحلب كل ما في الضرع . والنقب : ما نقب خفه. والظالع : الأعرج أو البطيء في مشيه . والغُدر : جمع غدير . والنطاف : الماء القليل . وبُدناً : سماناً ، لأن البدين سمين .

الإعراب :

على تقوى الله متعلق بانطلق ، و « على» هنا بمعنى مع مثل:ويُطعمون الطعام على حبه ، وحده حال من كلمة الجلالة ، وكارهاً حال من ضمير عليه ، وأكثر صفة لمفعول محذوف أي لا تأخذ منه شيئاً أكثر من حق الله ، وركوباً تمييز ، وبُدناً حال .

المعنى :

كان الإمام (ع) يزود كل واحد من الجباة والسعاة في أموال الصدقة يزوده بالتعليمات التالية :

١ ــ أن يكون أميناً مخلصاً ، لا يستبيح للدولة والرعية حقاً من حقوقهما . وعبّر الإمام عن ذلك بتقوى الله ، لأنها الأساس لكل خلق كريم بخاصة الأمانة والإخلاص .

٢ ــ أن يكون مع الذي في ماله الحق ــ هيناً ليّناً لأن الدولة للجميع ورعايتهم وتوفير الأمن والعدل لكل فرد،والعامل فيها أجير مؤتمن يتحمل التبعات، ويؤاخذ اذا أساء استعمال المهنة والوظيفة . وهذا ما أراده الإمام بقوله : (ولا تروعنّ مسلماً الخ) ..

٣ ــ أن لا يأخذ أكثر من الحق المفروض ، لأن التجاوز بغي وعدوان .

٤ ــ أن لا ينزل ضيفاً على أحد ، فليس كل الناس يملكون أسباب الضيافة، أو يسعهم أن يطردوا الضيف ويصارحوه بعجزهم .

٥ ــ أن لا يدع مجالاً للنقد والملاحظة عليه بقول أو فعل ، وان يكون في تحيته وجميع حركاته مبشراً لا منفراً .

(فإن قال قائل : لا) حق لله في مالي (فلا تراجعه) لأن الزكاة في الإسلام عبادة تماماً كالصوم والصلاة ، ولا واسطة بين الله وعباده ، ولا يجوز لمخلوق أن يتكلم باسم الخالق ، ويقيم نفسه وكيلاً عنه فيما يعود الى عبادته تعالى والإخلاص له (وان أنعم الخ) .. صاحب المال وقال ، عليّ لله حق فيما وهب وأعطى ، فاذهب معه الى أمواله التي فيها الحق ، وعامله كأخ متواضع ، لا كمتسلط أو نظير ، لأنه هو الشريك الأكبر والذي كدح وناضل . وتجدر الإشارة إلى أن الإمام لا يوصي الجابي بذلك حرصاً على تحصيل المال ، بل لأن موظف الدولة يجب أن يكون وديعاً ورقيقاً مع أصحاب العلاقات ، تماماً كما يجب أن يكون أميناً ونزيهاً ، فإن تقاعس عن خدمة الناس ، وأضفى من وظيفته على نفسه هيبة وهالة وجب أن يعاقب بما هو أهل له .

(واصدع المال صدعين الخ) .. إقسم المال الذي فيه حق الله نصفين ، واجعل الخيار لصاحبه في أحدهما ، ثم اقسم النصف الذي تركه شطرين ، وافعل ما فعلت في المرة الأولى ، وهكذا حتى يبقى مقدار ما في ماله من الحق،فاقبضه، وهلم به الينا، وان شاء أن يستأنف ويعيد القسمة من جديد فاستجب لمشيئته شريطة أن لا يقع النقص والاجحاف في حق الله ، فيختص المالك بالسليم ، ويعطيك السقيم .

(ولا توكل بها إلا ناصحاً شفيقاً الخ) .. ضمير « بها » يعود ماشية الصدقات. والإمام يوصي بها وبالرفق في الحيوان على وجه العموم ، فــلا يُرهقه في المسير ولا الحمل والركــون ، ولا يُحرم الصغير من لبن أمه ، وتجب مراعاة الهزيل والمريض بما يستدعيه ضعفه ومرضه ، ولا يجار عليــه إذا تلكأ في السير . قال رسول الله (ص) : للدابة على صاحبها خصال ست : أن يبدأ بعلفها إذا نزل ، ويعرض عليها الماء إذا مر به ، ولا يضرب وجهها ، ولا يقف على ظهرها إلا في سبيل الله ، ولا يحمّلها فوق طاقتها ، ولا يكلفها من المشي إلا ما تطيق .

الرسالة

- ٢٥ -

أعظم الخيانة خيانة الأمة :

آمُرُهُ بِتَقْوَى اللهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ ، حَيْثُ لَا شَهِيدَ غَيْرُهُ وَلَا وَكِيلَ دُونَهُ . وَآمُرُهُ أَنْ لَا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ . وَآمُرُهُ أَنْ لَا يَجْبَهَهُمْ وَلَا يَعْضَهَهُمْ ، وَلَا يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلاً بِالْإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُمْ الْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ وَالْأَعْوَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ . وَإِنَّ لَكَ فِي هٰذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً وَحَقّاً مَعْلُوماً ، وَشُرَكَاءَ أَهْلَ مَسْكَنَةٍ ، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ ، وَإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ ، وَإِلَّا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَبُؤْساً لِمَنْ

خَصْمُهُ عِنْدَ اللهِ ٱلْفُقَرَاءُ وَٱلْمَسَاكِينُ وَالسَّائِلُونَ وَٱلْمَدْفُوعُونَ وَٱلْغَارِمُ وَٱبْنُ ٱلسَّبِيلِ . وَمَنِ ٱسْتَهَــــانَ بِالْأَمَانَةِ وَرَتَعَ فِي الْخِيَانَةِ وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ فِي الدُّنْيَا ٱلْخِزْيَ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَى . وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ ، وَأَفْظَعَ ٱلْغِشِّ غِشُّ الْأَئِمَّةِ وَالسَّلَامُ .

اللغة :

يجبههم : يستقبلهم ويفاجئهم . ويعضههم : لرميهم بالزور والبهتان . والبؤس: الفقر والشدة . والغارمون : العاجزون عن وفاء ديونهم .

الإعراب :

آمره فعل مضارع ، والفاعل ضمير مستتر يعود الى الإمام أي ان الإمام عبّر عن نفسه بضمير الغائب ، وهذا كثير في لغة العرب ، والهاء تعود على العامل ، والمصدر من أن لا يعمل مجرور بالباء المحذوفة ، ومثله أن لا يجبههم ، وشركاء عطف على «نصيباً» أي وان لك في هذه الصدقة شركاء ، وأهل مسكنة صفة لشركاء ، ولا يجوز جعل أهل بدلاً بحال ، لأن بدل الكل يستغنى به عن المبدل منه مثل جاء زيد أخوك ، وهنا لا يستغنى من حيث المعنى عن كلمة شركاء . وخصوماً تمييز ، وبؤساً عطف عليه .

المعنى :

(أمره بتقوى الله — الى — دونه) . يستطيع الانسان أن يخون ويغدر دون أن يشعر به مخلوق . وفي مثل هذه الحال لا رادع ولا زاجر إلا من الداخل ،

وهو الإيمان بالله والخوف من حسابه وعذابه ، والإمام يحذر عماله من الخيانة ومعصية الله في الخفاء ، لأنه بكل شيء عليم . وفي الحديث : خَفْ الله كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك (أمره ألا يعمل بشيء الخ) .. لا تطع الله في الظاهر دون الباطن ، بل أطعه فيهما معاً ، وكل ظاهر يخالف باطناً فهو تلبيس وتضليل (ومن لم يختلف سره – الى – العبادة) . كل من تنسجم أقواله وأفعاله مع حقيقته وواقعه فهو مخلص وأمين ، بل ومثلٌ أعلى يجب أن يُحتذى في ذلك كائناً من كان .

(وأمره أن لا يجبههم الخ) .. على موظف الدولة أن لا يستقبل أحداً من الرعية بما يكره ، ويستعلي عليه بالمنصب والمركز ، ويلقي اليه الأوامر في عنجهية وعجرفة كتيوس الموظفين ، لأنه أجير لا أمير .. والرعية هي السيد والأصل والعمود الفقري للدولة وخزينتها (وان لك في هذه الصدقة – الى – ذوي الفاقة) يشير الى الآية ٦٠ من سورة التوبة : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » والعاملون الجباة ، والفقراء والمساكين هم الذين أشار اليهم الإمام بقوله : « أهل مسكنة وضعفاء ذوي فاقة » ، والمؤلفةُ قلوبهم يستعان بهم للذبّ عن الاسلام ، والغارمون العاجزون عن وفاء ديونهم ، وفي الرقاب تحرير العبيد ، وابن السبيل الغريب بلا نفقة ، وفي سبيل الله ووجوه البر والإحسان .

(وإنا موفوك حقك فوفهم حقوقهم) . أبداً لا أدع أحداً يعتدي على سهمك من الصدقات ، ويغتصبه منك ، فحقيق بك – اذن – أن تحرص على حقوق الآخرين ، ولا تخونهم في شيء (وإلا تفعل الخ) .. فجزاؤك عندنا التأديب ، وعند الله عذاب الحريق حيث يخاصمك لديه تعالى سائر الشركاء الذين ذكرتهم الآية ٦٠ من سورة التوبة (فقد أحل بنفسه الذل والخزي الخ) .. لأن كل نفس بما كسبت رهينة .

(وان أعظم الخيانة خيانة الأمة) . وقد تكون خيانة الأمة بدرهم يختلسه موظف من مال الدولة ، أو رشوة يقبضها من مزوّر كاذب ، أو محتكر غاصب ، وهذه من أعظم الخيانات ، وفساد كبير ، ما في ذلك ريب . وأعظم منها ومن كل الجرائم مجتمعة التآمر على كيان الأمة وتقويضها من الأساس بالعمالة لسفاحي

الشعوب وأعداء الله والانسانية . وما أكثر العمـــلاء في الشرق ، وبالخصوص في بلاد المسلمين ، وبالأخص عندنا نحن العرب .. وهل من دليل عـلى ذلك أقوى وأدل من وجود « السيدة اسرائيل » التي تنقض ليل نهار بطائراتها ودباباتهـا علينا تقتل وتدمر ، وتحتل وتشرد على مسمع ومرأى من قادة العرب والعروبة .. وما زادهم هذا وذاك إلا تناحراً وتثليماً !.

الرسائل

-٢٦-

الى محمد بن أبي بكر .. فقرة ١ ـ ٢٠ :

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ، وَٱبْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ حَتَّى لَا يَطْمَعَ ٱلْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ بِهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَٱلْكَبِيرَةِ ، وَالظَّاهِرَةِ وَٱلْمَسْتُورَةِ ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ ، وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ(١) . وَٱعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ ٱلْآخِرَةِ ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ ، وَلَمْ يُشَارِكْهُمْ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ . سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ ٱلْمُتْرَفُونَ ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ ٱلْمُتَكَبِّرُونَ . ثُمَّ ٱنْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ ٱلْمُبَلِّغِ وَٱلْمَتْجَرِ الرَّابِحِ .

أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ غَداً فِي آخِرَتِهِمْ . لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ ، وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ[٢] .

اللغة :

آسِ : من المؤاساة بمعنى المساواة . وحافَ عليه : جار عليه ، وحاف له : جار على الغير من أجله ،كمن يبني لأولاده من أموال الأرامل والأيتام . وحظوا: نالوا .

الإعراب :

آسِ فعل أمر ، ومعشر عباده أي يا معشر عباده ، وما سكنت «ما» مصدرية أي سكناها ، وبما حظي أي بمثل اللذي حظي ، ومثله ما أخذه .

المعنى :

قال الشريف الرضي وغيره : حين قلّد الإمام محمد بن أبي بكر الولاية كتب اليه : (فاخفض لهم جناحك – الى النظرة) . روي أن رجلاً نادى رسول الله (ص) : يا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا . فقال:لا يستهوينكم الشيطان .. أنا محمد بن عبدالله .. عبده ورسوله .. والله ما أُحب أن ترفعوني فوق منزلتي . وكان أصحابه اذا رأوه قادماً عليهم لم يقوموا له ، لأنهم يعرفون كراهيته لقيامهم .. وكان يكره أن يمشي أصحابه وراءه، واذا فعل ذلك أحدهم أخذ بيده ودفعه الى جانبه .

وعن كتاب « الوفا بأحوال المصطفى » لعبد الرحمن بن الجوزي ان النبي(ص): « كان يحب لأمته أن تنتقد ، وأن تطالب بحقها ، وأن تعترض ، وأن تبدي رأيها فيما ينفعها وما يريبها من سلوك الأمراء » .

(حتى لا يطمع العظماء الخ) .. انهم تماماً كالشيطان ، من جعل له سبيلاً

الى نفسه قاده الى الهاوية . وفي الحديث : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الشفاء » ويصح هنا القياس ، وعليه فلك أن تقول : الضعف والهزيمة أمام الطغاة بيت الداء ، وقوة الإصرار على الصمود في حربهم ومجابهتهم رأس الشفاء (ولا ييأس الضعفاء من عدلك) . الضعفاء هم المقياس الصحيح لعدل الحاكم وجوره ، فإن خافوا على أنفسهم من شر الأقوياء كان معنى هذا ان الحاكم ظلوم لا يهمه من أمر الرعية إلا السيطرة والاستعلاء ، وإلا السلب والنهب ، واذا أمن الضعفاء من شر الأقوياء فمعنى ذلك ان الحاكم يشعر بتبعات الحكم الملقاة على عاتقه ، وانه لله وللعدل ، لا لأهوائه وأبنائه .

(إن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا) حيث تمتعوا بنسائها على كتاب الله وسنّة نبيه ، وأكلوا من طيباتها بكد اليمين وعرق الجبين ، وأيضاً سعدوا وابتهجوا بمناظر الطبيعة ، وعاطفة الأبوة والبنوة ، وبلذة العلم والمعرفة ، وراحة الضمير والحديث الى الأصدقاء ، ورجاء الثواب والرضا من الله ، وما الى ذلك من نعمه تعالى التي لا تعد ولا تحصى ، وتقدم في الخطبة ١١٢ قول الإمام: وما أحل لكم أكثر مما حرم عليكم (وآجل الآخرة) وأيضاً فاز المتقون بجنة عرضها السموات والأرض .

(فشاركوا أهل الدنيا الخ) .. في الملذات التي أشرنا اليها ، وجمعوا بينها وبين الجنة . أما الطغاة العتاة فتمتعوا قليلاً ، ثم الى عذاب الجحيم . وتقدم مرات انه لا صراع ولا اصطدام بين طيبات الدنيا وجنات الآخرة ، وانما التضاد والصراع بين الحرام ومرضاة الله وثوابه . قال رسول الله (ص) لقوم حرموا الطيبات على أنفسهم : « إنما أنا أعلمكم بالله ، وأخشاكم له ، ولكني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، ومن رغب عني فليس مني » .

الصبر مصدر السعادة :

(سكنوا الدنيا بأفضل الخ) .. المتقون سكنوا في بيوت متواضعة ، وسكن المترفون قصوراً شامخة ، ولكن الكوخ مع الأمانة والتقوى خير ألف مرة من القصر المنيف مع الخيانة والفساد ، ونفس الشيء يقال في المآكل والملابس (فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون الخ) .. من حيث سد الحاجات واستمرار الحياة ، لا من

حيث المظاهر الفارغة ، وزادوا عليهم براحة الضمير وصفاء النفس والاطمئنان الى المصير . سمع امبراطور الصين القديم عن أسرة صينية فقيرة ، ولكنها أسعد أهل الصين إطلاقاً .. عاشت عشرات السنين تحت سقف واحد بلا إزعاج ، وما يكدر صفو الحياة . فبعث الأمبراطور رسوله يسأل رب الأسرة العجوز عن سر هذه السعادة . فبعث اليه العجوز برسالة طولها متران ، وحين فتحها الأمبراطور وجدها منقوشة بكلمة واحدة من أولها الى آخرها ، وهي كلمة الصبر .

(أصابوا لذة زهد الدنيا) المراد بلذة الزهد هنا الرضا بالميسور . وسئل الحكيم الصيني بوذا عن السعادة ؟ فقال : القناعة . وسئل عن أكثر شيء إيلاماً للنفس ؟ فقال : تأنيب الضمير . ومن صفات رسول الله (ص) انه كان في طعامه لا يرد موجوداً ، ولا يتكلف مفقوداً (انهم جيران الله) أي ان المتقين قريبون من رحمة الله وكرامته (ولا ترد لهم دعوة) في طلب العفو وحسن المآب (ولا ينتقص لهم نصيب من لذة) نالوا من الدنيا ما فيه الكفاية ولهم في الآخرة أجر عظيم .

لا تسخط الخالق برضا المخلوق .. فقرة ٣ – ٦ :

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَخَطْبٍ جَلِيلٍ ، بِخَيْرٍ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً ، أَوْ شَرٌّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً . فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا ؟ وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا ؟. وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ . وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ . الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ(٣) . فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ . دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ ، وَلَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ ، وَلَا تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ . وَإِنِ

اَسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللهِ وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنكم بِهِ فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنًّا بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً لِلهِ[٤]. وَاعْلَمْ يا مُحَمَّدُ بْنَ أَبِي بَكْرٍ أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلى نَفْسِكَ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَلَا تُسْخِطِ اللهَ بِرِضَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فَإِنَّ فِي اللهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ وَلَيْسَ مِنَ اللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ[٥]. صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا الْمُوَقَّتِ لَهَا، وَلَا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاشْتِغَالٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلَاتِكَ. فَإِنَّهُ لَا سَوَاءَ إِمَامُ الْهُدَى وَإِمَامُ الرَّدَى، وَوَلِيُّ النَّبِيِّ وَعَدُوُّ النَّبِيِّ. وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. إِنِّي لَا أَخَافُ عَلى أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلَا مُشْرِكاً. أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللهُ بِشِرْكِهِ، وَلٰكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ[٦].

اللغة :

طرداء : جمع طريد أو مطارد. ومحقوق : مطالَب بالحق. وتنافح: تدافع. ويقمعه : يقهره. والجنان – بفتح الجيم – القلب.

الإعراب :

دار أي هي دار ، وظناً تمييز . ومثله خوفاً ، وأهل مصر بدل من أعظم اجنادي ، والمصدر من تخالف مجرور بالباء المحذوفة .

المعنى :

(فاحذروا عباد الله الموت الخ) .. استعدوا له واعملوا لما وراءه من حساب وجزاء . وتقدم الكلام عن الموت مرات ومرات .. بالإضافة الى وضوح الكلام هنا وصراحته (بخير لا يكون معه شر أبداً ، أو شر لا يكون معه خير أبداً). يدل هذا بظاهره ان الانسان يعامل غداً كمسيء بحت لا يثاب على حسنة أبداً أياً كان نوعها ، أو كمحسن محض لا يعاقب على سيئة أبداً مهما تكن ، ولا ثالث خلط عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً .. وليس من شك ان هذا يتنافى مع العدالة الإلهية ، ومع الكثير من النصوص القرآنية التي قالت بوضوح : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تلك حسنة يضاعفها – ٤٠ النساء » . « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان – ٦٠ الرحمن » ؟ وهل تكون الحسنة عند الله سيئة أو هباء ؟.

الجواب :

قال سبحانه في الآية ٢٤ من سورة الصافات : « وقفوهم انهم مسؤولون ». وقال في الآية ٣٩ من سورة الرحمن : « فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه انس ولا جان » . وقد وفق المفسرون وجمعوا بين الآيتين بأن في القيامة مواقف يجرى في بعضها الحساب والسؤال ، وفي بعضها لا سؤال ولا حساب .. وعلى هذا يحمل كلام الإمام ، أو يجوز أن يحمل عليه ، ويقال هكذا : من أحسن وأساء في عمله اليوم يعامل غداً في بعض المواقف بالحسنى فقط ، وفي موقف يعامل كمسيء فقط .. وفي النهاية هو الى الجنة إن تغلبت الحسنات، أو الى النار إن تغلبت السيئات .

(فمن أقرب الى الجنة الخ) .. قد تأتي الآفات على ما تزرع ، والزلازل على ما تبني ، ويذهب جهدك مع الريح، وقد تخسر في تجارتك ويذهب رأس المال

بعضه أو كله ، أما طاعتك لله فإنها تؤدي بك حتماً الى جنته ، وأيضاً معصيتك له تقودك الى ناره لا محالة إنجازاً لوعده تعالى ، وقضاء لأمره إلا أن يشاء ، ولا يشاء إلا الحكمة .

(والدنيا تُطوى من خلفكم) لأنكم تطوون الليل والنهار (وان استطعتم الخ) .. أن تجمعوا بين الخوف من الله الذي يزجركم عن الحرام ، ويدعوكم الى التخلي عن العيوب والتوبة من الذنوب ، أن تجمعوا بين ذلك وبين الرجاء والأمل بثوابه الذي يبعثكم على الصالحات والسباق الى الخيرات (فاجمعوا بينهما) ومن وُفق الى الجمع فقد فاز .

(فإن العبد انما يكون حسن ظنه الخ) .. المراد بحسن الظن هنا الثقة بثواب الله على طاعته ، والمعنى ان الخوف من عذاب الله على السيئة بلا رجاء الثواب منه على الحسنة ، ورجاء الثواب منه على الحسنة بلا خوف من عذابه على السيئة كلاهما لا ينسجم مع العدالة الإلهية التي تجزي كل نفس بما تسعى ، ولا يستوي لديها المحسن والمسيء .. ولذا جعل الإمام رجاء الثواب ملازماً للخوف من العقاب وجوداً وعدماً وشدة وضعفاً ، لأن مصدرهما واحد ، وهو العلم بعدالته تعالى .

لا تدع الالحاح على الله :

وقال الإمام زين العابدين حفيد الإمام أمير المؤمنين : « لو أنزل الله عز وجل كتاباً انه معذّب رجلاً واحداً لخفت أن اكونه ، أو انه راحم رجلاً واحداً لرجوت أن اكونه ، او انه معذبي لا محالة ما ازددت إلا اجتهاداً ، لئلا ارجع الى نفسي بلائمة » . ومعنى هذا انه لا يقنط أبداً من رحمة الله حتى ولو قضى وقدر أن يعذبه لا محالة .. سلام الله عليك يا مولاي لقد خففت عني — والله — وجرّأتني أن ألح وألح على الله ملتمساً قِراه .. لا أحول ولن أزول عن بابه وان نهرني ، وأقول له بوقاحة وصلافة : أبداً لن أنصرف ، والى أين ؟ والخير كله بيدك ، وما جدواك منه ، وأنا اليه أحوج ؟ ولا ينقصك عطاء .. فهات ولا أمل في سواك .

وتقدم الكلام عن فلسفة الخوف والرجاء في شرح الخطبة ١٥٨ . (واعلم يا محمد بن أبي بكر أني قد وليتك أعظم أجنادي في نفسي أهلَ مصر) .

المراد بالأجناد هنا الأقاليم والأطراف ، ويدل كلام الإمام أنه كان يحب أهل مصر ، ولعل السبب لهذا الحب ثورة المصريين على عاملهم الطاغية عبدالله بن أبي السَّرح الذي أفسد بين المصريين والخليفة الثالث عثمان (فأنت محقوق أن تخالف على نفسك) . المراد بالنفس هنا الهوى ، والمعنى انك مطالب أو جدير بك أن تقمع هواك ، أو لا تستجيب لدعوته على الأقل . وبكلام أعم ان في كل واحد منّا عدواً لا يراه يوسوس ويلبّس ، وعلينا أن نزجره ولا نستمع اليه وإلا سيطر وتحكم .

(وان تنافح عن دينك) ولا تدع لشياطين الإنس والجن عليك سبيلاً (ولو لم يكن إلا ساعة من الدهر) بحيث لا تبقى بعدها ثانية ، فاغتنم هذه الساعة في إصلاح دينك ونفسك .

باعوا دينهم للشيطان :

(ولا تسخط الله برضا أحد من خلقه الخ) .. لأنه لا شيء يغني عن مرضاته تعالى . وهل يبيع المؤمن بالله دينه للشيطان بثمن ؟. أجل ، لقد فعلها علانية الكثير من المنتسبين الى الأديان والمذاهب في هذا الزمان ،وعقدوا المؤتمرات «الدينية» بوحي من الاستعمار والصهيونية ، وأصدر بعض هذه المؤتمرات قراراً ببراءة اليهود من دم السيد المسيح خلافاً لنص كتابهم ، الإنجيل ، وبعضها أصدر قراراً بالفرق بين اليهودية والصهيونية ،وفي المؤتمرين «عمائم» مع العلم بأن توراة اليهود الحاضرة تنص صراحة على انهم شعب الله المختار دون سائر الشعوب ، وإن الله قد أحل لهم أن يسخّروا كل الآدميين تماماً كما يسخرون الحيوان الأعجم..فإله اسرائيل كما تتحدث عنه التوراة والتلمود وكتب اليهود ليس هو الله الذي تفهمه البشرية ، وإنما هو إله خاص لا يعنيه من أمر العالم شيء سوى اليهود وحدهم .. وهذه هي الصهيونية بالذات .. والذي يستوقف النظر حقاً ان ما من مؤتمر ديني – حتى الاسلامي – أشار بكلمة واحدة الى أمريكا حليفة الصهيونية ، وقائدة الاستعمار الجديد .

وهذه ظاهرة تبدو على تحركات الكثير من المنتسبين الى الدين ، وليست سراً، واني لأشعر بالمسؤولية عن حربهم ، ولكن أين وسائل القمع والردع ؟.

(صلّ الصلاة الخ) .. تقدم الحديث عنها في الخطبة ١٩٧ (فإنه لا سواء

أمام الهدى وأمام الردى الخ) .. قال الشارحون : أراد الإمام بإمام الهدى وولي النبي نفسه ، وبإمام الردى وعدو الله والمنافق معاوية . وقال ابن أبي الحديد : « معاوية عدو الله والنبي ، لأنه عدوّ لعلي ، وثبت عن رسول الله انه قال لعلي : وليّك وليّي وولي الله ، وعدوك عدوي وعدو الله » . وقال ميثم : هذا الخبر مشهور . وعلينا نحن أن نشير الى مصدر هذا الحديث وما في معناه . وقد جاء في كتاب «الخصائص» للنسائي ص٤ طبعة ١٣٤٨ هـ. بمطبعة التقدم بمصر ، و «ذخائر العقبى ص٦٥ ، و « أسد الغابة » لابن الأثير ج٢ ص ١٥٤ طبعة سنة ١٢٨٥ هـ. بمطبعة الوهبية بمصر، وكتب أخرى كثيرة ذكرها صاحب كتاب « فضائل الخمسة من الصحاح الستة » .

الرسائل

-٢٧-

الى معاوية .. فقرة ١ ـ ٣:

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ ٱصْطِفَاءَ اللهِ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِدِينِهِ وَتَأْيِيدِهِ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَلَقَدْ خَبَّأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ اللهِ عِنْدَنَا وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا ، فَكُنْتَ فِي ذٰلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَى النِّضَالِ . وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي ٱلْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ ٱعْتَزَلَكَ كُلُّهُ ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ تَلْحَقْكَ ثُلْمَتُهُ(١) . وَمَا أَنْتَ وَٱلْفَاضِلَ وَٱلْمَفْضُولَ . وَالسَّائِسَ وَٱلْمَسُوسَ ؟ وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ ٱلطُّلَقَاءِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ وَتَرْتِيبِ دَرَجَاتِهِمْ وَتَعْرِيفِ طَبَقَاتِهِمْ . هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا ، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ ٱلْحُكْمُ لَهَا . أَلَا تَرْبَعُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ وَتَعْرِفُ

قُصُورَ ذَرْعِكَ ؟ وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ ٱلْقَدَرُ ، فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ ٱلْمَغْلُوبِ وَلَا لَكَ ظَفَرُ ٱلظَّافِرِ(٢) . وَإِنَّكَ لَذَهَّابٌ فِي التِّيهِ رَوَّاغٌ عَنِ ٱلْقَصْدِ . أَلَا تَرَى ـ غَيْرُ مُخْبِرٍ لَكَ وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللهِ أُحَدِّثُ ـ أَنَّ قَوْماً ٱسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ ، حَتَّى إِذَا ٱسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ ، وَخَصَّهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ . أَوَ لَا تَرَى أَنَّ قَوْماً قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ـ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ ـ حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ قِيلَ الطَّيَّارُ فِي ٱلْجَنَّةِ وَذُو ٱلْجَنَاحَيْنِ ، وَلَوْلَا مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ ٱلْمَرْءِ نَفْسَهُ لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً تَعْرِفُهَا قُلُوبُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَمُجُّهَا آذَانُ ٱلسَّامِعِينَ(٣) .

اللغة :

طفقت: ابتدأت. والمراد ببلاء الله هنا إحسانه. وهجَر (الهفوف) :مدينة بالبحرين كثيرة النخيل . والنضال : المراماة . ومسدده : معلمه . واعتزلك : لا شيء لك منه . وثلمته : عيبه وخلله . والطلقاء : الذين أسروا في الحرب وأُطلقوا . وحنّ : صوّت . والقدح ـ بكسر القاف ـ السهم . واربعْ على ظلعك : قف عند حدك . والذرع ـ بسكون الراء ـ بسط اليد ، ويقال : ضاق بالأمر ذرعاً أي لم يقدر عليه . والتيه : الضلال . وروّاغ : كثير المكر والخداع . والقصد : الاعتدال .

الإعراب :

أنت مبتدأ مؤخر ، و «ما» خبر مقدم ، وهي للاستفهام على الإنكار ،

والفاضل بالنصب مفعول معه ، لأن المعنى ما تصنع مع الفاضل ، والتمييز مفعول معه للطلقاء . وهيهات اسم فعل بمعنى بعُد . وما غلبة مبتدأ وخبر، وعليك متعلق بغلبة ، وروّاغ خبر بعد خبر لأنك ، وغير مخبر خبر لمبتدأ محذوف أي أنا غير مخبر لك ، والمصدر من ان قوماً مفعول ترى ، وسيد الشهداء خبر لمبتدأ محذوف ومثله الطيار ، وما نهى « ما » مصدرية والمصدر المنسبك مبتدأ ، والخبر محذوف وجوباً أي لولا نهي الله كائن ، وجمة صفة لفضائل .

المعنى :

(أما بعد فقد أتاني كتابك الخ) . الخطاب لمعاوية ، وكان قد كتب للإمام رسالة تدل على ان دهاءه وذكاءه ينحصر بصكوك البيع والشراء ، وإن عقله لا يصلح إلا للتجارة وعقد الصفقات مع تجار من أمثاله ، كابن العاص أخذ منه مصر وحارب معه معاوية ، والمغيرة بن شعبة اشترى منه الكوفة بتمهيد البيعة ليزيد ، أما زياد ابن أبيه فكان رقاً لمعاوية ، والثمن إلصاقه بأبي سفيان .. ومن رفض عقد الصفقات التجارية مع معاوية دس اليه السم بالعسل .. هذه هي سياسة معاوية ، وهذا دهاؤه وذكاؤه : شراء الدين والذمم ، والموت لمن أبى إن استطاع اليه سبيلاً ، واذا حاد معاوية عن هذا الخط فلا ذكاء عنده ولا دهاء ، والدليل هذا الكتاب الذي أجاب عنه الإمام بما فضحه وأخزاه ، وردّ كيده الى نحره . واليك البيان :

روى ابن أبي الحديد عن استاذه النقيب أبي جعفر أن معاوية كان يتلهف على كلمة من فم الإمام يغمز بها الشيخين ، ليجعلها حجة عند أهل الشام ، ولما عجز أرسل الى الإمام الكتاب تلو الكتاب والرسالة بعد الرسالة يذكر فيها فضل أبي بكر وعمر ، لينفث الإمام بعض مآخذ عليهما ، فيتخذ منها معاوية ما اتخذ من قميص عثمان ، ومن رسائله في ذلك الرسالة التي نحن بصدد جوابها . هذا ما قاله النقيب لتلميذه الشارح ، وجواب الإمام يشهد بصحته كما يشهد بأن الإمام أدرك هدف معاوية ، ففوّت عليه الفرصة ، وكشف له عن سوء طويته حيث قال له فيما قال : وأردت أن تفضح فافتضحت .

(فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً الخ) .. وأي شيء أعجب من هذا ؟

معاوية يحدث علياً عن فضل محمد (ص) ! غريب متطفل يُخبر أهل البيت بما في خزائنهم !. عدو أبيك اللدود ينبئك عن فضله وعظمته !. ولا أدري : هل هذا دهاء أو نكتة ؟. وقد تواضع الإمام حين شبّه معاوية بالتلميذ يدعو استاذه الى المسابقة والمباراة (وزعمت ان أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان الخ) .. هذا هو بيت القصيد في رسالة معاوية ، أثنى على الشيخين ليطعن الإمام عليهما ، فيبلغ منه معاوية ما أراد ، ولكن الإمام وجه الى قلب معاوية طعنة نجلاء حين قال له : ما أنت وأهل السياسة والفضل ، والهجرة والنصر ؟. إنك طليق وابن طليق ، حاربت أنت وأبوك الإسلام ونبي الإسلام ، ثم استسلمتما كرهاً لا طوعاً.

(فما عليك غلبة المغلوبين الخ) .. لا تقحم نفسك بيني وبين الشيخين غالباً كنتُ أو مغلوباً ، فتقدمهما عليّ ليس انتصاراً لك ، ولا تقدمي عليهما إلا يزيدك خزياً ، لأنك مع الطلقاء لا مع السابقين الأولين (ألا ترى غير مخبر لك) لأن مثلي لا يقصد مثلك بالحديث (ولكن بنعمة الله احدث) يشير الى قوله تعالى : « واما بنعمة ربك فحدث – ١١ الضحى » . (ان قوماً استشهدوا في سبيل الله الخ) .. وفضلهم كبير وجليل لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

(حتى اذا استشهد شهيدنا الخ) .. لكل شهيد فضل يشكر ، ولكن لشهيد أهل البيت أفضلية على سائر الشهداء لا ينكرها مسلم،والدليل أن رسول الله (ص) سمى حمزة بن عبد المطلب سيّد الشهداء ، وكبّر عليه سبعين تكبيرة ، وما فعل هذا بشهيد من الأنصار والمهاجرين ، إذ كان لا يزيد عن سبع تكبيرات ، ولا يعطي الشهيد أي لقب . وقال ابن أبي الحديد : ان حمزة سيد الشهداء في حياة النبي (ص) فقط ، لأن الإمام هو سيدٌ لكل شهيد ومسلم بعد رسول الله .

(ان قوماً قطعت أيديهم في سبيل الله ، ولكل فضل حتى إذا فعل بواحدنا الخ) .. يشير الى أخيه جعفر واستشهاده في مؤتة . وتقدم الكلام عنه وعن حمزة في الرسالة ٩ (ولولا ما نهى الله الخ) .. أشار الإمام الى حمزة وجعفر ، وسكت عن نفسه تأدباً بقوله تعالى : « فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى – ٣٢ النجم » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لستم هناك .. فقرة ٤ – ٧:

فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ فإنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا. لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا وَلَا عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا فِعْلَ الأَكْفَاءِ وَلَسْتُمْ هُنَاكَ. وَأَنَّى يَكُونُ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمُ المُكَذِّبُ، وَمِنَّا أَسَدُ اللهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الأَحْلاَفِ، وَمِنَّا سَيِّدُ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الحَطَبِ فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ(٤). فَإِسْلاَمُنَا قَدْ سُمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لاَ تُدْفَعُ، وَكِتَابُ اللهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا وَهُوَ قَوْلُهُ «وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ». وَقَوْلُهُ تَعَالَى «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ. وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلى الأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَجُوا عَلَيْهِمْ، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالأَنْصَارُ عَلى دَعْوَاهُمْ. وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ وَعَلى كُلِّهِمْ بَغَيْتُ، فَإِنْ يَكُنْ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَلَيْسَ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ فَيَكُونَ

ٱلعُذْرُ إِلَيْكَ ، وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِـــرٌ عَنْكَ عَارُهَا (٥) . وَقُلْتَ إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّى أُبَايِعَ . وَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ . وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ وَلاَ مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ . وَهٰذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا ، وَلٰكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا . ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هٰذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ . أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ وَٱسْتَكَفَّهُ ، أَمَّنِ ٱسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَى عَنْهُ وَبَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ حَتَّى أَتَى قَدَرُهُ عَلَيْهِ . كَلَّا وَاللهِ لَقَدْ عَلِمَ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَٱلْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً . وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً ، فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ فَرُبَّ مَلُومٍ لاَ ذَنْبَ لَهُ . وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ ، وَمَا أَرَدْتُ إِلاَّ الْإِصْلاَحَ مَـــا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْـــهِ تَوَكَّلْتُ (٦) . وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلِأَصْحَابِي إِلَّا السَّيْفُ . فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ ٱسْتِعْبَـارٍ ، مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِـــينَ ،

وَبِالسُّيُوفِ مُخَوِّفِينَ ، لَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلْ ، فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ ، سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ ، مُتَسَرْبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ ، أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ ، قَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ ، وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ « وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ »(٧) .

اللغة :

الرميّة : الصيد يُرمى . والصنائع : من الصنيعة أي الحسنة . وعادي : قديم. والطَوْل : الفضل . وفلجوا : ظفروا . والمراد بالشكاة هنا العيب ، وبالظاهر الزائل . والجمل المخشوش : في أنفه خشبة صغيرة يقاد بها . والمعوقين : المثبطين والمانعين من النصرة . والظنة : التهمة . والمتنصح : المبالغ في النصيحة . والاستعبار : البكاء . وناكلين : متأخرين . ولبث : من اللبث أي المكث . والهيجاء : الحرب . وحمل : اسم رجل من قشير . ومرقل : مسرع . والجحفل : الجيش العظيم . وساطع : منتشر . والقتام : الغبار الأسود . ومتسربلين : لابسين .

الإعراب :

روي قديم عزنا بنصب قديم على نزع الخافض أي على قديم ، وعليه يكون ضمير « نا » فاعل ، وروي برفع قديم على أنه فاعل و « نا » مفعول ، والمصدر

من خلطناكم مجرور بمن محذوفة ، وقيل : المصدر من ان خلطناكم فاعل يمنع ، وفعل الاكفاء بالنصب على المصدر أي فعلنا فعل الاكفاء،وانّى خبر مقدم ليكون، وذلك اسمها ، ومنّا النبي مبتدأ وخبر ، وفي كثير متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي هذا قليل من كثير الخ ، ومرة نصب علي الظرفية أي فعلة واحدة من مرور الزمن ، وتارة عطف على مرة ، وتلك مبتدأ أول،وشكاة مبتدأ ثان ، وظاهر خبر المبتدأ الثاني ، والجملة خبر الأول ، وعارها فاعل ظاهر ، وعلى المسلم خبر مقدم ، وغضاضة مبتدأ مؤخر ، ومن زائدة ، ولكُ خبر مقدم ، والمصدر من أن تجاب مبتدأ مؤخر ، ولبث فعل أمر،وقليلاً صفة لمفعول مطلق محذوف أي لبثاً قليلاً ، والهيجا مفعول يلحق ، وحمل فاعل ، ومتسربلين حال، وسرابيل مفعول متسربلين .

المعنى :

(فدع عنك من مالت به الرمية) . لا تسمع من المضللين الذين يزيّنون لك سوء أعمالك ، ويغرونك بحربنا وعداوتنا (فانّا صنائع ربنا ، والناس بعد صنائعنا) . ان الله سبحانه منّ علينا نحن الهاشميين بمحمد (ص) وبه ختم النبوة والنبيين ، وإذن فنحن أهل الفضل على الناس برسول الله (ص) الذي أخرجهم من الظلمات الى النور ، ولا فضل لأحد علينا سوى الله ، فهو وحده مصدر هدايتنا ، أما غيرنا من المسلمين فهدايته بنا، فالفضل لنا بمحمد على أمة الإسلام، ولها بمحمد وأهل بيته الفضل على سائر الأمم .

(لم يمنعنا قديم عزنا الخ) .. نحن يا معاوية أجلّ منكم وأعلى ، وأنتم أقل وأدنى ، وليس معنى هذا أن لا نعاملكم معاملة الأكفاء في الزواج كي تحتج به، فإن الكفؤ قد يتزوج ويزوج غير الكفؤ .. وتجدر الإشارة إلى أن الإمام أبعد الناس عن الفخر،ولكن موقف معاوية قد اضطره الى ذلك . وقال حفيده الإمام جعفر الصادق (ع) : يجوز للإنسان أن يزكي نفسه عند الضرورة كما فعل يوسف حين قال لملك مصر : « اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم — ٥٥ يوسف » .

وقال ابن أبي الحديد : نذكر بهذه المناسبة مناكحات بني هاشم وعبد شمس،

فقد زوّج النبي ابنتيه رقية وأم كلثوم من عثمان،وزوّج ابنته زينب من أبي العاص ابن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس في الجاهلية ، وتزوّج أبو لهب بن عبد المطلب أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ، وتزوّج رسول الله أم حبيبة بنت أبي سفيان .

(ومنّا النبي ومنكم المكذب) أبو سفيان . وقال بعض الشارحين: أبو جهل!. ولكن أبا جهل مخزومي ، وليس بأموي ، ينتهي نسبه الى مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي ، كما في سيرة ابن هشام (ومنّا أسد الله) حمزة بن عبد المطلب (ومنكم أسد الأحلاف) الخ .. قال الشيخ محمد عبده : « أسد الأحلاف أبو سفيان ، لأنه حزب الأحزاب وحالفهم على قتال النبي في غزوة الخندق ، وسيد شباب أهل الجنة : الحسن والحسين بنص قول الرسول » . (ومنكم صبية النار) وهم طغاة الجور من الحكام الأمويين (ومنا خير نساء العالمين) فاطمة الزهراء (ع) . (ومنكم حمالة الحطب) أم جميل عمة معاوية التي اشتهرت بعدائها لرسول الله (في كثير مما لنا) من الفضائل (وعليكم) من الرذائل .

ولمناسبة ذكر سيدة النساء أشير الى صدور كتاب جديد ، اسمه « أهل البيت » لمؤلفه توفيق أبو علم ، ولم أر الكتاب ، ولم أجده في مكاتب بيروت ، وانما قرأت عنه في جريدة « الأخبار » المصرية تاريخ ٢٤ – ١١ – ١٩٧٢ ، ومما جاء في الجريدة : « قالوا بحق : إن فاطمة الزهراء نداء الملايين ، وشهاب النبوة ، وانها في القمة . وكل ذلك مرآة تعكس جزءاً ضئيلاً مما هي عليه . أليست بنت النبوة وربيبة الوحي ؟. ومثال المرأة التي يريدها الله ، وقطعة من الاسلام المجسد في رسول الله ، وقدوة للمرأة وللانسان المؤمن في كل زمان ومكان ؟ » .

(فإسلامنا قد سمع وجاهليتنا لا تدفع) . نحن بني هاشم مشهورون بالصدق والأمانة ، ومكارم الأخلاق في الجاهلية والإسلام ، قال العقاد في كتاب « عبقرية محمد » : « كان بنو هاشم أصحاب عقيدة وأريحية ووسامة ، وكان بنو أمية أصحاب عمل وحيل ومظهر مشنوء .. ومهما تجد من ندّين متناظرين في هاشم وأمية إلا وجدت بينهما هذا الفارق على نحو من الأنحاء » .

أولى الناس بالنبي :

(وكتاب الله يجمع لنا ما شذ عنا لله – الى – أولى بالطاعــة) . يجمع : يوجب ، وشذ : أبعد ، والمعنى لا فوضى وعشوائية في الواقع ولا في الإسلام، فالله اختار محمداً (ص) للسفارة بينه وبين عباده ، لأنه « أعلم حيث يجعل رسالته» وكذلك الخلافة لا بد لها من سبب موجب،ولا يخلو السبب الموجب لتولي الخلافة من أحد فرضين : إما الرحم والقرابة من النبي المختار أخذاً بظاهر الآية ٧٥ من سورة الأنفال : « واولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » . وإما التبعية والطاعــة لرسول الله (ص) كما في الآيــة ٦٨ من سورة آل عمران : « إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا » . وليس من شك ان أهل البيت هم أقرب الناس الى رب البيت وصاحبه ، وأعلمهم بسنته ، وأول من آمن به وناصره ودافع عنه .

وهذه الحجة العقلية النقلية التي أدلى بها الإمام – تثبت انـه أولى بالخلافة من السابق واللاحق دون أن يجد فيها معاوية أي مغمـز يتشبث به ويحتج عند أهـــل الشام .

(ولما احتج المهاجرون – الى – دعواهم) . تنــازع المهاجرون والأنصار على الخلافة . فقال هؤلاء : نحن آوينا النبي وناصرناه . وقال أولئك: نحن شجرته وقرابته . وبالتالي تغلب المهاجرون .. فإن كان للقرابة أثرها كما زعم المهاجرون فالإمام أقرب من كل قريب وإلا فحجة الأنصار قائمة،ولا تبطل بقول المهاجرين. وفي سائر الأحوال فأنت يا معاوية طليق لا مهاجر ولا مناصر . وبكلمـة قصيرة الإمام طرف أصيل في مسألة الخلافة ، لأنـه أقــرب الأرحام وهاجر وناصر ، أما معاويــة فدعيّ دخيل . وسبقت الإشارة الى « السقيفــة » في الخطبة ٣ والخطبة ٦٦ .

(وزعمت اني لكـل الخلفاء حسدت الـــخ) .. لنفترض صحة ما تقول ، وفرض المحال ليس بمحال ، فهل حسدتك يا معاويـة كي أعتذر اليك ؟ وهل لك من فضل في شيء تُحسد عليه،أو تُغبط ؟. (وقلت : اني كنت أقاد الخ). ثم ماذا ؟ وهل في ذلك نقص من ديني وخلقي ، أو علمي ومكاني عند خالقي (لقد أردت أن تذم فمدحت) ذلك بأن الذي يُذم حقاً هو الظالم الغاصب من

أمثالك يا معاوية ، أما المظلوم فالله وليه ونصيره . وعلى منطقك هذا ينبغي أن تمدح أباك ، وتذم الرسول الأعظم (ص) — استغفر الله — لأنه عانى الكثير من أبيك أبي سفيان .. جيّش الجيوش ، وحزّب الأحزاب ، وعقد الأحوال على حرب نبي الله ، وحاول قتله بكل سبيل ، وكسر جيشُ أبيك يوم أُحد أنف النبي ورباعيته ، وشجّه في وجهه .. وأيضاً ينبغي أن تُثني على أُمك هند ، لأنها أكلت كبد حمزة سيد الشهداء ، وتبارك عمتك أم جميل حمّالة الحطب ، لأنها جمعت الأشواك ، ونثرتها في طريق رسول الرحمة .. حقاً لقد أردت أن تفضح فافتضحت من حيث لا تشعر .. فأين دهاؤك وذكاؤك ؟.

(وهذه حجتي الى غيرك قصدها الخ) .. قال الشيخ محمد عبده : يحتج الإمام على حقه لمن هو مظنة الاستحقاق للخلافة لا لمعاوية ، لأنه منقطع عن جرثومة الأمر فلا حاجة للاحتجاج عليه (ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عثمان الخ) .. وأنا أجيبك لقرابتك منه ، وإلا فأنت أحقر من أتوجه اليه بقول .

(فأينا كان أعدى له الخ) .. قال العقاد في كتاب « معاوية » ص ١٤٨ الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٦ : ان أثبت ما ثبت من نفعية — أي انتهازية — معاوية هو طلبه من عثمان ان تكون له ولاية الدم بعد مقتله ، وهذا الطلب بمثابة طلب ولاية العهد !.. ومعناه في الواقع ان معاوية كان يتمنى قتل عثمان ليتولى الخلافة من بعده !. ثم نقل العقاد في ص ١٤٩ عن تاريخ الخلفاء للسيوطي : ان معاوية بعد أن تم له الأمر قال للصحابي أبي الطفيل عامر بن نائلة : ألست من قتلة عثمان ؟ قال أبو الطفيل : لا ، ولكني لم أنصره . قال معاوية : وما منعك من نصره ؟. قال : لم ينصره المهاجرون والأنصار . قال معاوية : كان حقاً واجباً عليهم أن ينصروه . قال له أبو الطفيل : وما منعك أن تنصره ومعك أهل الشام؟ قال معاوية : أما طلبي بدمه فنصرة له . فضحك أبو الطفيل وقال : أنت وعثمان كما قال الشاعر :

لا ألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادا

وقال العقاد في ص ١٥٠ : آل الأمر الى معاوية بعد حين ، وما أخذ أحداً،

أو حاسب واحداً من قتلة عثمان ، وكان يلقى الرجل منهم فيسكت عنه أو يسأله: ألست من قتلة عثمان ، ثم يصرفه مزوداً بالعطاء . وسبق الحديث عن ذلك أكثر من مرة .

(ما كنت لأعتذر من أني كنت أنقم عليه احداثاً الخ) .. قال الشيخ محمد عبده : « انقم عليه أي أعيب عليه ، والاحداث البدع » وعلى هذا يكون المعنى لا اعتذر من أني كشفت لعثمان عن دخوله في الباطل وخروجه من الحق (وما أردت إلا الاصلاح ما استطعت) ولكن عثمان ومروان كانا يتهمانني في النصح (فرب ملوم لا ذنب له) عند الله ، وكفى به ولياً ونصيراً .

شجاعة الإمام :

(وذكرت انه ليس لي ولأصحابي عندك إلا السيف الخ) .. معاوية يهدد الإمام بالحرب ، وهو يعلم مكانه فيها ، ويعلم ان معه سيوف الهاشميين والصحابة والتابعين ، وكلهم يتقربون الى الله في حرب معاوية .. ولا أعرف أحداً صوّر شجاعة الإمام وثقته بنفسه كما صوّرها العقاد في كتاب « عبقرية الإسلام » ، قال: « كان الإمام وهو في طفولته ، وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال – يعلم أنه شيء في هذه الدنيا ، وانه قوة لها جوار يركن اليها المستجير .. والدليل على ذلك ان صناديد قريش أحاطوا بالنبي (ص) ينذرونه وينكرونه ، والنبي يقلب طرفه في الوجوه ويسأل عن النصير ولا نصير إلا علي بن أبي طالب ، وهو في العاشرة أو نحوها دون أن يهاب الرؤوس الكبار والشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة .. وعلي في الخمسين أو الستين هو علي يوم كان في تلك السن » .

وما ترك العقاد بعد هذا قولاً لقائل !. ابن العاشرة يقف متفرداً لأكبر الرؤوس، وأصحاب السيوف والجيوش غير هيّاب ولا مكترث، ويقول للنبي (ص): أنا يا رسول الله لهؤلاء الطغاة ، ولن يصلوا اليك ما دمت حياً .. يقول هذا دون أن يعتمد على دولة أو عشيرة أو شيء سوى الثقة بنفسه والاتكال على الله . والنبي يقبل منه ، ويثق به ، ويقول له : أجل ، أنت أخي ونصيري ووزيري. وصدّق الإمام القول بالفعل ، وكان عند ظن الرسول ، بات على فراشه ليلة الهجرة ، وفوّت الفرصة على قريش ، وأطاح رؤوس الكبار منها عن أجسادها

في بدر وأحد والأحزاب .. حتّى استسلمت صاغرة ابتغاء السلامة والعافية .

(وقد عرفت مواقع نصالنا في أخيك) حنظلة (وخالك) الوليد بن عتبة (وجدك) عتبة بن ربيعة في يوم بدر (وأهلك) أتباع أبيك . وتقـدم مثله مع الشرح في الرسالة ١٠ . وكتب بعض الشارحين حول هـذه الرسالة أكثر من ٣٥٠ صفحة .

الرسالة

-٢٨-

الى أهل البصرة :

وَقَدْ كَانَ مِنَ انْتِشَارِ حَبْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَغْبُوا عَنْهُ ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ . فَإِنْ خَطَتْ بِكُمُ الأُمُورُ الْمُرْدِيَةُ ، وَسَفَهُ الآرَاءِ الْجَائِرَةِ إِلَى مُنَابَذَتِي وَخِلاَفِي فَهَا أَنَا ذَا قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي وَرَحَلْتُ رِكَابِي ، وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقْعَةً لاَ يَكُونُ يَوْمُ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلاَّ كَلَعْقَةِ لاَعِقٍ ، مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقَّهُ ، غَيْرَ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَماً إِلَى بَرِيءٍ ، وَلاَ نَاكِثاً إِلَى وَفِيٍّ .

اللغة :

انتشار حبلكم : تفرقكم . وشقاقكم : عداوتكم وخلافكم . وتغْبوا : تغفلوا .

والمردية : المهلكة وسفه الآراء : ضعفها . والجائرة : المائلة عن الحق . والمنابذة : المخالفة . واللعقة : اللحسة .

الإعراب :

ما لم تغبوا « ما » اسم كان ، وغير متجاوز بالنصب حال ، وبالرفع خبر ثانٍ لأني ، ومتّهماً مفعول متجاوز .

المعنى :

(وقد كان من انتشار حبلكم – الى – مقبلكم) . الخطاب لأهل البصرة ، وكانوا قد أعطوا الإمام طاعتهم وولاءهم ، فولى عليهم عثمان بن حيف ، وما ان دخلت أم المؤمنين البصرة بجملها مع طلحة والزبير حتى نكث أكثر أهلها بيعة الإمام ، وأعلنوا عليه الحرب ، ولما انتصر عليهم عفا عنهم ، وعادت المياه الى مجاريها .. ولكن معاوية لا يريد أن تهدأ العاصفة من حول علي ، فأرسل الى البصرة من يحرضها على الفتنة تارة ونقض العهد تارة أخرى .

فأرسل اليهم الإمام هذا الكتاب يذكرهم بما كان منه ، ويهددهم ان عادوا لمثلها بقوله : (فإن خطت بكم الأمور الخ) .. ان عدتم ثانية الى الفساد في الأرض فأنا لكم بالمرصاد ، وملأتها عليكم خيلاً ورجالاً ، وعاملتكم كمن آمن ثم كفر ، ثم آمن ثم كفر ثم ازداد كفراً ، وجعلتكم عبرة (لا يكون الجمل) بالنسبة اليها (الا كلعقة لاعق) . أخذتكم في وقعة الجمل بالرأفة واللين، ولكن ان عدتم الى مثلها فما لكم عندي إلا الشدة والنكال .. وغرض الإمام من هذا التهديد والوعيد مجرد التخويف والوقاية عسى يكفوا عن الفتنة والفساد .

(مع اني عارف لذي الطاعة منكم الخ) .. الشكر والحسنى لمن أطاع منكم، والعصا لمن عصى ، ولا تظلمون فتيلاً . قال ابن أبي الحديد : « يقول الإمام لأهل البصرة : لا آخذ البريء بالسقيم ، والوفي بالناكث . وبعد الإمام قال زياد ابن أبيه لأهل البصرة : والله لآخذن البريء بالسقيم ، والبر باللئيم ، والوالد

بالولد ، والجار بالجار » .. حكمة بالغة أرادها الله في عباده لا يدركها إلا ذو عقل ودين : رفض أهل البصرة العدل وأهله ، فسلط سبحانه عليهم الجور وعتاته.. وهكذا من رفض الرزق الكفـــاف تكابراً وتعالياً يحرمه الخالق الرازق حتى من اليسير . سنّة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

الرسالة

- ٢٩ -

الى معاوية غاية الخسر :

فَاتَّقِ اللهَ فِيمَا لَدَيْكَ ، وَانْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ ، وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لاَ تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلاَماً وَاضِحَةً ، وَسُبُلاً نَيِّرَةً ، وَمَحَجَّةً نَهْجَةً وَغَايَةً مَطْلُوبَةً يَرِدُهَا الأَكْيَاسُ وَيُخَالِفُهَا الأَنْكَاسُ . مَنْ نَكَّبَ عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ وَخَبَطَ فِي التِّيهِ ، وَغَيَّرَ اللهُ نِعْمَتَهُ ، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ . فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ لَكَ سَبِيلَكَ . وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَى غَايَةِ خُسْرٍ وَمَحَلَّةِ كُفْرٍ ، وَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ شَرّاً ، وَأَقْحَمَتْكَ غَيّاً ، وَأَوْرَدَتْكَ الْمَهَالِكَ ، وَأَوْعَرَتْ عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ .

اللغة :

أعلاماً : علامات ودلائل . والمحجة الطريق الواضحة ، ونهجة واضحة .

ومطَّلبة – بتشديد الطاء وفتحها – مطلوبة . والأكياس : العقلاء . والانكاس : ضد العقلاء ، وهم الذين تكثر منهم الأخطاء والأسواء . ونكب : عدل . وخبط : سار بغير هدى . والتيه الضلال . وتناهت الأمور : بلغت غايتها . وأولجتك : أدخلتك . وأقحمتك : رميت بنفسك بلا روية . وأوعرت : صعّبت وضيّقت .

الإعراب :

نفسك نصب على التحذير أي احذر نفسك ، وحيث في محل نصب بفعل محذوف أي قف مكانك .

المعنى :

(فاتق الله فيما لديك الخ) .. يا معاوية من أموال المسلمين ، وفيما أنت متسلط عليه من شؤونهم ومصالحهم ، وهذا حق واجب عليك لله وللأمة (وارجع الى معرفة ما لا تعذر بجهالته) . المراد بالمعرفة هنا الطاعة ، من باب إطلاق المعرفة على الشيء المعروف ، والمعنى دع عنك العمل لتفريق الجماعة ، وارجع الى الطاعة ، وأنت تعلم ان إيقاظ الفتن من أكبر الكبائر ، والله سبحانه لا يقبل منك الاعتذار بالجهل ، لأنك كاذب فيه . قال العقاد في كتاب « معاوية » : انه فرق الأمة شيعاً ، فلا تعرف كيف تتفق .. ولو حاسبه التاريخ حسابه الصحيح لما وصفه بغير مفرّق الجماعة .

(فإن للطاعة أعلاماً واضحة الخ) .. وهي العمل لجمع الشمل ، والتعاون مع الجميع على مصلحة الاسلام والمسلمين .. ولكن هذا يصدر عن الإخلاص وحب الخير ، ولا يتوخاه إلا أهل الوعي والإيمان ، وليس معاوية منهم في شيء ، لأنه ناكب عن الحق ، ضارب في الضلال (فقد بيّن الله لك سبيلك) حرصت على الدنيا وعاجلها،وانصرفت عن الله بعد أن بيّن لك حلاله وحرامه ، وأرشدك الى سواء السبيل (فقد أجريت الى غاية خسر ، ومحلة كفر) . مضيت

في طريق ينتهي بك الى الخسران المبين ، والكفر المشين .

وبعد ، فإن إصرار الإمام على موعظة معاوية لا يخلو من أحد فرضين : إما من باب إلقاء الحجة على معاوية ، وإما للتشهير به وإعلان حقيقته لكل جيل ، كما يفعل اليوم من يملكون وسائل الدعاية والنشر وإلا فإن الإمام يعلم بأن عظاته لمعاوية لا تزيده إلا فراراً واستكباراً

الرسائل

- ٣٠ -

وصية للإمام الحسن:

مِنَ ٱلْوَالِدِ ٱلْفَانِ . ٱلْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ ، ٱلْمُدْبِرِ ٱلْعُمُرِ ، ٱلْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ . الذَّامِّ لِلدُّنْيَا ، ٱلسَّاكِنِ مَسَاكِنَ ٱلْمَوْتَى . وَٱلظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً . إِلَى ٱلْمَوْلُودِ ٱلْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ ، غَرَضِ ٱلْأَسْقَامِ وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ . وَرَمِيَّةِ ٱلْمَصَائِبِ . وَعَبْدِ الدُّنْيَا . وَتَاجِرِ ٱلْغُرُورِ . وَغَرِيمِ ٱلْمَنَايَا . وَأَسِيرِ ٱلْمَوْتِ . وَحَلِيفِ ٱلْهُمُومِ . وَقَرِينِ ٱلْأَحْزَانِ . وَنُصُبِ ٱلْآفَاتِ . وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ ، وَخَلِيفَةِ ٱلْأَمْوَاتِ[1].

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ وَإِقْبَالِ ٱلْآخِرَةِ إِلَيَّ مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ ، وَٱلِاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي ، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي ، فَصَدَفَنِي رَأْيِي وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي فَأَفْضَى

بِي إِلَى جِدٍّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ ، وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ . وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي ، وَكَأَنَّ ٱلْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي ، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ نَفْسِي فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ(٢) .

اللغة :

الرمية : الهدف . ونصب – بضم النون والصاد – أشراك منصوبة للصيد . والجموح : العصيان . ويزعني : يمنعني . وصدفني : صرفني . ومستظهراً : مستعيناً .

الإعراب :

من الوالد متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي هذه وصية من الوالد ، والى المولود متعلق بهذه الوصية ، والفاني وما بعده صفة للوالد ، والمؤمل وما بعده صفة للمولود ، وما يزعني «ما» مفعول تبينت ، غير اني نصب على الاستثناء ، ومستظهراً حال من فاعل كتبت .

صلح الحسن واستشهاد الحسين :

قال الشريف الرضي : كتب أمير المؤمنين هذه الوصية لولده الإمام الحسن بحاضرين عند انصرافه من صفّين . وحاضرين اسم بلدة في نواحي صفّين .

والإمام الحسن هو السبط الأول لرسول الله (ص) ، والمولود البكر لأمير المؤمنين ، والإمام الثاني من أئمة أهل البيت (ع) ورابع أصحاب الكساء ، وأحد ريحانتي النبي ، وسيدي شباب أهل الجنة . وُلد ليلة النصف من رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، وسمّاه رسول الله (ص) حسناً ، وهو أول من سُمي بهذا الاسم ،

وفي صحيح البخاري ومسلم : ان رسول الله قال : اللهــم اني أحب الحسن ، فأحبيه واحبب من يحبه . وتولى الخلافة بعد أبيه أشهراً ، ثم جرى الصلـح بينه وبين معاوية .

وتكلم الناس وأطالوا حول هذا الصلح قديماً وحديثاً ، ومنهم من صوّب ، ومنهم من خطّــأ بخاصة ان معاويـــة نقض الشروط التي أبرمها على نفسه للإمام الحسن (ع) .. روى ابن أبي الحديد ، في أول شرحه لهذه الوصية ، عن المدائني ان معاوية بعد الصلح خطب أهل الكوفـة ، وقال لهم فيما قال : « أترون أنـي قاتلتـكم على الصلاة والزكاة والحج ، وقد علمت انـكم تصلّون وتزكون وتحجون ولكني قاتلتـكم لأتئمر عليكم وعلى رقابكم .. ألا ان كل شرط أشترطه فتحت قدمي هاتين » .

وتكلمنا عن هذا الصلح بنحو من التفصيل في كتاب « الشيعة والحاكمون ». ومجمل القول : إن الذين خطأوا الإمام الحسن في هذا الصلح نظروا الى ما ينبغي أن يكون ، وتجاهلوا الظروف والأحــداث التي أحاطت بالحسن وفرضت نفسها عليه .. اعتمدوا على اللمحة العابرة ، أو النظرية المجردة عن الزمـان والمكان ، وصرفوا النظر عما يعترض تطبيقها من العقبات .

أما قول من قال : كان على الحسن أن يستشهد كما استشهد أخوه الحسين ، فإنما يصح لو أدى استشهاد الحسن الى نفس النتيجة التي أدت اليها تضحية الحسين من إحياء الدين وإعلان حقيقة الأمويين،أما مع اختلاف النتيجة لاختلاف الظروف والمؤثرات – فلا مبرر للقياس . قال العقاد في كتاب «معاوية» : « آلت خلافة الإمام الى ابنه الحسن في معسكر مضطرب بين الخوارج والشيعة والموالي والأتباع الذين لا يعملون عمل الأتباع طائعين،ولا يعملون عمل الرؤساء مقتدرين مضطلعين، وورث الحسن معسكراً لم يطل عليه عهد الولاء لأحد قط ليناضل بـه معسكراً لم يقع فيه خلاف قط » . ومعنى هذا في واقعه ان الحسن لو لم يصالح لقتل بسيوف معسكره لا بسيوف أعدائه ، كما أوضحنا في كتاب « الشيعة والحاكمون » .

والخلاصة أن الحسن أخو الحسين ، وروح أبيه وأخيه بين جنبيه ، وقــد استشهد الحسين لخير الإسلام والمسلمين ، وصالح الحسن للغايـة نفسها ، ودفعــاً للضرر الأشد بالضرر الأخف ، لا رهبة من الموت ، ولا رغبة في الحياة .

المعنى :

(المقر للزمان) بقسوته وشدته (والمستسلم للدنيا) أي الصابر على آفاتها وضرباتها (الى المولود المؤمل الخ) .. المراد بالمولود هنا كل ولد من حيث هو انسان بصرف النظر عن الحسن وغيره من الأفراد ، والقصد النهي عن طول الأمل لأنه يُنسي الآخرة (وعبد الدنيا) خاضع لمنطق الحياة ، والغرائز الحيوانية (وغريم المنايا) مديون للموت الذي يطلب الرحيل من كل حي تماماً كما يطلب الغريم الوفاء بماله من المديون (ونصب الآفات) مصيدة للنكبات والعثرات .

(فإن فيما تبينت من إدبار – الى – ورائي) . ذهب العمر أو أكثره ، ولاقيت من دهري ما لاقيت ، وجاءني الموت مسرعاً ، وهذا بطبيعة الحال يدعوني الى الاهتمام بآخرتي ومصيري ، والانصراف عما عداه (غير اني حيث تفرد الخ) .. وعلى الرغم من اني في هذه اللحظة أهتم بنفسي دون غيرها فقد رأيت رأياً لا هوى فيه ولا شائبة ، وهو أني (وجدتك بعضي ، بل وجدتك كلي) وإذن فالاهتمام بك اهتمام بنفسي ذاتها (حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني الخ).. وهكذا كل والد يرى وجود ولده امتداداً وتكراراً لوجوده، وقرة عين له ما كان ليحظى بها لو لم يوجد .

هذه هي عاطفة الأبوين نحو الولد .. وهي أشبه بالصرعة والجنون – فيما أرى – ولكنها غريزة حيوانية نعوذ بالله من آثامها ، وفي الحديث الشريف : الأولاد يجبّنون ويبخلون . وهذه حقيقة يشعر بها كل والد ووالدة ، أما عاطفة الولد نحو أبويه فالباعث عليها – في الأغلب – مجرد المصلحة، بخاصة أولاد هذا الزمان. قال سبحانه : « ان من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم – ١٤ التغابن». وما قال : ان من آبائكم وأمهاتكم عدواً لكم فاحذروهم .

لا خير في علم لا ينفع .. فقرة ٣ – ٥ :

فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ أَيْ بُنَيَّ وَلُزُومِ أَمْرِهِ ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ ، وَٱلِاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ . وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ إِنْ

أنتَ أخذتَ بهِ . أحيِ قلبكَ بالموعظةِ ، وأمِتْهُ بالزَّهادةِ ، وقوِّهِ باليقينِ ، ونوِّرْهُ بالحكمةِ . وذلِّلْهُ بذكرِ الموتِ ، وقرِّرْهُ بالفناءِ ، وبصِّرْهُ فجائعَ الدُّنيا ، وحذِّرْهُ صولةَ الدهرِ وفحشَ تقلُّبِ اللَّيالي والأيَّامِ ، واعرضْ عليهِ أخبارَ الماضينَ ، وذكِّرْهُ بما أصابَ مَنْ كانَ قبلَكَ مِنَ الأوَّلينَ ، وسِرْ في ديارِهِمْ وآثارِهِمْ فانظرْ فيما فعلوا وعمَّا انتقلوا وأينَ حلُّوا ونزلوا ، فإنَّكَ تجدُهُمْ قدِ انتقلوا عنِ الأحبَّةِ ، وحلُّوا ديارَ الغربةِ ، وكأنَّكَ عنْ قليلٍ قدْ صرتَ كأحدِهِمْ(٣) . فأصلحْ مثواكَ ، ولا تبعْ آخرتَكَ بدنياكَ . ودعِ القولَ فيما لا تعرفُ والخطابَ فيما لمْ تُكلَّفْ . وأمسكْ عنْ طريقٍ إذا خفتَ ضلالَتَهُ فإنَّ الكفَّ عندَ حيرةِ الضَّلالِ خيرٌ مِنْ ركوبِ الأهوالِ . وأمرْ بالمعروفِ تكنْ مِنْ أهلِهِ ، وأنكرِ المنكرَ بيدِكَ ولسانِكَ وبايِنْ مَنْ فعلَهُ بجهدِكَ . وجاهدْ في اللهِ حقَّ جهادِهِ ولا تأخذْكَ في اللهِ لومةُ لائمٍ(٤) . وخُضِ الغمراتِ للحقِّ حيثُ كانَ ، وتفقَّهْ في الدِّينِ ، وعوِّدْ نفسَكَ التَّصبُّرَ على المكروهِ ونِعْمَ الخُلُقُ التَّصبُّرُ . وألجِئْ نفسَكَ في الأمورِ كلِّها إلى إلهكَ فإنَّكَ تُلجئُها إلى كهفٍ حريزٍ ، ومانعٍ عزيزٍ . وأخلصْ في المسألةِ لربِّكَ فإنَّ بيدِهِ العطاءَ والحرمانَ ، وأكثرِ الاستخارةَ وتفهَّمْ وصيَّتي ولا تذهبَنَّ عنها صفحاً

فَإِنَّ خَيْرَ ٱلْقَوْلِ مَا نَفَعَ . وَٱعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ(٥) .

اللغة :

قرره : أطلب منه الإقرار . وبصّره : اجعله بصيراً . والفحش : القبح . ومثواك : محل اقامتك . وباين : باعــد . لا يحق – بكسر الحاء – ليس من الحق في شيء .

الإعراب :

أي بني يا بني ، ان أنت أي ان أخـذت أنت أخذت به ، وتكن مجــزوم بجواب الأمر ، والتصبر مبتدأ ، وجملة نعم الخلق خبر .

المعنى :

كل مضامين هذه الوصية القيّمة الخالدة أو جلّها ، تكــرر مراراً في الخطب السابقة ، ومع هذا نشرح مراد الإمام من كل جملة وحكمة تقديراً لها وتبركـاً بها ، وتيسيراً على القارىء ، ولكن نوجز ولا نطنب ، وقد نتجاوز الواضحات والمكرورات إلا اذا اهتدينا لجديد نضيفه اليها ، أو يزيدها ايضاحاً .

(فإني اوصيك – الى – سبب بينك وبين الله) . ولا يتحقق السبب بين الله وعبده إلا بثلاثة : الأول : الشعور بوجوده ، وانه ينفع ويضر ، ويُنعم وينتقم. الثاني : التوكل عليه والثقة به . الثالث : أن يكون مع الإيمان والتوكل عمــل يرضاه أي ينفع ولا يضر ، وهذه الثلاثة متكافئة متشابكة ، فمن آمن ولم يتوكل أو توكل ولم يعمل انقطع السبب بينه وبين خالقه .

(أحيِ قلبك بالموعظة) وليس المراد بالموعظة مجرد الوصايا العشر وأمثالها ، بل المراد الإتعاظ بالعبر والانتفاع بالتجارب (وأمته بالزهـادة) أي بالإعراض عن

الحرام ، كما قال في مكان آخر : ولا زهد كالزهد في الحرام (وقوه باليقين) وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، وتؤمن بالآخرة كأنك فيها .. وأول ما ينشأ هذا اليقين من التفكير في خلق السموات والأرض ، أو من التربية والبيئة ، ثم ينمو ويقوى بالعمل على مقتضاه (ونوره بالحكمة) فإنها ضالة المؤمن .

(وذلله بذكر الموت ، وقرره بالفناء) . لأن نسيان الموت والفناء يؤدي الى العمى والطغيان .. بل أدى ببعض الغافلين الى ادعاء الربوبية، كالذي قال لابراهيم الخليل (ع) : « أنا أحيي وأميت » وذهل انه عما قريب ينزل الى قبره جثة هامدة (وبصره فجائع الدنيا الخ) .. تكرر هذا مراراً فيما سبق ، ويتلخص بأن على العاقل أن لا يغتر بالدنيا وسلطانها وزينتها ومالها ، فالأوائل أصابوا الكثير من لذاتها ، ثم فارقتهم وفارقوها (فأصلح مثواك) بادخار الحسنات لوقت الحاجة وإلا لحقتك الحسرة والندامة .

(ولا تبع آخرتك بدنياك) . عليك أن تستهين بالنفع العاجل إن كانت مغبته الى سوء ، والتبعة عليه قاسية وشديدة ، فإن خير الأمور ما أمنت من عاقبته ، ومن هنا يصح القول : إن أعلم الناس أعلمهم بالعواقب ، وأعقلهم من نظر اليها ، وعمل بموجبها (ودع القول فيما لا تعرف) . أبداً لا فرق بين من يحارب بلا سلاح ، ومن يتكلم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .. أما حرية التعبير عن الرأي فهي مضمونة لأهل العلم والرأي لا لمن يهرف بما لا يعرف ، ويبادر الى الكلام على ما خطر في قلبه من غير تأمل وتفكير .. حتى العالم يكون سكوته أبلغ وأفضل من كلامه في بعض الأحيان . وتكلمنا عن ذلك في ج ٢ شرح الخطبة ٧٠ فقرة : السكوت .

(والخطاب فيما لم تُكلف) اذا كان غيرك المسؤول فدع التطفل والفضول حتى ولو كنت أهلاً للإجابة،وأعلم ممن سُئل .. وكيف بك اذا قال لك السائل : ما اياك سألت ، أو قال لك المسؤول : ما اياك أعني ؟. (وامسك عن طريق اذا خفت ضلاله الخ) .. لا تدخل في شيء اذا كنت منه على شك ، واستشعر الخشية من المجهول ، ولا تقل أو تفعل إلا مع اليقين بإصابة الموضع ، فإن أخطأت ، والحال هذه ، كنت على عذرك عند الله والناس .. وعلى أية حال إن لم يكن من شيء تكسبه في إحجامك فليس ثمة ما تخسره .

خض الغمرات للحق حيث كان :

(ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وخض الغمرات للحق حيث كان) . أبداً لا هوادة ، ولا تعايش سلمي مع الطغاة الذين مارسوا ويمارسون في ظل هذا التعايش أعنف المعارك ضد المستضعفين . ولا رادع لهم وزاجر فعال ومؤثر من أية قوة في عصرنا..اللهم إلا أن يستميت المظلوم في سبيل حقه..وهل من الضروري أن يعيش الضعيف في صراع دائم مع القوي الطامع ؟ واذن فأين حماة الحق ، وأنصار العدل ؟. وسلام الله على من قال : خض الغمرات للحق حيث كان في روسيا والصين ، أو في روديسيا وفلسطين .. في بيتك أو في بيوت الآخرين .

(وعود نفسك التصبر على المكروه الخ) .. لا تستسلم للباطل وأهله ، ودافع عن الحق وأهله جهد المستطيع ، واصبر على الجهاد مهما كانت الظروف (وألجىء نفسك في أمورك الخ) .. ثق بربك ، وتوكل عليه بقلب خاضع ، وعمل صالح، فإن فعلت كان نصر الله معك أينما كنت (واكثر الاستخارة) ادع الله سبحانه بإخلاص أن يختار لك ما فيه صلاح دينك ودنياك (فإن خير القول ما نفع) ولا خير في شيء لا يترك أثراً ينتفع به الإنسان علماً كان أو عملاً أو عقيدة .

(ولا ينتفع بعلم لا يحق تعلمه) . العلم بطبعه لا يأمر ولا ينهى ، ولا يعنيه شيء من أمر السلوك وأحكامه، وإنما يكشف عن الشيء ومدى تأثيره وعلاقته مع غيره ، أما احكام السلوك فموكولة الى الدين والأخلاق ، والإسلام يحرم استعمال العلم للإضرار بالآخر ، وطلبه للتماري والتباهي ، ويوجب تعليمه ونشره لخدمة الحياة وأمنها والقضاء على الشر والبؤس . أما طلبه لمجرد صقل العقول وجلائها ــ كما كان يقال ــ فلا يأمر به ولا ينهى عنه ، لأنه يكون ، والحال هذه ، تماماً كالنظرة العابرة الى زهرة أو شجرة .

قلب الحدث .. فقرة ٦ ــ ٧ :

أيْ بُنَيَّ إنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً ، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْناً بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إلَيْكَ ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ

أنْ أُفضِيَ إلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي ، وَأَنْ أَنْقُصَ فِي رَأْيِي كَمَا نَقَصْتُ فِي جِسْمِي ، أَوْ يَسْبِقَنِي إلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا ، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ . وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ . فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ(٦) . أَيْ بُنَيَّ إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ . بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ وَمُقْتَبَلُ الدَّهْرِ ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ ، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللهِ وَتَأْوِيلِهِ ، وَشَرَائِعِ الإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، لَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَى غَيْرِهِ . ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ

يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا ٱخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الذِي ٱلْتَبَسَ عَلَيْهِمْ ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذٰلِكَ عَلى مَا كَرِهْتَ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ ٱلْهَلَكَةَ . وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هٰذِهِ(٧) .

اللغة :

بادرتك : عاجلتك : والمؤونة : الثقل والشدة . ونخيله : صفوته. وأجمعت: عزمت وصممت . وأشفقت : خفت .

الإعراب :

وهْناً تمييز ، ونُصبتْ « فتكون كالصعب » للعطف على ان انقص ، و « فتكون قد كفيت » عطف على لتستقبل ، وما قد كفاك « ما » مفعول تستقبل ، والمصدر من أن يكون ذلك مفعول رأيت حيث الخ ، والمصدر من أن يلتبس مجرور بمن محذوفة .

المعنى :

(لما رأيتني) أي رأيت نفسي (قد بلغت سناً) . كتب هذه الوصية بعد أن تجاوز الستين (وأوردت خصالاً منها الخ) .. أي من الوصية ، والمعنى ان الإمام عجّل بهذه الوصية قبل بغتة الأجل ونهايته (أو نقص في رأيي الخ) .. ليس المراد بنقصان الرأي هنا فساد العقل ، بل كل ما يحول بين المرء والتعبير عن رأيه (أو يسبقني اليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا) . الإمام لا يغلبه

الهوى ، ولا تفتنه الدنيا ، وقد طلقها ثلاثاً قولاً وعملاً .. ولكن هذه هي لغة الأولياء والقديسين ، ومن قبله قال رسول الله (ص) : « وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين – ٢٤ سبأ » وقال نوح : « وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين – ٤٧ هود » .

(فتكون كالصعب النفور) أي البعير الصعب الذي ينفر ولا يُمكّن أحداً من ظهره (وانما قلب الحدث كالأرض الخ) .. قال الإمام في أول هذه الوصية: من الوالد .. الى المولود. وقلنا : المراد بالمولود الولد من حيث هو انسان بصرف النظر عن الحسن وغيره من الأفراد ، وقول الإمام : « كالصعب النفور .. وقلب الحدث » قرينة قاطعة على ما قلناه في تفسير المولود ، لأن سن الحسن كانت أكثر من ثلاثين سنة حين أوصى أبوه بهذه الوصية،ولأن الحسن أحد الذين عنتهم الآية ٣٣ من سورة الأحزاب – بالتطهير من الرجس ، وأيضاً هو أحد الذين أرادهم النبي (ص) بحديث الثقلين . وسبق الكلام عن هذا الحديث ، وآية التطهير أكثر من مرة .. هذا ، الى ان الإمام أثنى في العديد من خطبه على أهل البيت ، وأمر باتباعهم ، ومن ذلك قوله في الخطبة الثانية : « عيبة علم الله – أي وعاؤه – وموئل حكمه ، وكهوف كتبه » وقوله في الخطبة ٩٥ : « اتبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى » الى كثير من ذلك .

وأقوال الإمام ينسجم بعضها مع بعض كما تنسجم بمجموعها مع علمه ودينه وأفعاله ، واذا كان قلب الحدث « كالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيء قبلته» كما قال الإمام فإن الحسن كان ، وهو طفل ، في حجر جده رسول الله (ص) يحضر مجلسه ويسمع منه ويحفظ،وقد روى عن جده بعض الأحاديث تناقلها العلماء ودوّنوها في كتبهم ، منهم الترمذي في صحيحه ، والدارمي في سننه ، وأبو نعيم في حليته ، وابن الأثير في أسد الغابة .

(لتستقبل جد رأيك) . جد – بكسر الجيم – أي المحقق ، تقول : فلان عالم جد عالم أي متناه في العلم (ما قد كفاك أهل التجارب الخ) .. أي ان الإمام يزوده بالمعلومات الكافية لاعتداله وكماله في آرائه وأفعاله ، وتغنيه عن التجارب وأتعابها (وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي الخ) .. المعرفة لا تقاس بالموهبة وحدها ، ولا بالعمر المديد ، وإنما تقاس بالرؤية والخبرة ، وكثرة الممارسة،وقد امتدت الحياة بالذين سبقوا الإمام أكثر منه بكثير،ولكن الإمام جرب

ورأى أكثر مما جربوا ورأوا ، هذا الى أنه سبر أحوال الماضين حتى كأنه عاش معهم من يومهم الأول الى آخر يوم .

(فعرفت صفو ذلك – الى – جميله) انتهيت من تجاربي الى معرفة الحياة خيرها وشرّها ، واني أقدم لك صفوتها خالصة من كل شائبة (وصرفت عنك مجهوله) أي المشتبه الذي أشار اليه النبي (ص) بقوله : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك » . (ورأيت حيث عناني الخ) .. هذا دليل آخر نعطفه على الأدلة السابقة الناطقة بأن المراد بالمولود المخاطب هو الولد من حيث هو إنسان،لأن معنى هذه الجملة أردت أن أعلمك القرآن وتفسيره وحلاله وحرامه ، ثم عدلت خشية أن يخفى عليك مكان الصواب في المذاهب والآراء لحداثة سنك ، فاكتفيت بهذه الوصية التي تحتوي على الإيمان بالله وآداب السلوك .

ومنذ قليل أشرنا أن سن الحسن كانت عند هذه الوصية أكثر من ثلاثين عاماً. وإذا كان الإمام الحسن لا يعرف أسرار القرآن وأحكام الشريعة فمن الذي يعرفها؟ ثم ان الإمام أمير المؤمنين حث على التمسك بالقرآن ، والعمل بأمره ونهيه في العديد من خطبه وكلامه ، وفي الخطبة ١٠٨ نص صراحة على تعليم القرآن وتعلمه، وقال : « وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث ، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب».

والخلاصة ان الإمام يوصي بوجه عام أن يُلقن الطفل أولاً أصول الإسلام الضرورية ، ويُمرن على السلوك الشرعي حتى إذا تقدمت به السن تعلم القرآن والشريعة .

ما أكثر ما نجهل ؟ فقرة ٨ – ١٠ :

وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللهِ وَٱلِاقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، وَٱلْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ ، وَٱلصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذٰلِكَ إِلَى الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا . فَإِنْ أَبَتْ

نَفْسَكَ أَنْ تَقْبَلَ ذٰلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذٰلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ ، لاَ بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ وَعُلُوِّ الْخُصُومَاتِ . وَٱبْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذٰلِكَ بِالِاسْتِعَانَةِ بِإِلٰهِكَ وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلاَلَةٍ . فَإِذَا أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذٰلِكَ هَمّاً وَاحِداً فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ . وَإِنْ أَنْتَ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ ، وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ ، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ . وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ ، وَالْإِمْسَاكُ عَنْ ذٰلِكَ أَمْثَلُ(٨) . فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي ، وَٱعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ ، وَأَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعِيدُ ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِي ، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلاَّ عَلَى مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ ، وَٱلِابْتِلاَءِ ، وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لاَ نَعْلَمُ ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ بِهِ فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ خُلِقْتَ جَاهِلاً ثُمَّ عَلِمْتَ . وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ، ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ . فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ(٩) . وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ

عَنِ اللهِ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَارْضَ بِهِ رَائِداً ، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً ، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً . وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ - وَإِنِ اجْتَهَدْتَ - مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ[١٠] .

اللغة :

شائبة : من الشوب أي الخلط . وأولجتك : أدخلتك . وناقة عشواء : ضعيفة البصر . وتتورط : تقع في مكروه . والأمثل : الأفضل . وشفقتك : خوفك . ورائد القوم : يرشدهم الى ما يبتغون .

الإعراب :

أنْ قد صفا الأصل أنه قد صفا ، وما خلقت « ما » مصدرية ، وجاهلاً حال ، ومثله رائداً ، ونصيحة تمييز .

المعنى :

ألّف العقاد كتاب « عبقرية الإمام » ، تحدث فيه عن حياته وأوصافه ، واعتمد في تحديد إسلامه على مقطع من هذه الوصية ، وهو قوله : « واعلم يا بني ان احب ما أنت آخذ به من وصيتي تقوى الله — الى قوله — فانظر فيما فسرت لك » . وبعد أن نقل العقاد هذا قال : يكفي هذا للتعريف بإسلام علي كما ارتضاه لنفسه وأتباعه .. وهو إسلام الرجل أتيح له أن يتتلمذ لربه، ويتربى في حجر نبيّه ، ويصبح إماماً للمقتدين من بعده .

ومعنى الكلام الذي اختاره العقاد : عليك أيها المسلم أو أيها الإنسان أن تنظر وتبحث أولاً وقبل كل شيء عما أنت مسؤول عنه ومكلف به ، فإذا عرفت ما عليك من مصدره ، ومارسته بجدارة ، وأديته بأمانة — فقد حررت نفسك من التبعة والمسؤولية ، وما زاد فهو تفضل منك وإحسان ان كان ممدوحاً ومشكوراً

وإلا فهو تطفل وفضول ، أو هو اثم وجريمة ان أضر بغيرك أو بما عليك من واجبات حيث لا قربة بالنوافل إذا أضرت بالفرائض كما قال الإمام .

ومراد الإمام بالأولين من آباء الإمام الحسن والصالحين من أهل بيته — النبي وعلي وعبد المطلب وأبو طالب ، أما قوله : « فإن أبت نفسك الخ » .. فمعناه عليك أن تكون امتداداً وتكراراً للسلف الصالح، ولا بأس في أن تنظر وتدرس مناهجهم ومفاهيمهم لتكون على بصيرة من أمرك ، شريطة أن تقف من ذلك موقف العالم المخلص للحق المستعين بالله في جميع أموره،فهو يميز بين السليم والسقيم، والشبهة والحقيقة ، بلا تعصب وتعسف .

(وان لم يجتمع لك ما تحب من نفسك الخ) .. إذا توافر لك التجرد للحق والكفاءة العلمية جاز لك الحكم على الأشياء وأن تصوّب وتخطّىء وإلا (فاعلم انك تخبط العشواء) تقول وتتصرف على غير هدى وبصيرة (وليس لطالب الدين) ولا لغيره أن يقول بالجهل (والإمساك عن ذلك أمثل) بل واجب شرعاً وعقلاً .

(واعلم ان مالك الموت الخ) .. الله سبحانه هو المحيي والمميت ، والمبدىء والمعيد ، والمنعم والمنتقم (وان الدنيا لم تكن لتستقر إلا على ما جعلها الله الخ).. ليست الدنيا خيراً كلها أو شراً كلها ، وكل شيء فيها له جهة سلب ، وجهة إيجاب ، هكذا قضت حكمته تعالى ، أو هذه هي طبيعة المادة ، كالماء فيه حياة وغرق ، والنار تحرق الثوب وتنضج الطعام ، والشمس تضيء ، وقد تضرب الإنسان بحرارتها .. والى هذا تشير كلمة « لتستقر » . ولا يجوز لأحد أن يركز على جانب دون جانب ، ولا بد من النظر اليهما معاً ، فما كان خيره أكثر من شره كالشمس والنار فهو خير لا يجوز تركه بحال،قال الإمام جعفر الصادق (ع): ان ترك الخير الكثير لشر قليل فيه شر كثير. وتكلمنا عن ذلك بنحو من التفصيل في كتاب « فلسفة التوحيد والولاية » .

(والجزاء في المعاد) أي انه تعالى جعل الدنيا داراً للعمل ، والآخرة داراً للجزاء . قال الإمام : اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل (أو ما شاء الله مما لا تعلم) يشير الى أن الحكمة الإلهية قد تقتضي الجزاء في الدنيا بنوع من الأنواع ، فقد أغرق سبحانه قوم نوح وفرعون ، وأهلك قوم هود وصالح،

ورب صدقة صغيرة دفعت شراً كبيراً (فإن أشكل عليك شيء من ذلك) وخفي عليك وجه الحكمة في السراء والضراء، والجزاء في المعاد (فاحمله على جهالتك الخ).. لا تنكر ما تجهل ، وأي مخلوق أحاط بكل شيء علماً ؟ ولو قيس ما خفي عن أعلم العلماء الى ما ظهر له — لكانت النسبة بينهما كنسبة النقطة الى مياه البحار ، وحبة الرمل الى جميع الرمال . وقل ربي زدني علماً .

(ان أحداً لم ينبيء عن الله سبحانه الخ) .. لا يعرف التاريخ البشري رسالة كرسالة محمد (ص) في شمولها وعمومها لكل ناحية من حياة الإنسان ، ولكل فرد من أفراده ، فقد خاطبت كل آدمي على أساس الإنسانية العامة ، وانه المسؤول المحاسب عن العدل والاخوة بين الجميع..فنبوة بني إسرائيل أو رسالة بني اسرائيل مقصورة على أنهم شعب الله المختار ، وان الدنيا والمستقبل لهم وحدهم ، وباقي الناس كلهم تراب ، وُجدوا وخُلقوا لخدمتهم ومصالحهم .. ورسالة المسيح أو رسالة المسيحين اقتصرت على الروح،وفكرة المخلّص من الذنوب والفداء والتكفير عن سيئات البشرية جمعاء .. أما رسالة محمد (ص) فقد خاطبت العقل،واعتبرت الفاعل العاقل هو المسؤول وحده عن أفعاله وأقواله ، ونواياه واهدافه .

لا يأمر الله إلا بحسن ولا ينهى إلا عن قبيح .. فقرة ١١ — ١٢ :

وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ ، وَلٰكِنَّهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ . لاَ يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ ، وَلاَ يَزُولُ أَبَداً . وَلَمْ يَزَلْ أَوَّلَ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ ، وَآخِرَ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَايَةٍ . عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ . فَإِذَا عَرَفْتَ ذٰلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ ،

والرَّهبَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ ، والشَّفَقَةِ مِنْ سُخطِهِ . فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إلا بِحَسَنٍ وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ (١١) . يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا ، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الأَمْثَالَ لِتَعْتَبِرَ بِهَا وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا . إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيباً وَجَنَاباً مَرِيعاً ، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ ، وَجُشُوبَةَ المَطْعَمِ لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلَماً ، وَلاَ يَرَوْنَ نَفَقَةً مَغْرَماً ، وَلاَ شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلِّهِمْ . وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلا أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ (١٢) .

اللغة :

سفر – بفتح السين وسكون الفاء – مسافرون . وجديب : ماحل . وأمّوا: قصدوا . والوعثاء : العسر والمشقة . والجشوبة : الغلظة والخشونة . وهجموا عليه : انتهوا اليه بغتة .

الإعراب :

سفر صفة لقوم ، وليأتوا منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك متعلق باحتملوا .

المعنى :

تقدم الكلام عن شريك الباري والأدلة على امتناعه ، وأشار الإمام هنا الى دليلين :

١ — (لو كان لربك شريك لأتتك رسله) مع العلم بأن جميع الأنبياء والمرسلين دعوا الى إله واحد لا ضد له ولا ند .

٢ — (ولرأيت آثار ملكه وسلطانه الخ) .. والآثار كلها تدل على ان المؤثر واحد ، وهي أو منها هذه القوانين الطبيعية الدقيقة التي تحكم أجزاء الطبيعة وظواهرها ، وتجمعها في مجموعة واحدة شاملة تدل على وحدة التدبير والمدبر الواحد .

(ولكنه إله واحد كما وصف نفسه الخ) .. في العديد من الآيات ، ثم في سورة خاصة هي سورة الإخلاص ، وذكر الملاصدرا في شرح « أصول الكافي » لهذه السورة عشرين اسماً ، وقال: إن لها خاصة وامتيازاً على سائر آيات التوحيد، ومما قاله في تفسيرها : إن كلمة « الله » تدل بذاتها على الأحدية بلا حاجة الى أية قرينة ، وانما جيء بكلمة « الأحد » لمجرد التوضيح بأن الله واحد من كل وجه ، وانه منزه عن الحدوث والمادة والكيفات والافتقار الى الغير ، وانه قادر وعالم ، وأبدي أزلي ، والمبدىء الأول لكل موجود ، وبكلمة ان الأحدية منبع الكمال التام من شتى الوجوه .

(فإذا عرفت الخ) .. عظمة الله سبحانه فعليك أن تطيعه بما يليق بجلاله وكماله ، وأن تجعل طاعته أساساً لجميع أعمالك ، وبهذه الطاعة تكون شيئاً مذكوراً وبدونها لست شيئاً على الإطلاق ، لأنه تعالى لا يأمر إلا بما يعود عليك وعلى غيرك بالخير والصلاح ، ولا ينهاك إلا عما يضرك أو يضر بغيرك ، وعلى هذا الأصل الذي ذكره الإمام يصح القول : ان كل أمر فيه خير وصلاح للناس

بجهة من الجهات فهو أمـــر الله بصرف النظـــر عن قائله . ومن وصايا الإمام وحِكمه : أنظر الى القول لا الى من قال . الحكمة ضالة المؤمن ، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق .

(لتعتبر بها ، وتحذو عليها) . ضمير بها وعليهـا يعود للأمثـال ، وتعتبر تتعظ ، وتحذو تقتدي أي تسمع وتعمل ، والمعنى كشفت لك عن حقيقـة الدنيا والآخرة لتؤثر هذه على تلك ، لأن مع الآخرة تعباً قليـلاً ، وسروراً كثيراً ودائماً ، أما الدنيا فمعها سرور قليل ، وعذاب كثير ودائم ، ثم ضرب مثلين لكل من أبناء الآخرة وأبناء الدنيا :

١ – (كمثل قوم سفر الخ) .. هذا مثل لأبناء الآخرة ، ويتلخص بأنهم أشبه بقوم كانوا في سفر ، وكان طريق العودة متعباً وشاقاً ، ولكن منازلهم فيها جميع أسباب الراحة والسكينة ، ويسودها جو من السعادة والهنـاء الذي لا يكدر صفوه شيء .. المناظر رائعة ، والمعيشة واسعة ، والقلوب واحـدة ، والأخلاق منسجمة .. صبروا قليلاً على مشقة الطريق وقسوته أعقبتهـا راحة لا عناء بعدهـا أبداً .. وهكذا أبناء الآخرة زهدوا في الدنيا وتحملوا مرارتها صابرين ، وسرعان ما انتهى كل شيء ، وانتقلوا الى ملك دائم ، ونعيم قائم .

٢ – (ومثل من اغتر بها كمثل قوم الخ) .. هذا مثل لأبناء الدنيا ، وهم على العكس تماماً من أبناء الآخرة ، ينتقلون من نعيم الى جحيم : « متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد – ١٩٧ آل عمران » .

الحب .. فقرة ١٣ – ١٤ :

يَا بُنَيَّ ٱجْعَلْ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، وَٱكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا ، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ . وَٱسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ ، وَٱرْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ . وَلَا تَقُلْ

مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ وَآفَةُ الْأَلْبَابِ . فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ وَلَا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ . وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ(١٣) . وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ . وَأَنَّهُ لَا غِنَى لَكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الِارْتِيَادِ . قَدِّرْ بَلَاغَكَ مِنَ الزَّادِ مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ . فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ فَيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبَالاً عَلَيْكَ . وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ . وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ . وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَؤُوداً ، الْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالاً مِنَ الْمُثْقِلِ ، وَالْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِنَ الْمُسْرِعِ ، وَأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لَا مَحَالَةَ عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ . فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ ، وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ(١٤) .

اللغة :

الآفة : المرض . والألباب : العقول . وقصدك : رشدك . والارتياد : الطلب.

وبلاغك : كفايتك . والوبال : الهلاك . والكؤود : الصعب . والمخف : خفيف الحمل . ومستعتب : استرضاء .

الإعراب :

فاغتنمه جواب اذا وجدت . وحالاً تمييز . وفي بعض النسخ إما على جنة أو على نار ، وفي بعضها على جنة بدون « إما » وهي الصواب لأن « إما » في هذا المورد يجب تكرارها ، وان يقال : إما وإما ، ولا يجوز إما و « أو » .

المعنى :

(فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك الـخ) .. هذه الموعظة أو الوصية شائعة وقديمة ، يرجع تاريخها الى ما قبل الميلاد بقرون ، وتجدها بعبارات شتى في الأديان ما عدا اليهودية — فيما أعلم — وروي ان أحد تلامذة كونفوشيوس — وُلد عام ٥٥١ — وجّه اليه هذا السؤال : هل من كلمة واحدة تكون قاعدة لعمل الانسان طيلة حياته ؟. فقال : « لا تصنع بالآخرين ما لا تريدهم أن يصنعوا بك » . وهذا تعبير ثانٍ عن « أحبب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها » .

ولا نعرف أول من نطق بهذه الكلمة الذهبية .. وأياً كان فهي لجميع الناس، لأن الحب معناه الأخوة والانسانية والتكافل والتضامن والقوة والنجاح ، وبالحب تستقيم الحياة ، ولا معنى لحياة بلا حب ، وأيضاً لا معنى للكراهية إلا الحرب والشقاق والفشل والتخلف ، وصدق من قال : الحب مصدر الخير والفضائل ، ولولاه ما انتظمت حياة الأسرة ، ولا قام للمجتمع بناء . وقال آخر : إن الله خلقنا لنحب . وقال برتراند راسل : ألخص مذهبي في الأخلاق بهذه الكلمة : « الحياة الخيرية يوحي بها الحب ، وتهديها المعرفة » . ومعنى هذا ان كل واجب أو محرم من أفعال الانسان وسلوكه ، يرتكز على نظرية الحب ، وان الذي يعتدي على حقوق الناس ، ويعاملهم بما يكرهه لنفسه هو وحش كاسر وعدو الانسانية اللدود .

(ولا تقل ما لا تعلم) تقدم مثله مع الشرح في الفقرة ٣ من هـذه الوصية بالذات (وان قل ما تعلم) أي حتى ولو قيل عنك : لا علم له ، أو هو قليل الحظ من العلم (واعلم ان الإعجاب ضد الصواب الخ) .. أبداً لا فرق بين السكران والمعجب بنفسه ، فالخمر يذهب بالعقول والألباب ، وكذلك الإعجاب والعاقل يفر منهما كما يفر من المجنون (فاسع في كدحك) إعمل وناضل ، ولا تعش كلاً على غيرك فالبطالة آفة الحياة ، ولا قيمة للإنسان إلا بعمله ، وخير الناس من عاش حاملاً لا محمولاً ، ولولا السير المتواصل في مراحل العمل لبقي الإنسان الى يومه الأخير كوحش الغاب ..

(ولا تكن خازناً لغيرك) اذا زاد ما تنتج عما تستهلك فأغث به ملهوفاً ، وسد به حاجة محتاج (وإذا أنت هديت لقصدك الخ) .. اذا أُتيحت لك الفرصة للكدح والسعي فاشكر الله على ذلك ، واستقم في أقوالك وأفعالك ، لأن التحرر من البطالة نعمة كبرى يجب أن تقابلها بالشكر والإخلاص (ان أمامك طريقاً ذا مسافة الخ) .. المراد بالطريق هنا الدنيا لأنها دار ممر ، أما بُعد الطريق ومشقتها فكناية عن صعوبة الوقاية من أوباء الدنيا وأوزارها ، والمعنى لا غنى لمن يعيش في الحياة الدنيا عن الصبر على البلوى ، والتزود بالتقوى (مع خفة الظهر) من الذنوب (فلا تحملن على ظهرك) أثقالاً ترديك وتخزيك .

(وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك الخ) .. ان الزاد الذي يقيك عذاب الحريق يوم القيامة ــ ليس من نوع العلم والبلاغة ، ولا من التسبيح والتهليل ، أو من نوع المال والجمال ، والجاه والأنساب .. كلا ، انه شيء آخر لا يحمله المسافر الى الله بنفسه ، بل يُحمّله لغيره ، فيتمتع به حامله في الحياة الدنيا ، ويفتدي به صاحبه غداً من غضب الله وعقابه . قال الإمام : بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد . ولك أن تعطف عليه : نعم الزاد الى المعاد الإحسان الى العباد .

(واغتنم من استقرضك الخ) .. يأخذ منك الفقير في الدنيا ما أنت في غنى عنه ، ويرده الله اليك أضعافاً يوم القيامة ، وأنت في أشد الحاجة الى بعضه . وروى ابن أبي الحديد هنا أن قوماً قالوا لحاتم الأصم : اقرأ لنا شيئاً من القرآن. فقرأ: ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون

الصلاة ومما رزقناهم يكنزون . فقالوا: أيها الشيخ ما أُنزل هكذا . قال: صدقتم ، ولكن هكذا أنتم .

(ان أمامك عقبة الخ) .. والمراد بها الأعمال الصالحة ، لأنها تحتاج الى جهد وصبر ، والمراد بالمخف من لا يحمل الأوزار والأقذار ، وبالمبطىء من يتباطأ عن عمل الخيرات ، والمراد بالأقبح مجرد القبح من غير تفاضل حيث لا قبح اطلاقاً في الإسراع الى مرضاة الله ومغفرته (وان مهبطك بها لا محالة على جنة) ان عملت لها عملها (أو على نار) ان اعتديت وعصيت (فارتد لنفسك الخ).. اختر لها سبيل النجاة (ووطىء المنزل الخ) .. هيىء لراحتك وهنائك (فليس بعد الموت مستعتب) لا سبيل بعد الموت الى طلب الرضاء والعفو (ولا الى الدنيا منصرف) كي تعمل وتستدرك .

والخلاصة ان الإنسان لا يصيب الهدف إلا بالجهاد والصبر والتضحية ، وانه لا قرابة ولا علاقة بين الله وبين أحد من خلقه إلا العمل الصالح النافع .

الدعاء .. فقرة ١٥ – ١٦ :

وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُهُ عَنْكَ ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ . بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً ، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً ، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً ، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ .

فإذا ناديته سمع نداءك ، وإذا ناجيته علم نجواك[15] . فأفضيت إليه بحاجتك ، وأبثثته ذات نفسك ، وشكوت إليه همومك ، واستكشفته كروبك ، واستعنته على أمورك ، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائه غيره من زيادة الأعمار وصحة الأبدان وسعة الأرزاق . ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك من مسألته ، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته ، واستمطرت شآبيب رحمته . فلا يقنطنك إبطاء إجابته ، فإن العطية على قدر النية . وربما أخرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل وأجزل لعطاء الآمل . وربما سألت الشيء فلا تؤتاه وأوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً ، أو صرف عنك لما هو خير لك . فلرب أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته . فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله وينفى عنك وباله . فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له[16]

اللغة :

الإنابة : الرجوع ، ومثلها النزوع . والنجوى : حديث السر . وأفضيت : ألقيت . وأبثثت : كاشفت . وشآبيب : دفعات من المطر . والقنوط : اليأس .

الإعراب :

المصدر من أن تسأله مجرور بالباء المحذوفة ، وعاجلاً أو آجلاً نصب على ظرف المكان بمعنى في الدنيا أو في الآخرة ، أو ظرف الزمان بمعنى الآن أو الغد.

لماذا الدعاء ؟

(قد أذن لك في الدعاء وتكفل الخ) .. أمر سبحانه عباده أن يدعوه ويسألوه، وهو يستجيب لطلب التوبة والمغفرة مع الإخلاص ، ما في ذلك ريب ، وأيضاً يستجيب لغيرها ، ولكن على شرطه هو لا على شرط الداعي والسائل .. ومن يدري ان طلبه تعالى الدعاء من عباده قد يكون لمجرد الاختبار والامتحان لإيمانهم ، وانهم هل يستمرون ويثبتون على الثقة بخالقهم اذا فاتهم ما طلبوا وأبطأ عليهم ما سألوا ؟. الله أعلم . وعلى أية حال فإن أفضل الدعاء على الاطلاق «ترك الذنوب» .

(ولم يلجئك الى من يشفع لك اليه) . هذا هو الاسلام : يضع الانسان أمام خالقه دون حجاب وترجمان ، ووساطات روحية أو مادية .. أبداً لا بيع أذرع في الجنة ، ولا صكوك غفران ، وبراءة وحرمان (ولم يمنعك إن أسأت من التوبة) . لا يطرد أحداً عن بابه مسيئاً كان أم محسناً (ولم يعاجلك بالنقمة) عسى أن تعود الى رشدك (ولم يعيرك بالإنابة) ويقول لك : عدت إلي صاغراً ليريك انه أعلى منك وأرفع .. حاشا .

(ولم يفضحك حيث الفضيحة بك أولى) لأنك اقترفتها متعمداً . وقال عارف بالله : لقد ستر حتى كأنه قد غفر (ولم يشدد عليك في قبول الإنابة الخ) .: لا يحاسب المذنب التائب على ما سلف ، ويقرعه ويعدد له السيئات ، ويذكره بإنعامه عليه وأفضاله ، كما نفعل نحن .. كلا ، إن من تاب من الذنب كمن لا ذنب له عند الله (وحسب سيئتك واحدة) ويستحيل أن يزيد عليها شيئاً لعدله ، ويجوز أن يعفو لكرمه (وجعل حسنتك عشراً) تفضلاً وإحساناً .

(وفتح لك باب المتاب) . لأن الانسان قابل للخطأ بطبعه ، والتوبة تنقذه من الإصرار على الرذيلة ، واذن فرفض التوبة ظلم وجور . وبكلام آخر ان الله

سبحانه خلق العبد وأمره ونهاه ، فوجب بمنطق العدل ، والحال هذه ، أن يقبل منه الإنابة اذا أذنب وأخطأ .

هل الدعاء مفتاح الرزق ؟

(ثم جعل في يديك مفتاح خزائنه الخ) .. يدل هذا بظاهره على ان الدعاء يحقق للداعي ما يشاء من الرزق .. وأهل العلم يأخذون بظاهر الكلام حتى تقوم القرينة على عكسه . وقد نطق الإمام بهذه القرينـــة المعاكسة ، وذلك حيث قال بلا فاصل: (فلا يقنطنك إبطاء إجابته،فإن العطية على قدر النية) أي انه قد لا يستجيب لأن الداعي ليس أهلاً لذلك ، لأمر الله به أعلم (وربما أخرت عنك الإجابة الخ) .. أو ان الداعي أهلٌ ومحل ، ولكن المصلحـــة توجب التأخير ، فعليه أن يصبر ولا ييأس ، بل ويزداد من الدعاء . وبكلمة ، ان الله يستجيب ويحقق في الوقت الذي يراه هو ، جلت حكمته ، لا في الوقت الذي يريده العبد لنفسه .

(وربما سألت الشيء فلا تؤتاه الخ) .. قد يرى الانسان أن هـذا الشيء في خيره ومصلحته ، فيدعو الله ، ويطلبه منه ، وهو في واقعه شر محض ، والله أعلم من الإنسان بما يصلحه ويفسده ، فيصرف عنه ما سأل ، ويعطيه خيراً منـه وأفضل .. وقد حدث معي هذا بالذات .. كنت رئيساً للمحكمة العليا سنوات ، ثم ثار عـــليّ الزعماء والقادة ، ونحّوني عن الرئاسة ، لأني رفضت النزول على أهوائهم . فكان الخير لي كل الخير في ذلك حيث أنتجت ما أنتجت . ولله الحمد .. نظرت اليه تعالى حين أغضبت الكبار من المخلوقين ، فنظـــر إليّ سبحانه بما لم يخطر لي في بال .. ولا أدري كيف ؟ وبماذا أشكره ؟ ومنه وحده أطلب العفو عن التقصير في كل شيء .

خلقت للآخرة لا للدنيا .. فقرة ١٧ — ١٨ :

وَٱعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَـــا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا ، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ ،

وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ ، وَأَنَّكَ فِي مَنْزِلِ قُلْعَةٍ وَدَارِ بُلْغَةٍ ، وَطَرِيقٍ إِلَى الْآخِرَةِ ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ ، فَكُنْ مِنْـهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذٰلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ(١٧) . يَا بُنَيَّ أَكْثِرْ مِـنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَذِكْرِ مَـا تَهْجُمُ عَلَيْهِ وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَـدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ ، وَلَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَـا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا ، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا ، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا ، وَنَعَتْ لَكَ نَفْسَهَا ، وَتَكَشَّفَتْ لَـكَ عَنْ مَسَاوِيهَا ، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ ، يَهِـرُّ بَعْضُهَا بَعْضاً ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَـا ، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا . نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا ، سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ . لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا ، وَلَا مُقِيمٌ يُسِيمُهَا . سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى ، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا ، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا ، وَاتَّخَذُوهَا رَبّاً فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا(١٨) .

اللغة :

القُلْعة : الرحلة . والبلغـة : الكفاية . والأزر : القوة « اشدد به أزري ٣١ طـه » . ويبهرك : يدهشك ويحيرك . ويهر : يكره ويمقت . ومعقلة : مقيدة . سُروح عاهة : يسرحون في الفساد والضلال . والمسيم : الراعي .

الإعراب :

المصدر من أنه مدركه مجرور بمن محذوفة أي لابد من إدراكه ، فـإذا أنت « اذا » فجائية ، ونَعم خبر مبتدأ محذوف أي هم أو أهل الدنيـا نَعم ، وكذا سروح .

لماذا خلق الانسان ؟

(واعلم يا بني انك خلقت للآخرة لا للدنيا الخ) .. كل الناس أو جلّهم، وبخاصة الذين يعانون آلام الحياة – يتساءلون : لماذا خلق الانسان ؟ وقال قائل: ان الله خلقنا للحب . وقال آخر : بل لنركع له ونسجد . وقال ثالث : لنعمل في الأرض ، ونتقن العمل . وقال الإمام : خلق الله الإنسان ليعمل في دنيـاه عملاً صالحاً ينتفع به في آخرته . فالدنيا وسيلة ، والآخرة هي الغاية . ويتفق هذا مع القرآن الكريم: « ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب – ٤٠ غافر » . أما قوله تعالى : « وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون – ٥٦ الذاريات » . فإن المراد العمل الصالح النافع ، لأنه أفضل من عامة الصلاة والصيام ، كما في الحديث الشريف . وقال سبحانه: « واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض – ١٧ الرعد » . وتقـدم الكلام عن ذلك مراراً .

(فكن منه) أي من الموت (على حذر) لأنه اذا جاء لا يؤخرك ثانية ، فاستعد له من الآن ، وقبل أن تُحمل الى قبر ساكن مظـلم (يا بُني أكثر من ذكر الموت الخ) .. فإن ذكرت وتصورت انك ميت لا محالة أخـذ الخشوع

بمجامع قلبك ، ودفع بك الى الاعتصام بخالقك ، والعمل لآخرتك (واياك أن تغتّر بما ترى من إخلاد أهل الدنيا اليها الخ) .. مالك وللدنيا وأبنائها ؟. انهـا جيفة وأهلها كلاب (فقد أنبأك الله عنها) بقوله : « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتّى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس — ٢٤ يونس » .

(ونعت لك نفسها ، وتكشفت لك عن مساويها) بموت السابقين من أهلها بلا رجعة ، وأنت حلقة من هذه السلسلة ، وكذلك من يأتي بعدك حتّى النهاية ، وما الى الفرار من سبيل . وقال الإمام لمن ذم الدنيا : متى غرتك ؟ أبمصارع آبائك من البلى ، أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى ؟. (وانما أهلها كلاب عاوية الخ) .. وهنا مكان العجب ، الموت يتخطف أهل الدنيا من كل جانب ، وهم على يقين بأنهم ميتون لا محالة ، ومع هذا نراهم في تناحر وصراع دائم على الحطام والحرام .

الإمام يقسم الناس الى قوي وضعيف :

(ويأكل عزيزها ذليلها ، ويقهر كبيرها صغيرها) . كل الأقوياء جبارون مستغلون ،لا يعرفون الحب والخير والعدل ،ولا يقرون بشيء من الحق إلا من شذ.. وما الضعيف عندهم إلا حشرة أو بعوضة !.. ولا علاج لهذا الداء إلا بأحد فرضين : الأول المساواة بين جميع الناس ذكوراً واناثاً ورجالاً وأطفالاً ، وتكافؤهم في كل شيء حتّى في قوة العضلات .. وهذا ممتنع وتأباه سنن الكون والطبيعة .

الثاني : القوة الرادعة العادلة ، وهذا ممكن ومعقول .. ولكن مركز القيادة — في الغالب — يحتكره أرباب القوة والثروة قديماً وحديثاً من العرف القبلي الى النظام الجمهوري ، وهنا يكمن السر في تقسيم المجتمعات الى فئة عليا تملك كل شيء ، وفئة مضطهدة ليس لها من الأمر شيء .. والى هذا التقسيم أشار الإمام بقوله : « يأكل عزيزها ذليلها : ويقهر كبيرها صغيرها » . ومثله ما جاء في الخطبة ١٢٧ : « اضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً ، أو غنياً بدل نعمة الله كفراً » .

(نعم معقّلة) أي أنعام مقيدة مكبلة ، والمراد بها الضعفاء ، كما قال الشيخ محمد عبده ، وهم لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلاً إلا سبيل الاستماتة من أجل تحريرهم وحياتهم ، وهل من الضروري لمن يريد الحياة أن يكون دائم الجهاد ضد الطغاة متفرغاً لحربهم ونضالهم ؟ (وأخرى مهملة قد أضلت عقولها، وركبت مجهولها) وهي الفئة القوية الثرية تسرح في الفساد والضلال (سلكت بهم الدنيا طريق العمى ، وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى ، فتاهوا في حيرتها ، وغرقوا في نعيمها ، واتخذوها رباً ، فلعبت بهم ولعبوا بها ، ونسوا ما وراءها). وينطبق هذا تماماً على الذين يسيطرون ويتحكمون بالثروات ووسائل الإعلام ، ينشرون الفساد بين الأجيال، وينتجون أسلحة الدمار للاعتداء على الشعوب الآمنة ينتهبون ويقتلون ويشردون .

وبالمناسبة قرأت في جريدة « الأهرام المصرية » تاريخ ١ – ١٢ – ١٩٧٢ : « ان الكونجرس الأمريكي أقر اعتماداً بـ ١٠٥ مليارات من الدولارات ، لبناء غواصات وقاذفات نووية جديدة » ! لمن هذا السلاح المدمر؟ألنصرة الحق والعدل، وإنصاف الضعيف من القوي ، وردع الوحوش الكاسرة ، أم للاعتداء على المستضعفين ، ودعم الصهاينة في فلسطين ، ولكل عميل وخائن في شرق الأرض وغربها ؟ ولماذا لا تُنفق هذه المليارات على خدمة الحياة وسد حاجاتها ؟ ولكن أربابها لا يريدون أن تنخفض الأسعار،فيبتسم لها وللأمن المعذبون في الأرض .. أبداً لا هدف لساسة التخويف بالحرب ، وتحويل الصناعة اليها الا ان يتحكموا بالأقوات والأسواق ، وان يخيم الرعب واليأس على كل قلب ومهد كي يخضع لأمرهم صاغراً ، ولا يسألهم سائل عما يفعلون ويفسدون .. وكأن الإمام ينظر اليهم : ويعنيهم بقوله : « أتخذوها ربا ، فلعبت بهم ولعبوا بها ، ونسوا ما وراءها) أي ما وراء دنيا الطغاة العتاة من خراب ودمار وحساب وعقاب « ان ربك لبالمرصاد » للذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها القبور والدموع والثكل واليتم واليؤس والتشريد .

أكرم نفسك .. فقرة ١٩ – ٢٠ :

رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلاَمُ . كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ . يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ

أَنْ يَلْحَقَ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً ، وَيَقْطَعُ المَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً . وَٱعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ وَلَنْ تَعْدُو أَجَلَكَ ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ . فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ ، وَأَجْمِلْ فِي المُكْتَسَبِ فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَبٍ . فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ ، وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً ، وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرًّا . وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ ، وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ(١٩) . وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الهَلَكَةِ . وَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ . فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قِسْمَكَ وَآخِذٌ سَهْمَكَ . وَإِنَّ ٱلْيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ ٱلْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ . وَتَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ ، وَحِفْظُ مَا فِي ٱلْوِعَاءِ بِشَدِّ ٱلْوِكَاءِ . وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدِ غَيْرِكَ . وَمَرَارَةُ ٱلْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ . وَالحِرْفَةُ مَعَ ٱلعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ ٱلْغِنَى مَعَ ٱلْفُجُورِ . وَالمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ . وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ . مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ . وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ(٢٠) .

اللغة :

رويداً : مهلاً . ويسفر : يكشف . والأظعان : جمع الظعينة أي الهودج . ووادعاً : ساكناً . وحرب - بفتح الحاء والراء - سلب المال . وتوجف : تسرع . وتلافيك : تداركك . وفرط : ذهب وفات . والوكاء : الرباط . والمراد بالحرفة هنا الحرمان أو الضيق في الرزق . وأهجر : تكلم بالهذيان .

الإعراب :

لرويد أربعة أوجه : الأول اسم فعل مثل رويدَ زيداً أي أمهل زيداً ، الثاني صفة مثل سار القوم سيراً رويداً أي خفيفاً أو بطيئاً ، الثالث حال إذا وقع بعد المعرفة مثل سار القوم رويداً ، والرابع النصب على المصدر مثل رويداً ، ورويد زيد بالإضافة ، وكأن قد مخففة أي كأنه قد ، ويقيناً مفعول مطلق من غير لفظه ، ورب حرف جر ، ولا يتعلق مجرورها بشيء لأنها زائدة في الإعراب دون المعنى على حد تعبير النحاة ، وطلب في محل رفع بالابتداء ، وإياك مفعول لفعل محذوف ، والأصل احذرك ، ولما حذف الفعل انفصل الضمير .

المعنى :

(رويداً يسفر الظلام الخ) .. لا شيء أقرب الى الانسان من الموت ، ومن تخطاه الآن أتاه غداً أو بعد غد ، وحينذاك تنكشف الحقيقة للغافلين ، وتتملكهم الحسرة والندامة (ان من كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به الخ) .. كل إنسان مسافر الى قبر ساكن مظلم ، والدنيا طريقه اليه ، والليل والنهار مطيته ، ومعنى هذا أنه سائر وان كان نائماً على فراشه ، ومعناه أيضاً ان الموت يأخذ من عمره يوماً فيوماً منذ ولادته حتى النفس الأخير ، ومما قرأته في هذا الباب : « الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما » .

(واعلم يقيناً انك لن تبلغ أملك الخ) .. لأنه لا حد لنهم الإنسان وآماله الجائعة ، ولو ملك الكون بكامله لتمنى كوناً ثانياً وثالثاً الى ما لا نهاية (فخفض

في الطلب الخ) .. اطلب الرزق واسع اليه على أن تحفظ التوازن الواجب بين آخرتك ودنياك ، كما قال سبحانه : «المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً — ٤٦ الكهف » . (رب طلب قد جر الى حرب) . قد لا ترضى بما يكفيك من الرزق ، وهو بين يديك ، فتكدح طلباً للمزيد والادخار .. وتأتي النتيجة بعكس ما أردت حيث تخسر ما كنت تملك من طعام وغذاء ، وتقعد مذموماً مخذولاً .

(فليس كل طالب بمرزوق) . لا ينزل الغذاء من السماء .. انه في بطن الأرض ، وعلينا أن نشقها بالجهد والعرق على أن نتوكل على الله ، ونسأله التوفيق ، لأن الكون بما فيه في قبضته ، يهب ويمنع حتى مع الكد والعرق إن شاء ، ولا يشاء إلا لحكمة (ولا كل مجمل بمحروم) . المراد بالمجمل المعتدل ، والمعنى قد يكون الغنى بالاعتدال في السعي بلا إفراط وتفريط ، وقد يكون الفقر بالإفراط بالكد والسعي ، والسر هو أن نعلم بأن وراء كل شيء قضاء وتدبيراً ، وان السعي وحده ليس بالسبب التام ، ولا التوكل هو المؤثر دون غيره ، وان كلاً منهما جزء متمم للآخر .

(وأكرم نفسك — الى قوله — عوضاً) لا تطلب المال من كل سبيل ، وتقف من أجله مواقف الهوان فإن الكرامة لا تباع بثمن ، ومن خسر كرامته فقد خسر نفسه .. ولكن كثيراً من الناس لا يرون الكرامة إلا في المال حتى ولو حصل بطريق العهر والخيانة (ولا تكن عبد غيرك ، وقد جعلك الله حراً) . هذا تفسير وبيان لقوله : « أكرم نفسك » لأن الكرامة والحرية شيء واحد ، ينبع من ذات الانسان ، وما هو بهبة من مخلوق ، أو كسب بكد اليمين .. وعلى المرء أن يستميت من أجل حريته وكرامته .

وتجدر الإشارة الى ان الحرية التي عناها الإمام ليس معناها أن يعمل الانسان ما يشتهي وما يريد دون أن ينظر الى الظروف المحيطة به والمجتمع الذي يعيش فيه ، وانما أراد حرية الناس مجتمعين يعيشون ويعملون يداً واحدة لصالح الجميع ، وعلى كل فرد أن يمارس حريته في هذا النطاق ، فإن تعداه فقد استهان بحريته بملء إرادته ، وجعل السبيل عليه للقوة الرادعة العادلة .

(وما خير خيرٍ لا يُنال إلا بشرّ) . «ما» هنا استفهام لفظاً ، وإنكار

محتوىً ، والمعنى كل شيء يحرُم فعله فالآثار المترتبة عليه حرام — مثلاً — لا مهر لعاهر لأن الزنا حرام ، ولا نيابة لمزور لأن التزوير حرام ، ولا حكم لمرتشٍ لأن الرشوة حرام . وبكلمة ، إن الغاية لا تبرر الواسطة إلا ضمن القانون والنظـام (ويسر لا ينال إلا بعسر) — مثلاً — الغنى يسر ، والفقـر عسر ، ولكن لا يُزال هذا العسر بما أشد منه عسراً وقبحاً كالسرقة والخيانة ، والمذلة والمهانة .

(وإياك أن توجف بك مطايا الطمع الخ) .. انه شرهٌ ونهم ، وعاقبته الوبال والخسران . وفي بعض الروايات : الطمع خمر الشيطان لا يصحو شاربه إلا في نار جهنم (وان استطعت أن لا يكون الخ) .. من الخير أن تتعاون مـع أخيك الانسان على المصلحة المتبادلة بينكما على أساس العدل والمساواة ، أما أن يكون هو الغني عنك ، وأنت الفقير اليه فالأفضل أن تتركه وشأنه ، وتسعى جهدك متوكلاً على الله ، فإن المؤمن الحق لا يطلب العون إلا من خالقه ، ولا يقبل إلا فضله وإحسانه ، ولا ينظر الى ما في أيدي الناس .

(فإنك مـدرك قسمك ، وآخـذ سهمك) من خالقك ،بلا نقصان وواسطة مخلوق مثلك ، واذن فمن السخافة أن تقبل الهوان من غيرك لأجل الرزق .. بل خير لك وأفضل أن تصبر وتتجرع المرارة على أن تتحمل المنـة من غير رازق العباد (وان اليسير من الله سبحانه أعظم وأكرم من الكثير من خلقـه) . أجل والله ان قليله عظيم وكثير بخيراته وبركاته ، وكثير غيره صغـير وحقير بالقياس الى يسيره تعالى ، وإن كان الكون بمـا فيه لله ومن الله ، ولكن لوساطة العبد منغصات لا يطيقها أبيٌّ كريم . وقال الشيخ محمد عبده : « ليس أفعل في النفس من هذا الكلام الذي يكاد من قوته وإصابته الحق يقطع القارىء المؤمن لفوره عن الدنيا » .

(وتلافيك ما فرط من صمتك الخ) .. لا غبن ولا عيب عليك فيما فاتك من الكلام ، لأن الساكت يمكنه أن يستدرك ، ويقضي ما فات كما فات ، أما زلل اللسان فيصعب تلافيه كالماء يُراق من الإناء على الأرض يتعذر رده ويستحيـل (وحفظ ما في يدك أحبُّ إليّ من طلب ما في يد غـيرك) ان ترقيـع الثوب الخلق ، والقناعة بالكفاف أفضل من الاستقراض وأخذ أوساخ النـاس (ومرارة اليأس الخ) .. القناعة كنز وغنى ، واليأس مما في أيدي المخلوقين عزة وكرامة ،

وجرأة في قول الحق وإعلانه ، ومن التجأ الى الله يائساً من سواه أكرمه وأعطاه. أقولها بجزم ويقين ، وعن تجربة ووجدان. ومن أقوال الإمام : الغنى الأكبر اليأس مما في أيدي الناس .

(والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور) . العسر مع النزاهة والإباء خير من اليسر مع الحرام والخساسة (والمرء أحفظ لسره) ومن ضاق بسره ذرعاً فلا يلومنّ من أطلقه وأفشاه . قال الإمام : من كتم سره كانت الخيرة بيده (ورب ساع فيما يضره) . ورُبّ هنا للتكثير لا للتقليل اذا أردنا بالضرر ما يشمل حساب الآخرة وعقابها . وقال الحكماء : لا خير في ظفر يصاب بضرر (من أكثر أهجر) . للقول ساعات ومقدار معين ، فمن تعداه وقع في اللغو والخطأ . قال الإمام : من كثر كلامه كثر خطأه (ومن تفكر أبصر) وخرج من ظلمات الجهل الى نور المعرفة ، ومن عمل وأقدم بلا تفكير خبط في التيه .

ربما كان الدواء داء .. فقرة ٢١ — ٢٢ :

قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ . وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ . بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ . وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ . إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً كَانَ الْخُرْقُ رِفْقاً . رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً وَالدَّاءُ دَوَاءً . وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ . وَإِيَّاكَ وَاتِّكَالَكَ عَلَى الْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ الْمَوْتَى ، وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ . وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ (٢١) . بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً . لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يَؤُوبُ . وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ . وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ . سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ . التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ . وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ . لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ ،

وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ . سَاهِلِ الدَّهْــرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ . وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ[٢٢] .

اللغة :

الخرق – بفتح الخاء – الثقب ، وبكسرها الفتى الظريف الكريم ، وبضمها – كما هنا – العنف والشدة ، وأيضاً الجهل والحمق . والمستنصح بالفتح المطلوب منه أن ينصح . وظنين : متهم . وقعود : من الإبل . واللجاج : التمادي في الخصومة .

الإعراب :

تكن مجزوم بجواب الأمر ، وإياك مفعول لفعل محذوف ، والأصل أحذرك ، وما ذلّ « ما » مصدرية ، ورجاء مفعول من أجله لتخاطر ، وأكثر لا ينصرف للصفة ووزن الفعل .

المعنى :

(قارن أهل الخير) ابذل من نفسك ومالك لنصرة الحق ، وإبطال الباطل كما فعل ويفعل المناضلون الأحرار (تكن منهم) قولاً وعملاً (وباين أهل الشر) بإعلان الثورة عليهم وجهادهم بكل ما تستطيع (تبن عنهم) . أمـا أن تعتزل إيثاراً للسلامة ، وطلباً للراحة،وتعتكف في المحراب ، أما إن فعلت هذا – فأنت شيطان أخرس ، كما قال الرسول الأعظم،وأيضاً قال : من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم. (وبئس الطعام الحرام) وأي شيء أكثر جرماً وأعظم إثماً من الحياة على حساب المستضعفين ، وخبز الأرامل والأيتام ؟.

(وظلم الضعيف أفحش الظلم) وأفحش منه ومن الفحش نفسه أن تضع يدك على فمه ، وتمنعه من الصراخ من ألمه والاحتجاج على ظالمه ، ولو قيل لي : ما

تعريف الانسان بمعنى الكلمة لقلت : هو الثورة على الظلم وضد الظالم . وتقدم الكلام عن ذلك في شرح الخطبة ١٧٤ (واذا كان الرفق خرقاً كان الخرق رفقاً). مهادنة الأشرار شر محض ، لأنها تشجعهم عليه ، وتغريهم به ، والعدل أن يُردعوا بالعنف اذا لم يجدِ الجدال بالتي هي أحسن . قال الإمام : الوفاء لأهل الغدر غدر والغدر بأهل الغدر وفاء .

(ربما كان الدواء داء) . قد يخطىء الطبيب في تشخيص المرض ، فيصف دواء ظاهره الرحمة ، وباطنه من قبله العذاب (والداء دواء) كالطبيب يقطع العضو السقيم الذي لا يمكن علاجه كيلا يُفسد بقية الأعضاء السليمة ، ويسمى هذا بدفع الضرر الأشد بالضرر الأخف (وربما نصح الخ).. استمعْ للخائن والأمين ، وحاكم ما تسمع من الاثنين بعقل رزين ، واختر ما تركن اليه نفسك . قال الرسول الأعظم (ص) : استفت قلبك ، البر ما اطمأنت اليه النفس ، والإثم ما حاك في القلب ، وإن أفتاك الناس وأفتوك .

(وإياك والاتكال على المنى الخ) .. أبداً لا فرق بين التأوه على ما فات ، وتمني الخيرات ، كلاهما سخف وضعف .. ولا راحة إلا بالكد والتعب ، وقال قائل : لا يزال المرء مقروناً بالتواني ما دام مقيماً على وعد الأماني (والعقل حفظ التجارب) . التجربة عند الإمام مصدر من مصادر المعرفة ، ولكن ليست أقواها ، فهناك الوحي والعقل الذي يفكر ويستنتج . ومن أقواله : ليست الروية كالمعاينة مع الإبصار ، فقد تكذب العيون أهلها ، ولا يغش العقل من استنصحه (وخير ما جربت ما وعظك) أي ما نفعك ، بل أنفع المعارف كلها ما أسرع بك الى عمل الخير ، وأقصاك عن ارتكاب الشر .

(بادر الفرصة الخ) .. فإنها تمرّ مرّ السحاب وإلا لحقتك الندامة والحسرة (ليس كل طالب يصيب) لا غبن عليك أن تطلب الشيء فلا تجده ، لأن هذا شائع ومألوف ، والمهم أن لا تبخع نفسك على أثره (ولا كل غائب يؤوب) كالميت (ومن الفساد إضاعة الزاد الخ) .. بالتهاون فيه وعدم ادخاره لوقت الحاجة (ولكل أمر عاقبة) حلوة أو مُرّة ، والعاقل يراقب ويحترس ، ولا يُقدم إلا بعد البحث والتأمل (سوف يأتيك ما قدر لك) من الرزق بعد السعي والعمل ، وإياك والمنى كما قال الإمام (التاجر مخاطر) برأس المال ، فإن ربح

قال الناس عنه : سعيد الطالع ، وإن خسر قالوا : لا حظ له . والواقع ان الحظ والطالع هنا هو دقة المراقبة وحسن التقدير للعواقب والتوفيق.والتجارة في أيامنا فن من فنون اللصوصية ، وعلم بأساليب الغش والاحتيال على الشعوب الضعيفة ونهب أقواتها ومقدراتها .

(ورب يسير) وُضع في محله (أنمى من كثير) وُضع في غير موضعه.وقد رأينا الكثير من أصحاب الملايين آل أمرهم الى البؤس والعوز من تصرفهم (لا خير في معين مهين) يُفسد معروفه بكلمة أو حركة نابية . قال سبحانه : «لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى-٢٦٤ البقرة» . (ولا في صديق ظنين) يرائي ويراوغ (ساهل الدهر ما ذل لك قعوده) امش بدائك ما مشى بك كما قال الإمام (ولا تخاطر بشيء رجاء أكثر منه) إلا مع مظنة النجاح . وقال قائل : من طلب الفضل حُرم الأصل (وإياك أن تجمح بك مطية اللجاج) . التعصب والعناد جهل وفساد ، والتمادي في الخصومة يسل العقل والدين . قال الإمام : لا يستطيع أن يتقي الله من يخاصم .

الصداقة والصديق .. فقرة ٢٣ — ٢٤ :

احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللُّطْفِ وَالْمُقَارَبَةِ ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذٰلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ . لاَ تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ . وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً . وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً وَلاَ أَلَذَّ مَغَبَّةً(٢٣) . وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ . وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ

بِالْفَضْلِ فَإِنهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ . وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً تَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذٰلِكَ يَوْماً مَا . وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ . وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالاً عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ . وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ . وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ فِيكَ . وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ ، وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ . وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ»(٢٤) .

اللغة :

صرمه ــ بفتح الصاد وسكون الراء ــ قطيعته . وصدوده : بعده . والمراد بالجمود هنا البخل .

الإعراب :

عاقبة تمييز ، ومثلها مغبة ، ويوماً ما «يوم» ظرف منصوب ببدا ، واتكالاً مفعول من أجله لتضيعن .

حق الصديق :

أشار الإمام في هذا المقطع الى حق الصديق على صديقه . وقبل الشرح نشير

بإيجاز الى تعريف الصداقة وسببها ، ويمكن تلخيصها بالمودة والوفاء والثقة ، أما سببها فالمطابقة والانسجام . قال الرسول الأعظم (ص) : « الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف،وما تناكر منها اختلف » . ومتع الحياة لا يبلغها الإحصاء، وتفوقها جميعاً متعة الصداقة ، وتبلغ الغاية القصوى حين يُفضي الصديق الى صديقه بأسراره وهمومه حيث يشعر من أعماقه انــه ينفض عن كاهله أثقاله وأغلاله .. وأقوى شيء في الدلالة على الوفاء والثقة أن تدافع عن أخيك ، وتبرئه من شائعة السوء بمجرد سماعها ، وقبل البحث وقيام البينة .

وبعد تجربة عشرات السنين أستطيع القول : إن الصداقة بمعنى الحقيقة لهــذه الكلمة لا تكون ولن تكون إلا اذا وُجد في كل واحد من الاثنين صفة أو صفات يقدرها الآخر أياً كان نوعها ، فالشرط أن يكون للصفة وزنها عند الصديق لا في ذاتها وواقعها . ويرجع هــذا الى قول الرسول (ص) : ما تعارف منها ائتلف .

(احمل نفسك من أخيك الخ) .. قد يظن بك الصديق التقصير في حق من حقوقه،فيعاتبك بالصد والهجران .. وينبغي أن تتجاهل ذلك، ولا تعامله بالمثل وإلا أنهيت الصداقة بنفسك ، ووضعت لها حداً بيدك .. حتى ولو كان هو البادىء،ما دام التلافي ممكناً ، فإنك إن تجاهلت،وبقيت على عادتك معه من اللطف والمداراة يذهب ما في النفس مــع الأيام ، وتعود الميــاه إلى مجراها (وعند جموده على البذل الخ) .. واسه بنفسك حتى ولو كان البخل من طبعه .

(وعند جرمه على العذر) تغاض عن هفوته واحتملها منــه .. وإن طلبت صديقاً لا تعاتبه عشت بلا صديق مدى الحياة « أي الرجال المهذب ؟ » وهل من العدل والإنصاف أن تطلب العصمة من خطأ لا تبرىء نفسك من مثله ؟ (حتى كأنك له عبد) هذا كناية عن حسن المعاملة والتسامح مع الاخوان، لأن الصداقة اخوة لا عبودية ، ووفاء لا إلجــاء (وإياك أن تضع ذلك في غــير موضعه) تسامحْ وتواضع مع الذين يقدسون النبل والخلق الكريم ، لا مع من يرى التواضع منك ضعفاً وافتقــاراً . قال أعرابي لصديق له : كن لي ببعضك حتى أكون بكلي لك .

(ولا تتخذن عدو صديقك صديقاً فتعادي صديقك) . والجمــع بينهما تماماً

كالجمع بين الماء والنار . قال رجل للإمام : اني احبك وأحب معاوية فقال الإمام : أنت أعور الآن ، ونهايتك العمى او الشفاء من العور (وامحض أخاك النصيحة حسنة كانت او قبيحة) أي ثقيلة على من تنصحه ، كما لو كان معجباً بنفسه يدعي العلم ، وما هو من أهله،او كان كذوباً او حسوداً فصارحته ونهيته ، وبكلمة: إنصح بالحق وإن غضب المقصود بالنصيحة ، ولا يهمك ما دمت مخلصاً ومجتهداً فيها عند نفسك .

(وتجرع الغيظ الخ) .. قد يستفزك سفيه بكلمة نابية ، او حركة مزعجة فتثور أعصابك ، وعليك أن تماسك إن حدث شيء من ذلك ، ولا تستجيب لغضبك وأعصابك ، ولو استسلمت للغضب لانتهيت الى أسوأ العواقب . وبالإيجاز من لم يصبر على كلمة سمع كلمات (ولِنْ لمن غالظك الخ) .. إن ظننت به خيراً ، ورجوت ان يرجع عن جفوته ، ويؤوب الى رشده ، وهذا تعبير ثان عما سبق من قول الإمام : « وإياك ان تضع ذلك في غير موضعه » .

(وخذ على عدوك بالفضل فإنه أحلى الظفرين) وهما : ظفر القصاص والانتقام ، وظفر العفو والإحسان . وهذا هو الجدير بالعظماء والأولياء . وليس من شك ان العفو يضاعف الحسنات . ويمحو السيئات . قال تعالى : « وإن تعفوا أقرب للتقوى – ٢٣٧ البقرة » . وقال الإمام : متى أشفي غيظي ؟ أحين أعجز عن الانتقام فيقال لي : لو صبرت ؟ أم حين أقدر عليه فيقال لي: لو عفوت .

(وإن أردت قطيعة أخيك الخ) .. وبأسلوب آخر هو للإمام أيضاً : « احبب حبيبك هوناً ما عسى ان يكون بغيضك يوماً ما ، وابغض بغيضك هوناً ما عسى ان يكون حبيبك يوماً ما » .

وكثيراً ما تحدث القطيعة بين الصديقين، ثم تستأنف الصداقة بحبل أقوى وأوثق اذا كان مع الهجر عقل (ومن ظن بك خيراً فصدق ظنه) من وثق بنبلك فكن عند ثقته ، فإنها قوة لك وثروة . والعكس صحيح اي من ظن بك شراً فكذّب ظنه بعمل الخير .

(ولا تضيعن حق أخيك الخ) .. إن للصداقة حرمتها ، وللصديق حقوقه ،

فإن قصّرت في شيء من حقه فقد انتهكت حرمة الصداقــة والأخوه ، وجعلت على نفسك بنفسك سبيلاً للمؤاخذة والملامة . قال بعض السلف : ما تحاب اثنان فرّق بينهما إلا ذنب يحدثه أحدهما (ولا يكــن أهلك أشقى الخلق بك) . من شقي به اهله فهو أشقى الناس على الإطلاق ، لأن من يبغي عـلى القريب ييأس الناس من خيره ويخافون من شره ، ومن يسعد به القريب يرجوه البعيد لعمــل الخير . قال رسول الله (ص) : «خيركم خيركم لأهله،وأنا خيركم لأهلي » . هذا، الى ان لرب الأسرة وسيرته معها التأثير البالغ في صلاحها وفسادها ، ونعيم البيت او جحيمه .

(ولا ترغبن فيمن زهد فيك) . تجاهلْ من أدبر عنك كأنـه لم يكن حتى ولو كانت الدنيا في قبضته .. إن الاستعانة بغير الله ذل وهوان(ولا يكونن أخوك أقوى الخ).. اذا كان هو اقوى منك على القطيعة والإساءة فكن أنت أقوى منه على الصلة والإحسان ، شريطة ان يكون في صلتك له شيء من الخـير والصلاح وإلا فالسلو أفضل (ولا يكبرن عليك ظلم من ظلمك فإنه يسعى في مضرته ونفعك) عند الله ، لأن يوم العدل على الظالم أشد من يوم الجور على المظلوم ، كما قال الإمام في مقام آخر .. وليس معنى هذا ان تستسلم للظلم .. كـلا ، فإن جهاده فرض ، ومن قصّر فيه فهو شريك الظـالم ، ولو علم الظـالم ان المظلوم يستميت دون حريته وكرامته لتحاماه .

(وليس جزاء من سرك أن تسوءه) . هذا كلام مستأنف لا صلة له بما قبله كما توهم بعض الشارحين وقال في تفسيره : ليس جزاء من أساء اليك ان تقابله بالإساءة ، لأنه قد زاد في أجرك عند الله !.. ونسي هذا الشارح وجوب الجهاد ضد البغي ، وإن من مات دون عقــال من ماله مات شهيداً ، وانــه لا معنى للعـدل إلا الضرب على أيدي المعتدين ، وان السكوت عنهم هو تشجيع للفساد في الأرض .

وَٱعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ : رِزْقٌ تَطْلُبُهُ ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ . مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى ؟ إِنَّ لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ . وَإِنْ جَزِعْتَ عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ . اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ . فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهٌ . وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ ٱلْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ ، فَإِنَّ ٱلْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ وَٱلْبَهَائِمُ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ(٢٥) . اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ ٱلْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ ٱلْيَقِينِ . مَنْ تَرَكَ ٱلْقَصْدَ جَارَ ، وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ . وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ . وَٱلْهَوَى شَرِيكُ ٱلْعَنَاءِ . رُبَّ قَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ . وَٱلْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ . مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ . وَمَنِ ٱقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ . وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ . وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ . قَدْ يَكُونُ ٱلْيَأْسُ إِدْرَاكاً إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكاً . لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ . وَرُبَّمَا أَخْطَأَ ٱلْبَصِيرُ قَصْدَهُ وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ(٢٦) .

اللغة :

مثواك : منزلك . وما تفلت : ما فات . وعزائم الصبر : قوة الإرادة . والقصد : الإعتدال . والمناسب : الموافق والقريب . ولم يبالك : لم يكترث بك. والعورة : الخلل .

الإعراب :

رزق تطلبه ورزق يطلبك «رزق» بدل مفصل من مجمل ، والمبدل منه رزقان، وما أقبح الخضوع «ما » مبتدأ بمعنى شيء ، وأقبح فعل ماضٍ ، والفاعل مستتر يعود الى « ما » والجملة خبر ، والخضوع مفعول .

المعنى :

(إن الرزق رزقان : رزق تطلبه) بتجارة او صناعة او فلاحة او خدمة . وهذا الرزق وراءه قضاء وتدبير كأي شيء يحدث في الكون حيث أبى الله سبحانه إلا ان يربط الأسباب بمسبباتها ، والنتائج بمقدماتها حتى نعيم الآخرة او جحيمها هو نتيجة الأعمال في الحياة الدنيا .. هذا مع العلم بأن سلسلة الأسباب تنتهي اليه تعالى طالت أم قصرت (ورزق يطلبك) بإرث او هدية او صيد غالٍ وثمين لا يكلفك سوى خطوات .. ومهما يكن فإن كلام الإمام هنا عن الرزق مجرد تعبير عن واقع الحال بصرف النظر عن فلسفة الرزق . وتقـدم الكلام عنها في شرح الخطبة ٢٣ .

(ما أقبح الخضوع عند الحاجة) . لا شيء أدل على ضعة النفس وخساستها، ولؤمها ودناءتها ـ من التنمر في اليسر ، والتذلل في العسر .. والنفس الكريمـة سواء في الحالين ، بل هي مع العسر أعز وأكثر إباء .. ومما يزيـد الفاقة شدة الاستكانة لمن لا يجبرها . وقال الإمام : ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله ، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله (انمـا لك من دنياك ما أصلحت به مثواك) . أبداً لا فرق بين من يملك الملايـين ومن يملك

العشرات ما دام وعاء البطن لا يقبل المزيد من الطعام ، ومساحة الجسم لا تتجاوز المقرر من اللباس .. والعمر الى أجل ، والى التفريق والشتات ما جمع المرء وما كسب .. واذن فعلام التناحر على الحطام ؟.

(وإن كنت جازعاً على ما تفلت من يديك الخ) .. حكمة بالغة دامغة فما تغني النذر : ثروة الكون لا حد لها ، أما حاجتك فلها حد،وأنت تطلب المزيد، وتحزن اذا لم تبلغ ما تريد ، وعلى منطقك هذا ينبغي ان تبكي وتندب لأنك لا تملك الكون بأرضه وسمائه .. وأي فرق من حيث النتيجة بين ما ذهب من مالك، وبين ما لم تنل منذ البداية ؟. (استدل على ما لم يكن الخ) .. تصفح أحوال الذين جمعوا او حرصوا : ماذا حدث لأموالهم بعد الموت ، وقس عليها ما في يدك الآن من مال وحطام .

(ولا تكن ممن لا تنفعه العظة الخ) .. اعتبر بالغير ، واتعظ بالعبر إن كنت انساناً يدرك الأمور وعواقبها لا حيواناً يقرع بالعصا (اطـــرح عنك واردات الهموم الخ) .. لا مفر من المصائب والنوائب في هذه الحياة .. ومع هذا عليك الوقاية ما أمكـن ، والعـلاج إن ابتليت ، فإن استعصى الداء عليك وعلى أهـــل الاختصاص – فوض الأمر الى الله ، وامض في عملك ، وادّ ما عليك،وسوف ترى الأمر على ما يرام .. وان شغلت نفسك بالتفكير فيما أصابك صدك الخوف عن عملك ، وتراكمت عليك الأحزان بلا جدوى .

ومن جملة ما قرأت ان رجلاً أحس بضعف وانحراف في صحته ، ولما عرض نفسه على الطبيب قال له : انه مريض بسرطان الدم ، وانه يموت بعد قليل .. فلم ينزعج وتحدى المرض، وقال في نفسه : لا فرق بين أموت مفاجأة او بإنذار سابق ، ومضى في عمله كأن لم يكن شيء ، واستمر فيـه حتى الآن ، ولو انه استسلم للوساوس لخارت قواه ، وأمسى طريح الفراش ينتظر الموت في كل لحظة. ومعنى هذا انه يموت في اليوم مرات . ولما قيل له : كيف تعمل وأنت على هذه الحال قال : أجرب الحكمة القائلة : خير الدواء العمل . وقال الإمام: إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور ، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور.

(من ترك القصد جار) من أسرف تعدى الحدود ، ومن أمسك قصّر عنها والطريق الوسطى سبيل الخير والنجاة (والصاحب المناسب) ولا صحبة بلا موافقة

ومناسبة (والصديق من صدقت غيبته) شر الناس من صادقك من غير صدق ، يكيل لك المدح في المحضر، ويذيع السيئات في المغيب ، وإن سمعها أقرها بسكوته مع علمه بأنها زور وافتراء (والهوى شريك العمى) اذا غلب الهوى عمي العقل (ورُبَّ بعيد أقرب من قريب) لتقارب الأخلاق وتوافقها .. وأيضاً كل من أحسن اليك فهو قريب الى نفسك ، وإن بعدت لحمته (وقريب أبعد من بعيد) لتباعد الأخلاق وتنافرها ، او لنزاع على ميراث او جاه .

(والغريب من لم يكن له حبيب) للؤمه وحسده ، او لتعاظمه وخيلائه ، او لظلمه واعتدائه (ومن تعدى الحق ذاق مذهبه) اي طريقه ، والمعنى من تسلح بغير الحق فهو أعزل من كل حجة ودليل ، وفضيلة ومكرمة ، ولا دواء له إلا الازدراء والقسوة اذا لم يرتدع إلا بها (ومن اقتصر على قدره كان أبقى له) اذا لم تدَّع بما ليس فيك أحبك الناس ، وأنزلوك فيما أنت أهل له وجدير به، وإن تجاوزت طورك بخسوا حقك ، وارتابوا في كل قول او فعل من أقوالك وأفعالك ، وإن كنت فيه من الصادقين (وأوثق سبب أخذت به الخ) .. والسبب الذي بين الله والعبد هو العلم بأحكامه تعالى والعمل بها .

(ومن لم يبالك فهو عدوك) . قال ابن أبي الحديد ، ونحن معه فيما قال: المراد بهذه الوصية خصوص الولاة ، لأن عدم المبالاة بهم معناه الاستهانة بالقوة الرادعة عن الباطل ، أما سائر الناس فغير مقصودين بهذه الوصية ، لأن اللامبالاة من حيث هي لا تستدعي العداء والبغضاء (قد يكون اليأس إدراكاً اذا كان الطمع هلاكاً) المراد باليأس هنا الحرمان ، وبالإدراك نيل المراد ، والمعنى ربما يتمنى المرء لنفسه شراً من حيث يظن انه خير محض ، ولا ينكشف ذلك إلا بعد أن يناله ويمارسه ، ومثاله أن يتمنى الزواج من امرأة أعجبته من أول نظرة ، حتى اذا تم ما أراد ، وباشر وعاشر قال : يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً .

(ليس كل عورة تظهر) فتحت الثياب أفاعٍ وذئاب ، والقلوب صندوق العيوب (ولا كل فرصة تصاب) . ما من انسان على وجه الأرض إلا وهو يملك جزءاً من الوقت يستمع فيه الى حكمة ، او يقرأ ما ينفعه ، او يفكر في آخرته ومصيره ، او يكتب او يغرس او يذكر الله او غير ذلك مما يتناسب مع

أوضاعه .. وللوقت وزن وثمن ، ومن ذهل عنه او لم يكترث به فقد مات ، وهو حي (وربما أخطأ البصير قصده ، وأصاب الأعمى رشده) تبعاً للظروف والأحداث التي تشذ عن القواعد ، ولا سبيل الى التنبؤ بها .. وقد رفعت هذه الشواذ أفراداً لا دور لهم في شيء ، ووضعت آخرين كان لهم أحسن الأثر في خدمة الحياة وتقدمها .

السلطان والزمان .. فقرة ٢٧ – ٢٨ :

أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ . وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ . مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ . لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ . إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ . سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ . إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ فِي الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً وَإِنْ حَكَيْتَ ذٰلِكَ عَنْ غَيْرِكَ (٢٧) . وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ . وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ . وَلَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ ، وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا ، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ بِغَيْرِهَا . وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ . وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلاً تَأْخُذُهُ بِهِ فَإِنَّهُ أَحْرَى

أَنْ لاَ يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ . وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ . أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ . وَأَسْأَلُهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَالسَّلاَمُ(٢٨) .

اللغة :

الأفن والوهن : الضعف . قهرمانة : وكيلة في التصرف . والتغاير : إظهار الغيرة . يتواكلوا : يتكل بعضهم على بعض .

الإعراب :

إياك أحذّرك ، والباء في أشد وقهرمانة زائدة .

المعنى :

(أخّر الشر الخ) .. كل انسان على وجه الأرض يقدر على الشر والخير ، ولو يحب الخير وفاعله ، ولكن الشر أوسع مجالاً ، وأكثر أنواعاً وأفراداً ، يستطيعه أضعف الضعفاء متى شاء وأراد ، ولا تفوته الفرصة منه وإن أبطأ وتلكأ، أما عمل الخير ووضعه في موضعه فله قيوده وظروفه ، ولا تسمح به الفرصة في كل حين .. وقول الإمام : « أخّر الشر » من باب:لا تستعجل الهلاك، أي ابتعد عنه .

(وقطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل) لأن العاقل لا يقول ويفعل إلا بعد تقدير العواقب ، والتثبت والأناة ، ولا يحقد على من عابه بشيء هو فيه ، أما الجاهل فيتصرف باللمحة ، ويحكم بالظنة ، ولا يعرف للروية معنى ، ولا يقيم للعاقبة وزناً

(من أمن الزمان خانه) اذا أقبلت الدنيا عليك فاحذر المخبآت والمفاجآت ، فإن الدنيا يجوز عليها كل شيء (ومن أعظمه أهانه) أي من أعظم الطاغية من أبناء الزمان ، لأن الزمان ليس بجسم يحس كي لا يُحقّر أو يُقدّر ، وليس من شك ان تعظيم الطاغية رياء ونفاق ، وذل وهوان .

(ليس كل من رمى أصاب) الهدف وإن كان حاذقاً . والقصد من هذا هو التنبيه الى ان العاقل يتوقع الخطأ من نفسه ويتقبل النقد ، وان المعجَب برأيه يرى انه لا ينطق إلا بالصواب ، وهو جاهل مغرور (اذا تغير السلطان تغير الزمان) إن خيراً فخير ، وإن شراً فشرّ خاصة في عصرنا الذي بلغت فيه الأسلحة المدمرة حداً يفوق التصور ، ويسيطر الحاكم او الهيئة الحاكمة على جميع المقدرات ونواحي الحياة .. فإذا كانت مصالح العباد في أيدٍ أمينة ونزيهة عاشوا في ظل الراعي عيشة طيبة راضية ، وإن كانت في أيدي اللصوص والقراصنة قادوا الرعية الى الهاوية ، ومنذ القديم شاع وذاع ان الرعية تصلح بصلاح الراعي ، وتفسد بفساده . وتقدم الكلام عن ذلك في الخطبة ٢١٤ ، ويأتي أيضاً في « عهد الإمام » للأشتر .

(سل عن الرفيق قبل الطريق) . السفر يسفر عن الأخلاق ، فإذا صحبت جاهلاً في سفرك ظهرت معالم صفاته وغرائزه ، وأزعجك وجنى عليك . قال رسول الله (ص) : « إن صحبتَ الجاهل عناك، وإن اعتزلته شتمك» وكان(ص) اذا سافر يقول : من كان يسيء الى جاره فلا يصحبنا ، لأن الجار رفيق ملازم. وقديماً قيل : الجار قبل الدار (وإياك ان تذكر من الكلام ما يكون مضحكاً) إلا للمطايبة في حدود الشرع والآداب .

المرأة والمشورة :

(وإياك ومشاورة النساء الخ) .. لأن رسول الله (ص) قال : شاوروهن وخالفوهن . وفي « صحيح » البخاري كتاب « الحيض » : إن النبي قال : يا معشر النساء ما رأيت ناقصات عقل ودين اذهبَ للبّ الرجل من إحداكن . وكل ما قاله الإمام عن المرأة فهو عن الله ورسوله بلا تقليم وتطعيم في الشكل

والأسلوب . وتقدم الكلام عن ذلك في شرح الخطبة ٧٨ فقرة « علي والمرأة » . وأيضاً يأتي عند قول الإمام : « المرأة شر » في الحكمة ٢٣٨ .

وبعد ، فأي انسان جمع في مشورته بين الوعي والإخلاص يصح الأخذ بها والاعتماد عليها رجلاً كان أم امرأة ، ومتى انتفى هذان سقطت المشورة عن الاعتبار وإن كان المشير رجلاً ، أما نهي النبي وعلي عن مشورة النساء فيُحمل على مشورة الجاهلية ، وكان أكثر النساء آنذاك في معزل عن العلم وتجارب الحياة ، ولا ذنب للمرأة في ذلك اذا قصّر الرجل في تربيتها مع العلم بأنها من طينة الرجل ، وطبيعتها واحدة ، ويشتركان في المسؤولية على قدم المساواة .

(واكفف عليهن من أبصارهن الخ) .. يشير الى الآية ٣١ من سورة النور: « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن » (وليس خروجهن بأشد الخ) .. لا فرق بين أن يُطلق لهن السراح في الخروج حيث أردن وبين أن يدخل عليهن عاهر فاجر (ولا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها الخ) .. اتفقت المذاهب الاسلامية قولاً واحداً على ان المرأة لا يجوز أن تتولى الإمارة والسلطان ، وفي الحديث : « ما أفلح قوم ولّوا عليهم امرأة » . واختلفوا في توليها القضاء : قال أبو حنيفة : يجوز أن تتولى المرأة القضاء في حقوق الناس دون حقوق الله أي الحقوق العامة . وقال غيره : لا يجوز إطلاقاً .

(فإن المرأة ريحانة) للرقة والحنان ، والدعة والاطمئنان (وليست بقهرمانة) تتصرف فيما يخص الرجل نيابة عنه (ولا تعدو بكرامتها نفسها الخ) .. كرامة المرأة أن تبقى امرأة ، وأن تضع نفسها حيث وضعتها الطبيعة ، ولا تتطفل على وظائف الرجل . وقال الشيخ محمد عبده : « أين هذه الوصية من حال الذين يصرفون النساء في مصالح الأمة » . (وإياك والتغاير في غير موضعه الخ) .. لك أن تغار على المرأة بصيانتها من التبرج ومخالطة المشبوهين ، أما الغيرة برجم الظنون فإنها تشجع المرأة السقيمة على الخيانة ، وتغزي البريئة بها ، وتقول في نفسها : كنت أحرص على ثقته بأمانتي وعفافي ، أما وقد أصبحت عنده في مكان الريب فلم يبق ما أحرص عليه .

(واجعل لكل انسان من خدمك الخ) .. يشير بهذا الى ان الأعمال ينبغي أن توزع على الموظفين والمستخدمين ، وان يحدّد لكل واحد منهم عمل خاص به يكون هو المسؤول عنه وإلا عمت الفوضى ، وضاعت المسؤولية بين الجميع ،

وأحال كل واحد التقصير والإهمال على الآخر ، وهذا التصنيف والتوزيع للأعمال هو المبدأ الذي لم تعرفه المدنية إلا حديثاً . ويأتي التوضيح في عهد الأشتر فقرة ١٨.

(وأكرم عشيرتك الخ) .. تقدم مع الشرح في الخطبة ٢٣ (واستودع الله دينك ودنياك الخ) .. أخلص في عبادتك لله ، وفي معاملتك مع الناس ، واسأل التوفيق منه تعالى لما فيه لله رضى ، ولك خير وصلاح دنيا وآخرة . وأفضل الصلوات على محمد وآله الأطهار .

الرسالة

- ٣١ -

الى معاوية :

وَأَرْدَيْتَ جِيلاً مِنَ النَّاسِ كَثِيراً خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ وَتَتَلاَطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ ، فَجَازُوا عَنْ وِجْهَتِهِمْ وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَصَائِرِ فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ ، وَهَرَبُوا إِلَى اللهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ ، إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ ٱلْقَصْدِ . فَاتَّقِ اللهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ ، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ وَالْآخِرَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ . وَالسَّلَامُ .

اللغة :

أرديت : أهلكت . وجيلاً : قبيلاً او صنفاً . والوجهة – بكسر الواو – القصد . ونكصوا : رجعوا . وعولوا : اعتمدوا . وأحسابهم : جمع حسب اي شرف الآباء . وفاءَ : رجع . وموازرتك : معاونتك . والقياد : ما تقاد به الدابة.

الإعراب :

كثيراً صفة للجيل ، وإذ ظرف ومحله النصب بهربوا .

المعنى :

كتب الإمام الى معاوية رسالة جاء فيها : (وأرديت جيلاً من الناس كثيراً الخ) .. الناس يحبون المال ، ومنه الكثير في يد معاوية يبذله لكل من يبيع دينه بدنياه، فراجت سوق معاوية ، وكثُر فيها العرض والطلب . وروينا فيما سبق بعض الأمثلة على ذلك ، منها عن الطبري : إن الحتات المجاشعي وفد على معاوية مع جماعة من الرؤساء ، فأمر لكل واحد بمئة ألف ، وللحتات بسبعين .. ولما عاتبه الحتات قال له معاوية : اشترينا من القوم دينهم . فقال الحتات: وأنا اشترِ مني ديني . فأكملها معاوية على المئة ، وتمت الصفقة .

(وعولوا على أحسابهم) . ما حارب واحد مع معاوية إلا للمال او وظيفة ، او بدافع من العصبية الجاهلية(إلا من فاء من أهل البصائر). موّه معاوية على بعض المؤمنين في بداية الأمر ، ثم تكشفت لهم الحقائق حين حاول ان يحملهم على الإثم ومعصية الله ورسوله (وجاذب الشيطان قيادك) . المراد بالشيطان الهوى، والمعنى لقد تغلّب هواك على عقلك ودينك،فحررْ نفسك منه (فإن الدنيا منقطعة عنك) وأنت مفارقها لا محالة (والآخرة قريبة منك) وفيها حسابك وجزاؤك .

الرسالة

-٣٢-

الى قثم بن العباس :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ عَيْنِي بِالْمَغْرِبِ كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنَّهُ وُجِّهَ عَلَى الْمَوْسِمِ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ الْعُمْيِ الْقُلُوبِ ، الصُّمِّ الْأَسْمَاعِ ، الْكُمْهِ الْأَبْصَارِ ، الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا بِالدِّينِ ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِآجِلِ الْأَبْرَارِ وَالْمُتَّقِينَ . وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ ، وَلَا يُجْزَى جَزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ . فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الصَّلِيبِ وَالنَّاصِحِ اللَّبِيبِ ، وَالتَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ . وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ . وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِراً ، وَلَا عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِلاً . وَالسَّلَامُ .

اللغة :

العين : الجاسوس . والمراد بالمغرب هنا بلاد الشام لأنها من الأقاليم الغربية ، كما قال ابن أبي الحديد . والموسم : الأيام التي يقام فيها الحج . والكمه: جمع اكمه اي وُلد أعمى . والدر : اللبن . والصليب : الشديد . والبطــر : الطغيان بسبب الغنى والترف .

الإعراب :

أناس نائب فاعل لوُجه ، والعمي الصم الكمه صفات لأهـل الشام ، ودرها بدل اشتمال من الدنيا .

المعنى :

قثم أخو عبدالله بن عباس بن عبد المطلب جد النبي (ص) وكان الإمام قـد ولاه مكة المكرمة ، وبقي عليها حتى استشهد الإمام . واستشهد قثم بسمرقند في زمن معاوية ، وكان للإمام عيون وجواسيس على معاويـة ، فكتب اليـه أحدهم ان معاوية أرسل دعاته في السر الى مكة ايام الحج لينفثوا السموم والأكاذيب ضد الحق وأهله . فكتب الإمام الى قثم هـذا الكتاب ليحتاط للأمر ، ويسد الطريق على العدو :

(أما بعد ، فإن عيني الخ) .. يخبر الإمام عامله على مكة بأن معاوية بعث اليها جماعة من أهل الشام أضلهم الشيطان ، ليفتروا على الله الكذب،وهم يعلمون دائبين في مرضاة معاوية بغياً وعدواناً لله ورسوله (ولن يفوز بالخير إلا عامله ، ولا يجزى جزاء الشر إلا فاعله) . والخير في مفهوم الإمـام يقاس بجزائه وثوابه غداً عند الله ، لا بالنعـيم والترف في الحياة الدنيا . والشر يقـاس بغضب الله وعذابه . ومن أقواله في ذلك « كل نعيم دون الجنة فهو محقور ، وكـل بلاء دون النار عافية » . وكل شهداء الإيمان بالله يقيسون الخير والشر بهـذا المبدأ ، ولولا حلاوته ما أقدموا على الموت بقلوب مطمئنة ، وأوجه مبتسمة .

(فأقم على ما في يدك الخ) .. من السلطة والولاية على مكة وما يتبعها ، ودافع عنها بكل سبيل وبجدّ وإخلاص،وبهذا تؤدي حق الله ورسوله وحق إمامك وحق الرعية (ولا تكن عند النعماء بطِراً) بل شاكراً متواضعاً (ولا عند البأساء فشلاً) اي ضعيفاً منكسراً عند الشدائد .

الرسالة

-٣٣-

الى محمد بن أبي بكر :

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الأَشْتَرِ إِلَى عَمَلِكَ . وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذٰلِكَ ٱسْتِبْطَاءً لَكَ فِي الْجُهْدِ وَلاَ ٱزْدِيَاداً فِي الْجِدِّ . وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ . لَوَلَّيْتُكَ مَا هُـــوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَؤُونَةً وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وِلاَيَةً . إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كَانَ لَنَا رَجُلاً نَاصِحاً وَعَلى عَدُوِّنَا شَدِيداً نَاقِماً . فَرَحِمَهُ اللهُ فَلَقَدِ ٱسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ وَلاَقَى حِمَامَهُ وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ . أَوْلاَهُ اللهُ رِضْوَانَهُ وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ ، فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ . وَٱمْضِ عَلى بَصِيرَتِكَ ، وَشَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَكَ ، وَٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ، وَأَكْثِرِ ٱلاِسْتِعَانَةَ بِاللهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ وَيُعِنْكَ عَلى مَا نَزَلَ بِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ .

اللغة :

موجدتك : غضبك . والجهد – بفتح الجيم – التعب والمشقة ، وأيضاً الوسع والطاقة ، وبضمها الطاقة والقليل من الرزق . والجِد – بكسر الجيم – الاجتهاد. وحمامه : موته . واصحر : أبرز .

الإعراب :

استبطاء مفعول من أجله لأفعل ومؤونة تمييز ومثلها ولاية ، وناصحاً صفة لرجل ، ولنا متعلق بناصح .

المعنى :

ولد محمد بن أبي بكر قبل وفاة رسول الله (ص) ببضعة شهور ، وامه أسماء بنت عميس الخثعمية ، تزوجها جعفر بن أبي طالب ، فرزق منها أولاداً ، منهم عبدالله الشهير بكرمه ، ثم تزوّجها من بعده أبو بكر ، فولدت له محمداً ، ومن بعد أبي بكر تزوجها الإمام ، فولدت يحيى . فمحمد هو ابن أبي بكر وربيب الإمام ، وكان يحبه ويثني عليه ، وولاه مصر .. ثم رأى أن يستبدل به الأشتر ، ليكون حصناً منيعاً لمصر من معاوية وابن العاص ، فكتب له العهد المشهور ، ولما علم محمد بن أبي بكر بذلك عتب وتألم .. ودسّ معاوية للأشتر السم بالعسل قبل ان يصل الى مصر ، فبقي محمد والياً عليها ، وكتب الإمام له هذه الرسالة :

(أما بعد ، فقد بلغني موجدتك الخ) .. لماذا صعب عليك اختياري للأشتر؟ أتظن أنه أعز علي منك ، أو اني اتهمك بالتقصير في عملك .. كلا ، ولكن الحكمة والمصلحة قضت بذلك .. هذا ، الى اني ما أردت طردك وعزلك ، وإنما أردت نقلك الى بلد آخر يسرك ويعجبك ، ولا يجر عليك المتاعب والمصاعب كمصر القريبة من معاوية والتي جعلها طعمة لابن العاص . فهوّن عليك .

(ان الرجل الذي كنت وليته أمر مصر الخ) .. وهو الأشتر ، كان مخلصاً لله ولنا ، وأنت كذلك يا محمد ، ولكن معاوية كان يهاب الأشتر ويتحاماه حيث

فعل به الأفاعيل في صفين ، ولولا رفع المصاحف لقضى عليه الأشتر ، وما اغتاله معاوية إلا خوفاً من بأسه وصلابته (فرحمه الله .. وضاعف الثواب لـه) . قال ابن أبي الحديد : لا أشك في ان الله يغفر للأشتر ذنوبه ، ويدخله الجنة بهذه الدعوة ، لأنهـا كدعوة رسول الله (ص) ويا طوبى لمن حصل عـلى بعضها من علي (ع) .

(فأصحر لعدوك الخ) .. استعد لحربه ، واحذر من كيده ، واثبت عـلى دينك وإيمانك ، وحرض على الجهاد ، واستعن بالله ، فإنه ناصرك وكافيك ان شاء الله .

الرسالة

-٣٤-

الى عبدالله بن العباس :

أَمّا بَعْدُ فَإنَّ مِصْرَ قَدِ ٱفْتُتِحَتْ وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ اللهُ قَدِ ٱسْتُشْهِدَ . فَعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَداً نَاصِحاً ، وَعَامِلاً كَادِحاً وَسَيْفاً قَاطِعاً وَرُكْناً دَافِعاً . وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ النَّاسَ عَلى لَحَاقِهِ وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ ٱلْوَقْعَةِ ، وَدَعَوْتُهُمْ سِرّاً وَجَهْراً وَعَوْداً وَبَدْءاً ، فَمِنْهُمُ الآتِي كَارِهاً ، وَمِنْهُمُ الْمُعْتَلُّ كَاذِباً ، وَمِنْهُمُ ٱلْقَاعِدُ خَاذِلاً ، أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجاً عَاجِلاً . فَوَاللهِ لَوْلاَ طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ وَتَوْطِينِي نَفْسي عَلى الْمَنِيَّةِ لَأَحْبَبْتُ أَنْ لاَ أَبْقَى مَعَ هؤُلاَءِ يَوْماً وَاحِداً وَلاَ أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَداً .

اللغة :

نحتسبه : نسأل الله الأجر على الرزية فيه . وبدءاً — بفتح الباء — أول الحال. وعود — بفتح العين — الرجوع الى الحال السابقة .

الإعراب :

ولداً حال أي مولوداً ، ويجوز إعرابه بدلاً من الهاء في نحتسبه ، وناصحاً وما بعده صفة لولد ، وسراً مفعول مطلق أي دعوتهم دعوة السر ، حيث كانت الدعوة بالقول ، والسر والجهر من صفاته ، وكارهاً حال ، ومثله ما بعده ، وطمعي مبتدأ والخبر محذوف أي طمعي كائن .

المعنى :

قال المسعودي في « مروج الذهب » : في سنة ٣٨ هـ. وجّه معاوية عمرو بن العاص الى مصر في أربعة آلاف ، منهم معاوية بن خديج وأبو الأعور السّلمي ، فالتقوا هم ومحمد بن أبي بكر بالموضع المعروف بالمسناة ، فاقتتلوا وانهزم محمد بعد أن فر أصحابه عنه وأسلموه لأعدائه ، وصار الى موضع بمصر واختفى فيه ، وأحيط به فخرج اليهم ، وقاتلهم حتى قتل ، فأخذه معاوية بن خديج وعمرو بن العاص وغيرهما وجعلوه في جلد حمار ، وأضرموه بالنار . وقيل : فعل به ذلك ، وفيه شيء من الحياة .

وحزن عليه علي ، وسُرّ معاوية ، وقال الإمام : جزعنا عليه على قدر سرورهم. كان لي ربيباً ، وكنت أعده ولداً ، وكان بي براً . فكتب الإمام هذه الرسالة لابن عباس يخبره فيها بمقتل محمد بن أبي بكر ، وكان ابن عباس آنذاك عاملاً للإمام على البصرة .

(أما بعد ، فإن مصر قد افتتحت الخ) .. يتألم الإمام على فقد محمد بن أبي بكر ، ويطلب له من الله الرحمة والمغفرة ، ولنفسه الأجر والثواب على رزيته فيه ، ويؤبنه مثنياً على ايمانه وإخلاصه ، وشجاعته وجهاده (وقد كنت حثثت

الناس الخ) .. بكل سبيل على نصرة محمد والجهاد معه ، فتثاقلوا وتعللوا بالأباطيل والأضاليل .

(أسأل الله أن يجعل لي فرجاً عاجلاً) ولو بالموت لأستريح من تخاذل أهل العراق ونفاقهم (ولولا طمعي الخ) .. كان الإمام يتعجل الشهادة وينتظرها بفارغ الصبر ، ولا سبيل اليها إلا بجهاد الفئة الباغية وقائدها معاوية ، وأقرب مكان اليه العراق ، ومن أجل هذا أقام فيه الإمام ، وصبر على أخلاق أهله ، ولولا رغبته في الشهادة ما بقي معهم يوماً واحداً ، ولا اجتمع بهم أبداً .

الرسالة

- ٣٥ -

الى أخيه عقيل :

فَسَرَّحتُ إِلَيْهِ جَيْشاً كَثِيفاً مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذٰلِكَ شَمَّرَ هَارِباً وَنَكَصَ نَادِماً ، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ وَقَدْ طَفَّلَتِ الشَّمْسُ لِلْإِيَابِ فَاقْتَتَلُوا شَيْئاً كَلَا وَلَا ، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضاً بَعْدَمَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الرَّمَقِ . فَلَأْياً بِلَأْيٍ مَا نَجَا . فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشاً وَتَرْكَاضَهُمْ فِي الضَّلَالِ ، وَتَجْوَالَهُمْ فِي الشِّقَاقِ ، وَجِمَاحَهُمْ فِي التِّيهِ . فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَإِجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلِي ، فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنِّي ٱلْجَوَازِي ، فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي ، وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ٱبْنِ أُمِّي . وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي ٱلْقِتَالِ فَإِنَّ رَأْيِي فِي قِتَالِ ٱلْمُحِلِّينَ حَتَّى أَلْقَى اللهَ لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً ، وَلَا تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً . وَلَا تَحْسَبَنَّ

أَبْنَ أَبِيكَ — وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ — مُتَضَرِّعـاً مُتَخَشِّعاً ، وَلَا مُقِرّاً لِلضَّيْمِ وَاهِناً . وَلَا سَلِسَ الزِّمَامِ لِلْقَائِدِ ، وَلَا وَطِىءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُتَقَعِّدِ ، وَلٰكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سُلَيْمٍ :

فَـإِنْ تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنَّنِي صَبُورٌ عَـلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَآبَةٌ فَيَشْمَتَ عَـادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

اللغة :

طفلت الشمس – بتشديد الفاء – دنت للغروب . وآبت الشمس : غابت . والجريض : الحزين . والمخنق – بضم الميم وتشديـد النون – موضع الخنق . والرمق : بقية النفس . ولأيـاً : من لأى يـلأى الشدة والمحنة . والتركاض مبالغة في الركض . والتجوال مبالغة في الجولان . والشقاق : الخلاف . وجاحهم: اسراعهم . وأجمعوا : عزموا وصمموا . والجوازي : المكافـآت . والمحلّين : ناقضي العهد . والسلس : السهل . والمتقعد : من اقتعد الدابة اذا اتخذها مركباً .

الإعراب :

هارباً حال ، ومثله نادماً ، وشيئاً مفعول مطلق لاقتتلوا ، لأن معناه اقتتلوا قتالاً ، وكلا ولا الكاف للتشبيه بمعنى مثل ، ومحلها النصب صفة لشيء « ولا ولا » يُكنى بها عن السرعة والقلة ومحلها الجر بإضافة الكاف التي هي بمعنى مثل كما قلنا،ولأياً نصب على المصدرية ، وما نجا « ما » مصدرية أي عسرت نجاته ، والجوازي فاعل جزت ، وعزة تمييز ، ومتضرعاً مفعول ثان لتحسين .

المعنى :

كان معـاوية يشن الغارات بشياطينه على أطراف دولة الإمام ، يفسدون في

الأرض بالقتل والتشريد والنهب والسلب . فكتب عقيل بن أبي طالب كتاباً الى الإمام حـــول بعض المغيرين وفظائعهم . فأجابه الإمام بقوله : (فسرحت اليه جيشاً الخ) .. ضمير اليه يعود الى المخرب الذي أغار وأفسد ، ولم يصرح الإمام باسمه ، ولا ذكره الشارحون والشريف الرضي ، وتوميء عبارة ابن أبي الحديد الى انه بسر بن أرطاة ، ونقل عن الراوندي ان هذا الهارب الخائب هو معاوية، وسخر ابن أبي الحديد من ذلك ، وقال انه عجيب ومضحك ! وبعد أن نقل عنه تفسير الجوازي وقال : « قد كان يجب أن يحجر على هذا الرجل، ويُمنع من تفسير النهج».. ومهما يكن فالمعنى واضح ، ويتلخص بأن الإمـام أرسل للمخرب جماعة من المجاهدين ، فقاتلوه قليلاً ، ثم ولى مذموماً مخذولاً .

(فدع عنك قريشاً الخ) .. فقد أبوا إلا الضلال والعدوان، وإعلان الحرب عليّ منذ يومي الأول تماماً كشأنهم مع رسول الله (ص) . وتقدم الكلام عن ذلك في شرح الخطبة ٣٣ و ١٧٠ و ٢١٥ (وأما ما سألت عنه من رأيي في القتال الخ). فإني مصمم بحول الله على جهاد من نكث العهد ، ومن مرق من الدين ، ومن بغى على الخلق ، وعاث في الأرض فساداً ، ولن أتراجـع مهـما كانت الظروف والعواقب .

الإمام والناس :

(لا يزيدني كثرة الناس حولي الخ) .. مالي وللناس كثروا أم قلّوا ، أقبلوا أم أدبروا ؟ فإني ، ما حييت ، لا أصانع إلا وجهاً واحداً ، ولا أكترث بسواه ما رضي عني ولم يغضب عليّ .. فبالخالق غنى عن الخلق ، ولا غنى بغيره عنه .. هذا هو الدين اليقين ، وبه نطق القرآن والسنّة النبوية ، قال تعالى : « أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين — ١٣ التوبة » أي لا ايمان لمن يؤثر الخوف من الله . وفي الآية ٤٤ من سورة المائدة: « فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً » . ولكن الكثير من أرباب العمائم والقلانس عكسوا الآيـة .. وقالت لهم أهواؤهم : لا تخشوا الله واخشوا الناس واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً. فاستجابوا لها وأطاعوا .. وصلى الله على محمد وآله الذي خاطب ربه بقوله : إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي .

(ولا تحسبن ابن أبيك الخ) .. حريصاً على حياته . كيف وقد طلق الدنيا ثلاثاً ؟. انه يحرص على شيء واحد فقط ، هو جهاد الباطل،والموت على الحق.. بهذه الروح وحدها تتقدم الانسانية ، ويعيش الناس حياة أفضل . وأية جدوى من المصانع اذا أسست على الاستغلال والضلال ، وبنيت على البغي والعدوان ؟. إن مصانع الأسلحة في القرن العشرين استنزفت خيرات الأرض والسماء ، وابتلعت أقوات العباد في شرق الأرض وغربها ، وحوّلت أصحابها الى كائنات أشد ضراوة من الحيوان المفترس ، وأكثر خبثاً في الشر والفساد ، وأعظم تخريباً وتقتيلاً وتشريداً للآمنين .

الرسالة

-٣٦-

الى معاوية :

فَسُبْحَانَ اللهِ مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلأَهْوَاءِ ٱلْمُبْتَدَعَةِ وَٱلْحَيْرَةِ ٱلْمُتْعِبَةِ ، مَعَ تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ وَاطِّرَاحِ ٱلْوَثَائِقِ الَّتِي هِيَ لِلهِ طِلْبَةٌ ، وَعَلى عِبَادِهِ حُجَّةٌ . فَأَمَّا إِكْثَارُكَ ٱلْحِجَاجَ فِي عُثْمَانَ وَقَتَلَتِهِ فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ ، وَالسَّلَامُ .

اللغة :

الطلبة : المطلوبة . والحجاج: الجدال .

المعنى :

(فسبحان الله ما أشد لزومك للأهواء الخ) .. الخطاب لمعاوية . وفيما سبق نقلنا عن المؤرخين والباحثين القدامى والجدد — ان معاوية خذل عثمان في حياته ، وطلب منه أن يجعله وليّ دمه ، وانه بعد أن تم له الأمر تجاهل عثمان ودم عثمان،

وانه كان يستقبل قتلته ويجيزهم بالأموال (أنظر كتاب معاوية للعقاد ص ١٥٠ الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٦) .

وقد جابه الإمام معاوية بهذه الحقيقة ، وقال له صراحة : (انما نصرتَ عثمان حيث كان النصر لك ، وخذلته حيث كان النصر له) . وفسّر الشيخ محمد عبده هذا بقوله : ان معاوية اتخذ من الانتصار لعثمان بعد موته ذريعة لجمع الناس الى غرضه ، وخذل عثمان حين كان النصر يفيده .

ونقل ابن أبي الحديد في شرح هذه الرسالة عن البلاذري ما نصه بالحرف : « لما أرسل عثمان الى معاوية يستمده بعث معاوية يزيد بن أسد القسري ، وقال له : اذا أتيت ذا خشب فأقمْ بها ، ولا تتجاوزها ، ولا تقل : الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فإنني أنا الشاهد وأنت الغائب . فأقام يزيد بذي خشب حتّى قتل عثمان ، فاستقدمه حينئذ معاوية ، فعاد الى الشام بالجيش الذي كان أرسله معاوية معه ، وانما صنع ذلك ليُقتل عثمان فيدعو الى نفسه » . وكل الشواهد من سيرة معاوية تنطق بصحة هذه الرواية .

الرسائل

- ٣٧ -

الى مالك الأشتر :

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لِلهِ حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ وَذُهِبَ بِحَقِّهِ ، فَضَرَبَ الْجَوْرُ سُرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ وَالْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ ، فَلَا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاحُ إِلَيْهِ ، وَلَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ . أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْداً مِنْ عِبَادِ اللهِ لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ ، وَلَا يَنْكُلُ عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ . أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقَّ فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ لَا كَلِيلُ الظُّبَةِ وَلَا نَابِي الضَّرِيبَةِ ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا ، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا ، فَإِنَّهُ لَا يُقْدِمُ وَلَا يُحْجِمُ وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي ، وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ .

اللغة :

السرادق : الخيمة . والمراد بيستراح اليه هنا يعمل به . ولا ينكل : لا يرجع. والروع : الخوف . والظبة : حد السيف . ونبا السيف : لم يؤثر في المضروب . والضريبة : المضروب . والمراد بالشكيمة هنا شدة البأس .

الإعراب :

أشد صفة لعبد ، وأخو مذحج بدل من مالك .

المعنى :

كان عبدالله بن سعد بن أبي السّرح أخاً لعثمان من الرضاعة ، وممن كتب الوحي لرسول الله (ص) وكان يحاول أن يحرّف ما يُملى عليه ، ولكن الله سبحانه فضحه وكشف أمره ، وأنزل فيه ، كما في تفسير الطبري وغيره : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً — ٩٣ الانعام » . فارتد مشركاً ، ولما كان يوم الفتح أمر النبي (ص) بقتله وقتل ابن خطل ومقيس بن صبابة ولو وُجدوا تحت أستار الكعبة .

فغيب عثمان أخاه من الرضاعة ، ثم طلب له الأمان من رسول الله (ص) فأعرض عنه ، فكرر عثمان الطلب ثلاث مرات . فقال النبي : نعم . وكان ابن أبي السرح حاضراً مع عثمان . فلما انصرف عثمان قال النبي لمن حوله : ما سكتُّ « أولاً وثانياً » إلا ليقوم اليه بعضكم فيضرب عنقه . فقال رجل من الأنصار : هلا أومأت إليّ يا رسول الله ؟ فقال : ان النبي لا ينبغي أن يكون له خائنة الأعين (انظر السيرة لابن هشام والاستيعاب لابن عبد البر) .

وحين انتهت الخلافة لعثمان ولّى ابن أبي السرح مصر فأفسد وظلم ، فثار جماعة من المصريين، وطالبوا أن يستبدله بأمين على العدل والدين وحقوق المسلمين وبهذا نجد تفسير قول الإمام عن أهل مصر : (الذين غضبوا لله حين عُصي في أرضه الخ) .. والمراد بالعاصي المقيم على المنكر والظاعن عن المعروف هو عامل عثمان أي ابن أبي السرح الذي كان السبب في ثورة المصريين على الخليفة المقتول.

(فقد بعثت اليكم — يا أهل مصر — عبداً من عباد الله الخ) .. وهو مالك الأشتر المعروف بحزمه وشجاعته ، وقوته في دينه وايمانــه ، وإخلاصه في أقواله وأفعاله ، ورجاحة عقله وحسن تدبيره (فاسمعوا له ، وأطيعوا أمــره فيما طابق الحق ، فإنه سيف من سيوف الله الخ) .. قال ابن أبي الحديد : « هذا لقب خالد بن الوليد ، واختُلف في الذي لقبه به ، فقيل رسول الله (ص). والصحيح ان أبا بكر هو الذي لقبه بذلك لقتاله أهل الردة » . ويؤيد ما صححه ابن أبي الحديد قول المؤرخين ، ومنهم ابن الأثير في المجلد الثاني من « الكامل » : إن خالداً لما قتل مالك بن نويرة وتزوج امرأته غضب عمر ، وقال لخالد : قتلت مسلماً ، ثم نزوت على امرأته ! والله لأرجمنك . وألح على أبي بكر أن يقيد خالداً بمالك . فقال أبو بكر : تأول خالد فأخطأ ، ولا أغمد سيفاً سلّه الله على الكافرين . واذن فسبب التسمية قتاله لأهل الردة بعد رسول الله (ص) .

الرسالة

-٣٨-

الى ابن العاص :

فَإِنَّكَ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا ٱمْرِىءٍ ظَاهِرٍ غَيُّـــهُ مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ ، يَشِينُ ٱلْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ وَيُسَفِّهُ ٱلْحَلِيمَ بِخُلْطَتِـهِ ، فَاتَّبَعْتَ أَثَرَهُ وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ ٱتِّبَاعَ ٱلْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ يَلُوذُ إِلَى مَخَالِبِهِ وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَتِهِ ، فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ ، وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ . فَإِنْ يُمَكِّنِّي اللهُ مِنْكَ وَمِنَ ٱبْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا ، وَإِنْ تُعْجِزَا وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا .

اللغة :

يشين : يعيب . ويسفّه : ينسبه الى السفه . وبخلطته : بملّغوه . والضرغام: الأسد . والمخالب : الأظفار .

الإعراب :

غيه فاعل ظاهر ، وستّره نائب فاعل لمهتوك ، واتباع مفعول مطلق لاتبعت.

المعنى :

(فإنك قد جعلت دينك تبعاً لدنيا امرىء ظاهر غيه ، مهتـوك ستّره) . الخطاب لابن العاص الذي باع دينه بولاية مصر ، والمرء الـذي ظهر ضلاله ، وافتضحت أحواله هو معاوية .. وروى العقاد في آخر كتاب عثمان : ان أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت اليه الخلافة ، وقال له : « قد صارت اليك بعد تيم وعديّ – أي بعد أبي بكر وعمر – فأدرها كالكرة ، واجعل أوتادها بني أمية ، فإنما هو الملك ، ولا أدري ما جنة ولا نار » .

وأخذ معاوية بمبدأ أبيه « إنما هو الملك » وفي ذلك يقول العقـاد في آخر كتاب معاوية : أراد معاوية الملك له ولبنيه .. وعرف الناس في زمانه الفرق بين الوالي الذي يتخذ الحكم خدمة للرعية ، وأمانة للخلق والخالق ، وبين الحكم الذي يحاط بالأبهة ، ويجري على المساومة ، ويحقق لصاحبه البذخ والمتعة .. وكان الناصح المخلص من المسلمين يسلم عليه بالمُلك ، ولا يسلم عليـه بالخلافة انكاراً لفعله . فيقول : نعم أنا أول ملك .. وتحولت الخلافة الى الهرقلية والكسروية ، وتبعـه من جاء من بعده .

(يشين الكريم الخ) .. ومن ذلك إعلانه سبّ الإمام وجعله سُنّة ينشأ عليها الصغير ، ويشيب الكبير (فأذهبت دنياك وآخرتك) . المراد بدنياك ما قدر الله سبحانه لابن العاص من رزقه الحلال ، ولكنه رفض هذا الرزق الطيب ، وآثر عليه رزق معاوية الخبيث المحرم ، فخسر دنيا الحلال ، والنجاة في الآخرة (ولو بالحق أخذت أدركت ما طلبت) . انك تطلب العزة والمكانة ، وهي في متناول يدك ، وما عليك إلا أن تتقي الله ، وتناصر الحق وتعمل به . ومن اعتز بغير الحق فهو ذليل ، ولا عز أعز من التقوى ، ولا كنز أغنى من القناعة : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون – ٨ المنافقون » . أو يعلمون ولكنهم آثروا طاعة الشيطان ، واتخذوه من دون الله ولياً .

(فإن يمكنّي الله منك ومن ابن أبي سفيان الخ) .. قال ابن أبي الحديد : وفي غالب ظني ان الإمام لو ظفر بهما لم يقتلها،لأنه كريم حليم ، ولكن يحبسهما حسماً لمادة الفساد » . وليس من شك ان الإمام يعفو ويصفح عن حقه المختص به أياً كان ، فلقد أوصى بقاتله خيراً ، وقال لأهله : أطيبوا طعامه ، وألينوا فراشه ، وان تعفوا أقرب للتقوى . أما حق الله والناس فلا هوادة فيه لأحد عند الإمام ولا شفيع (وان تعجزاني) أي ان عجزت عنكما فإن مصيركما الى النار، وعدها الله لكل فاجر كافر .

الرسالة

- ٣٩ -

الى بعض عماله :

أَمّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ رَبَّكَ وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ . بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ ، فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ .

المعنى :

لم يذكر بعض الشارحين هذه الرسالة ، أو يشر اليها ، والشريف الرضي قال: الى بعض عماله ، وابن أبي الحديد اكتفى بنقل طرف من الأقوال والنوادر عن الولاة والقضاة ، منها ان رجلاً أهدى سراجاً للمغيرة بن شعبة ، وأهداه آخر بغلاً ، ثم ترافعا لديه في خصومة ، فجعل صاحب السراج يقول : ان حقي أوضح من ضوء السراج ، فلما أكثر قال له المغيرة : ان البغل يرمح السراج فيكسره .

وقال الشيخ محمد عبده : ان العامل المقصود بهذه الرسالة هو نفس العامــل الذي عناه الإمام بالرسالة التالية بلا فاصل أي عبدالله بن عباس كما يأتي (وأخزيت أمانتك) أي أفسدتها ، والمعنى كنت عندنا أميناً ، وصرت الآن خائناً لا نأتمنك على شيء (بلغني انك جردت الأرض) جعلتها خالية جرداء بعد أن أخذت ما في بيت المال ، أو أكلت خيراتها وجعلتها خراباً يباباً تماماً كما يفعل الجراد .

الرسالة

- ٤٠ -

قلبت لابن عمك ظهر المجن فقرة ١ - ٢ :

أمّا بَعْدُ فإنّي كُنْتُ أشْرَكْتُكَ في أمانَتي ، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي ، وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ مِنْ أهْلِي أوْثَقَ مِنْكَ في نَفْسِي لِمُوَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي ، وَأدَاءِ الْأمَانَةِ إلَيَّ . فَلَمَّا رَأيْتَ الزَّمَانَ عَلى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ ، وَأمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزِيَتْ ، وَهٰذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فَنَكَتْ وَشَغَرَتْ قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ الْمِجَنِّ فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ . فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ ، وَلَا الْأمَانَةَ أدَّيْتَ[1] . وَكَأنَّكَ لَمْ تَكُنِ اللهَ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ . وَكَأنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، وَكَأنَّكَ إنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هٰذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ وَتَنْوِي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ . فَلَمَّا أمْكَنَتْكَ الشِّدَّةُ

فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكَرَّةَ ، وَعَاجَلْتَ الْوَثْبَةَ ، وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمُ اخْتِطَافَ الذِّئْبِ الْأَزَلِّ دَامِيَةَ الْمِعْزَى الْكَسِيرَةِ ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحَمْلِهِ غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ كَأَنَّكَ ــ لَا أَبَا لِغَيْرِكَ ــ حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثاً مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ . فَسُبْحَانَ اللهِ ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ ؟ أَوَ مَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ(٢) ؟

اللغة :

الشعار : الثوب الملتصق بالجسم . وبطانتي : خاصتي . والمواساة : التسوية بالنفس . والمؤازرة : المناصرة . وكلب الزمان : اشتد . وحرب العدو ــ بكسر الراء ــ استأسد . وفنكتْ : كذبت . وشغرت : خليت . والمجن : الترس . وآسيت : ساعدت . وغرتهم : غفلتهم . والشدة : القدرة . والذئب الأزل : سريع العدو . والكسيرة : مكسورة القائمة يدها أو رجلها . وغير متأثم : غير مبالٍ باقتراف الذنوب والآثام . وحدرت : أسرعت .

الإعراب :

ابن عمك مفعول آسيت ، ورحيب حال من تاء المخاطب في حملته ، وكذلك غير متأثم ، ولا أبا « لا » نافية للجنس ، وأبا اسمها ، أُشبعت الفتحة فصارت ألفاً ، ولغيرك خبر ، ويقال هذا للتوبيخ مع التحامي من الدعاء على المخاطب .

المعنى :

أكثر الباحثين أو الكثير منهم قالوا : ان هذه الرسالة كتبها الإمام لابن عمه

عبدالله بن عبّاس ، وكان قد اختاره لولاية البصرة ، ولما اغتصب معاوية مصر ، وقتل عاملها محمـــد بن أبي بكر خشي ابن عباس — كما نتصور — أن يطمع معاوية في البصرة ، ويمثل فيها نفس الدور الذي مثله في مصر ، ويكون مصير عاملها كمصير ابن أبي بكر .. فأخذ ما في بيت المال وتوجه الى مكة وقال : « سلامات يا رأس » ويومىء الى ذلك قول الإمام : (فلما رأيت الزمان عـــلى ابن عمك قد كلب والعدو قد حرب .. قلبت لابن عمك ظهر المجن) . وهذه الكلمة تقال لمن كان سلماً لأخيه ثم صار حرباً عليه .

وابن عبّاس حبر وبحر علماً وفهماً ، ما في ذلك ريب ، ولكنه غير معصوم، وحياة العامل للإمام هي حياة الزهد والحرمان من أكل المال بالباطل ، والحساب العسير على الدرهم فما دونه .. ولا يطيق هذا إلا معصوم أو شبيه بالمعصوم بخاصة ان عمال معاوية غارقون الى الآذان في الترف والنعيم .. وكلنا يعلم أن ابن عباس قطع شوطاً بعيداً مع الإمام ، وجاهد بين يديه جهـــاداً عظيماً ، وان له مواقف في نصرة الحق وأهله ومحاربة الباطل وأنصاره — يشكرها له الله ورسولـــه ، بل ان الله سبحانه قـــد استخلصه هو ونفر في عصره لا يتجاوزون عدد الأصابع ، استخلصهم لإعـــلان الحق على الملأ ، وإذاعته والدعوة سراً وجهراً لحـــياة الدين وعصمة المؤمنين لا يبتغون جزاء ولا شكوراً إلا الوسيلة الى الله ورحمته والنجاة من من غضبه وعذابه .

(أما بعد ، فإني كنت أشركتك في أمانتي الخ) .. ان الله سبحانـــه جعلني أميناً على مصالح عباده ، واخترتك شريكاً ومساعداً لي على اداء هذه الأمانة حين جعلتك والياً على البصرة (ولم يكن رجل من أهلي الـــخ) .. وثقت بك دون الأقارب والأرحام ، لأنك كنت لي سنداً وعضداً وفياً بعهدي وأميناً عـــلى سري (فلما رأيت الزمان — الى — أديت) . كنت بي باراً ولي مطيعاً ، ثم عصيت وجفوت لما جفاني الدهر ، فهل تريد أن تكون له عوناً على أقرب الناس اليك، وأكثرهم رأفة ورحمة بك ؟.

(وكأنك لم تكن — الى — الكسيرة) . ان عملك يشبه عمل الجاهلين بدين الله ، أو عمل المرائين الذين يرتقبون الفرصة حتى إذا سنحت وثبوا وغدروا تماماً كما يثب الذئب على فريسة لا خلاص لها منه ولا فرار (فحملته الى الحجاز الخ)..

أخذت مال المسلمين تتنعم به في بلدك أنت وأهلك كأنك جنيتـــه بكد يمينك ، أو ورثته من قريبك !. فأين خوفك من الله وحسابه يوم العذاب الأكبر .

ينادي الظالم بالحسرة .. فقرة ٣ — ٤ :

أَيُّهَا ٱلْمَعْدُودُ كَانَ عِنْدَنَا مِنْ ذَوِي ٱلْأَلْبَابِ كَيْفَ تُسِيغُ شَرَاباً وَطَعَاماً وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَاماً وَتَشْرَبُ حَرَاماً ؟ وَتَبْتَاعُ ٱلْإِمَـــاءَ وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ مَـــالِ ٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُجَاهِدِينَ ٱلَّذِينَ أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ هٰذِهِ ٱلْأَمْوَالَ وَأَحْرَزَ بِهِمْ هٰذِهِ ٱلْبِلَادَ . فَـاتَّقِ اللهَ وَارْدُدْ إِلَى هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي اللهُ مِنْكَ لَأُعْذِرَنَّ إِلَى اللهِ فِيكَ ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي ٱلَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَداً إِلا دَخَلَ النَّارَ[٣] . وَوَاللهِ لَوْ أَنَّ ٱلْحَسَنَ وَٱلْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ ٱلَّذِي فَعَلْتَ مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْـدِي هَوَادَةٌ وَلَا ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادَةٍ حَتَّى آخُـــذَ ٱلْحَقَّ مِنْهُمَا وَأُزِيحَ ٱلْبَـاطِلَ مِنْ مَظْلَمَتِهِمَا . وَأُقْسِمُ بِاللهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي أَتْرُكُهُ مِيرَاثاً لِمَنْ بَعْدِي . فَضَحِّ رُوَيْداً فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ ٱلْمَدَى وَدُفِنْتَ تَحْـــتَ الثَّرَى وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ ٱلَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ ، وَيَتَمَنَّى ٱلْمُضَيِّعُ الرَّجْعَةَ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ[٤] .

اللغة :

تُسيغ شراباً : تبلعه ويسهل عليك شربه . وأفاء المال عليه : جعله غنيمة له .

والهوادة : اللين والرفق . وضح : من ضحى الغنم إذا رعاها في الضحى، والمراد الأمر بالأناة . والمدى : الغاية . والمناص: المفر .

الإعراب :

كان عندنا « كان » زائــدة دلت على الزمان الماضي وكفى ، وكيف تسيغ « كيف » حـال ، والمصدر من أن الحسن والحسين فاعل لفعل محذوف أي لو ثبت كون الحسن والحسين ، ومثل مفعول مطلق أو صفة لمفعول مطلق محذوف أي فعلاً مثل الذي فعلت ، وحين اسم لات ، وخبرها محذوف أي ولات حين مناص كائن .

المعنى :

(أيها المعدود كان عندنا من أولي الألباب) . هذا تعبير ثان عن قولـه المتقدم : ولم يكن رجل من أهلي أوثق منك في نفسي (كيف تسيغ شراباً – الى – البلاد) . ان المال الذي انتهبته ليس لك ولأبيك « انه للأرامل والأيتام، والفقراء والمساكين ، والمجاهدين من أجل الإسلام ، والمرابطين في ثغور المسلمين يدافعون عنها بسلاحهم وأرواحهم ، فكيف تتصرف به ، وتنفقه عـلى طعامك وشرابك وخدمك ونسائك (فاتق الله واردد الخ) .. الأموال الى أهلها وإلا أدبتك بما تستحق (ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا دخل النـار) لأني لا أشهره إلا على من أشرك وبغى ، ولا أضرب به إلا من أفسد وطغى .

(ووالله لو أن الحسن والحسين الخ) .. أبداً لا فرق في الحق بـين قريب وبعيد وسيد ومسود ، فهذا سيد الكونين وخاتم النبيين حين أحس بدنو أجله قام خطيباً وقال : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ، ولا يخشى الشحناء من قبلي فإنها ليست من شأني » . وقال : لو سرقت فاطمـةُ لقطعت يدها . وليس هذا تواضعاً وكفى ، وإنمـا هو خلق الإسلام ، وشريعة القرآن ، وبه وحده نجد تفسير صلابة الإمام في الحق، والتزامه به ، وحملَه أهله وعماله عليه .

(واقسم بالله رب العالمين ما يسرني – الى – بعدي) . كان الإيثـار أبرز صفات الإمام ، ينفق على المحاويج معظم ما يملك حتى الذي يجنيه بكد اليمين ، ولا يُبقي لنفسه وأهله إلا دون الكفاف عملاً بسنّة رسول الله الذي قال : « ما أحب أن يكون لي مثل أحُد ذهباً أنفقه في سبيل الله،أموت وأترك منه قيراطين». هذا وهو حلال طيب ، فكيف به إذا كان ناراً وجحيماً ، كالمال الذي أخـذه هــذا العامل يتنعم به ويترك ما تبقى ميراثاً لأبنائه ؟ (فضح رويداً الخ) .. تمهل وانتظر .. فأمامك قبر ساكن مظلم ، والحساب صعب عسير ، وما للظالمين من فرار وأنصار .

الرسالة

- ٤١ -

الى عمر المخزومي :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي قَــدْ وَلَّيْتُ النعمَانَ بْنَ عَجْلَانَ الزُّرَقِيَّ عَلى ٱلبَحْرَيْنِ ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلَا ذَمٍّ لَكَ وَلَا تَثْرِيبَ عَلَيْكَ . فَلَقَدْ أَحسَنْتَ ٱلوِلَايَةَ وَأَدَّيْتَ ٱلأَمَانَةَ . فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ وَلَا مَلُومٍ وَلَا مُتَّهَمٍ وَلَا مَأْثُومٍ . فَقَدْ أَرَدْتُ ٱلمَسِيرَ إِلَى ظَلَمَةِ أَهْلِ الشَّامِ وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِي فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلى جِهَادِ ٱلعَدُوِّ وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ إِنْ شَاءَ اللهُ .

اللغة :

لا تثريب : لا لوم . والظنين : المتهم . والمأثوم : المذنب . وأستظهر : أستعين.

الإعراب :

غير حال من فاعل اقبل ، والمصدر من أن تشهد مفعول أحببت .

المعنى :

هذه الرسالة لا تحتاج الى شرح وتفسير بخاصة بعد أن ذكرنا مفرداتها في فقرة اللغة ، وهي رسالة شخصية لا شيء فيها من المبادىء العامة ، وتتلخص بأن عمر ابن أبي سلمة كان والياً للإمام على البحرين ، فاستبدله بنعمان بن عجلان لحاجته اليه في حرب معاوية ، لأنه يعتمد عليه في نصرة الحق والدين . بقي أن نشير إلى التعريف بعمر ونعمان ، والأول هو ربيب رسول الله (ص) حيث تزوج بأمه بعد موت أبيه أبي سلمة . وقد ولد في الحبشة السنة الثانية من الهجرة ، ومات في خلافة عبد الملك بن مروان، والثاني من الأنصار ، وقبيلته بنو زريق، وكان من الشعراء ، ومن خاصة علي وشيعته ، وصرح بذلك في شعره ، ومنه :

وان هوانا في علي وانه لأهل لها من حيث يدري ولا يدري

وضمير لها يعود الى الخلافة ، وقوله : من حيث يدري ولا يدري معناه نحن نحب علياً ونهواه، ولا يهمنا أن يعرف هو ذلك ما دامت محبتنا له خالصة لوجه الله.

فهرست

مَطْبَعَةُ العُلُومِ
حَارة حُرَيك - لبنان